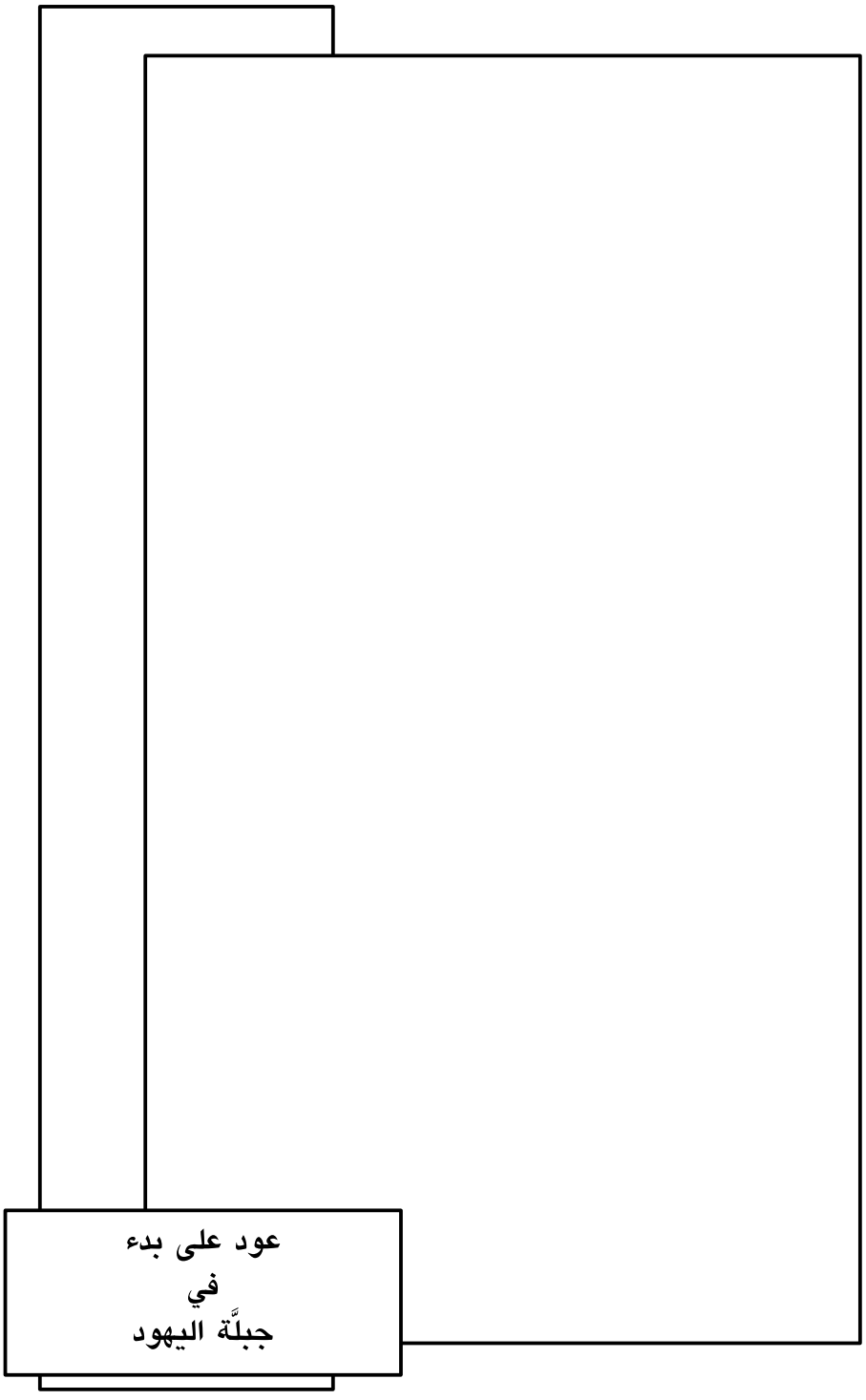
عود على بدء
في
جبلَّة اليهود

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾

[البقرة: ٢٦٩].

عود على بدء
في
جبلة اليهود

اللواء ركن (م) السيد
يوسف بن عبدالله جمل الليل

تقريظ
سماحة الشيخ/ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز
رحمه الله

المجلد الثاني

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

قال الله عزّ من قائل في كتابه العزيز:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

أي: ولن يزول غضب اليهود والنصارى وبغضهم لك أيها النبيّ الكريم والرسول العظيم ولن يرضوا عنك حتى تتبع ملتهم، أي: حتى تترك دينك الحق وتتبع هواهم وباطلهم، والملة: الدين والمذهب، سواء كان حقاً أو باطلاً، ولذلك عبّر الله تبارك وتعالى عن ملّة اليهود والنصارى بأنها أهواء، وأن دين الله الذي بعث به محمداً ﷺ هو الدين الحق، وهو سبيل الرشاد، وهو الذي يصلح أن يسمى هدى وما سواه فهو ضلال، والذي عليه اليهود والنصارى ليس هدى وإنما هو هوى، وليس بعد الحق إلا الضلال.

والمقصود من هذا الوعيد هو التهديد لمن أطاع اليهود أو النصارى في مذاهبهم الزائفة الباطلة، وتوجيه الخطاب بهذا لرسول الله ﷺ المعصوم من الهوى والزيغ، الذي صانه الله من كل إثم وعصمه من كل خطيئة، واصطفاه لرسالته وأمّنه على وحيه وفضّله على سائر خلقه[1].

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾، أي: قل يا محمد: إن هدى الله

(١) تهذيب التفسير وتجريد التأويل، لعبدالقادر بن شيبة الحمد ج١ ص٢٦٢ ـ ٢٦٣.

الذي بعثني به هو الهدى، يعني هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل، قال قتادة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾، قال: خصومة علّمها الله محمداً ﷺ وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة، قال قتادة: وبلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله**»[١]. متفق عليه عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما. ذكره ابن كثير[٢].

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ...﴾ الآية. فيه تهديد ووعيد شديد للأمة، عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنّة، عياذاً بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول ﷺ والأمر لأمته، وقد استدل كثير من الفقهاء بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ حيث أفرد الملّة على أن الكفر كله ملّة واحدة في مقابل ملّة الإسلام، ومثله قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾، وعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكفار، وكل منهم يرث قرينه، سواء كان من أهل دينه أم لا، لأنهم كلهم ملّة واحدة، وهذا مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد في رواية عنه، وقال في الرواية الأخرى كقول مالك، إنه لا يتوارث أهل ملّتين شتى كما في الحديث[٣] والله أعلم، ورد العلم إلى الله أسلم.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ج١ ص٥١٧.
(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ج١ ص٢٨٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ج١ ص٢٨٦.

الفصل السابع
نبينا محمد بن عبدالله
خاتم الأنبياء والرسل ﷺ

حالة العرب قبل مولد سيدنا محمد ﷺ

كان العالم الإنساني قاطبة والعالم العربي بصورة خاصة يعيش في دياجير ظلام الظلم والجهل، وظلمات الطغيان والاستبداد. ويؤكد هذه الحقيقة قول رسول الله ﷺ ضمن خطبة له: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم جميعاً، إلا بقايا من أهل الكتاب**». إن الأوضاع المتدهورة في ديار العروبة قاطبة في حاجة إلى فجر النبوة المحمدية لتبديد تلك الظُّلَم المتراكمة، والتي ستغمر الكون من ورائها هدايةً ونوراً. فالحالة السياسية في بلاد العرب هو أن بلاد العرب وهي شبه جزيرة لوقوعها بين ثلاثة أبحر: الأحمر غرباً، والهندي جنوباً، والخليج العربي شرقاً من المناطق السياسية ذات الأثر على الحياة الاجتماعية. ففي اليمن حيث ملوك حمير، والحيرة شرقاً إلى العراق حيث المناذرة، والشمال حيث الغساسنة. أما الوسط فهي الحجاز ونجد وتهامة فإنه دائرة المجد، فأرض حماها مولاها من سطوة الجبابرة وسياسة المتاجرة. فلم تصل إليها يد الأحباش ولا يد الفرس ولا يد الروم، لأنها مشرق الأنوار، والعدنانيون هم سكان مكة وما حولها. ووسط الجزيرة حيث الحرم وما جاوره من ديار العرب

العدنانيين كان مستقلاً كرامة من الله تعالى لحرمه وسكانه وجيرانه. وحتى عهد الاستعمار الغربي الذي حكم العالم العربي، فإنه لم يحكم هذه الديار الطاهرة كرامة من الله، لحرمه وحرم حبيبه ﷺ وسكانهما وجيرانهما[١].

الحالة الدينية وما كان عليه أهل الجاهلية قبل مبعث رسول الله ﷺ: قال قتادة: ذكر لنا، أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الهدي وعلى شريعة من الحق، ثم اختلفوا بعد ذلك، فبعث الله نوحاً عليه السلام. وكان أول رسول إلى أهل الأرض. قال ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣]، قال: على الإسلام كلهم. وكان أول ما كادهم به الشيطان: هو تعظيم الصالحين، وذكر الله ذلك في كتابه في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]. قال ابن عباس: كان هؤلاء قوماً صالحين، فلما ماتوا في شهر جزع عليهم أقاربهم، فصوّروا صورهم. وفي غير حديثه: «قال أصحابهم: لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة»، قال: فكان الرجل يأتي أخاه وابن عمه فيعظمه، حتى ذهب ذلك القرن، ثم جاء قرن آخر، فعظّموهم أشد من الأول، ثم جاء في القرن الثالث، فقالوا: ما عظم أولنا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله، فعبدوهم. فلما بعث الله إليهم نوحاً وغرق من غرق أهبط الماء هذه الأصنام من أرض إلى أرض، حتى قذفها إلى أرض جدة، فلما نضب الماء بقيت على الشط، فسفت الريح عليها التراب، حتى وارتها.

وكان عمرو بن لحي سيد خزاعة كاهناً وله رئي من الجن فأتاه، فقال: «عجِّل السير والظعن من تهامة، ائتِ جُدة، تجد أصناماً مُعَدَّة، فأورِدْهَا تهامة ولا تهب، وادْعُ العرب إلى عبادتها تُجَب»، فأتى جدة فاستثارها، ثم حملها

(١) هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب، أبو بكر الجزائري ص٢٤ ـ ٢٧.

حتى أوردها تهامة. فحضر الحج، فدعا العرب إلى عبادتها، فأجابه عوف بن عزرة، فدفع إليه «وداً» فحمله. فكان بوادي القرى بدومة الجندل، وسمي ابنه: عبد ود، وهو أول مَن سمي به. وأجابت عمرو بن لحي مضر بن نزار. فدفع إلى رجل من هذيل «سواعاً»، فكان بأرض يقال لها: وهاط، من بطن نخلة. يعبده من يليه من مضر. وفي ذلك قيل:

تراهم حول قبلتهم عكوفاً كما عكفت هُذَيلُ على سُوَاعِ

وأجابته مذحج، فدفع إلى نعيم بن عمر المرادي «يغوث»، وكان بأكمة باليمن تعبده مذحج ومَن والاها. وأجابته همدان، فدفع إليهم «يعوق»، فكان بقرية يقال لها: خيوان، تعبده همدان ومَن والاها من اليمن. وأجابته حمير، فدفع إليهم «نسراً» فكان بموضع بسبأ، تعبده حمير ومن والاها. ومن أقدم أصنامهم «مناة» وكان منصوباً على ساحل البحر الأحمر من ناحية المشلشل بقديد بين مكة والمدينة. وكانت العرب تعظمه قاطبة، ولم يكن أحد أشد تعظيماً له من الأوس والخزرج، وبسبب ذلك أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: ١٥٨]. ثم اتخذوا «اللات» في الطائف، قيل: إن أصل ذلك رجل كان يلُت السويق للحجاج، فمات فعكفوا على قبره، وكان صخرة مربّعة، وكان سدنتها ثقيف. ثم اتخذوا «العزى» وهي أحدث من اللات، وكانت بوادي نخلة، فوق ذات عرق، وبنوا عليها بيتاً، وكانت قريش تعظمها. وكان لخثعم وبجيلة صنم يقال له: «ذو الخلصة» بين مكة والمدينة. وكان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان صنم في مشارف الشام. وكان لأهل كل واد بمكة صنم، إذا أراد أحدهم سفراً كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به.

قال ابن إسحاق: وكان لخولان صنم يقال له: «عم أنس»، وفيهم أنزل الله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى

ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦]. وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها. وأعظمها «هبل» وكان من عقيق أحمر على صورة الإنسان. وكانوا إذا اختصموا أو أرادوا سفراً أتوه، فاستقسموا بالقداح عنه. وكان لهم «إساف ونائلة» قيل: أصلها: إن إسافاً رجل من جرهم، ونائلة امرأة منهم، فدخلا البيت، ففجر بها فيه فمسخهما الله فيه حجرين، فأخرجوهما فوضعوهما ليتعظ بهما الناس، فلما طال الأمد عبدت الأصنام. وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة «طواغيت» وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة. إضافة إلى وجود ثلاثمائة وستين صنماً حول البيت. وكان أهل الجاهلية على ذلك، فيهم بقايا من دين إبراهيم، مثل: تعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة، والوقوف بعرفة ومزدلفة، وإهداء البُدن. وكانت نزار تقول في إهلالها: «لبيك اللَّهمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»، فأنزل الله: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الروم: ٢٨]. وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، فكان أول مَن سيَّب السوائب، وغيَّر دين إبراهيم، ونصب الأوثان**»[(١)].

لقد كان العرب في الجاهلية يسيطر عليها مفهوم القبيلة، وله الصدارة أكثر من أي مفهوم آخر. فالقبيلة كانت بالنسبة للعربي هي الوطن والأمة التي لا يشعر بأي انتماء إلا إليها. بها يفتخر، وفي كنفها يشعر بكيانه، ومن قوتها يستمد الإحساس بالأمن والطمأنينة. كما أن القبيلة كانت تتجزأ إلى أُسر كبيرة تسمى بطوناً. وغالباً ما كانت بطون القبيلة الواحدة تتنازع فيما بينها لكنها لا تلبث أن تبعد عنها أسباب النزاع عندما تشعر بأن هناك خطراً خارجياً يتهدد مصلحة أبناء القبيلة كلها. وهذا الخطر يتمثل بحرب تشنها

(١) مختصر سيرة الرسول ﷺ، الإمام محمد بن عبدالوهاب التميمي ص٦٧ ـ ٧٢.

إحدى القبائل على قبيلة أخرى بسبب تنازع على مصادر الكلأ أو الماء أو بقصد السلب والنهب والحصول على الغنائم، أو بقصد الأخذ بثأر قديم، فهذه الأسباب تحددها وتقدر خطورتها كل قبيلة تبعاً لمفاهيمها وتقاليدها الخاصة. ومن خلال هذه المفاهيم يستمد أفراد القبيلة مفهوم الخير والشر وجميع الاعتبارات التي تتكيف في نمط أعمالهم وسلوكهم وتصرفاتهم. وبما أن هذه الحروب كانت تحدث لأتفه الأسباب، فإن القبائل القليلة العدد التي كانت تشعر بأن قوتها ليست كافية في وجه القبائل الكثيرة العدد كانت تعقد أحلافاً دفاعية مع قبائل أخرى. وهكذا فإن الأوضاع السائدة آنذاك بين القبائل كانت أوضاعها مضطربة بحيث لم تكن تحكمها أية شريعة ولا تسيطر عليها أية دولة أو سلطة، بل تؤثر فيها جملة من الأحكام والتقاليد المتوارثة التي كانت تصب دائماً في مصلحة القوي، دون أن تأخذ أي اعتبار لكرامة وحقوق الأشخاص المستضعفين[1].

إن الفترة التي عاشتها الأمة العربية بدون وحي إلٰهي ولا مَن يحمل هدايته كانت طويلة جداً، وهي تلك التي كانت بين إسماعيل والنبيّ الخاتم ﷺ. فلذا نشأت في المجتمع العربي عادات سيئة للغاية، وأخرى حسنة للغاية إلا أنها قد أخفتها العادات السيئة. فمن جملة العادات السيئة التي هبطت بالمجتمع العربي قبل الإسلام هي: «القمار المعروف بالميسر، وشرب الخمر والاجتماع عليها والمباهاة بتعتيقها وغلاء ثمنها، ونكاح الاستبضاع وهو أن تحيض امرأة الرجل منهم فتطهر فيطلب لها أشراف الرجال وخيارهم نسباً وأدباً ليطؤها من أجل أن تنجب ولداً يرث صفات الكمال التي يحملها أولئك الواطئون لها، ووأدُ البنات وهو أن يدفن الرجل ابنته بعد ولادتها حيَّة في التراب خوف العار، وقتل الأولاد ذكوراً كانوا أو إناثاً وذلك عند وجود فقر وحالة مجاعة، وتبرُّج النساء بخروج المرأة كاشفة عن محاسنها، واتخاذ الحرائر من النساء الأخدان من الرجال وذلك بالاتصال بهم وتبادل الحب معهم سراً وهم أجانب عنهن، وإعلان الإماء

(١) الغزوات الكبرى ومعارك الفتح، عبدالكريم غزال ص١٥ ـ ١٧.

عن البغي بهن وذلك بأن تجعل إحداهن راية حمراء على باب منزلها لتعرف أنها بغي ويغشاها الرجال وتأخذ على ذلك أجراً، والعصبية القبلية وهي مبدأ «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، فجاء الإسلام فأمر بنصرة الأخ المسلم، إذ الأخوة المعتبرة هنا هي أخوة الإسلام ونصرته إذا كان مظلوماً بدفع الظلم عنه ونصرته، أما إذا كان ظالماً يمنعه من الظلم، وشن الغارات على بعضهم بعضاً للسلب والنهب، فإنه الامتهان تكبراً وأنفة». هذه معظم العادات السيئة التي كانت في المجتمع العربي قبل الإسلام وهي تحيل المجتمع إلى مجتمع هابط لا سعادة فيه.

وإزاء ذلك كانت هناك عادات حسنة مثل: «الصدق وهو صدق الحديث، وقري الضيف وهو إطعامه، والوفاء بالعهود وعدم نكثها، واحترام الجوار وتقرير مبدأ الحماية لمن طلبها، والصبر والتحمل حتى قالوا: «تجوع الحُرَّة ولا تأكل بثديها»، والشجاعة والنجدة والأنفة وعدم قبول الذل والمهانة واحترام الحرم والأشهر الحرم وتأمين الوافدين إلى الحرم، وتحريم نكاح الأمهات والبنات، واغتسالهم من الجنابة، والختان، وقطعهم يد السارق، والحج والعمرة.

وحيال هذه الأوضاع البائسة التي كان يعيشها العرب قبل مولد سيد الخلق وخاتم الأنبياء محمد بن عبدالله ﷺ. كان لا بد من تغير جذري لها، ولكثير من العادات والتقاليد والمفاهيم التي يسودها الجهل. وذلك بولادة عهد جديد يهيئه الله تعالى فيكون إيذاناً ببدء أعمال هداية لمسيرة الإنسانية الضالة، وانبلاج فجر جديد على العرب. فيؤمنون برسالة الحق ويحملون لواء الإيمان بالله، ويرفعون راية الحق والمساواة بين الناس جميعاً. فكان المؤشر لبزوغ فجر هذا العهد الجديد هو ولادة الرسول الخاتم متمم مكارم الأخلاق محمد بن عبدالله ﷺ[1].

❋ ❋ ❋ ❋

(١) هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب، أبو بكر الجزائري ص٢٩ ـ ٣٣.

النصرانية واليهودية في بلاد العرب

إن الدين الذي كان عليه العرب العدنانيون قبل الإسلام هو «الوثنية» وفيهم بقايا من دين إبراهيم عليه السلام. أما عن الديانة «النصرانية» فيروي ابن إسحاق حديث وهب بن منبه في دخول النصرانية إلى نجران فيقول: إن رجلاً يقال له: «فيمون» من أهل الشام كان على دين المسيح عليه السلام، وكان صالحاً ورزقه الله كرامات فأحبّه رجل من أهل البلاد يقال له: «صالح» ولازمه. وخرجا سوياً فدخلا بلاد العرب، فعدوا عليهما وباعوهما عبدين في مدينة نجران. وأهل نجران يومئذ على دين الوثنية، وكانت لهم نخلة يعبدونها فجعلوا لها عيداً سنوياً يأتونها فيه. واشترى «فيمون» أحد أشراف نجران، وكان «فيمون» إذا قام من الليل يتهجد أشرق له البيت نوراً. فعجب سيده من هذه الكرامة، فسأله عن دينه فأخبره بأنه على دين المسيح، وأعلمه أن ما عليه أهل نجران هو الباطل. وأن هذه النخلة لا تنفع ولا تضر، وأنه لو دعا الله تعالى عليها لأسقطها، وفعلاً دعا الله فعصفت بها عاصفة فاقتلعتها من جذورها. ولذلك آمن الرجل الشريف بدين المسيح، وتبعه آخرون. ثم بمرور الزمن طرأ عليهم ما طرأ من البدع والتحريف لدين المسيح حتى أصبحت نصرانية ضالة.

أما اليهودية فإنها لم تدم طويلاً في بلاد اليمن وسبب ذلك أن «تُبَّعاً ذا نواس» لما دخل المدينة خرج معه حبران من أحبار اليهود وهما اللذان دعواه إلى اليهودية فقبلها ودان بها. وعذب نصارى نجران عندما أبوا الدخول في دينه، فحفر لهم الأخاديد وأحرق عدداً كبيراً منهم بالنار ليرجعوا عن دينهم فلم يرجعوا، قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾ [البروج: ٤ ـ ٩]. وانتهى ملك «تبَّع ذا نواس» بموته على يده «أرياط وأبرهة» الحبشيين، وهذه قصة النصرانية في نجران. إلا أن اليهودية كانت بشمال الجزيرة بفدك، وتيما، وخيبر، والمدينة، التي كانت

تسمى يثرب. وسبب دخول اليهود إلى الحجاز هو الضغط الذي أصابهم من ملوك الروم بعد «بختنصر» هذا من جهة، ومن جهة أخرى تَطلُّعُهم إلى المبشر به في «التوراة والإنجيل»، وأنه يخرج من جبال فاران، وأن مُهاجره يثرب ذات النخيل والأرض السبخة. فنزلوا ديار الحجاز الشمالية رجاء أن يبعث نبيّ آخر الزمان فيؤمنوا به ويقاتلوا أعداءهم ويسترد ملكهم المسلوب منهم من عدة قرون.

مع العلم أن اليهود كالنصارى قد فسدت معتقداتهم وضاعت شريعتهم تحت تأثير التأويل للنصوص وتحريفها وتغييرها وتبديلها لتوافي الأهواء والأطماع الخاصة والشهوات العارمة. فما أصبحت اليهودية ولا النصرانية تزكي النفوس ولا تصلح القلوب ولا تهذب الأخلاق بعد فسادها. فحاجة أهل الملتين إلى الإسلام كحاجة غيرهم من المجوس والوثنيين. وقد كان اليهود يستفتحون على مشركي العرب يقولون لهم: إن نبياً قد أظلّ زمانه ويوم يظهر نؤمن به ونقاتلكم معه[1]. نزل بقولهم هذا القرآن العظيم بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

يقول ابن خلدون في روايته: بنو قريظة وبنو النضير، الكاهنان من ولد الكوهن بن هارون عليه السلام، كانوا بنواحي يثرب بعد موت موسى عليه السلام، وقبل تفرق الأزد من اليمن بسيل العرم ونزلوا بسيل العرم، ونزل الأوس والخزرج يثرب. ونقل ذلك عن الأخفش بسنده إلى العماري وقال: ساكنو المدينة العماليق وكانوا أهل عدوان وملك الحجاز ما بين تيماء إلى فدك. وكان موسى عليه السلام قد بعث للعمالقة جيشاً من بني إسرائيل وأمرهم أن لا يبقوا أحداً فأبقوا ابناً للأرقم ضنُّوا به على القتل، فلما رجعوا بعد وفاة موسى عليه السلام وأخبروا بني إسرائيل بشأنه، فقالوا: هذه معصية لا تدخلوا علينا الشام فرجعوا إلى بلاد العمالقة ونزلوا المدينة، وكان هذا أولية سكنى

(١) هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب، أبو بكر الجزائري ص٤٤ ـ ٤٧.

اليهود بيثرب وانتشروا في نواحيها واتخذوا بها الأطام والمزارع. وظهر الروم على بني إسرائيل وقتلوهم وسبوا فخرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل هاربين إلى الحجاز. ومشى بعضهم إلى بعض في الفتنة كما كانوا يفعلون من قبل، وكان كل قوم من اليهود قد لجأوا إلى بطن من الأوس والخزرج يستنصرون بهم ويكونون لهم أحلافاً[١].

ومهما يكن من خلاف حول هذه البداية للجماعات الإسرائيلية اليهودية في تحديد بدء اتصالها بالأرض العربية، وخاصة منطقة شمال الحجاز التي ركز عليها ابن خلدون والذي لم يرَ كبيراً فيما نقله من أن يسوق خبر إرسال موسى وأخيه هارون عليهما السلام جنودهم لمحاربة الجبابرة. وما أشار إليه ابن خلدون إلى احتمال أن تكون الجماعات اليهودية منذ هذا العصر المبكر قد حلّت بالأرض العربية. هذا فضلاً عن أنه لم تكن هنالك عمليات تجمع يهودي في الجزيرة العربية في هذا التاريخ المبكر. وعند المحدثين من المؤرخين أنه لم تبدأ هذه العلاقة إلا بعد المراحل القاسية والتي أخذ فيها الرومان بعد سيطرتهم على العراق، وأنهم يقومون برد الفعل لما قام به اليهود من أساليب الوشاية والتآمر والخداع وخاصة بعد عصر المسيح عيسى عليه السلام ابتداء من عام ٧٠ ميلادية. مرحلة القائد الروماني «تيطس» الذي أخذ زمام المبادرة أمام حركة التمرد اليهودية. والمرحلة الثانية عصر القائد الروماني «هادريان» الذي أحرق لهم دعوى حائط المبكى وهيكل الرب. منذ هذه المرحلة في تقدير الفريق المخالف والمقرر لغير ما ذهب إليه ابن خلدون في سَوْق خبر البداية المبكرة لوجود الجماعات اليهودية في الأرض العربية.

كانت أرض العرب في عصر الإسلام في منطقة الحجاز مقسّمة بين نفوذ العرب ونفوذ اليهود. ففي بدء بعثة النبيّ ﷺ كانت قوة اليهود الاقتصادية كبيرة في شمال الحجاز. ولقد بلغت القوة اليهودية في السيطرة على شمال الحجاز ما تعادل به نفوذ وقوة قريش في جنوبه، وسيطرة قريش

(١) تاريخ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج٢ ص٤٢ ـ ٥٦.

تشمل جنوب الحجاز من المدينة حتى الطائف، وكذلك نفوذ اليهود يمتد من شمال الحجاز من المدينة وحتى تيماء. وأمام هذا النفوذ الممتد اقتصادياً بات في إمكانهم الانتشار لاستغلال مساحة كبيرة من الأرض يعملون على استثمارها. ولذا كان عليهم أن يقوموا بتحصين أماكن تجمعهم وإعدادها بالقوة العسكرية على أمل الاحتفاظ بما اكتسبوه حتى يمكن لهم دوام السيطرة والبقاء.

لقد تمّ كل ذلك في عام **١٣٥** ميلادية عندما قام القائد الروماني «هادريان» بتدمير معابدهم وحصونهم بعد أن قادوا من أعمال الاضطراب وإثارة الشغب على الدولة الرومانية، وحتى لا تقوم لهم قائمة في فلسطين. ومنذ هذا التاريخ اندفعت الأفواج اليهودية تقصد العديد من البلدان وتعيش بين الشعوب. يثرب وما يليها من الشمال. ثم حدث أن قام بين الأوس والخزرج ـ العناصر الأساسية من العرب ـ سكان مدينة يثرب مشكلة الزعامة، وفي حالات كثيرة كانت تتحول هذه المنافسات إلى نوع من الصدام المسلّح بينهم. ولما كان اليهود قد تمكنوا من أن يقوموا بتوزيع لتجمعاتهم داخل يثرب فقد واتتهم الفرصة حين كان يقوم الصراع بين الأوس والخزرج ويتحول إلى قتال. قام يهود «قينقاع» بعقد حلف مع الأوس وتقديم العون لهم، وقام يهود «بني قريظة وبني النضير» بعقد حلف مع الخزرج، لهدف أن يؤججوا نار البغضاء والعداوة بين العناصر العربية في يثرب.

واقتضى الصراع العربي بين عناصر التجمع في يثرب أن يقترض الأوس من يهود قينقاع، وأن يقترض الخزرج من يهود بني النضير وبني قريظة، فالقوى اليهودية لم تكن أكثر من ذلك، فقد أثقلوا الفريقين بالديون والالتزامات ومن خلال هذا الوضع السياسي الذي كانت عليه يثرب تحركت في صدور اليهود خصوصية الحقد الدفين في أعماقهم على كل من ليس بإسرائيلي. وهي خصوصية قديمة في أعماقهم لا تقنع أبداً بغير التدمير وسفك الدم كلما تؤاتيهم الظروف. ومن هنا فإن الحال الذي ساعدوا عليه عرب يثرب قبل البعثة المحمدية كانوا يحلمون به.

خاصة وأن الكهانة الدينية عندهم كانت تتداول الحديث عن قرب ظهور نبيّ يوشك أن يُبعث. وكانت بعض العناصر اليهودية تستغل مثل هذه الأفكار لتنطلق القوى اليهودية الكبرى التي تقتل لدى العربي إرادة الحياة الآمنة، ويقولون للعرب: إن نبياً قد أظلّ زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم[١].

❋ ❋ ❋ ❋

النسب الشريف لرسول الله ﷺ

إن الحديث عن العرب واجب لما لهم من شرف الأصل وطيب المحتد بأقسامهم الثلاثة: «العرب البائدة» الذين بادوا وهم «طسم وجديس» فقد قاتل بعضهم بعضاً حتى هلكوا جميعاً، و«عاد وثمود» فقد أصرُّوا على الشرك والتكذيب لرسوليهم هود وصالح عليهما السلام. و«العرب العاربة» وهم الأصلاء في نسبهم إلى يعرب بن يشجب بن قحطان، لذا يقال لهم: «القحطانيون»، وهؤلاء تفرقت قبائلهم في الجزيرة والشام، ومن قبائلهم الذين سكنوا الحجاز قبيلة «جرهم» التي سكنت مكة بإذن هاجر أم إسماعيل عليه السلام. و«العرب المستعربة» وهم أولاد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام، لم يكن من أولاد يعرب وإنما كان من أولاد عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سالم بن نوح. ولذا كانت لغته غير العربية وهي السريانية لغة الكلدانيين من سكان بابل بالعراق، كما تكلم بلغة الكنعانيين بالشام. وأما إسماعيل بحكم نشأته بين أفراد قبيلة جرهم فقد تعلم العربية ونافس أهلها فيها، أي: تفوق عليهم فيها بياناً وأدباً وبلاغة، واستعرب هو وبنوه، ومن هنا قيل في القبائل العدنانية: عامة العرب المستعربة.

إن النسب الشريف بين إسماعيل وعدنان فيه غموض حتى إن صاحب

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج٢ ص١٤ ـ ١٧.

النسب الشريف ﷺ قال: «**لا تُعَرِّفُوني فوق عدنان. إن عدنان أنجب من البنين «عكاً ومعداً» فقد بقي بمكة وأنجب من البنين نزاراً، وقضاعة، وقنصاً، وإياداً. وأنجب «نزار» مضراً وربيعة وأنماراً. وأنجب «مضر» إلياس وعيلان. وأنجب «إلياس» مدركة وطابخة وقمعة. وأنجب «مدركة» خزيمة وهذيلاً. وأنجب «خزيمة» كنانة وأسداً وأسدة والهون. وأنجب «كنانة» ملكان والنضر وملكا وعبد مناة. وأنجب «النضر» مالكاً ومخلداً. وأنجب «مالكٌ» فهراً، وأنجب «فهر» غالباً ومحارباً والحارث وأسداً. وأنجب «غالبٌ» لؤياً وتيماً وقيساً. وأنجب «لؤي» كعباً وعامراً وسامة وعوفاً. وأنجب «كعب» مرة وعدياً وهصيصاً. وأنجب «مرة» كلاباً وتيماً ويقظة. وأنجب «كلاب» قصياً وزهرة. وأنجب «قصيّ» عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى وعبد قصي. وأنجب «عبد مناف» هاشماً وعبد شمس والمطلب ونوفل، وأنجب «هاشم» عبد المطلب وأسداً وأبا صيفي ونضلة. وأنجب «عبد المطلب» العباس وحمزة وعبدالله وأبا طالب والزبير والحارث وحجلاً والمقوم وضراراً وأبا لهب**»[1].

وعليه، فإن النبيّ محمد هو أبو القاسم محمد بن عبدالله بن عبد المطلب واسمه شيبة الحمد، ابن هاشم، واسمه عمرو، بن عبد مناف، واسمه المغيرة، بن قصي، واسمه زيد، بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، هنا انتهى النسب الصحيح الذي لا شك فيه. وعدنان بلا شك من ولد إسماعيل الذبيح رسول الله، ابن إبراهيم خليل الله ورسوله، صلّى الله على سيدنا محمد، وعليهم وعلى جميع رسله وأنبيائه. وفي عبد المطلب يجتمع معه عليه السلام: «بنو علي، وجعفر وعقيل بني أبي طالب، وبنو العباس، وبنو الحارث، وبنو أبي لهب». وفي عبد مناف يجتمع معه: «بنو أمية، وسائر بني عبد شمس، وبنو المطلب، وبنو نوفل». وفي قصي يجتمع معه: «بنو عبد العزى، وبنو

(١) هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب، أبو بكر الجزائري ص١٨ ـ ٢١.

عبد الدار، الذين منهم حجبة الكعبة». وفي كلاب يجتمع معه: «بنو زهرة، وأمه منهم، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة». وفي مُرَّة يجتمع معه: «بنو تيم بن مرة، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة». وفي كعب يجتمع معه: «بنو عدي، وبنو جمح، وبنو سهم». وفي لؤي يجتمع معه: «بنو عامر بن لؤي». وفي غالب يجتمع معه: «بنو تيم الأدرم». وفي فهر يجتمع معه: «بنو الحارث، وبنو محارب». وفهر هذا: هو أبو قريش كلها، مَن لم يكن من ولده فلا نسب له في قريش، ومَن كان من ولد فهر فهو قرشي. وفي كنانة يجتمع معه: كل مَن ينتمي إلى كنانة من بني عبد مناة، ومالك، وملكان، وحدال، وعمرو بن كنانة. وفي خزيمة يجتمع معه: «أبو أسد، والقارة، وهم بنو الهون بن خزيمة». وفي مدركة يجتمع معه: «بنو هذيل». وفي إلياس يجتمع معه: «بنو تيم وإخوتهم، وبنو ضبّة، ومزينة، والرباب»، فأما الرباب فهم: «تيم، وعدي، وثور، وعكل». وفي مضر يجتمع معه: «قبائل قيس كلها، سليم، ومازن، وفزارة، وعبس، وذبيان، وأشجع، ومُرَّة، وسائر غطفان، وعقيل، وقشير، والحريش، وجعدة، والعجلان، وكلاب، والبكاء، وهلال، وسواءة، وبنو جشم، وبنو نصر، وثقيف، وسعد، وسائر هوازن، ومحارب، وعدوان، وفهم، وباهلة، وغنى، والطفاوة، وسائر قيس». وفي نزار يجتمع معه: «قبائل ربيعة، وبكر، وتغلب وعنز بني وائل، وعبد القيس وقبائلها، وعنزة، والنمر بن قاسط». وفي معد يجتمع معه: «إياد». وفي عدنان يجتمع معه: «بنو عك». وفي إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يجتمع معه: «بنو إسرائيل، ومَن عرف نسبه من بني عيص بن إسحاق أخي يعقوب».

وأما قضاعة وقبائل قحطان، وهم أهل اليمن، فالله أعلم بتشعُّبهم، إلا أنهم يجتمعون معه في نوح عليه السلام[1].

❋ ❋ ❋ ❋

(١) جوامع السيرة النبوية، لابن حزم ص٧ ـ ٩.

محمد رسول الله ﷺ

هذه سيرة حبيب الله، إمام المرسلين، وخاتم النبيين، وقائد الغر المحجلين، البشير النذير، والسراج المنير، المزمل، المدثر، المتوكل، الهادي، الشاهد، الأمين، الرحمة المهداة، الشافع المشفع، صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، الصادق المصدوق، الرؤوف الرحيم، المصطفى المختار، النبيّ الأمي، أحمد، الماحي، الحاشر، العاقب، المقفّي، نبيّ التوبة، ونبيّ الرحمة، سيد ولد آدم، أبي القاسم محمد بن عبدالله بن عبد المطلب وهو شيبة الحمد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر وهو قريش بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. وقد أجمع أهل العلم على أن عمود نسب رسول الله ﷺ إلى عدنان لا نزاع فيه، كما أنه لا نزاع في أن عدنان ينتهي نسبه إلى إسماعيل عليه السلام، وقد اختار الله تبارك وتعالى محمداً ﷺ من خير أنساب بني آدم[١].

إن محمداً ﷺ سليل أسرة جمعت أمجاد العرب في خلائقها، فدوحته الكبرى «قريش» وفرعاها الفارعان وغصناها الزكيان: «عبد مناف» و«زُهرة» اللذين انفرجا عن محمد ﷺ. فعبد مناف غصن من الدوحة القرشية زكى وأينع فأثمر لعبد المطلب ابنه «عبدالله»، وزهرة غصنها الذي زهى ونما فأثمر لوهب ابنته «آمنة» فكان منهما «محمد» سيد البشر ورسول الرحمة للعالمين. ويذهب ابن سعد في الطبقات إلى أن سن عبدالله يوم وفاته خمساً وعشرين سنة، والرسول ﷺ حمل في بطن أمه. والذي رجحه الواقدي أنه عليه الصلاة والسلام توفي أبوه وهو جنين في بطن أمه، وهذا أبلغ اليُتم وأعلى مراتبه، وعلى عبد مناف اقتصر النبيّ ﷺ في بيان القرابة[٢]. عن سعيد بن جبير عن

(١) قصص الأنبياء، عبدالقادر شيبة الحمد ج٢ ص٣٤٧.

(٢) محمد رسول الله، محمد عرجون ج١ ص٥٥ ـ ٥٧.

ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، جعل النبيّ ﷺ ينادي: «**يا بني فهر، يا بني عدي**» بطون قريش ويدعوهم قبائل قبائل. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «**يا بني عبد مناف، اشتروا أنفسكم من الله، يا بني عبد المطلب، اشتروا أنفسكم من الله، يا أم الزبير بن العوام** ـ عمة رسول الله ـ **يا فاطمة بنت محمد، اشتريا أنفسكما من الله، لا أملك لكما من الله شيئاً، سلاني من مالي ما شئتما**»[1]. وهذه الأحاديث تكفي لوقوفنا عند «عبد مناف» في تَطَلُّب الأصل القريب الذي ترجع إليه شخصية محمد ﷺ بالوراثة.

لم يزل محمد ﷺ ينتقل من خير الآباء إلى خير الأبناء، حتى انتهى إلى كبير مكة وقريش في الجاهلية، وعبد المطلب بن هاشم، ثم إلى أبيه عبدالله والد المصطفى أشرف الناس نسباً، عجماً وعرباً، فهو ذو نسب زكي: إبراهيم خليل الله دعامه، وإسماعيل سنامه، وكنانة زمامه، وقريش نظامه، وهاشم تمامه. اختاره الله من أرفع البيوت والمنازل، لأنه اصطفى من ولد إبراهيم الخليل رافع قواعد البيت إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، ومن بني كنانة قريشاً المعروفة بالشرف والأمانة، واصطفى من قريش بني هاشم، ومن بني هاشم سر السراة أبا القاسم. وإلى ذلك يشير قوله ﷺ: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار**». وقول عمه أبي طالب:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمعشر ... فعبد مناف سِرُّهَا وصحيحها
وإن حصلت أنساب عبد منافها ... ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فإن محمداً ... هو المصطفى من سرها وكريمها

ولا غرو: فلم يكن في آبائه مسترذل ولا مستبذل، بل كلهم سادة قادة[2].

(١) صحيح البخاري، كتاب: بدء الخلق ج٤ ص٢٢٤.
(٢) محمد ﷺ المثل الكامل، محمد بك ص٦.

مولده ﷺ

تذكر كتب السيرة ومصادر التاريخ ميلاد سيد البشر محمد ﷺ، روى القسطلاني في مواهبه أنه ﷺ بقي في بطن أمه تسعة أشهر كاملة لا تشكو وجعاً ولا مغصاً ولا ما يعرض لذوات الحمل من النساء، وكانت تقول: (والله ما رأيت من حمل هو أخف منه ولا أعظم بركة منه)[١].

فميلاد محمد ﷺ إنساناً ولدته أمه في يسر وبهجة وضيئاً حلو الملامح جميل المحيا، وقابلته على يديها قابلته «الشفاء» أم عبدالرحمٰن بن عوف، رافعاً بصره إلى السماء واضعاً يده على الأرض، وقد بشّر به جده عبد المطلب ففرح به فرحاً شديداً، فأخذه بين يديه ودخل به الكعبة المشرفة وقام عندها يدعو الله ويشكر ما أعطاه، وقد شارك عمومة محمد ﷺ أباهم وعمهم الفرح وشملهم البشر فتصدقوا وأهدوا وأعتقوا حتى من كشف الغيب عن عداوته لمحمد ﷺ، فهذا عمه أبو لهب وقد سجل القرآن في ذمِّه ما سجل، تذكر الرواية الصحيحة أنه لما بشرته مولاته ثويبة بولادة النبيّ ﷺ أعتقها[٢].

واختلف في عام ولادته والأكثرون على أنه «عام الفيل»، والمشهور أنه بعد الفيل بخمسين يوماً، وقيل غير ذلك. واختلف في الشهر الذي ولد فيه والمشهور «ربيع الأول»، وقيل: في ربيع الثاني، واختلف في اليوم الذي ولد فيه، وقيل: «يوم الإثنين»، وقيل: لليلتين خلتا من ربيع الأول، وقيل: لثمان، وهو اختيار أكثر المحدثين، وقيل: لعشر، وقيل: «لاثني عشر» وهو المشهور. واختلف في الوقت الذي ولد فيه ومشهور عند «طلوع الفجر» لعشرين مضت من برج الحمل، ووافق ذلك في الشهور الشمسية شهر نيسان، ويقول أصحاب التوفيقات التاريخية أن ذلك يوافق اليوم المكمل للعشرين من شهر أغسطس سنة ٥٧٠ بعد ميلاد

(١) المشرع الروي، محمد الشلي ج١ ص٩١ ـ ٩٢.
(٢) محمد رسول الله، محمد عرجون ج١ ص٩٩ ـ ١٠٤.

المسيح عليه السلام، وقد صحّ من طرق كثيرة أن محمداً ﷺ «ولد فجر يوم الإثنين لاثني عشر مضت من شهر ربيع الأول» عام الفيل في زمن كسرى أنوشروان[١].

وذكر الخوارزمي: كان قدوم الفيل مكة لثلاث عشرة ليلة بقيت من الحُرُم. قال: وكان أول المحرم تلك السنة يوم الجمعة، وولد رسول الله ﷺ بعد ذلك بخمسين يوماً يوم الإثنين لثمان خلت من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل. فكان مولده إلى أن بعثه الله أربعين سنة ويوم، ومن مبعثه إلى أول المحرم من السنة التي هاجر فيها اثنتا عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً، وذلك ثلاثة وخمسون يوماً من عام الفيل. وذكر ابن السكن من حديث عثمان بن أبي العاص عن أمه فاطمة بنت عبدالله أنها شهدت ولادة النبيّ ﷺ ليلاً قالت: فما شيء أنظر إليه من البيت إلا نور، وإني لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إني لأقول: لتقض علي. وذكر ابن مخلد في تفسيره أن إبليس لعنه الله رنَّ أربع رنّات: رنّة حين لعن، ورنّة حين أهبط، ورنّة حين ولد رسول الله ﷺ، ورنّة حين نزلت فاتحة الكتاب[٢].

ومكان ولادته ﷺ معروف بمكة المكرمة تقلبت عليه الأحداث فتغلب عليها، فمكان مولده مشهور في سوق الليل آخر شعب بني هاشم في الدار التي صارت تدعى بدار محمد بن يوسف الثقفي وأدخل ذلك البيت في الدار حتى أخرجته الخيزران أم الهادي والرشيد فجعلته مسجداً يصلي فيه حتى انتهى به الأمر أن صار داراً للحديث والكتب. ولا شك أن هذا المكان كان جزءاً من دار جده عبد المطلب، انتقلت إليه آمنة وهي حامل به ﷺ. وروى البيهقي عن أبي الحكم قال: فلما كان اليوم السابع ذبح عنه جده عبد المطلب ودعا له قريشاً فلما أكلوا قالوا: يا عبد المطلب، أرأيت ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه ما سمّيته؟ قال: سمّيته «محمداً»، قالوا: فما رغبت به أسماء أهل بيته قال: «أردت أن يحمده الله في السماء وخلقه في

(١) المشرع الروي، محمد الشلي ج١ ص١٩١ ـ ١٩٢.
(٢) عيون الأثر، لابن سيد الناس ص٤٠.

الأرض»[١]. وفي رواية أن أمه حدثت أنه قيل لها في النوم: سمِّيه محمداً فسمَّته. ومن عجيب ما وقع عند ولادته ﷺ خمود نار فارس وكان على ما يقال لها: ألف عام. كما رواه البيهقي وابن عساكر، ومن ذلك ما وقع من زيادة حراسة السماء بالشهب وقطع رصد الشياطين واستراقهم للسمع. وقال اليعقوبي في تاريخه: وأصابت الناس زلزلة عمّت جميع الدنيا، وقد أحسن الشقراطيسي حيث قال:

أضاءت لمولده الآفاق واتصلت ... بشرى الهواتف في الإشراق والطفل
وصَرْح كسرى تداعى من قواعده ... وانقضّ منكسر الأرجاء ذا ميل
ونار فارس لم توقد وما خمدت ... من ألف عام ونهر القوم لم يسل
خَرَّت لمبعثه الأوثان وانبعثت ... ثواقب الشهب ترمي الجن بالشهب

أخرج الطبراني وأبو نعيم والخطيب وابن عساكر عن أنس عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**من كرامتي على ربي أني ولدت مختوناً ولم يرَ أحد سوأتي**»، وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي بكرة أن جبرائيل ختن النبيّ ﷺ حين طهر قلبه[٢].

وفي ذكر تسميته «محمداً وأحمد» ﷺ، عن القاضي أبي الفضل عياض في تسميته عليه السلام قال: في هذين الاسمين «محمد وأحمد» من بدائع آياته وعجائب خصائصه أن الله جلّ اسمه حمى أن يسمى بهما أحد من قبل زمانه. أما «أحمد» الذي أتى في الكتب وبشرت به الأنبياء فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمى به أحد غيره ولا يدعى به مدعو قبله حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أو شك. وكذلك «محمد» أيضاً لم يُسَم به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبل وجوده ﷺ وميلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد فسمّى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وهم: «محمد بن أحيحة بن الجلاح

(١) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج١ ص١٠٢.
(٢) الخصائص الكبرى، للسيوطي ج١ ص٥٣، ومجمع الزوائد ج٨ ص٢٢٤.

الأوسي، ومحمد بن مسلمة الأنصاري، ومحمد بن براء البكري، ومحمد بن سفيان بن مجاشع، ومحمد بن حمران الجعفي، ومحمد بن خزاعي السلمي» لا سابع لهم. ثم حمى الله كل من سمي به أن يدَّعي النبوة أو يدَّعيها أحد له حتى تحققت السمتان له ولم ينازع فيهما، والله أعلم[١].

❋ ❋ ❋ ❋

رضاعه عليه الصلاة والسلام

أرضعته ﷺ من النساء ثمان، وقيل أكثر، أولهن أمه آمنة، ثم ثويبة الأسلمية جارية أبي لهب التي أعتقها حين بشّرته بولادته، وأرضعت معه عمه حمزة بن عبد المطلب قبل قدوم حليمة، وخولة بنت المنذر، وأم أيمن، وامرأة سعدية، وثلاثة نسوة من العواتك، وأكثرهن إرضاعاً له حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية وتكنى أم كبشة. وكان من عادات العرب إذا ولد لهم مولود أن يلتمسوا له مرضعة من غير قبيلتهم ليكون أنجب للولد وأفصح له، فأخذته حليمة السعدية وخرجت به إلى منازل بني سعد ولم تزل حليمة تتعرف الخير والسعادة، وتقول ما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب من أرض بني سعد فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به شباعاً لبناً فنحلب ونشرب، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً ـ أي: شديداً ـ فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فينا لما كنا نرى من بركته فلم نزل به حتى ردته معنا، قالت: فرجعنا وبعد مقدمنا بأشهر إذ أتانا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقّا بطنه، قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه فالتزمته فقلت له: ما لك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقّا بطني فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو، فقال لي أبوه: يا حليمة، خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله، فاحتملناه فقدمنا به

(١) عيون الأثر، لابن سيد الناس ج١ ص٤٦.

على أمه، فقالت: ما أقدمك به وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟ قالت: تخوّفت الأحداث عليه فأدّيته إليك كما تحبين. قالت: ما هذا شأنك فأصدقيني خبرك، فلم تدعني حتى أخبرتها قالت: أفتخوفت عليه الشيطان؟ قلت: نعم، قالت: كلا، والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لابني لشأناً أفلا أخبرك خبره؟ قلت: بلى، قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي به قصور بصرى من أرض الشام، فشقّ صدره عليه السلام كان في السنة الثالثة من عمره وذلك لتطهيره، وكما شقّ صدره الشريف ليلة الإسراء[1] كما رواه البخاري، وإلى قصة إرضاعه ﷺ يشير صاحب الهمزية حيث يقول:

وبدت في رضاعه مُعْجزاتُ ... ليس فيها من العيون خفاء
إذ أبته ليُتْمِهِ مرضعاتُ ... قلن ما في اليتيم عَنّا غَنَاء
فأتته من آل سعد فتاةُ ... قد أبتها لفقرها الرضعاء
وإذا سخّر الإلٰه أناساً ... لسعيد فإنهم سعداء

وقد رأت حليمة السعدية من النبيّ ﷺ الخير والبركة وأسعدها الله بالإسلام هي وزوجها وبنوها.

❋ ❋ ❋ ❋

طفولته عليه الصلاة والسلام

خرجت به أمه آمنة إلى أخواله بني النجار بالمدينة سنة ٥٧٦م وأقامت عندهم شهراً، وكان نزولهم في دار النابغة، فمرضت وهي راجعة وماتت ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة، وعمره ﷺ ست سنين وكان عمر آمنة حين وفاتها ثلاثين سنة، وعن أسماء بنت وهب عن أمها قالت: شهدت آمنة في علتها التي ماتت بها ومحمد ﷺ عند رأسها فنظرت إلى وجهه ثم

(١) صحيح البخاري، باب: حديث الإسراء ج٥ ص٦٦.

قالت: كل حي ميت، وكل جديد بال، وكل كثير يفنى، وأنا ميتة وذكري باق، وقد تركت خيراً وولدت طهراً. ثم ماتت[١].

تنفّس محمد ﷺ نسيم الحياة يتيماً، فقد أباه قبل أن يشهد الوجود طلعته، وقد ترك له خمساً من الإبل وقطعة من الغنم وجارية هي حاضنته أم بركة الحبشية، وقد أعتقها ﷺ وزوجها مولاه زيد بن حارثة فولدت له أسامة بن زيد. حضنته أم أيمن وحملته إلى جده عبد المطلب الذي كان يحبه ويكرمه فقد كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه، ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: «دعوا ابني فوالله إن له لشأناً»، إن عبد المطلب لم يكن يعلم أن محمداً ذلك الطفل الصغير سيكون رسول الله، لكنه كان يشعر في قرارة نفسه بتلك الجاذبية وبتلك العظمة الكامنة فيه، وهذا السر في محبته وشدة رعايته له، ولا سيما أن عبد المطلب كان رجلاً عظيماً جليلاً ذا فطنة وفراسة[٢].

لما بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنوات توفي جده عبد المطلب، ولما حضرته الوفاة أوصى به إلى عمه شقيق أبيه «أبي طالب»، وكان كريماً لكنه كان فقيراً كثير الأولاد، وكان يرى منه ﷺ الخير والبركة ويحبه حبًّا شديداً. وقد أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة وهم في قحط فقالت قريش: يا أبا طالب، أقحط الوادي وأجدب فهلم فاستسقِ، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجى، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة وأشار الغلام بإصبعه إلى السماء وما في السماء قطعة من سحاب، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغدق وانفجر الوادي وأخصب النادي. وفي ذلك يقول أبو طالب مادحاً النبيّ ﷺ:

---

(١) المشرع الروي، لمحمد الشلي ج١ ص١٩١ ـ ١٩٢.

(٢) محمد رسول الله، لمحمد رضا ص٢٦ ـ ٣٣، العقد الفريد، لابن عبد ربه ج١ ص٥٨، تاريخ ابن عساكر ج١ ص٢٧.

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهُلاّك من آل هاشم فهم عنده في نعمة وفواضل[١]

لما بلغ رسول الله ﷺ «اثنتا عشرة سنة» خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام، فلما نزل الركب ببصرى كان بها راهب يقال له: «بحيرا» وكان ذا علم من أهل النصرانية[٢]. وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم حتى كان ذلك العام نزلوا قريباً من صومعته، فصنع لهم طعاماً ثم أرسل إليهم: إني صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش فأحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم، فحضروا وتخلّف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه في رحال قومه، فلما نظر بحيرا في القوم ولم يرَ الصفة التي يعرف ويجد عنده قال: لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي، فقالوا: لم يتخلف أحد ينبغي أن يأتيك إلا غلاماً هو أحدث القوم سنًّا، فتخلف في رحالنا، قال: ادعوه ليحضر هذا الطعام، فلما رآه جعل يلحظه وينظر إلى أشياء من جسده حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرا فجعل يسأله عن أشياء من حاله ومن نومه وهيئته فجعل رسول الله يخبره بخبره، فيوافق ذلك ما عنده من صفته. ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه وكان مثل أثر المحجمة، فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام؟ قال: ابني، قال له: ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً. قال: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت، فارجع بابن أخيك إلى بلده[٣]. إن بحيرا لما عرف رسول الله تخوّف عليه من اليهود فنصح لأبي طالب بالرجوع به سريعاً والمحافظة عليه.

ليس في حياته ﷺ قبل البعثة ما يشعر بشيء سوى أنه وجه إلى لون من الحياة يملؤها الإحساس بعظمة الكون وعظمة مدبره جلّ شأنه، والشعور

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص٣٠.
(٢) قصة بحيرا في سيرة ابن هشام ج١ ص١٩١ ـ ١٩٤، وطبقات ابن سعد ج١ ص١١٩ ـ ١٢٥.
(٣) تاريخ الطبري ج٢ ص٢٢٧.

بسلطان قوته المبسوط على الوجود، ومن هنا كان جوابه على تعجب عمه له من أقوال الرهبان وأحاديثهم عنه وعن نبوته: «**أي عم، لا تنكر الله قدره**».

ففي مقتبل رجولته عليه الصلاة والسلام فضّل العزلة عن حياة قومه تلك الحياة الصاخبة الجوفاء. فهو شاب يستقبل الرجولة فلا بد أن يعمل ليعيش شريفاً كريماً، إنه وهو طفل كان يخرج في بيداء بني سعد مع إخوته يرعون الغنم، فما أيسر هذا العمل وأقربه إلى نفسه، فهو يتفق مع ميله إلى الهدوء تحت ظلال الأشجار أو قلل الجبال، ويتيح له التطلع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له لوناً من الصبر والحلم والأناة والرأفة والرحمة والعناية بالضعيف، وهذا لون من الحياة اختارته الإرادة الإلٰهية لكل من اصطفاهم الله لرسالته[١]. ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بعث الله نبياً إلا رعى غنم**»، فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: «**وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط**»[٢]، وهي أجزاء من الدراهم، قيل: من حكم ذلك أن راعي الغنم التي هي من أضعف البهائم تسكن في قلبه الرأفة واللطف، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هذب أولاً.

قال ابن سعد في الطبقات: وشبّ رسول الله ﷺ مع أبي طالب يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها لما يريد الله به من كرامة حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً وأمانة، وأصدقهم حديثاً، حتى سمّاه قومه الأمين لما جمع الله له من الأمور الصالحة[٣].

وهكذا كانت طفولة سيدنا محمد ﷺ مرحة محببة يحوطها الله تعالى برعايته ويرعاه فيها بعنايته، فشبّ محفوظاً من أقذار الجاهلية وشناءتها ومعايبها لما يريد الله من كرامته ورسالته.

---

(١) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج١ ص١٧٦ ـ ١٨٠/ ١٩٢ ـ ١٩٥.
(٢) سنن ابن ماجه ج٢ ص٦، ٧.
(٣) الطبقات الكبرى، لابن سعد ج١ ص١١٩ ـ ١٣٣.

شبابه عليه الصلاة والسلام

حفظه الله تعالى في شبابه من نزعات الشباب ودواعيه البريئة التي تنزع إليها الشبوبية بطابعها، ولكنها لا تلائم وقار الهداة وجلال المرشدين، روى ابن إسحاق واليعقوبي والطبري عن محمد عن أبيه علي بن أبي طالب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمُّون به إلا ليلتين، كلتاهما عصمني الله عزَّ وجلَّ فيهما، قلت ليلة لصاحبي: أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمر فيها، فقال: بلى. فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير فجلست أنظر، فضرب الله على أُذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس. ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر، فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة فضرب الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مس الشمس، فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمني الله عزَّ وجلَّ بنبوته**»[١].

وكان ﷺ يكره كشف العورة، ويأبى أن يحضر مع قومه العيد الذي كانوا يقيمونه لصنع ما يقال له «بوانة» حتى غضب عليه عمه أبو طالب وعمّاته، ولم يذق شيئاً ذبح على الأصنام حتى أكرمه الله برسالته. وكان ﷺ مع تساميه عن دنس الجاهلية يشارك قومه في أعمال الخير والمكرمات، وكان ﷺ كلما تقدمت به سنه واقترب من كمال الرجولة، ويرى ما عليه قومه من ضلال الوثنية زاد انطواءً على نفسه، وفرّ من المجتمعات إلى الانفراد والعزلة كراهة لحياتهم وفراراً من أقذارهم وسقطاتهم[٢].

وكانت الحروب سنّة من سنن العرب المألوفة التي قضت بها عليهم حياتهم الاجتماعية والاقتصادية في بيئتهم الطبيعية التي وضعهم الله فيها.

---

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٢٧٩، أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ج٨ ص٢٢٦ بألفاظ مختلفة.

(٢) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج١ ص١٨٤/١٩١ ـ ١٨٦.

والمقتضي لأسباب تلك الحروب التي استأثرت بالحياة العربية يجد في كثرتها توافه، بيد أن أياماً من أيام تلك الحروب كانت أسبابها تتصل بالكرامة القومية أو الدفاع عن النفس. فكانت جديرة أن تثبت في تاريخ العرب لتسجل لهذا الشعب الكريم طبيعة من طبائعه الغلابة، تلك هي طبيعة الأنفة عن قبول الضيم والتسامي عن الرضا بالذل. فمن دواعي حرب كنانة وقيس في يوم الفجار الذي شهده محمد ﷺ في شبابه مع عمومته، فأيام الفجار أربعة: الأول بين كنانة وهوازن، الثاني بين قريش وكنانة، والثالث بين كنانة وبني النضر، والرابع بين قريش وكنانة وهوازن. وقد شهد النبيّ ﷺ يوم الفجار الأخير وسببها أن النعمان بن المنذر أمير الحيرة بعث «نوافيح المسك» إلى سوق عكاظ للتجارة، وأجارها له عروة الرحال من بني هوازن فنزلوا على ماء يقال له: «أوراة»، فوثب البراض من بني كنانة على عروة فقتله، ولم تقم تلك السنة سوق عكاظ. فمكثت قريش وغيرها من كنانة سنة يتأهبون لهذه الحرب وتأهبت قيس عيلان، فبعد القتال اصطلحوا على أن يعدُّوا القتلى، وردت قريش لقيس ما قتلت فضلاً عن قتلاهم، ووضعت الحرب أوزارها. قال رسول الله ﷺ: «**أحضرت مع عمومتي ورميت فيهم بأسهم، وما أحب أني لم أكن فعلت، وكنت أنبل على أعمامي**»، أي: أناولهم النبل.

كان حلف الفضول أكرم حلف سمع به في الجاهلية وأشرفه في العرب، وكان سببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه فاستدعى عليه الأحلاف: عبد الدار ومخزوماً وجحماً وسهماً، فأبوا أن يعينوه على العاص، فلما رأى منهم الشر أوفى على أبي قبيس وقريش في أنديتهم حول الكعبة فنادى بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنّفَر
ومُحْرِم أشعث لم يَقْضِ عمرته يا للرجال وبين الحِجْر والحَجَر
إن الحرام لمن ماتَتْ كرامته ولا حرام لثوبِ الفاجرِ الغَدر

فقام الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا، فاجتمعت هاشم وزهرة

وتيم في دار عبدالله بن جدعان، وتحالفوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه. فسمت قريش ذلك الحلف «حلف الفضول» وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر. ثم مشوا إلى العاص فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه، وفي ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب:

إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا فالجار والمعتر فيهم سالم

وقد شهد النبيّ ﷺ هذا الحلف وسنه عشرون سنة، وأثنى عليه حين ذكره في الإسلام، وقال ﷺ: «**لقد شاهدت حلفاً لو دُعِيتُ به في الإسلام لأجبت، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها وأن لا يعز ظالم مظلوماً**»، أي: لا يجدوا مظلوماً إلا كانوا معه وكانوا على مَن ظلمه حتى يرد عليه مظلمته، وسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول[١].

الناظر إلى موضع الكعبة المشرفة من مكة المكرمة يراها في مطمئن من الأرض تحيط بها الجبال من كل جانب مما جعلها عرضة لجوارف السيل، وقد حذرت قريش عواقب ذلك وخافت على البيت أن تهدمه السيول. فاجتمعت قريش وقالوا: لو بنينا بيت ربنا، وكان البيت شرفهم وعزهم، ولما أجمعوا أمرهم على هدم الكعبة وبنيانها قام فيهم أبو وهب عمرو بن عابد بن عبد بن عمران بن مخزوم وهو خال أبي رسول الله ﷺ ـ وكان رجلاً شريفاً ـ فقال لهم: «يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً، ولا يدخل مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس»[٢].

كان رسول الله ﷺ يعمل في بنائها مع عمومته، وينقل الحجارة إليها، روى البخاري ومسلم من حديث عبدالرزاق عن عمرو بن دينار عن جابر بن

(١) البداية والنهاية، لابن كثير ج٢ ص٢٧٠ ـ ٢٧٢.
(٢) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج١ ص١٨٧ ـ ١٩٠.

عبدالله قال: «لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ ينقل الحجارة، فقال العباس لرسول الله ﷺ: اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة ففعل فخرّ على الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم قام فقال: «**إزاره**»[١]، فشدّ عليه إزاره»[٣]. وروى البيهقي عن عكرمة قال: حدثني ابن عباس عن أبيه أنه كان ينقل الحجارة إلى البيت حين بنت قريش البيت، قال العباس: وأفردت قريش رجلين رجلين فكنت أنا وابن أخي، وكنا نحمل على رقابنا وإزارنا تحت الحجارة، فإذا غشينا الناس اتَّزرنا فبينما أنا أمشي ومحمد ﷺ أمامي فخرّ منبطحاً على وجهه فجئت أسعى وألقيت حجري وهو ينظر إلى السماء فقلت: ما شأنك؟ فقام وأخذ إزاره فقال: «**إني نهيت أن أمشي عرياناً**»، وكنت أكتمها من الناس مخافة أن يقولوا: مجنون، ولما رآه عمه أبو طالب يلبس إزاره قال له: يا ابن أخي، اجعل إزارك على رأسك فقال: «**ما أصابني أصابني إلا من التعري**»[٢].

أخذت قريش في البناء فلما انتهوا إلى حيث يوضع الحجر الأسود من البيت اختلفوا فيمن يضع الحجر موضعه وأرادت كل قبيلة رفعه وتواعدوا للقتال ثم تشاوروا بينهم، فجعلوا أول من يدخل من باب بني شيبة يقضي بينهم. فكان أول مَن دخل رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا به، فأخبروه الخبر فوضع رسول الله ﷺ رداءه وبسطه على الأرض ثم أخذ الحجر فوضعه فيه. ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه، ففعلوا فلما بلغ موضعه وضعه هو بيده الشريفة فرضوا بذلك. وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي (الأمين) لوقاره وهديه وصدق لهجته وبعده عن الأدناس[٣].

بنت قريش البيت على أسسه التي هو عليها اليوم، وأخرجت منه الحجر وكان داخلاً فيه على قواعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فلما قصرت

(١) صحيح البخاري، كتاب: الصلاة ج١ ص١٠٣.
(٢) الخصائص الكبرى، للسيوطي ج١ ص٨٨.
(٣) محمد رسول الله، محمد رضا ص٤٢.

النفقة بقريش تركوا منه ما تركوا. وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: «**ألم تري أن قومك قَصُرَتْ بهم النفقة، ولولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة وجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً، وأدخلت فيها الحجر**»(١).

وقد اختلفت الروايات في سن رسول الله ﷺ يوم بنت قريش الكعبة، فذهب ابن إسحاق إلى أنه كان قد بلغ خمساً وثلاثين سنة، وذهب مجاهد وعروة وجبير بن مطعم إلى أن سِنّ رسول الله ﷺ كان خمساً وعشرين سنة. فبناء الكعبة كان سنة التزوج بخديجة، وهذا في أول العام وذلك في آخره.

لما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة، قال له عمه أبو طالب: أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا وهذه عِيْرُ قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيرها. فبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له، فأرسلت إليه في ذلك وقالت: أنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلاً من قومك. فخرج مع غلامها ميسرة حتى قدم بُصْرَى من الشام فنزلا تحت ظل شجرة فقال نسطور الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبيّ. ثم قال لميسرة: أفي عينه حُمْرَة؟ قال: نعم، قال: هو نبيّ وهو آخر الأنبياء. وكان ميسرة إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلان رسول الله ﷺ من الشمس فوعى ذلك كله ميسرة وباعوا تجارتهم وربحوا ضعف ما كانوا يربحون، فلما رجعوا أخبرها ميسرة بما قال الراهب نسطور.

فلما رأت خديجة رضي الله عنها الربح الكبير أضعفت له ضعف ما سَمَّت له. وقد روى البيهقي عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أجرت نفسي من خديجة سفرتين بقلوص**»، فهذا الحديث صريح في أنه ﷺ سافر في مال خديجة سفرتين. فرواية الزهري حددت سوق حباشة بتهامة، ورواية

(١) مختصر صحيح مسلم، للألباني: في جدار الكعبة ج١ ص٢٠١ رقم ٧٧٠، صحيح البخاري، كتاب العلم ج١ ص٤٣.

الجمهور حددت الشام فتحمل كل سفرة على جهة بعينها لتوافق روايات التاريخ[١].

❋ ❋ ❋ ❋

تزوج رسول الله خديجة رضي الله عنها

كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي امرأة حازمة جلدة شريفة غنية جميلة من أوسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً، وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة وبسيدة قريش، وقد عرض كثيرون عليها الزواج فلم تقبل. لقد كان تقدير خديجة لمحمد ﷺ تقديراً واقعياً دافعاً لها على أن تفكر في شأنه تفكيراً آخر أكبر من كونه عاملاً في مالها، يتجر لها فيه فتربح ويربح. إنها عرفت محمداً ﷺ أكثر مما عرفه قومه، عرفته عاملاً في مالها، وصحبه في سفره غلامها الأمين ميسرة، فحدثها عن أخلاق محمد ﷺ في السفر والعمل، وحدثها عما شهد من دلائل مستقبل هذا الفتى الكريم، وحدثها عن تنبؤات الرهبان، وحدثها عن مظاهر رعاية الله تعالى له.

ذكر ابن إسحاق في المبتدأ قال: كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه، فاجتمعن يوماً فيه فجاءهن يهودي فقال: يا معشر نساء قريش إنه يوشك فيكن نبيّ، فأيتكن استطاعت أن تكون له فراشاً فلتفعل. فحصبنه وقبحنه وأغلظن له. وأغضت خديجة على قوله، ولم تعرض فيما عرض فيه النساء ووقر ذلك في نفسها. فلما أخبرها ميسرة بما رآه من الآيات وما رأته هي قالت: إن كان ما قال اليهودي حقاً ما ذاك إلا هذا «تعني محمداً ﷺ». ثم هي امرأة شريفة حسيبة ذات مال كثير، يحتاج إلى يد أمينة تديره وتنميه. ومحمد ﷺ في ذروة الشرف من قومها، أليس هو ابن عبد المطلب شريف قريش وسيدها؟ وهو أنبل فتى وأعقلهم، وأعظمهم أمانة وأكملهم مروءة وقد

(١) تاريخ الطبري ج٢ ص٢٨٠، مروج الذهب، للمسعودي ج٢ ص٢٠٨.

بلغ سن اكتمال الشباب، فما يمنعها أن تكون زوجاً له، وما يمنعه أن يكون زوجاً لها[١].

روى ابن سعد من طريق شيخه الواقدي عن نفيسة بنت منبه قالت: كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير. وهي يومئذ أوسط قريش نسباً وأعظم شرفاً وأكثرهم مالاً، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك. فأرسلتني دسيساً إلى محمد ﷺ بعد أن رجع من عيرها من الشام فقلت: يا محمد ما يمنعك أن تزوج؟ فقال: «**ما بيدي ما أتزوج به**»، قلت: فإن كفيتك ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف ألاّ تجيب؟ قال: «**فمَن هي؟**» قلت: خديجة، قال: «**وكيف إلى ذلك؟**» قلت: علي. قال: «**فأنا أفعل**». فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا، وأرسلت إلى عمها عمر بن أسد ليزوجها فحضر. ودخل رسول الله ﷺ في عمومته فزوجه أحدهم فقال عمر بن أسد: «هذا البضع لا يقرع أنفه» أي: لا يضرب أنفه لكونه كريماً لأن غير الكريم إذا أراد ركوب الناقة الكريمة يضرب أنفه ليرتدع بخلاف الكريم. وتزوجها رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة يومئذٍ بنت أربعين سنة.

وقد حضر رؤساء مضر وحضر أبو بكر رضي الله عنه ذلك العقد فقال أبو طالب: «الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضئ معد «معدنه» وعنصر مضر «أصله»، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً وجعلنا الحكام على الناس. ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبدالله لا يوزن برجل إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، فإن كان في المال قُلّ فإن المال ظِلٌّ زائل وأمْرٌ حائل، ومحمد مَن قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله كذا، «أصدقها رسول الله ﷺ اثنتا عشرة أوقية ونصفاً من الذهب»، وهو بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل». ثم تكلم ورقة بن نوفل ابن عم خديجة

(١) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج١ ص٢٠٢ ـ ٢٠٨.

فقال: «الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبكم وشرفكم فاشهدوا على معشر قريش بأني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبدالله على كذا»، فقبل النبيّ ﷺ النكاح، وأوْلَمَ عليها ﷺ فنحر جزوراً، وقيل: جزورين، وأطعم الناس، وفرح أبو طالب فرحاً شديداً وقال: الحمد لله الذي أذهب عنا الكرب ودفع عنا الغموم، وهي أول وليمة أولمها رسول الله ﷺ[1].

❋ ❋ ❋ ❋

تعبُّده ﷺ قبل البعثة

إن تعبُّده ﷺ في خلواته واعتزاله قبل مبعثه كان أساسه التفكير في آيات الله الكونية، والتأمل في مظاهر الطبيعة ودلائل الإبداع الإلٰهي في نظام الوجود، وسيره على سنن متناسقة مقدرة تدل على حكمة التدبير. وما ثبت عند رسول الله ﷺ من معالم الحنفية ملة جديه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وتعظيمه للكعبة المشرفة والطواف بها رغم ما كانت تعج به ساحاتها من الأصنام والأوثان التي كانت أبغض شيء إلى نفسه المطهرة.

فهناك ظاهرتان اجتماعيتان كانتا تسودان حياة محمد ﷺ منذ أن ولد ثم نهد، واستوى غلاماً يافعاً، وفتى سوياً إلى أن اقترن بزوجه الطاهرة الوفية السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها. فالظاهرة الأولى هي ظاهرة شظف العيش وخلو اليد من حطام الدنيا. فقد ولد محمد ﷺ يتيماً لم يرث من أبيه غير شيء ضئيل، وإن جده وعمه كفلاه حتى اشتدت قناته فأجَّر نفسه يرعى غنم أهله. ثم أجَّر نفسه من خديجة ليعمل في مالها تاجراً لها. فليس في تاريخ محمد ﷺ فترة تغير فيها وضعه المادي، ولهذه

(١) محمد رسول الله، لمحمد رضا ص٣٩ ـ ٤٠، طبقات ابن سعد ج١ ص٨٥.

الظاهرة أثرها العميق في تمحيص خصيصة الإنسانية العليا في الأفراد التي تلزمهم أيام شبابهم. وهي أيام اجتماع قوى الاندفاع وعناصر الهوى النفسي، ونزعات المراهقة ومنافذ الغرائز المادية النهمة، ومسارب استطالة الشباب وطموحه، وهو تمحيص شاق لا تبصر له إلا نفس قوية التركيب في جوهر تكوينها. فمحمد ﷺ في شبابه أكمل الناس إنسانية وأعظمهم خلقاً وأضخمهم أمانة، وأبعدهم عما يشين مروءة الرجال. فشخصيته هي النموذج الأعلى لكمال خصيصة الإنسان العليا في فرد من بني الإنسان.

أما الظاهرة الثانية، فهي ظاهرة التكافؤ الخلقي في شخصية محمد ﷺ. إن أخلاقه ﷺ كانت كلها تنبع من فطرته بنسب متفقة. فصبره مثل شجاعته، وشجاعته مثل كرمه، وكرمه مثل حلمه، وحلمه مثل رحمته، ورحمته مثل مروءته ومن هنا كان جماع أمره عند قومه «الأمين»، وهذا اسم يمثل التكافؤ الخلقي أصدق تمثيل في شخصية محمد ﷺ، يوشك أن يكون معجزة الحياة في الإنسان؛ لأن التاريخ لم يذكر من النماذج العليا للبشرية من كان هذا التكافؤ الخلقي خليقته العامة سوى محمد ﷺ.

فشخصية محمد ﷺ كانت خلقاً عظيماً، في شبابه تزوج خديجة، وهي امرأة حسيبة شريفة كثيرة المال. عرفت محمداً ﷺ في شظف عيش وقلة ذات اليد، وعرفته في تكافؤه الخلقي وتزوجته. وغدا محمد ﷺ من أغنياء قريش مالها ماله وثراؤها ثراؤه، ولكن محمداً ﷺ ظل بعد هذا الثراء كما كان منذ ولد، ونهد، وشبّ، يعيش في شظف عيشة لا من قلة المال في يده، بل لأن خصيصة التكافؤ الخلقي عنده طبعته على الزهادة في الحياة المادية المترهلة، وعلى التسامي بنفسه عن المطامع. مضى محمد ﷺ في حياته الجديدة أميناً مع نفسه، أميناً مع قومه، أميناً مع زوجته، أميناً لماضيه، أميناً لمستقبله. وبقي يعيش في ظاهريته من شظف العيش والتكافؤ الخلقي، حتى كان آخر حياة شبابه منهما صورة من أولها.

إن محمداً ﷺ كان في المدة التي تقع بين زواجه وبعثته يتسبب لمعاشه بالتجارة، يباشرها بنفسه في الأسواق الداخلية، ويؤجر عليها أهل

المعرفة في الرحلات الخارجية. وكان ﷺ كلما تقدمت به الحياة ازداد انطواء عن حياة الناس، وحبّب إليه الاعتزال والتنسك. فكان يتنسك في (غار حراء) يطعم المساكين ويفكر في جلال الوجود وعظمة الكون، ويتأمل فيما حوله من حال قومه وإغراقهم في وثنيتهم وماديتهم المظلمة.

وكان محمد ﷺ يخلو بغار حراء حتى إذا قضى تَحَنُّفَهُ نزل فطاف بالبيت ثم التمّ بأهله وتزوّد لمثلها، وعاد إلى معتكفه. فالتعبد عمل شرعه الله في ملة إبراهيم عليه السلام، وعرفه محمد ﷺ قبل بعثته واطمأنت نفسه إلى شرعيته. فعبد الله به كما عبده بمحض التفكير والتأمل في بديع جلال الكون وما أودع الله فيه من آيات حتى جاء الحق، وبعثه الله رسولاً إلى الناس كافةً بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. على رأس (أربعين) سنة من عمره الشريف المبارك، فصلوات الله وتسليماته وبركاته عليه وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار ما تعاقب الليل والنهار[١].

❋ ❋ ❋ ❋

رسالة محمد ﷺ

بعث الله تعالى محمداً ﷺ برسالته لتكون خاتمة للرسالات الإلٰهية. إن بدء الوحي أساس النبوة وهي الحقيقة الكبرى في ميلاد جديد للنبيّ ﷺ. ميلاد روحاني بروحانيته مع ربه الذي اختاره لتلقي كلماته ووحيه، ويصور حياته مع نفسه التي اصطفاها الله لتكون منزل أمره ونهيه. والرسالة هي الحقيقة الإلٰهية العظمى مع ربه الذي اختاره سفيراً بينه وبين من شاء من عباده، يبلغهم عنه ضروب هدايته، ويصور حياته مع نفسه رسولاً يخرج الناس من ظلمات الجهالة والضلالة إلى نور العلم والهداية، ويصور حياته مع الناس في طريق دعوتهم إلى الله، ودعوتهم إلى الحق والخير[٢].

(١) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج١ ص٢٠٩ ـ ٢١٨.
(٢) محمد رسول الله، محمد رضا ص٦٧، الخصائص الكبرى للسيوطي ج١ ص٩٢.

روى البخاري عن بدء الوحي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤية إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء، فجاءه الملك فقال: «اقرأ»، قال: «**ما أنا بقارئ**»، قال: «**فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال:** ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾» [العلق: ١ ـ ٥]. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة رضي الله عنها فقال: «**زمِّلوني، زمِّلوني**» فزمّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْع، فقال لخديجة: «**لقد خشيت على نفسي**» فأخبرها الخبر فقالت: كلا، والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتُكْسِبُ المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد ابن عم خديجة، وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّله الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «**أوَمخرجي هم؟**»، قال: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِي[1].

قال ورقة بن نوفل: وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم أنشد:

لججت وكنت في الذكرى لجوجاً ... لهمّ طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكتين على رجائي ... حديثك أن أرى منه خروجا
بما خَبَّرتِنَا من قول قُس ... من الرهبان أكره أن يعوجا

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير ج٢١٤ ـ ٢١٥.

بأن محمداً سيسود قوماً ... ويَخْصِمُ من يكون له حَجِيْجَا
ويظهر في البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية: أن تموجا
فيلقى من يحارِبُه خساراً ... ويلقى مَن يسالمه فلوجا
فيا ليتني إذا ما كان ذاكم ... شهدت، وكنت أولهم ولوجا
ولوجاً بالذي كرهت قريش ... ولو عجَّت بمكتها عجيجا
أرجّي بالذي كرهوا جميعاً ... إلى ذي العرش إن سفلوا عروجا
وهل أمر السفالة غير كفر ... بمن يختار من سمك البروجا
فإن يبقوا وأبْقَ تكن أمور ... يضج الكافرون لها ضجيجا
وإن أهلك، فكل فتى سيلقى ... من الأقدار متلفة خروجا

وكان الوحي الذي يأتيه ﷺ أنواعاً؛ أحدها: «الرؤيا»، الثاني: «ما كان الملك يلقيه في روعه، أي: في قلبه من غير أن يراها»، الثالث: «أن الملك يتمثل له رجلاً فيخاطبه»، الرابع: «أنه كان يأتيه مثل صلصلة الجرس»، الخامس: «أنه يأتيه في الصورة التي خلق عليها»، السادس: «ما أوحاه الله له من فوق السماوات ليلة المعراج».

قال ابن القيم: أول ما أوحى إليه ربه: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق. وذلك أول نبوته ﷺ. فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره بالتبليغ. ثم أنزل الله عليها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ فنبأه باقرأ، وأرسله: بيا أيها المدثر. ثم أمره: أن ينذر عشيرته الأقربين. ثم أنذر قومه. ثم أنذر من حولهم من العرب. ثم أنذر العرب قاطبة. ثم أنذر العالمين[1].

وجاء في صحيح البخاري عن جابر بن عبدالله الأنصاري رضي الله عنهما وهو يحدث عن فترة الوحي فقال: قال رسول الله ﷺ في حديثه: «**بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني**

(١) مختصر سيرة الرسول، الإمام بن محمد عبدالوهاب ص٧٣ ـ ٧٥.

بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت، فقلت: زمِّلوني زمِّلوني[1] **فأنزل الله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ١ ـ ٥] **فَحَمِيَ الوحي وتتابع».**

وحدّث رسول الله ﷺ زوجته الوفية عن خلجات ضميره، وما شغل تفكيره إزاء ما ينتظره في مستقبل حياته من عظائم الأمور، وكبريات الأحداث، وما يتطلبه هذا المستقبل من عمل دؤوب وعزيمة صارمة، وصبر من الاحتمال، وقد مضى وقت النوم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ فنهض ﷺ مستجيباً لأمر ربه مشمِّراً عن عزيمة لا تفل، وهو يفكر في ما حمله من أعباء رسالة ليس كمثلها رسالة من رسالات مَن سبقه من الأنبياء والمرسلين.

فالناس كلهم في مشارق الأرض ومغاربها، ومَن دنا منهم ومَن بَعُدَ هُمْ أمة دعوته، ومكلف بتبليغ رسالته لهم، ودعوته ﷺ تستهدف إخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى وحده، إلى جانب تخليصهم من رذائل الأخلاق ليكونوا ربانيين في حياتهم وأخلاقهم، متحلِّين بالفضائل مستقيمي السلوك، كما تستهدف دعوته ﷺ تخليصهم من شراسة القوة الطاغية التي يصب المتجبرون في الأرض سياط عذابها على الضعفاء والمستضعفين.

هذه هي أهداف رسالة محمد ﷺ، لكن المجتمع البشري الذي أرسل فيه وإليه محمد ﷺ بجميع أممه وشعوبه وجماعاته وأفراده، لم يكن يعرف هذه الأهداف ولا يحاول أن يعرفها، بل كان هذا المجتمع يعيش على نقائض هذه الأهداف التي تتطلب قوة حازمة، وعزيمة صارمة من حاملي أمانتها ووارثي تبليغ رسالتها لكسر حدة تلك النقائص. ليخرجوا الحياة بمن فيها من ظلمات الأثرة وظلم الأنانية إلى نور الإيمان وعدل المساواة بتطبيق

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير ج٦ ص٢٠١ ـ ٢٢٢.

هذه الرسالة الخالدة. تكليف شاق وجهد مثقل ولكنه تشريف دونه كل شرف لرسول الله محمد ﷺ[١].

لقد كانت نبوة محمد ﷺ متقدمة بمراتب وحيها. وكانت رؤيته الصادقة في النوم أول مراتب وحي النبوة، حتى جاء وحي الرسالة في اليقظة بنزول القرآن الكريم، ومجيء الملك في غار حراء، فاستقرأه وغَطَّه، وأوحى إليه ما أوحى من آيات القرآن الكريم. فالنبوة كانت توطئة وتمهيداً للرسالة، فهي حالة من التربية الإلٰهية بالوحي الخاص إلى مَن يصطفيه الله تعالى لمقامها من عباده. أما الرسالة فهي إعداد وتكليف لمن يصطفيه الله تعالى لهذه المكانة السامية من مراتب السمو البشري. يقول الإمام ابن تيمية: النبيّ هو الذي ينبئه الله وهو بما أنبأه الله، فإن أرسل مع ذلك إلى مَن خالف الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول. وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قلبه ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبيّ وليس برسول[٢].

فمحمد ﷺ خاتم الأنبياء وسيد المرسلين نبئ بأول مراتب وحي النبوة وهي الرؤيا الصادقة، وأنه دام على نبوته حتى جاءه الملك بالرسالة في وحي اليقظة الذي بدأ بنزول أوائل سورة: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، ونزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾، جاء الأمر الإلٰهي ليوجه الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى التبليغ والتخويف من بطش الله ونقمته وعذابه، حتى جاء الوحي بمراتبه، وتعين من اختارته العناية الإلٰهية ليكون أول من يعز إلى الله بقبول رسالاته، وقد تمثل في دعوة الخواص الذين يجيبون دون تردد، فكانوا هم أسبق السابقين إلى الإيمان بالرسالة[٣].

كانت طليعة هؤلاء السابقين زوج النبيّ ﷺ الوفية الأمينة أعقل نساء العالمين السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها، التي كانت

(١) الخصائص الكبرى، للسيوطي ج١ ص٩٧.
(٢) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج١ ص٣٣٥ ـ ٣٣٨.
(٣) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج١ ص٥٠٦ ـ ٥٤١.

على أكمل المعرفة ببشائر نبوته ﷺ، بل كانت مطلعة على اصطفائه نبياً ورسولاً، حتى اختاره الله تعالى لنبوته ورسالته رحمة للعالمين. روى البخاري أن النبيّ ﷺ قال للسيدة عائشة رضي الله عنها حين قالت له في معرض ذكره ﷺ السيدة خديجة ووفائه لذكرها بعد وفاتها وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: «**إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد**»(١).

ومنهم علي بن أبي طالب كان ثاني اثنين في السبق إلى الإسلام، وهو ربيب النبوة المتقلب على فراش الإيمان، الشاهد في مهد أكرم المكارم. آمن في سن الصبا قبل أن يبلغ الحلم، فشبّ معه الإيمان حتى خالط مشاعره ووجدانه وملأ قلبه، وأفعم بالنور روحه، وكانت العناية الربانية قد ساقته إلى حجر رسول الله ﷺ.

ومنهم زيد بن حارثة ثالث ثلاثة في السبق إلى الإسلام، وهو حِبُّ رسول الله ﷺ ومولاه الذي أفرده الله بأشرف الشرف، فذكره في القرآن الكريم باسمه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧]. قال ابن عبدالبر: روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**أحب الناس إليّ مَن أنعم الله عليه وأنعمت عليه**»(٢).

ومنهم أبو بكر الصديق أول البشر إسلاماً ودعوة وتبليغاً، الصديق الأعظم وهو ثاني اثنين في أعظم منازل الفداء، ومن وسمه الله تعالى بأشرف الألقاب في القرآن، الذي يتعبد به ويتلى إلى يوم القيامة. قال الله

(١) صحيح البخاري، باب: تزويج النبيّ ﷺ ج٥.
(٢) مختصر صحيح مسلم، كتاب: فضائل أصحاب النبيّ ﷺ ج٢ ص٤٤٦ رقم ١٦٨٢ م١٣١/٧.

تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. يقول الإمام الشعبي: عاتب الله أهل الأرض جميعاً في هذه الآية غير أبي بكر رضي الله عنه.

وفي حديث البخاري في الصحيح أن النبيّ ﷺ قال: «**إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟**»(١). وقد نهض رضي الله عنه فور إيمانه إلى الدعوة ليحمل لواءها في ظل رسول الله ﷺ مشمراً في تبليغها، وكان رجلاً مألوفاً لقومه محبَّباً سهلاً ميسوراً، وكان رجال قومه يحفون به ويعظمونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته، وكان يدعو من يثق به من بيوتات قومه، واستجاب له خمسة من بيوتات قومه فكانوا أعمدة الدعوة وركائز تبليغ الرسالة وهم:

١ ـ عثمان بن عفان الأموي العبشمي.

٢ ـ طلحة بن عبدالله التيمي.

٣ ـ الزبير بن العوام الأسدي.

٤ ـ عبدالرحمٰن بن عوف الزهري.

٥ ـ سعد بن أبي وقاص الزهري.

وإن من أسلم من النساء بعد خديجة رضي الله عنها أم أيمن، وأم الفضل زوج العباس، وأم جميل فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر. وقد أسلم بعد هؤلاء بلال بن رباح الحبشي، أبو عبيدة بن الجراح، وعبدالله بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد، وخَبَّاب بن الأرَتّ، وعمير بن أبي وقاص، وعبدالله بن مسعود، ومسعود بن

(١) صحيح البخاري، باب: فضائل النبيّ ﷺ ج٥ ص٦.

ربيعة، وسُلَيْط بن عمر، وعياش بن أبي ربيعة، وخُنَيْس بن حُذَافَة، وعبدالله بن جحش، وأحمد بن جحش، وجعفر بن أبي طالب، وحاطب بن الحارث[1].

نهض محمد ﷺ ممتثلاً أمر ربه، مجيباً داعي الله في تبليغ رسالته بالاستسرار بالدعوة. وأن لا يسرع إلى معالنة مجتمع قومه المتعزز بوثنيته، المتعظم بشروره ومفاسده الخلقية والاجتماعية، وأن لا يجهر لهم بتبليغ رسالته إليهم. فلتكن الخطوة الأولى في سير الرسالة بمثابة إلقاء البذرة في الأرض الصالحة، رجاء أن تنبت وتثمر حتى تصل الدعوة إلى قلوب مستعدة لتقبل دعوة الحق، وليعد لها أرضاً صلبة تقف عليها في كفاحها ونضالها عند الجهر بها للذين على قلوبهم أقفالها عناداً وجحوداً واستكباراً في الأرض، وهؤلاء المستكبرون هم الذين يحتاجون من الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ إلى صبر الكفاح، ونضال العناء، ومجاهدة البغي، ومقاومة الظلم.

واتخذ رسول الله ﷺ من دار الأرقم أول معهد لتعليم المسلمين أمور دينهم، وإقرائهم ما ينزل عليه من القرآن، ويستقبل فيها من يقبل الإسلام يريد اعتناقه. وكانوا قد تسامعوا بدعوته، وصكت آذانهم معالم هدايته، وعرفوا الكثير ممن اتبعه وآمن به. وبهذه المعاملة التي كانت أثراً من آثار الحكمة في الاستسرار بالدعوة، تمكنت الدعوة في زمن استسرارها من السير إلى القلوب والعقول، فدلف إلى حظيرتها عدد غير قليل من فتيان قريش وذوي بيوتاتها، والوافدين على مكة من غير أهلها من صادقي الإيمان أقوياء العقيدة، الذين تخشى قريش في عتوها شجاعتهم وقوة بأسهم. فكان هؤلاء قوة للضعفاء والمستضعفين الذين آمنوا على حذر من قومهم أن يفتنوهم في دينهم.

يذكر رواة السيرة النبوية أن الله تعالى فرض على رسوله ﷺ صلاة

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص٦٨ ـ ٧٩.

أول ما أوحى إليه، أي: قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء، كما يؤخذ من حديث أسامة بن زيد عن أبيه قال: كان ﷺ يصليها ويعلمها أصحابه، وهم مستخفون بإيمانهم ودعوتهم إلى الله. وأخرج ابن إسحاق في سيرته أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان فيها، فإذا أمسيا رجعا كذلك، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا[١].

ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان، فقال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: «**أي عم، هذا دين الله، ودين ملائكته ورسله، ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله به رسولاً إلى العباد. وأنت أي عم، أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه**»، فقال أبو طالب: أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن لا يخلص إليك شيء تكرهه ما بقيت. فعمومة النبيّ ﷺ وخاصة زعيمهم وكبير قومه أبو طالب كانوا في الذروة من قريش مكانة واحتراماً، وكانوا من العرب عامة في القمة سيادةً وشرفاً، وتمجداً. هذا الوضع الاجتماعي جعلهم أحرص العرب على التمسك بدين آبائهم وتقاليدهم في الجاهلية، فهم بزعامتهم لقريش جيران البيت المعظّم وسدنته[٢].

إن الذين دخلوا في الإسلام مدة استسرار الدعوة لم يكونوا من الضعفاء، فأنساب وأسماء هؤلاء السابقين الأولين قد بلغوا عدداً كان يمكنهم به رد الاعتداء على أنفسهم، لو أنه كان قد أذن لهم في ذلك. ولكن دعوة محمد ﷺ إلى رسالته والإيمان بهديه لم تكن تقصد إلى إشعال نيران القتال في بيوتات قريش، التي دلف كثير من شبابها إلى الاستجابة لدعوة محمد ﷺ، لأن هدف هذه الدعوة هو فتح القلوب والعقول إليها وتقبلها.

---

(١) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج١ ص٥٩٨ ـ ٦٠٥.
(٢) تاريخ الطبري ج٢ ص٣١٣، سيرة ابن هشام ج١ ص١٦٣.

إن الخطة الحكيمة في الاستسرار بالدعوة ظهرت آثارها فيما حققته من نجاح يتمثل عدد وقوة إيمان من دلف إليها إيماناً بها وتصديقاً بهديها. وتسامع العرب بها في مواسمهم ومحافلهم. فأقبل إلى مكة فريق منهم يتحسس أخبارها ويتعرف مكانها في خفية وحذر، حتى إذا بلغوا مأمنها في دار الأرقم أسلموا لله تعالى واتبعوا رسوله ﷺ واهتدوا بهديه، وصدقوا رسالته، وآمنوا بما جاء به من الحق.

ولو لم تكن من آثار «الاستسرار» بالدعوة وسداد حكمتها إلا أنها جذبت أول خطوتها إلى ساحة الإيمان برسالة محمد ﷺ أشجع رجلين كانا في قريش هما: «حمزة بن عبد المطلب، وعمر بن الخطاب» رضي الله عنهما، بهما أعزّ الله دينه، وأعلى كلمته، وأيّد نبيه ﷺ، وقوّى جانبه، ففي السنة الثانية للوحي أسلم كل من:

حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ وأخوه من الرضاعة، وابن خالته نسباً ومنزلة، أعز فتى في قريش وأشدهم شكيمة، أسد الله وأسد رسوله، سيد الشهداء، رافع راية الإسلام والتوحيد. وكان سبب إسلامه أن أخته صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وأم الزبير بن العوام، أخبرته وهو عائد من قنصه، إن أبا جهل بن هشام قد آذى ابن أخيه محمد ﷺ ولم يرد سفاهته. فاحتمل الغضب والحمية حمزة رضي الله عنه، لما أراد الله به من الكرامة ولدينه ونبيه من الإعزاز. فخرج يشتد معداً لأبي جهل الإيقاع به، فلما دخل المسجد نظر إلى أبي جهل جالساً في قومه، فأقبل نحوه وضربه بقوسه فشجه شجة منكرة وقال له: أتشتمه وأنا على دينه؟ فحمي لأبي جهل رجال من قوم بني مخزوم لينصروه. فقال له أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإني والله قد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحاً.

ومضى حمزة رضي الله عنه في طريق الإيمان حتى بلغ مقاماً لم يبلغه غيره من المسلمين، فهو سيد الشهداء بشهادة سيد الخلق ﷺ، وهو أسد الله وأسد رسوله، كان إسلامه عزاً للمسلمين ومنعة وقوة للنبيّ ﷺ. أذل كبرياء

قريش وقتل كبراءها، وظهرت به الدعوة بعد استخفائها، وأعلنت بصوته كلمة الحق بعد استتارها، وجهر بالتكبير لله تعالى على سمع طغاة قريش فأراهم عزة الحق وانتصاره(١).

وعمر بن الخطاب، فاروق الإسلام، وعز المسلمين، كان إسلامه بعد إسلام حمزة رضي الله عنهما بثلاثة أيام. وكان رسول الله ﷺ يعرف شهامة عمر وشجاعته وجرأته على الجهر بما يعتقد. فكان يحب أن يهديه الله إلى الإسلام، ليكون له ناصراً، وتكون شجاعته قوة لهذا الدين الحق الذي بعث الله نبيه رحمة للعالمين، فكان ﷺ يدعو الله تعالى أن يهديه للإيمان، ويجعله درعاً من أدرع هذا الدين، فيقول فيما أخرجه الترمذي عن النضر عن عكرمة عن ابن عباس: «**اللَّهمَّ أعز الإسلام بعمر بن الخطاب**»(٢). لقد استجاب الله دعاء نبيه ﷺ، وألقى في قلب عمر الإيمان، وأعزّ الله به الإسلام والمسلمين. وروى ابن ماجه عن ابن عباس قال: لما أسلم عمر رضي الله عنه نزل جبريل عليه السلام على النبيّ ﷺ فقال: لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر رضي الله عنه. وأخرج ابن المنذر عن ابن المسيب وأبي جبير قالا: لما أسلم مع النبيّ ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلاً، وستة نسوة ثم أسلم عمر نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤]. ولم يُسْلِم عمر رضي الله عنه طمعاً ولا تقليداً، لكنه أسلم مستقلاً حراً كريماً، فإسلامه إسلام إيمان صادق.

وأذن الله تعالى لدعوة الإسلام أن تعلن عن نفسها، وأذن لرسولها ﷺ أن يجهر بها بعد أن تحققت حكمة الاستسرار بها، وبعد أن توافرت عوامل الجهر، وأصبح المسلمون في قوة تمكنهم من الانتصاف لأنفسهم. وخرج رسول الله ﷺ كما يقول عمر في صفين من أصحابه، أنا في أحدهما وحمزة في الآخر حتى دخلنا المسجد، فنظرت إلينا قريش فأصابتهم كآبة لم تُصبهم قط. ودخل الناس في دين الله أفواجاً وجماعات، وتمّت كلمة الله

(١) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج١ ص٦٠٧ ـ ٦٠٩.
(٢) الجامع الصحيح، سنن الترمذي، كتاب: المناقب ج٥ ص٦١٨ رقم ٣٦٨٣.

ومضت الرسالة الخالدة في سيرها، تفتح القلوب وتكافح أعداءها، متذرعة بالصبر الجميل، وتَنَزَّل نصر الله متدرجاً تدرج الوحي بالتشريع، حتى أكمل الله نعمته على عبده ورسوله وعلى المؤمنين.

❋ ❋ ❋ ❋

الجهر بالدعوة

كان إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما بدء دخول الإسلام من طور الدعوة المتخفية إلى طور العلانية والجهارة، وأعزّ الله بإسلامهما دينه، وشدّ بهما عضد نبيه ﷺ. وخرج المسلمون من اختفائهم بدعوتهم، وأعلنوا عن إيمانهم، وجهر صوتهم بتوحيد الله وتكبيره، وطافوا بالبيت المحرّم علانية. واستشرى الأمر بين الطغيان وبين رسالة محمد ﷺ، وهي رسالة تستهدف الإيمان بالله إلٰهاً واحداً متفرداً بالخلق والرزق والإحياء والإماتة والتدبير، فلا يعبد سواه. كما تستهدف إزالة جميع ألوان الكفر والضلالة. ونشأ الإسلام ودخل كثير في رحابه أرتالاً، واشتد ساعد المسلمين، وقويت عزائمهم، وصبروا على احتمال الأذى. وأتمّ الله تعالى على رسوله ﷺ ما كان ينبغي من استسراره لدعوته في مطلعها، ذلك الاستسرار الذي استمر قريباً من ثلاث سنين، كانت محضناً لتربية الرعيل الأول من كتائب الإسلام[1].

أمر الله سبحانه وتعالى النبيّ ﷺ بالجهر بالدعوة إلى عشيرته الأقربين. قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤، ٢١٥]. فصعد رسول الله ﷺ مكاناً مرتفعاً في أسفل جبل أبي قبيس في مواجهة الكعبة فقال: «**يا معشر قريش**»، فأقبلوا واجتمعوا فقالوا: ما لك يا محمد؟ قال: «**أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم تصدقونني؟**»، قالوا: نعم أنت عندنا

(١) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج٢ ص١٥٦ ـ ١٧٤.

غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة** ـ حتى عدَّد الأفخاذ من قريش ـ **إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وأني لا أملك لكم من الدنيا ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله**». فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا[1]؟ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد: ١]، فلما سمع أبو لهب قوله قال: إن كان ما يقول محمد حقاً افتديت منه بمالي وولدي، فنزل قوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المسد: ٢]. فكان أبو لهب إذا سأله وفد عن النبيّ ﷺ قال: إنه ساحر ومجنون لينصرفوا عنه. وقد أغضبت هذه السورة أبا لهب، فأظهر شدة العداوة، وصار متهماً فلم يقبل قوله في رسول الله ﷺ. وروي عن طارق المحاربي قال: رأيت رسول الله ﷺ في السوق يقول: «**أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله، تفلحوا**» ورجل خلفه يرميه بالحجارة وقد أدمى عقبه، ويقول لا تطيعوه فإنه كذاب. فقلت: مَن هذا؟ قالوا: محمد وعمه أبو لهب.

إن ما قام به رسول الله ﷺ في تنفيذ ما أُمِرَ به بإنذار قرابته، يبين أن أحداً كائناً مَن كان من الأقرباء لرسول الله ﷺ لا يخلصه من عذاب الله وسخطه إلا إيمانه بربه. وأن الناس في هذا جميعاً سواسية لا تنفع قريباً قرابته، فالخلق كلهم عباد الله، فمَن آمن منهم بالله ورسوله ﷺ كان عند الله برًّا تقياً، ومَن لم يؤمن بالله ورسوله كان عند الله فاجراً شقياً.

وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالجهر العام بالدعوة لكل من يستطيع صوت الدعوة أن يصل إليه. قال تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾ [الحجر: ٩٤]، أي: لا تُبَالِ بهم ولا تلتفت إلى لومهم. وينادي رسول الله ﷺ سائر قومه بدعوتهم إلى توحيد الله وترك عبادة الأصنام، ولم يعلنوه بشديد العداوة حتى إذا عاب عقائدهم وهزأ بآلهتهم، فأعظموا ذلك وأنكروا وحاولوا معه ﷺ أن يكف عن عيب آلهتهم والسخرية

(١) صحيح البخاري، كتاب: التفسير ج٦ ص١٤٠.

من عقيدتهم، فلم يعتبهم ﷺ ولم يقم لعتبهم وزناً، فتذامروا عليه وانتهضوا لمقاومته والوقوف أمام دعوته، ولكنهم كانوا يرون حماية عمه أبي طالب له ودفاعه عنه، وهم يعلمون مكانة أبي طالب منهم. فعمدت بطون قريش إلى أبي طالب شاكين إليه ابن أخيه، من أنه سبّ آلهتهم وعاب دينهم وسفه أحلامهم، فردّهم أبو طالب ردًّا جميلاً، ولم يبدِ منه لرسول الله ﷺ شيئاً يصده عن دعوته[١].

وقد رأت قريش أن أبا طالب لم يعتبهم في شأنه، وازداد حرصه على منعه وحمايته، فمشوا إليه مرة ثانية يذكرونه بأمرهم معه. فقالوا له: إن لك سِنًّا وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإننا والله لا نصبر على هذا حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين. ففكر أبو طالب وعظم عليه هذا الموقف، فعرض الأمر على ابن أخيه، وأشعره بوعيد قومه وتهديدهم، عسى أن يلين جانبه، ثم استعطفه فقال: فأبقِ عليّ وعلى نفسك، ولا تحمِّلني من الأمر ما لا أطيق. فظنّ رسول الله ﷺ أن عمه قد ضعف عن القيام معه، وعن حمايته ونصرته فقال له: «**والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ما تركته**». ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ثم قام، فلما ولّى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي، اذهب فقُلْ ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً[٢].

روى ابن إسحاق عن ابن كعب قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويَكُفَّ عنا. قالوا: بلى، فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من

(١) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج٢ ص٨٠ ـ ٨٦.

(٢) تاريخ الطبري ج٢ ص٣٢٣ ـ ٣٢٦، ذكره ابن إسحاق في السيرة النبوية دون سند، وقال الألباني: لكن وصله الأموي، وسنده حسن.

السلطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعاتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، فاسمع أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها. فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا الوليد، أسْمَع**»، فقال عتبة: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سَوَّدْنَاك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلْكاً مَلَّكْنَاك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً لا تستطيع رَدَّه عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

فلما فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يسمع منه قال: «**فاسمع مني**»، بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ إلى قوله: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ [فصلت: ١ ـ ٨]. فلما سمعها منه رجع عتبة إلى أصحابه، فلما قال بعضهم لبعض، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. قال: إني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، خَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به. فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال عتبة: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم.

لقد انتهى موقف الحوار والمفاوضة مع رسول الله ﷺ مع طغاة قريش نتيجة لما أفعم نفوسهم من اليأس وامتلأت قلوبهم حقداً وعتواً بعد أن تجلى لهم موقف رسول الله ﷺ في حوارهم معه فلم يجدوا عنده هوادة في عزيمته والقيام بأمر دعوته، ويئست قريش أن تجد لها منفذاً فيما عرضت عليه من مظاهر دنياها. فأعرض عنها متسامياً في عبودية ربه مترفعاً برسالته عن دناءات الدنيا المادية من ثراء وزخرف وزينة، وشرف وسيادة، وملك وسلطان. وأبى عليهم إلا أن يقولوا كلمة واحدةً هي: «لا إلٰه إلا الله» فإذا

قالوها ملكوا بها الدنيا من أطرافها، والحياة من أقطارها شرفاً حقيقياً وسؤدداً[١].

وقد قابل رسول الله ﷺ وأصحابه سفه قريش وإيذاءها بأجمل الصبر وأعلى مراتب العفو، والإعراض عن المجازاة والصفح عن الإساءات.

روى البخاري عن عروة بن الزبير قال: سألت عبدالله بن عمرو بأشد شيء صنعه المشركون بالنبيّ ﷺ؟ قال: بينما النبيّ ﷺ في حِجْر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً. فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه فدفعه عن رسول الله ﷺ ثم قال: «**أتقتلون رجلاً أنْ يقولَ: ربي الله؟**»[٢].

وأخرج البيهقي من حديث ابن عباس عن فاطمة الزهراء عليها السلام قالت: اجتمع المشركون الحجر فقالوا: إذا مرّ محمد ضربه كل رجل منّا ضربة. فسمعت فاطمة فأخبرته ـ أي: أباها رسول الله ﷺ ـ فقال لها: «**اسكتي بنيّة**»، ثم خرج فدخل عليهم فرفعوا رؤوسهم ثم نكسوا قالت فاطمة عليها السلام: فأخذ النبيّ ﷺ قبضةً من تراب فرمى بها نحوهم ثم قال: «**شاهت الوجوه**» فما أصاب رجلاً منهم إلا قتل يوم بدر كافراً، وأخرج أبو يعلى عن أنس بن مالك قال: لقد ضربوا رسول الله ﷺ حتى غشي عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويْلَكُم أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله؟ فتركوه وأقبلوا على أبي بكر رضي الله عنه[٣].

وفي رواية البخاري: كان رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة وجَمْعٌ من قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيُّكُم يقوم إلى جزور آل فلان فيعمد إلى فَرْثِها ودمها وسلاها فيجيء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه، وثبت النبيّ ﷺ ساجداً فضحكوا فانطلق

(١) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج٢ ص٢٦٥ ـ ٢٧٤.
(٢) صحيح البخاري، باب: فضائل أصحاب النبيّ ﷺ ج٥ ص١٢ ـ ٧٥.
(٣) محمد رسول الله، محمد رضا ص٨٩.

منطلق إلى فاطمة، فأقبلت تسعى، وثبت النبيّ ﷺ حتى ألقته عليهم تسبُّهم. فلما قضى رسول الله ﷺ قال: «**اللَّهمَّ عليك بقريش**» ثم سمّى فقال: «**اللَّهمَّ عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد**» وقد سقطوا جميعهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى قليب بدر، أما عقبة بن أبي معيط فكان من أسرى بدر، وأمر رسول الله بقتله.

أما أصحاب رسول الله ﷺ فقد اشتدت عليهم المِحَن وعظم البلاء. روى ابن إسحاق عن ابن العباس رضي الله عنه من طريق سعيد بن جبير قال: قلت لعبدالله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما كانوا يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم، والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه، ما يقدر أن يستوي من شدة الذي نزل به[1].

وقد اشتهر من هؤلاء المعذبين أبطال كانوا غرة اليقين في جبين الإسلام، فمن الذين عُذِّبوا من أجل إسلامهم: بلال بن رباح الحبشي كان أمية بن خلف يلقيه إذا حميت الشمس في الرمضاء على ظهره وبطنه ثم يأمر بصخرة كبيرة فتلقى على ظهره، ويقول: لا تزال هكذا أو تكفر بمحمد، وهو يقول: أحد أحد، فاشتراه أبو بكر وأعتقه فقال المشركون: ما فعل أبو بكر ببلال هذا إلا ليد كانت لبلال عنده، فنزلت: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١٩ ـ ٢١].

وعمار بن ياسر أسلم وأبوه وأمه، وكان ياسر حليفاً لبني مخزوم يخرجونهم الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم، فمرّ بهم النبيّ ﷺ فقال: «**صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة**»، ومات ياسر في العذاب، وأغلظت امرأته القول لأبي جهل فطعنها فماتت وهي أول شهيدة في الإسلام. أما عمار فشدّدوا عليه العذاب وقالوا: لا نتركك حتى تسب محمداً، ففعل فأتى النبيّ ﷺ يبكي فقال: «**ما وراءك؟**»، قال: شرّ يا رسول الله، كان الأمر كذا

(١) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج٢ ص٢٢٨ ـ ٢٢٩.

وكذا، فقال: «**كيف تجد قلبك؟**»، قال: أجده مطمئناً بالإيمان، فقال: «**يا عمار، إن عادوا فعُد**»، فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

وخَبَّاب بن الأرَتّ كان إسلامه قديماً، عذّبه الكفار عذاباً شديداً فكانوا يعرونه ويلصقون ظهره بالرمضاء والحجارة المحمّاة بالنار(١).

روى البخاري عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: أتيت النبيّ ﷺ وهو متوسد بُرْدَه، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدّة فقلت: ألا تدعو الله؟ فقعد وهو محمر الوجه فقال: «**قد كان من قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله عزَّ وجلَّ، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»(٢). وصهيب بن سنان الرومي كناه رسول الله ﷺ أبا يحيى، وكان ممن يعذَّب في الله، فلما أراد الهجرة منعته قريش فافتدى نفسه.

وقد مضى رسول الله ﷺ في النهوض بدعوته وتبليغ رسالته قوياً لا يبالي ما يلاقي من بلاء وعناء. فبسط مدى دعوته في أكناف مكة وما حولها، فكان لا يسمع برئيس قبيلة أو زعيم عشيرة من بيوتات العرب وبطونهم في منزل من منازل الوافدين إلى مكة للتجارة أو الحج إلا ذهب إليه يدعوه وقومه إلى الله.

وبدأ أبو لهب في تكذيبه والتحذير من قبول دعوته، ولهذا قال النبيّ ﷺ: «**ما أوذي أحد ما أوذيت**»، بيد أن جماهير القبائل العربية وفيهم عقلاؤهم كانوا يرجعون مواسمهم ولا حديث لهم إلا في رسول الله ﷺ وشأن دعوته(٣).

---

(١) محمد رسول الله، لمحمد رضا ص٨٨ ـ ٩٠.
(٢) صحيح البخاري، باب: فضائل أصحاب النبيّ ﷺ ج٥ ص٥٦.
(٣) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج٢ ص٢٣٢ ـ ٢٣٧.

واجتمع ملأ قريش إلى طاغيتهم وصاحب ثرائهم الوليد بن المغيرة، وكان قد بلغ من الهرم عتياً فقال لهم: إن وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم، فأجمعوا فيه رأياً نقول به. قالوا: نقول: هو كاهن، فقال: والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهّان. فقالوا: نقول: مجنون، فقال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه. فقالوا: نقول: هو شاعر، قال: ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه، وقريظه ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بشاعر. وإن أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر، جاء بقول هو السحر، ليفرق بين المرء وأخيه وزوجه وأبيه وعشيرته. فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره. وردّ كيدهم في نحورهم وانتشرت الدعوة إلى الله، وسارت في كل منزل من منازل العرب وأحيائهم.

وأخرج الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبيّ ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقَّ له، فبلغ أبا جهل فقال: يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه. فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً. قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، والله ما يشبه هذا الذي يقوله شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته، قال أبو جهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه قولاً. فقال الوليد: دعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر[1]، فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ [المدثر: ١١]. ثم أتبع القرآن الحكيم الجزاء العادل الذي ينتظر هؤلاء فقال: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ [المدثر: ٢٦ ـ ٢٩]. والوليد بن المغيرة هو المقصود فيما جاء في هذه الآيات من خبائث الصفات وأرذل الرذائل. قال الإمام القرطبي: إن آيات من سورة (ن) أُنزلت في الوليد بن المغيرة

(١) الخصائص الكبرى، للسيوطي ج١ ص١١٣.

وكان يطعم أهل منى حيساً ثلاثة أيام وكان ينفق في الحجة الواحدة أكثر من عشرين ألفاً، ولا يعطي المسكين درهماً واحداً فقيل: (مَنَّاعٌ للخير). وفيه نزل ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت: ٦، ٧].

قال ابن إسحاق[1]: كان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذي النبيّ ﷺ. وقد قدم الحيرة وتعلّم بها أحاديث ملوك الفُرس، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فذكر فيه الله خلفه في مجلسه إذا قام ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه. وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن كل ما في القرآن من ذكر الأساطير، أي: في وصف آياته بها، قد نزل في النضر بن الحارث. جلس مرة يقص على ملأٍ من قريش أحاديث الخرافات والأباطيل، فبعثوه هو والشقي عقبة بن أبي معيط إلى يهود المدينة ليسألاهم عن محمد ﷺ وعن دعوته ورسالته فذهبا إليهم وقالا لهم: أنتم أهل توراة فأخبرونا عن صاحبنا هذا؟ فقالت أحبار اليهود لهما: اسألوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم فهو نبيّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل فروا فيه رأيكم:

١ ـ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجب.

٢ ـ وسلوه عن رجل طَوَّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟

٣ ـ وسلوه عن الروح ما هي؟

فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبيّ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل. فأقبل النضر وعقبة حتى قدما مكة فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد. فذهبوا إلى رسول الله ﷺ وذكروا له مسائل يهود مستخبرين عنها. فقال لهم رسول الله ﷺ: «**أخبركم بما سألتم غداً**» ولم

(١) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج٢ ص٢٦٠ ـ ٢٦٣.

يستثنِ، أي: لم يقل ﷺ: «**إن شاء الله**»، فمكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلةً لا يحدث الله إليه وحياً، ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة، فشقّ على الرسول الوحي وما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه جبريل بسورة أصحاب الكهف(١).

وهنا نجد درساً تربوياً فيما يتعهد به الله تعالى نبيه ورسوله ﷺ في تعليمه وتأديبه، حتى يكمله في خصائص الدعوة إلى الله تعالى ليكون أسوة لأمته، وأن يكون راية في جميع أفعاله تعليق ذلك على مشيئة الله لترتبط أعماله كلها بإرادة الله مهما كان مقامه من الله تعالى، قال لنبيه ﷺ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤].

وجاء جبريل من الله عزَّ وجلَّ يخبره ما سألوه عنه(٢)، فقال تعالى في شأن الفتية: ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف: ٩]. وقال في شأن الرجل الطوّاف: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ۝٨٣﴾ الآية [الكهف: ٨٣]، وقال تعالى فيما سألوه عن أمر الروح: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥]، وأنزل الله عليه ﷺ فيما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وبعث مَن مضى من آبائهم من الموت: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾ [الرعد: ٣١]، أي: لا أصنع من ذلك إلا ما شئت. وأنزل عليه في قولهم: خذ لنفسك ما سألوه أن يجعل له جناناً وقصوراً وكنوزاً أو يبعث ملكاً يصدقه بما يقول ويرد عنه ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۙ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان: ٧] الآية. وأنزل الله عليه فيما قال عبدالله بن أبي أمية: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ

(١) الخصائص الكبرى، للسيوطي ج١ ص١٤٣.
(٢) السيرة النبوية، لابن هشام ج١ ص٣٢١ ـ ٣٣٤.

خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣]. وأنزل عليه فيما قال أبو جهل وما همّ به: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ [العلق: ٩، ١٠] الآية. وأنزل عليه فيما عرضوا من أموالهم: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾﴾ [سبأ: ٤٧].

وكانت هذه الفترة من سيرة الرسالة بشدائد المحن وفوادح البلاء، وقف فيها رسول الله ﷺ يكافح في سبيل دعوته وتبليغ رسالته صابراً محتسباً. وسدّت قريش بطغيانها على نفسها منافذ الإيمان وتقبُّل الحق، وعتت عن أمر ربها ورسالته. وأنزل الله عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [يس: ٨ ـ ١٠] وكان هذا بياناً من الله تعالى أن هؤلاء قد طبع الله على قلوبهم فهم عمي بكم صم لا يرجعون عن غيهم وعتو كفرهم، وقد أمر الله رسوله أن يُعرض عنهم. وكان هذا توجيهاً لرسول الله ﷺ إلى الانتقال بدعوته وتبليغ رسالته بعيداً عن مكة وقريش. وكان هذا التوجيه منفذاً من منافذ سريان الدعوة إلى العقول والقلوب.

❋ ❋ ❋ ❋

المقاطعة الظالمة

لم يتوقف رسول الله ﷺ لحظة واحدة عن القيام بأمر ربه في تبليغ رسالته ونشر دعوته. وهو يلقى من مِحَن البلاء وسفاهة السفهاء في سبيل سير الدعوة والوصول بها إلى غايتها صابراً محتسباً كريماً حليماً. مما جعل الدعوة تدخل كل مجتمع، وتحدّث الناس عن هذه الدعوة بين موافق معجب ومخالف مقلّد. أما كبار المشركين من قريش فقد راحوا يمكرون

لينفذوا أبشع جريمة غادرة خؤون، فلم يبقَ أمام ظلم ذوي القربى إلا قاصمة الظهر. ذلك أن يقتلوا محمداً ﷺ ليجعلوا قومه بني هاشم أمام عاصفة لا قِبَل لهم بالوقوف أمام زمجرتها[١].

أخرج البيهقي في الدلائل: ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا، حتى بلغ بالمسلمين الجهد واشتد عليهم البلاء، واجتمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية. فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يُدْخِلُوا رسول الله ﷺ شِعْبَهُم، ويمنعوه ممن أراد قتله. فاجتمعوا على ذلك، مسلمهم وكافرهم، فمنهم مَن فعل ذلك حَمِيَّةً، ومنهم مَن فعل إيماناً ويقيناً، عدا أبو لهب فقد تظاهر مع قريش، وذلك في السنة السابعة من النبوة. ثم أمر رسول الله ﷺ مَن كان بمكة من المؤمنين أن يخرجوا إلى الحبشة وهي الهجرة الثانية ومَن قوي على البقاء دخل مع النبيّ ﷺ وقومه الحصار بالشعب.

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ واجتمعوا على ذلك. اجتمع المشركون من قريش فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم، ولا يبايعوهم، ولا يدخلوا بيوتهم إلا أن يسلموا رسول الله ﷺ للقتل. وكتبوا بمكرهم صحيفة ألاّ يقبلوا من بني هاشم أبداً صُلْحاً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلّموا محمداً ﷺ للقتل. فلبث بنو هاشم في شِعْبِهم ثلاث سنين واشتد عليه البلاء والجهد، وأنفق أبو طالب ماله، وأنفقت خديجة مالها، وصاروا إلى حد الفاقة. ثم أطلع رسول الله على أمر صحيفتهم وأن الأرضة قد أكلت ما كان فيها من جور وظلم وبقي ما كان فيها من ذكر الله، فذكر ذلك لأبي طالب فأخبر إخوته وخرجوا إلى المسجد[٢]. فقال أبو طالب لكفار قريش: إن ابن أخي أخبرني، ولم يكن يكذبني قط، أن الله قد سلّط على صحيفتكم الأرضة فلحست ما كان فيها من جور وظلم، وبقي ما كان فيها من ذكر الله، فإن كان ابن أخي صادقاً نزعتم عنه سوء رأيكم، وإن كان

(١) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج٢ ص٢٩٣ ـ ٣٠١.
(٢) تاريخ الطبري ج٢ ص٣٤١ ـ ٣٤٢.

كاذباً دفعته إليكم فاقتلوه، فقالوا: أنصفتنا، فأرسلوا إلى الصحيفة ففتحوها فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، فسقط في أيديهم ونكسوا على رؤوسهم. فقال أبو طالب: علام نُحْبَسُ ونُحْصَر وقد بان الأمر، وتلاءم رجال من قريش على ما صنعوا ببني هاشم فلبسوا السلاح، ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم، وكان خروجهم من الشِّعْب في السنة العاشرة من النبوة.

قال ابن إسحاق: فلما اجتمعت على ذلك قريش، وتظاهروا على رسول الله ﷺ. قال أبو طالب:

ألا أبلغا عني على ذات بيننا ... لؤياً وخُصّا من لؤي بني كعب
ألم تعلموا أنا وَجَدْنَا محمداً ... نبياً كموسى خُطَّ في أول الكُتْب
وأنَّ عليه في العباد مَحَبَّةً ... ولا خير أخْيَرُ ممن خَصَّهُ الله بالحب
وأن الذي ألصقْتُمُ من كتابكم ... لكم كائن نحساً كراغية السَّقْب
أفيقوا أفيقوا قبل أن يُحْفرَ الثرى ... ويُصْبِحُ من لم يَجْن ذنباً كذي الذنب
ولا تتبعوا أمر الوشاة وتقطعوا ... أواصرنا بعد المودة والقرب

إلى أن قال:

فلسنا وَرَبُّ البيت نُسْلِمُ أحمداً ... لعزاء من عض الزمان ولا كرب[1]

إلى أن قال:

ألَيس أبونا هاشم شِدَّ أزْرَه ... وأوصَى بَنيه بالطعان وبالضّرب
ولسنا نَمَل الحرب حتى تملَّنا ... ولا نشتكي ما قد ينوب من النكْب
ولكنّنا أهلُ الحَفائظ والنُّهى ... إذا طار أرواحُ الكُماة من الرُّعْب[2]

أخرج البيهقي وأبو نعيم من طريق موسى بن عقبة الزهري قال: فلما كان رأس الثلاث سنين، تلاوم رجال من بني عبد مناف ومن بني مضر،

(١) عض الزمان: شدته، وفي «عظ الزمان» والعظ الشدة.
(٢) السيرة النبوية، لابن هشام ج١ ص٣٧٧ ـ ٣٧٩.

ورجال سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بني هاشم رأوا أنهم قد قطعوا الرحم، وأجمعوا أمرهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراء منهم. وبعث الله على صحيفتهم الأرضة فلحست كل ما كان بينها من شرك أو ظلم أو قطيعة رحم. وأطلع الله رسوله على الذي صنع في صحيفتهم فذكر ذلك لأبي طالب فقال: ما كذبني. حتى أتى المسجد وهو حافل بقريش فقال: إن ابن أخي أخبرني ولم يكذبني أن الله بريء من هذه الصحيفة. ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها فخرج النبيّ ورهطه فعاشوا وخالطوا الناس[١].

ولما فرقت الصحيفة وبطل ما فيها أبو طالب فيما كان أولئك النفر الذين قاموا في تمزيقها يمدحهم في فعلهم:

ألا هل أتى بحرينا[٢] فعل ربنا ... على نأيهم والله بالناس أرود[٣]
فيخبرهم أن الصحيفة مزِّقَت ... وأنْ كُلَّ ما لم يرضه الله مفسد
تراوحها إفك وسحر مجمع ... ولم يُلْفَ سحر آخر الدهر يصعد
جزى الله رهطاً بالحجون تبايعوا ... على ملأ يهدي لحزم ويرشد
قعوداً لدى خطم الحجون كأنهم ... مقاولة بل هم أعز وأمجد
أعان عليها كل صقر كأنه ... إذا ما مشى في رفرف الدرع أجرد
جريء على جل الخطوب كأنه ... شهاب بكفي قابس يتوقد
من الأكرمين من لؤي بن غالب ... إذا سيم خسفاً وجهه يتربد
طويل النجاد خارج نصف ساقه ... على وجهه يسقى الغمام ويسعد
عظيم الرماد سيد وابن سيد ... يحض على مقري الضيوف ويحشد
ويبني لأبناء العشيرة صالحاً ... إذا نحن طفنا في البلاد ويمهد
ألظّ بهذا الصلح كل مبرأ ... عظيم اللواء أمره ثَمَّ يحمد

(١) الخصائص الكبرى، للسيوطي ج١ ص١٥٠ ـ ١٥١.
(٢) بحرينا، يعني الذين بأرض الحبشة، نسبهم إلى البحر لركوبهم إياه.
(٣) أرود: أرفق، ومنه «رويدك»، أي: رفقاً.

قضوا ما قضوا في ليلهم ثم أصبحوا ... على مَهَلٍ وسائر الناس رُقَّد
هم رَجَّعُوا سهل بن بيضاء راضياً ... وسُرَّ أبو بكر بها ومحمد
متى شرك الأقوام في جل أمرنا ... وكنا قديماً قبلها نتودد
وكنا قديماً لا نقر ظلامة ... وندرك ما شئنا ولا نتشدد
فيا لقصيّ هل لكم في نفوسكم ... وهل لكُمُ فيما يجيء به غد
فإني وإياكم كما قال قائل ... لديك البيان لو تكلمت أسود[1][2]

❋ ❋ ❋ ❋

عام الحزن

وقد حزّ في نفس طغاة الشرك أن يبوء بالخسران تدبيرهم السيئ، إذ ردّ الله تعالى كيدهم في نحورهم. فافتتنوا في تعذيب من تمكنوا من تعذيبه من المؤمنين، ولا سيما أن النبيّ ﷺ بعد أن أخرج بمن معه من المؤمنين من محنة الحصار مظفراً كان لا يصده عن المضيّ في نشر دعوته فادح البلاء، ولا يثنيه عن تبليغ رسالته زمجرة الطغيان. ومن ثم لم تكن هذه المحن سوانح تمر، ولكنها كانت ثوابت تتوالى، كان الاعتصام بالصبر هو الدرع الحصينة التي يؤول إليها رسول الله ﷺ وأصحابه[3].

❋ ❋ ❋ ❋

وفاة أبي طالب

كان أبو طالب بن عبد المطلب من أشد الناس دفاعاً عن رسول الله ﷺ ولكن نفسه لم تطاوعه على اعتناق الإسلام وفراق دين آبائه. وكان النبيّ ﷺ

(١) أسود، جبل كان قد قتل فيه قتيل ولم يعرف قاتله فقال أولياء المقتول هذه المقالة، يعنون بها أن هذا الجبل لو تكلم لأبان عن القاتل.
(٢) سمط النجوم العوالي، عبدالملك العصامي ج١ ص٣٨٣ ـ ٣٨٥.
(٣) الغزوات الكبرى ومعارك الفتح، عبدالكريم غزال ص٧٦.

يحب أن يسلم عمه، لأنه هو الذي كفله وزاد عنه إلى آخر لحظة من حياته ولما اشتد مرضه قال رسول الله ﷺ له: «**يا عم، قلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة**» ـ يعني: قل الشهادة ـ فقال له أبو طالب: يا ابن أخي، لولا مخافة المسبّة وأن تظن قريش إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها[1]، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ولما مات أبو طالب قال له رسول الله ﷺ: «**رحمك الله وغفر لك، لا أزال أستغفر لك حتى ينهاني الله**»، فأخذ المسلمون يستغفرون لموتاهم الذين ماتوا وهم مشركون[2]، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣].

روى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «**أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، منتعلاً بنعالين يغلي منهما دماغه**»[3].

ولأبي طالب في مواقفه هذه قصائد مشهورة تُعد من أجود الشعر العربي في أقوى عصوره، ومن أشهر ذلك لاميته يقول فيها في مدح رسول الله ﷺ وحوطه وحمايته وحقيقة ما جاء به من رسالة خالدة:

كذبتم وبيت الله نُبْزَى ... ولمَّا نطا عن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نُصَرَّع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل
وينهض قوم في الحديد إليكم ... نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل
وما تَرْكُ قوم لا أبا لك سيداً ... يحوط الذمار غير ذرب مواكل
وأبيض يُسْتَسْقَى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمةً للأرامل

---

(١) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج٢ ص٣٠٣ ـ ٣٠٦.

(٢) مختصر صحيح مسلم، للألباني، كتاب: الإيمان ص٨ الحديث ٣ «م١ ـ ٤٠» رواه بما يفيد الحديث.

(٣) مختصر صحيح مسلم للألباني، كتاب: صفة النار ج٢ ص٥٢٥ رقم ١٩٧٨ م١/١٣٥.

يلوذ به الهُلاَّك من آل هاشم فهم عنده في رحمة وفواضل
لعمري لقد كلفت وجداً بأحمدٍ وإخوته دأب المحب المواصل
فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها وزَيْناً لمن والاه رب المشاكل
فمَن مثله في الناس أي مؤمل إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش يوالي إلٰهاً ليس عنه بغافل
لقد علموا أن ابننا لا مُكَذَّبٌ لدينا ولا يعنى بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمد في أرومة تُقَصِّر عنه سَوْرَةُ المتطاول
حدبت بنفسي دونه وحميته ودافعت عنه بالذرى والكلاكل
فأيّده رب العباد بنصره وأظهر ديناً حقه غير باطل

وقد ظلّ أبو طالب على حدبه وحرصه على رسول الله ﷺ إلى آخر لحظة من حياته، بل أراد أن يبقى ذلك بعد وفاته. قال السهيلي في الروض الأُنُف: حكى هشام بن السائب قال: لما حضرت الوفاة أبا طالب جمع وجوه قريش فأوصاهم فقال[1]:

يا معشر قريش، أنتم صفوة الله من خلقه، وقلب العرب، فيكم السيد المطاع، وفيكم المقدم الشجاع، والواسع الباع. واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا أحرزتموه، ولا شرفاً إلا أدركتموه، فلكم بذلكم على الناس فضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة. الناس لكم حرب، وعلى حربكم ألب، وإني أوصيكم بتعظيم هذه البنية فإن فيها مرضاة للرب، وقواماً للمعاش، وثباتاً للوطأة. صِلُوا أرحامكم ولا تقطعوها، فإن صلة الرحم مَنْسَأة في الأجل، وسعة في العدد. واتركوا البغي والعقوق، ففيها هلكت القرون قبلكم، أجيبوا الداعي، وأعطوا السائل، فإنَّه شرف الحياة والممات، عليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، فإن فيها محبة في الخاص، ومكرمة في العام. وإني أوصيكم

(١) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج٢ ص٣١٢ ـ ٣١٨.

بمحمد خيراً، فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به، وقد جاء بأمر قَبِلَهُ الجنان، وأنكره اللسان مخافة الشنآن، وأيم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل البر في الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته، وعَظَّموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناباً، ودورها خراباً، وضعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده. قد محضته العرب ودادها، وأصغت له فؤادها، وأعطته قيادها، دونكم يا معشر قريش ابن أبيكم. كونوا له ولاة، ولحزبه حماة، لا يسلك أحد منكم سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سَعِد، ولو كان لنفسي مدة، ولأجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز، ولدفعت عنه الدواهي. ثم هلك أبو طالب.

❋ ❋ ❋ ❋

وفاة خديجة رضي الله عنها(١)

كانت السيدة خديجة رضي الله عنها وزيرة صدق للنبيّ ﷺ على دعوته، تواسيه وتخفّف عنه مواجع ما يلقى من الناس. فكانت حياتها معه أوفى زوجة لزوجها، وكانت تشاركه مباهجه وتهيئ له أسباب تفرغه لعبادة ربه، تخدمه في بيته، وترد عنه عاديات الحياة بين قومه، حتى إذا جاءته النبوة كانت أول من آمن به.

توفيت رضي الله عنها بعد أبي طالب عم الرسول ولها خمسة وستون سنة وكان مقامها مع رسول الله ﷺ بعدما تزوجها أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر. وتتابعت بعد موت أبي طالب وخديجة المصائب لأنهما كانا من أشد الناس المعضدين له المدافعين عنه. فاشتد أذى قريش عليه حتى نثر بعضهم التراب على رأسه، وطرح بعضهم سلى الشاة عليه وهو يصلي. وسمي هذا

(١) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج٢ ص٣١٨.

العام عام الحزن، ولم ينسَ رسول الله ﷺ محبته لخديجة بعد وفاتها، وكان دائماً يثني عليها، ولم يتزوج عليها حتى ماتت إكراماً لها[١].

❋ ❋ ❋ ❋

الإراشي الذي باع إبلاً لأبي جهل

لم يكن أبغض على رسول الله ﷺ من أن يرى إنساناً مستضعَفاً قد غلب على أمره. فقد قام رجل يوماً من إرش، وإرش بطن من قبيلة خثعم القحطانية إلى مكة ومعه إبل فابتاعها أبو جهل ثم أخذ يماطله في دفع أثمانها.

فذهب الإراشي حتى وقف على جماعة من قريش، بينما كان النبيّ الكريم جالساً على مقربة من ناحية المسجد، فقال لهم الإراشي: يا معشر قريش مَن منكم يعينني على أخذ حقي من أبي الحكم بن هشام، فإني رجل غريب وقد غلبني على حقي. فقال له أهل ذلك المجلس: أترى ذلك الرجل الجالس؟ اذهب إليه فإنه يعينك عليه. وكانوا يعنون بذلك النبيّ ﷺ وهم يقصدون الهزء والسخرية لما يعلمون ما بينه وبين أبي جهل من عداوة. فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله فقال: يا عبدالله، إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حق لي عنده، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذ لي حقي فأشاروا إليك.

فقام معه النبيّ ﷺ وانطلق إلى منزل أبي جهل ضرب عليه بابه، فقال أبو جهل: مَن هذا؟ قال: «**محمد**»، فخرج إليه أبو جهل وما في وجهه بقية من روح وقد امتقع لونه، فقال له رسول الله: «**أعطِ هذا الرجل حقه**»، قال: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له، فدفعه إليه. فأقبل الإراشي حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزاه الله خيراً فقد والله أخذ لي حقي.

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص١١٢.

فلما جاء أبو جهل قالوا له: ويلك ما لك؟ والله ما رأينا مثلما صنعت قط. قال: ويحكم، والله ما سمعت صوته حتى امتلأت رعباً فلما خرجت إليه فإذا فوق رأسه فحل من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه، والله لو أبيت لأكلني[١].

❋ ❋ ❋ ❋

سفره ﷺ إلى الطائف

سافر إليها النبيّ ﷺ لثلاث بقين من شوال سنة عشر من المبعث، ومعه مولاه زيد بن حارثة يلتمس من ثقيف النصرة. فعمد إلى جماعة من أشراف ثقيف دعاهم إلى الله، وأغروا سفهاءهم وعبيدهم يسبُّونه ويرمونه بالحجارة، ويصيحون به حتى اجتمع الناس، وألجأوه إلى حائط وقد أدموا رجليه. فلما اطمأن ورجع عنه السفهاء قال عليه الصلاة والسلام: «**اللَّهمَّ إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس. اللَّهمَّ يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي. إلى مَن تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري. إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصَلُحَ عليه أمر الدنيا والآخرة. من أن تُنْزِلَ بي غضبك أو تحل بي سخطك. لك العتبى حتى ترضى لا حول ولا قوة إلا بك**» وهذا الدعاء مشهور بدعاء الطائف.

ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف. وفي رجوعه من الطائف مرّ به نفر من جن أهل نصيبين اليمن وهو يقرأ سورة (الجن) فاستمعوا له وآمنوا به، ولم يشعر بهم ﷺ حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف:

(١) الغزوات الكبرى ومعارك الفتح، عبدالكريم غزال ص٧٦.

٢٩]، ولما عاد من الطائف لم يستطع دخول مكة إلا بجوار رجل كالمطعم بن عدي[١].

❋ ❋ ❋ ❋

الإسراء والمعراج

أعظم آيات الإعجاز الكوني لنبينا محمد ﷺ هذه الآية العظيمة التي فتحت بها نفحات الفرج، وانقشعت بها صنوف المِحَن والبلاء التي كان يقيمها طغاة الشرك أمام رسول الله ﷺ في طريق تبليغ رسالته ونشر دعوته. وذلك حين أسرى الله بعبده محمد ﷺ فأبلغه منازل القرب كما شاء، وأحَلَّه مكانة لا مطمع لمخلوق فيها، وأراه من آياته وعجائب مُلكه وملكوت ما لم يره أحداً من خلقه، وزاده رفعةً وشرفاً، وجعله أعظم العالمين بجلال الله وعظمته وسلطانه، وجعل له من لدنه سلطاناً نصيراً.

كان الإسراء قبل الهجرة بسنة، وبه جزم ابن حزم في ليلة سبعة وعشرين من شهر رجب. «كان الإسراء إلى بيت المقدس، والمعراج إلى السماوات». وقد ذكر الإسراء في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١]. واختلف في كيفية الإسراء. واتفق الأكثرون من طوائف المسلمين على أنه أُسْرِي بجسد رسول الله ﷺ وهو الصحيح. والطبري في تفسيره ينكر أن الإسراء كان بالروح فقط، والصواب من القول أن يقال: إن الله أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أن الله حمله على البراق حتى آتاه به وصلّى هنالك بمن صلّى من الأنبياء والرُّسل، فأراه ما أراه من الآيات. والحديث المروي في الصحاح وهو يدل على الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ثم

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ج٢ ص٦٠ ـ ٦٢.

منه إلى السماوات، والمعراج به ﷺ إلى السماوات ليطلع على عجائب الملكوت كما قال الله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ ورأى به تلك الليلة وأوحى إلى عبده وفرض عليه خمس صلوات، وجمع له الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في بيت المقدس. ثم استقبلوه في السماوات، ورجع ﷺ من ليلته إلى مكة[1].

لما أصبح رسول الله ﷺ أخبر الناس بما رآه فصدقه كل مَن آمن به إيماناً قوياً، وكذبه الكفار واستوصفوه مسجد بيت المقدس فوصفه لهم، وسألوه عن عير لهم فأخبرهم بها وبوقت قدومها فكان كما أخبر. حدثنا أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال: «**بينما أنا في الحطيم مضطجعاً إذ أتاني آت فقد قال وسمعته يقول فشق ما بين هذه إلى هذه، فاستخرج قلبي، ثم أتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبي ثم حُشِي ثم أعيد. ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض «البراق» فحملت عليه فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال: هذا أبوك آدم فسلّم عليه، فسلّمت عليه فردّ السلام ثم قال: مرحباً بالابن الصالح. ثم صعد بي السماء الثانية فاستفتح فقيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحباً فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلّم عليهما فسلّمت فردّا ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح، ثم صعد بي السماء الثالثة فاستفتح قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قال: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم. فقيل: مرحباً فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا يوسف قال: هذا يوسف فسلّم عليه فردّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح. ثم صعد بي حتى أتى**

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص١١٤ ـ ١٢٢.

السماء الرابعة فاستفتح وقيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: فمرحباً فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت إذا إدريس قال: هذا إدريس فسلّم عليه فسلّمت عليه فردّ فقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هارون قال: هذا هارون فسلّم عليه فسلّمت عليه فردّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح. ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا موسى قال: هذا موسى فسلّم عليه فسلّمت عليه، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح، فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخل من أمتي. ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَن معك؟ قال: محمد، قيل: أوَقد بُعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحباً فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم قال: هذا أبوك إبراهيم فسلّم عليه فسلّمت عليه فردّ السلام. فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبيّ الصالح. ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبقها «ثمر السدرة» مثل قِلاَل هَجَر، وإذا ورقها مثل آذان الفِيَلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات. ثم رفع لي البيت المعمور فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك. ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإنا من عسل فأخذت اللبن فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأمتك. ثم فرضت علي الصلوات «خمسون» صلاة كل يوم، فرجعت فمررت على موسى فقال: بمَ أُمرت؟ قلت: أُمرت بخمسين صلاة كل يوم، قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله خبرت قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف،

فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً. فأمرت بعشر صلوات كل يوم فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم فرجعت إلى موسى فقال: بمَ أُمرت؟ قلت: خمس صلوات كل يوم، فقال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني جرّبت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. قلت: سألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأُسَلِّم، قال: فلما جاوزت ناداني مناد: أمضيت فريضتي وخفَّفْتُ عن عبادي»[1]. وهذا من أقوى ما يستدل به على أنه ﷺ كلّم ربه ليلة الإسراء بغير واسطة.

وقد كان هذا التشريف بالإسراء وما رأى فيه النبيّ ﷺ من الآيات الإلٰهية المثبوتة في ملكوت الله نقطة تحول في توجيه مسيرة الرسالة وتقوية عزيمة النبيّ ﷺ في المضي بها قدماً، تخطياً للعوائق والعقبات.

❋ ❋ ❋ ❋

عرض الرسول ﷺ نفسه على قبائل العرب

كانت المرحلة المكية من مراحل رسالة الإسلام أشق مرحلة مرّ بها رسول الله ﷺ والسابقون من أصحابه، وأشدها ابتلاء، وأعظمها محناً، وأقساها احتمالاً. تحمل فيها النبيّ ﷺ وأصحابه من السابقين الذين جعلهم الله طلائع لكتائب الإيمان والجهاد، واتخذ منهم شموساً في آفاق الهداية من صنوف البلاء والمحن، وجهالة الغوغاء ما لم تحتمله الشامخات من الشم الشداد[2].

(١) صحيح البخاري، كتاب: بدء الخلق ج٤ ص١٣٣ ـ ١٣٥.
(٢) محمد رسول الله، لمحمد عرجون ج٢ ص٣٦٩.

لقد أخفى الرسول ﷺ رسالته بادئ الأمر ثم أعلنها في السنة الرابعة للنبوة، ودعا إلى الإسلام عشر سنين. يوافي الموسم كل يوم، يتبع الحجاج في منازلهم، ويأتي في أسواق الموسم ويقول: «**يا أيها الناس، إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً**»(١).

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أُحد؟ فقال: «**لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بـ«قرن المنازل» فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلّتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله عزَّ وجلَّ قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم**»، قال: «**فناداني ملك الجبال وسَلَّم عليّ ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قومك، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت أن أطبق عليهم الأخشبين**» فقال له رسول الله: «**بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم مَن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً**»(٢).

خرج رسول الله ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب وحجّاجهم كما كانت عادته كل موسم. بينما هو عند جمرة العقبة إذا لقي رهطاً من الأوس والخزرج، فعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن وقبلوا ذلك منه وأثّر في قلوبهم، فلما قدموا إلى المدينة ذكروا لقومهم النبيّ ﷺ ودعوهم إلى الإسلام فأسلم كثيرون منهم، حتى إذا كان في العام المقبل وافى من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوه في العقبة فبايعوه بيعة النساء، وسميت بذلك لأنها كانت خاصة بالأمور التي ذكرها الله في سورة الممتحنة ببيعة النساء وهي ما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ . . .﴾ الآية [الممتحنة: ١٢]. وبعد أن تمّت هذه البيعة بعث معهم ﷺ «مصعب بن عمير» إلى المدينة يُقرؤهم القرآن ويعلمهم الإسلام.

---

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص١٢٢.

(٢) مختصر صحيح مسلم، للألباني ص٣١٣ رقم ١١٦٥ م١٨١/٥.

ففي بيعة العقبة الثانية اتفق جماعة من الأنصار على لقاء النبيّ ﷺ مستخفين، وأجمعوا به وواعدوه في أوسط أيام التشريق. فلما كان الليل خرجوا بعد مضي ثلة حتى اجتمعوا بالعقبة، وجاءهم رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان لا يزال على دين قومه وأحب أن يتوثق لابن أخيه، وكان أول من بايع تلك البيعة، وهو أول من تكلم فقال: يا معشر الخزرج، والأوس إن محمداً منا حيث علمتم في عز ومنعة، وأنه أبى إلا الانقطاع إليكم. فإن كنتم ترون أنكم توفون له بما دعوتموه إليه ومانعوه فأنتم وذلك. وإن كنتم ترون أنكم مُسَلِّمُوه فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة. فقال الأنصار: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك وربك ما أحببت. فتكلم وتلا القرآن ورَغَّب في الإسلام. ثم قال: تمنعونني ما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، وكان للبراء في تلك الليلة المقام المحمود في الإخلاص والتوثق لرسول الله ﷺ إذ أخذ بيده وقال: والذي بعثك بالحق لنمنعنك ما نمنع منه ذرارينا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحرب. فاعترض الكلام أبو الهيثم فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حبالاً إن قاطعوها ـ يعني: اليهود ـ فهل عسيت وإن أظهرك الله عزَّ وجلَّ أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسّم النبيّ ﷺ وقال: «**بل الدم الدم، الهدم الهدم، أنتم مني وأنا منكم، أسالم مَن سالمتم وأحارب مَن حاربتم، وكانت عدة الذين بايعوه في تلك الليلة سبعين رجلاً وامرأتين**». واختار رسول الله ﷺ اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم وقال لهم: «**أنتم كفلاء على قومكم**»[1].

واستبشر رسول الله ﷺ بهذا اللقاء وقرّت به عينه واستيقن أن الله ناصره، ومنجزاً له وعده. لقد أخذ رسول الله ﷺ على هؤلاء الأنصار في هذه البيعة ما لم يأخذه على أحد غيرهم، وبهذا كانت هذه البيعة حجر الأساس في بناء صرح دولة الإسلام على دعائم القوة المؤيدة للحق، الناشرة لنور الهداية في الدعوة إلى الله تعالى. كانت هذه البيعة بمثابة اللبنة الأساسية في تكوين عُدّة الجهاد لرد العدوان من الظلمة المتجبّرين. وعاد أنصار الله

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص١٢٤.

إلى بلدهم بعد أن تقلدوا في أعناقهم هذه البيعة مؤمنين أشد ما يكون الإيمان في قلوب ملؤها الإخلاص واليقين. أوفياء لعهودهم لا يشغلهم إلا ترقُّب وصول رسول الله عليه الصلاة والسلام، ليكونوا من حواليه سامعين مطيعين، يفدونه ويفدون أصحابه بكل ما يملكون من وسائل الحياة. وكانوا أسمح الناس بالوفاء بما عاهدوا الله ورسوله عليه من التضحية مهما بلغت متطلباتها من الأرواح والدماء والأموال.

❋ ❋ ❋ ❋

هجرة الصحابة
من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة

بعد أن تمّت بيعة السبعين من الأنصار التي نقلت الدعوة الإسلامية من مضايق الحياة إلى وسيع آفاقها. طابت نفس رسول الله ﷺ كما جاء في حديث عائشة وأبي أمامة أنه لما صدر السبعون من عنده طابت نفسه، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلنون من الخروج فضيّقوا على أصحابه واتبعوهم، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى. فشكوا للنبيّ ﷺ فقال لهم: «**قد رأيت دار هجرتكم سبخة**»، ثم مكث ﷺ أياماً ثم خرج مسروراً فقال: «**قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب، فمَن أراد منكم أن يخرج فليخرج إليها**»، فجعلوا يتجهزون ويترافقون، ويتراسلون ويخرجون ويخفون ذلك، فخرجوا أرسالاً، وفرادى، فاستقبلهم إخوتهم من الأنصار أطيب استقبال وأنزلوهم من أنفسهم منازل الحب والإيثار والوفاء والتكريم[1]. وقد خلّد الله تعالى هذا الموقف للأنصار. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

(١) محمد رسول الله، محمد عرجون ج٢ ص٣٨٤ ـ ٤١٢.

مؤامرة قريش على قتل رسول الله ﷺ

لما علمت قريش بتتابع أصحاب رسول الله ﷺ في الهجرة إلى المدينة، وقد صارت له شيعة وأنصار من غيرهم وأنه أجمع على اللحاق بهم. تشاوروا فيما يصنعون في أمره. فاجتمعوا في دار الندوة وتشاوروا في حبسه أو إخراجه عنهم ثم اتفقوا على أن يتخيروا من كل قبيلة منهم فتى شاباً جلداً فيقتلوه جميعاً، فيتفرق دمه في القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعاً. ويقال: إن هذا كان رأي أبي جهل، واستعد القتلى لقتله عليه السلام من ليلتهم، وأتى جبريل رسول الله فقال: «**لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه**»، فلما كانت العتمة اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه. فأمر ﷺ عليًّا أن ينام على فراشه ويتشح ببرده وأن يتخلف عنه ليؤدي ما كان عند رسول الله ﷺ من الودائع إلى أربابها. فامتثل أمره، فكان أول من شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ووقى بنفسه رسول الله ﷺ. حكى البيهقي عن ابن إسحاق قال: آخر من قدم المدينة من الناس لم يفتن في دينه أو يحبس علي بن أبي طالب، وذلك أن رسول الله ﷺ أخره بمكة وأمره أن ينام على فراشه، وأجله ثلاثاً، وأمره أن يؤدي إلى كل ذي حق حقه، فعل ذلك ثم لحق برسول الله ﷺ[1].

❋ ❋ ❋ ❋

القرآن وما نزل منه بمكة

عن ابن عباس قال: أُنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة. والقرآن منه مكي ومنه مدني، فالمكي ما نزل قبل الهجرة أي: بمكة، والمدني ما نزل بعد الهجرة سواء كان بالمدينة أو بغيرها من أي بلاد حتى لو كان بمكة أو عرفة،

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ج٢ ص١٢٩، تاريخ الطبري ج٢ ص٣٧٨.

والسفير بين الله تعالى ومحمد ﷺ هو جبريل عليه السلام كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥]، وقد تحداهم الله تعالى بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، فالقرآن معجزة رسول الله الباقية إلى يوم القيامة.

ونزل القرآن بلغة قريش. وقريش خلاصة العرب، وللقرآن أسماء كثيرة منها الفرقان، والتنزيل، والحديث. قال ابن عباس: القرآن والقراءة واحد، ويشتمل كتاب الله العزيز على ١١٤ سورة أطولها سورة البقرة، ونزل من القرآن بمكة ٨٢ سورة ونزل تمام بعضها بالمدينة.

وعن ابن عباس أنه قال: كان القرآن ينزل مفرقاً لا ينزل سورة سورة فما نزل أولها بمكة وإن كان تمامها بالمدينة، وكذلك ما نزل بالمدينة، وإنه كان يعرف فصل ما بين السورة والسورة إذ نزل بسم الله الرحمٰن الرحيم، فيعلمون أن الأولى قد انقضت وابتدئ أخرى[1].

❋ ❋ ❋ ❋

هجرة النبيّ ﷺ
من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة

كانت الهجرة النبوية أعظم حدَث حوَّل مجرى التاريخ، وقد كانت مكة مطلع شمس التوحيد في رسالة الإسلام، ومشرق نور الهداية، ومهبط أول وحي إلٰهي ختمت به رسالة الخلود، ومنزل أول كلمة شرفت بها الحياة، تلك الكلمة الأبدية الجامعة لصنوف الخير مادة ومعنى ﴿ٱقْرَأْ﴾ إذ جعلت من العلم الركيزة العظمى التي قام عليها بناء رسالة الخلود صرحاً أشم شامخاً. هذه الرسالة العامة زماناً، الشاملة مكاناً، المحيطة أجيالاً، الشافية قلوباً، المشرقة أرواحاً، البانية لحضارات الخير، الفاتحة لأبواب السعادة في الدارين.

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص١٢٦ ـ ١٢٧.

وصارت المدينة المنورة بإشراق نور النبوة بكل معالمها وآياتها مسرى هذه الرسالة الخالدة إلى آفاق العالم غيثاً أسال وديانها بما انهمر من الخير، وأبت مكة بملئها العتي العنيد أن تتقبله استكباراً في الأرض بغير الحق. لقد حولت الهجرة النبوية روافد هذا النمير إلى المدينة المنورة، فجرت في أوديتها أنهاراً أغاض في أعماقها المذخورين في سجل الأزل لحمل أمانة الحقيقة الكبرى في قيادة الإنسانية. رافعين ألوية الحق والخير والهدى من الأكرمين السابقين الأولين الذين وفدوا مهاجرين إلى طيبة الطيبة. ومن الأنصار الذين باعوا أنفسهم لله تعالى يوم أن بايعوا رسول الله ﷺ على أن يكونوا حرباً لمن حارب سلماً لمن سالم. وقد وفوا بما عاهدوا لله وصدقوا رسوله ﷺ، فيما بايعوه عليه، فكانوا كتيبة الجهاد، وكانت مدينتهم قلعة الإسلام الحصينة، وحصنه القوي الأمين[١].

خرج رسول الله ﷺ وهم يرصدونه فأخذ حفنة من تراب وجعله على رؤوسهم، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يس: ١ ـ ٩]، ثم انصرف فلم يروه، فلما أفاقوا من غشيتهم وأصبحوا قام علي من الفراش فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، فعلموا أن النبيّ ﷺ قد نجا. وقصد ﷺ دار أبي بكر رضي الله عنه وأعلمه بأن قد أُذن له بالهجرة إلى يثرب دار هجرته ودار رسالته ودعوته، وأنزل عليه آية الدعاء والتضرُّع: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ [الإسراء: ٨٠]، فالله سبحانه وتعالى كما آنسه في مدخل صدقه ودار هجرته، أخبره أنها دار أمن واستقرار ونصرة. فأرضاه بمفارقة بلده الحبيب إليه، فأكرمه في مخرج صدقه، فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله. قال: «**الصحبة**» فبكى أبو بكر فرحاً. ولم يعلم بخروج رسول الله ﷺ غير أبي بكر وعلي وآل أبي بكر، وكان خروجه من مكة يوم الخميس أول من ربيع الأول، وقدم المدينة لاثنتي عشرة خلت منه يوم الإثنين لثلاث وخمسين سنة من مولده[٢].

(١) محمد رسول الله، محمد عرجون ج٢ ص٤٢٣ ـ ٤٢٤.
(٢) تاريخ الطبري ج٢ ص٢٧٩.

روي أن النبيّ ﷺ قال حين خروجه من مكة إلى المدينة: «**اللَّهمَّ إنك تعلم أنهم أخرجوني من أحب البلاد إليّ، فأسكنّي أحب البلاد إليك**»[١]. وكان مدة إقامته بمكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة. ثم أتيا الغار الذي بجبل «ثور» غربي مكة. وأمر أبو بكر ابنه عبدالله أن يستمع لهما بمكة ثم يأتيهما ليلاً، وأمر عامر مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يأتيهما بها ليلاً ليأخذ حاجتهما من لبنها، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بسفرة بها طعام فشقت نطاقها وربطت السفرة فسميت «ذات النطاقين». وناما في الغار ثلاثاً. ولما فقدته قريش اتبعوه ومعهم قُصَّاص الأثر حتى وقف عند الغار وقال: هنا انقطع الأثر، وإذا بنسيج العنكبوت على فم الغار وقد عششت على بابه حمامتان، فقالت قريش: ما وراء هذا شيء، وجعلوا مائة ناقة لمن يرده عليهم. فلما مضت الثلاث وسكن الناس أتاهما دليلهما ببعيرين، فأخذ أحدهما رسول الله ﷺ من أبي بكر بالثمن لتكون هجرته إلى الله بنفسه وماله رغبة منه عليه الصلاة والسلام في استكمال فضل الهجرة إلى الله تعالى.

وصل رسول الله ﷺ المدينة يوم الإثنين من شهر ربيع الأول ونزل قباء وأقام بها ثلاثة أيام أسس فيها مسجد قباء، وهو الذي أنزل الله فيه قوله عزّ من قائل: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. والذي ثبت في الصحيحين أن النبيّ ﷺ كان يأتيه كل يوم سبت راكباً أو ماشياً[٢]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: كان لا يصلي من الضحى إلا في يومين في يوم يقدم بمكة فإنه كان يقدمها ضحى فيطوف بالبيت ثم يصلي ركعتين خلف المقام. ويوم يأتي مسجد قباء فإنه كان يأتيه كل سبت وإذا دخل المسجد كره أن يخرج منه حتى يصلي فيه. وكان ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت ماشياً أو راكباً. ثم ركب

(١) قال ابن عبدالبر: إن هذا حديث موضوع، الاستذكار ج٦ ص١١٠، إلا أن هناك أحاديث صحيحة قريبة من معناه. الترمذي ٧٢٢/٥ رقم ٣٩٢٦، ومسلم بشرح النووي ج٩ ص١٥٠.

(٢) صحيح البخاري، باب: مسجد قباء ج٢ ص٧٦، مختصر صحيح مسلم، للألباني ج١ ص٧١.

النبيّ ﷺ يوم الجمعة يريد المدينة فأدركته الجمعة في بني سالم فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي بمَن معه من المسلمين، وكانوا مائة وهي أول جمعة صلاها بالمدينة وأول خطبة في الإسلام، وهذا نصها[١]: «**الحمد لله، أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأؤمن به ولا أكفره، وأعادي مَن يكفره. وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العلم وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة وقرب من الأجل. مَن يطع الله ورسوله فقد رشد، ومَن يعصهما فقد غوى وفرط وضلّ ضلالاً بعيداً. وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم، ثم إن من ذلك صدق على ما تبغون من أمر الآخرة. ومَن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره، وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدّم. وما كان من سوى ذلك يودّ لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً. ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد. والذي صدق قوله وأنجز وعده لا خُلْفَ لذلك فإنه يقول عزَّ وجلَّ: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾** [ق: ٢٩]. **فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية فإنه مَن يتقِ الله يكفر عنه سيئاته ويُعْظِم له أجراً، ومَن يتّقِ الله فقد فاز فوزاً عظيماً، وإن تقوى الله توقي مقته وتوقي سخطه وإن تقوى الله تبيض الوجه، وترضي الرب وترفع الدرجة. خذوا حظكم ولا تفرطوا في جنب الله، قد علّمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين. فأحسِنوا كما أحسن الله إليكم وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسمّاكم المسلمين، ليهلك مَن هلك عن بيّنة ويُحيي من حيي عن بيّنة، ولا قوة إلا بالله فأكثِروا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت فإنه مَن يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس. ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، والله أكبر ولا قوة إلا بالله العظيم**»[٢].

---

(١) محمد رسول الله، محمد عرجون ج٢ ص٥٨١ ـ ٥٨٢.

(٢) تاريخ الطبري، خطبة رسول الله ﷺ في أول جمعة بالمدينة ج١٢ ص٣٩٤ ـ ٣٦٩.

إن خطبة رسول الله ﷺ لم يذكر فيها أهل مكة. ولا ما كان من عنادهم وإصرارهم على الكفر، وإيذائهم المسلمين وتآمرهم على قتله، بل قصر خطبته على حض المسلمين على التقوى، وتذكيرهم بالله تعالى، وهذا غاية منتهى ما يصل إليه حلم الحليم. ولو كان غير الرسول ﷺ لاستفزّه الغضب وعدّد مثالبهم لأنهم هم الذين خذلوه واضطهدوه وأخرجوه من أحب البلاد إليه. وقد كانوا عقبة في سبيل رسالة ربه، وقد صدق الله تعالى حيث قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤].

وقد فرح أهل المدينة بمقدم النبيّ ﷺ فرحاً شديداً وقابلوه بالابتهاج، وصعدت ذوات الخدور إلى الأسطحة. وعن عائشة رضي الله عنها قالت[١]: لما قدم رسول الله ﷺ جلس النساء والصبيان والولائد يقلن جهراً:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع

ولعبت الحبشة بحرابهم فرحاً بقدومه ﷺ. وكان الأنصار يتقربون إلى رسول الله بالهدايا رجالهم ونساؤهم[٢].

وكان الأنصار خزرجهم وأوسهم وشيوخهم وشبابهم، أصدق الناس وعداً، وأوفاهم عهداً، وأرعاهم لرسول الله ﷺ ودًّا، وأسرعهم لدعوة الحق استجابة، وأنبلهم في عهودهم خلقاً، وأعظمهم في العطاء إيثاراً، وأقواهم في الذود عن الحق عزيمة، قدّموا أرواحهم وأموالهم وفلذات أكبادهم فداءً لرسول الله ﷺ ولأصحابه الذين هاجروا إليهم. وقد أحبّهم رسول الله وأثنى عليهم ونوّه بفضلهم على الناس. روى البخاري من حديث عدي بن ثابت قال: سمعت البراء يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الأنصار لا يحبهم**

(١) الخصائص الكبرى، للسيوطي ج١ ص١٩٠.
(٢) وفاء الوفا، للسمنهودي ج١ ص٢٦٢.

إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمَن أحبهم أحبه الله، ومَن أبغضهم أبغضه الله»[١].

ولو لم يكن للأنصار من شمائل الفضائل التي سبقوا فيها ما أنزل الله فيهم قرآناً يتلى ويتعبد به إلى يوم القيامة، ثناءً عليهم وتنويهاً بفضلهم[٢]، وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

وذكر ابن إسحاق عن عجوز من الأنصار قالت: رأيت عبدالله بن عباس يختلف إلى صرمة بن قيس ليحفظ هذه الأبيات:

ويعرض في قريش بضع عشرة حجة ... يذكِّر لو يلقى صديقاً مواتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه ... فلم يرَ من يؤوي ولم يرَ داعيا
فلما أتانا واستقرت به النوى ... وأصبح مسروراً بطيبة راضيا
فأصبح لا يخشى من الناس واحداً ... قريباً ولا يخشى من الناس نائيا
بذلنا له الأموال من حِلِّ مالنا ... وأنفسنا عند الوغى والتأسيا
نعادي الذي عادى من الناس كلهم ... جميعاً ولو كان الحبيبَ المواسيا[٣]

ركب رسول الله ﷺ راحلته «القصواء» يريد المدينة وأرخى زمامها، فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا قالوا: هلم يا رسول الله إلى العدد والعدة والمنعة، ويتعرضون لناقته. فيقول ﷺ: «**خلّوا سبيلها فإنها مأمورة**»، حتى بركت موضع مسجده اليوم، وكان مربداً ـ موضع يجفَّف فيه التمر ـ لغلامين يتيمين من بني النجار هما «سهل وسهيل» وقد نزل رسول الله ﷺ عن ناقته، واحتمل أبو أيوب الأنصاري رحل ناقته إلى بيته، فأقام عنده حتى بنى حجره ومسجده. ودعا رسول الله صاحبَيْ المربد فساومهما ليتخذه

(١) صحيح البخاري، باب: مناقب الأنصار ج٥ ص٤٠.
(٢) محمد رسول الله، محمد عرجون ج٢ ص٥٤٩.
(٣) تاريخ الطبري ج٢ ص٣٨٥.

مسجداً فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى أن يقبل منهما هبة حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير ذهباً. ثم بنى مسجداً[١] وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن في بنيانه وهو يقول:

اللَّهمَّ لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفِرْ للأنصار والمُهَاجِرَة

وجعل يقول:

هذا الحمّال لأحمال خيبَرْ هذا أبَرُّ ربَّنا وأطهَرْ[٢]

وقد سميت يثرب بعد الإسلام بالمدينة، مدينة رسول الله ﷺ. جاء في معجم البلدان لياقوت: إن لها تسعة عشرين اسماً، وذكر السمنهودي في كتاب «وفاء الوفاء» أربعة وتسعين اسماً، وقال: إن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى. فمن أسمائها «أثرب ويثرب» قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ﴾ [الأحزاب: ١٣]. و«البلد» قال تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ [البلد: ١]، و«دار الهجرة وطيبة وطابة، وقرية الأنصار، ومدينة الرسول، والمباركة، والعذراء، والبارّة، والفاضحة»؛ لأن مَن أضمر فيها شيئاً من السوء أظهر الله ما أضمر وافتضح به[٣].

الأوس والخزرج هما ابنا حارثة بن ثعلبة العنقاء الذي خرج من اليمن بعد تفرُّق أهل اليمن بسيل العرم. وقد لبثت الأوس والخزرج حيناً من الدهر يحيون الأرض ويزرعونها، وجدّ نزاع بينهم وبين اليهود. ثم نشبت حروب بين الأوس والخزرج، وأخيراً حالفت قريظة والنضير الأوس. وانضم بنو قينقاع إلى الخزرج، وقد بلغت العداوة بين الخزرج والأوس مبلغاً عظيماً قبل هجرة النبيّ ﷺ إلى المدينة. فلما سئموا القتال أجمعوا على تتويج عبدالله بن أبي بن سلول ملكاً عليهم، وهو الملقب برأس المنافقين، وهو

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص١٣٠ ـ ١٤١.
(٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد ج١ ص٢٤٠.
(٣) وفاء الوفا، للسمنهودي ج١ ص٨.

الذي قال في غزوة المصطلق: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]. فقال ابنه عبدالله للنبيّ ﷺ: هو والله الذليل وأنت العزيز يا رسول الله، إن أنت أذنت لي في قتله قتلته، فوالله لقد علمت الخزرج «ما كان بها أحد أبر بوالده مني»، فقال ﷺ: «**بل نُحسن صحبته ولا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، ولكن بر أباك وأحسن صحبته**»(١).

أمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة فخرجوا أرسالاً، وبعد قدومه إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، لتذهب عنهم وحشة الغربة ويشد بعضهم أزر بعض. وقد آخى بينهم على الحق والمساواة ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأرحام، وأخذ رسول الله بيد علي بن أبي طالب فقال: «**هذا أخي**»، فلما كانت وقعة بدر أنزل الله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]. نسخت هذه الآية ما قبلها وانقطعت المؤاخاة في الميراث، ورجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذوو رحمه(٢). عن ابن عباس أن النبيّ ﷺ قال للأنصار: «**إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم وأموالكم، وقسمت لكم من الغنيمة كما قسمت لهم، وإن شئتم كان لهم الغنيمة ولكم دياركم وأموالكم**»، فقالوا: لا بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ولا نشاركهم في الغنيمة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. فالأنصار أكرموا المهاجرين ليدفعوا عنهم غوائل الحاجة، فكانوا يحرمون أنفسهم لمساعدة إخوانهم في الإسلام على حداثة عهدهم به، حتى صاروا مثلاً يُضرب للتعاون وحسن الخلق.

كانت طبيعة التجمع اليهودي في بدء دعوة الإسلام في أرض العرب مقسمة بين نفوذ العرب ونفوذ اليهود وسيطرتهم. وكانت قوة اليهود

---

(١) دلائل النبوة ج٤ ص٦٢، مسند الحميدي، تحقيق الأعظمي ج٢ ص١٣٠، وفي صحيح البخاري، باب: المناقب ج٤ ص٢٢٣ ما يفيد الحديث.

(٢) تفسير ابن كثير ج١ ص٣٣١.

الاقتصادية والسياسية قد بلغت في السيطرة على شمال الحجاز ما تعادل به نفوذ قريش وقوتها في جنوبه. إن نفوذ اليهود الاقتصادي يشكل أسس حركة السيطرة اليهودية التي كان يمكن أن تمتد وتتسع، فقد كانت أوضاع توزيعهم في شمال الحجاز في منتهى الدقة والحرص على نيّات مبيّتة في التوسع والسيطرة. فيهود «بني قينقاع» كانت تقيم في منطقة المدينة وتنزل في المناطق الزراعية بها، ويهود «بني قريظة» كانوا ينزلون في ضاحية المدينة من جهة الجنوب الشرقي، ويهود «بني النضير» كانوا ينزلون في ضاحية المدينة من جهة الغرب. أما منطقة خيبر ففيها أكبر مركز تجمع لليهود في شمال الحجاز، وتقع ما بين المدينة ومنطقة تيماء الملاصقة لأقصى حدود الشمال.

وكان هذا التوزيع لمراكز القوة يكفل لليهود تمكُّنهم من القدرة على الانتشار، وأن يمدُّوا أيديهم على مساحة كبيرة من الأرض يعملون على استغلالها واستثمارها. ولذلك كان عليهم أن يقوموا بتحصين أماكن تجمعهم، وإمدادها بالقوة العسكرية، وإعداد مجموعة منهم للقتال بغية الحفاظ على ما اكتسبوه حتى يمكن لهم دوام السيطرة والبقاء. ولكن ما إن أحسّ اليهود أن القرشيين أخذوا يباشرون أسلوب عمل في النظام الجديد المرتبط بعقيدة الإسلام حتى أدركوا أن هذه البداية الدينية، بما تقرره من إعداد قوة بشرية تصطدم مع واقع الوجود اليهودي في الأرض العربية. وما لبثوا أن أعلنوها حرباً قاسية ضد النبيّ محمد ﷺ والإسلام والعرب. وكان الرسول ﷺ يدرك أن وراء ظهره في الجنوب طغيان مكة وجبروت أهلها ورفضهم تقبل دعوته ومطاردتهم إياه، فليس من الحكمة أن ينسج نسيجاً يثير به ثائرة هذه القوة اليهودية التي تسيطر على كثير من أمور هذا الموطن الجديد وحياته. وكان في تقدير الرسول ﷺ أن لا يصبح بين القوتين في الميدان الذي ابتدأ يوجه فيه الدعوة إلى الله، بين قوة المكيين في الجنوب، واليهود في الشمال. ولذلك كانت توجيهاته ﷺ أن لا يتعرض أحد من المسلمين لليهود، بسلوك يجرح مشاعرهم أو يضايق سلوكهم، بل إنه قد أخذ بنفسه زمام

المبادرة وأفصح عن رغبته في حسن الجوار والمشاركة في الأمور التي تسكن الفتنة[١].

❋ ❋ ❋ ❋

المعاهدة التي عقدها رسول الله بين المسلمين واليهود والمشركين من أهل المدينة

عقد رسول الله ﷺ معاهدة بين المسلمين من جهة واليهود والمشركين من أهل المدينة من جهة أخرى، وادعهم فيها وأقرهم على دينهم وأموالهم. وفي هذه المعاهدة نظّم رسول الله ﷺ الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية لكافة سكان المدينة من المسلمين والمشركين واليهود. وهذا نص المعاهدة:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

«**هذا كتاب من محمد النبيّ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم. هم أمة واحدة من دون الناس. المهاجرين من قريش على ربعتهم** ـ أي: على أمرهم الذي كانوا عليه ـ **يتعاملون بينهم وهم يقدرون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين**». ثم ذكر كل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار إلى أن قال: «**وأن المؤمنين لا يتركون مفرحاً** ـ أي: المثقل بالدين والعيال ـ **بينهم أن يعطوه بالمعروف وفي نداء أو عقل. ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين على مَن بغى منهم أو ابتغى وسيعة ظلم** ـ أي: طبيعته ـ **أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم. ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن. وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناه، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.**

(١) بنو إسرائيل بين القرآن الكريم وخبر العهد القديم، د. صابر طعيمة ص٤٧ ـ ٤٩.

وأن مَن تبعنا من «يهود» فإن له النصر والأسوة ـ أي: المساواة في المعاملة ـ **غير مظلومين ولا متناصر عليهم»** إلى أن قال ﷺ: **«وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا مَن ظلم أو أثم فإنه لا يوقع** ـ أي: يهلك ويفسد ـ **إلا نفسه وأهل بيته. وأن ليهود بني النجار، ويهود بني الحارث، ويهود بني ساعدة، ويهود بني جشم، ويهود بني الأوس، ويهود بني ثعلبة، ولجفنة ولبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف. وأن موالي ثعلبة كأنفسهم. وأن بطانة يهود كأنفسهم. وأن لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد، وأنه لا يتحجر** ـ أي: لا يلتئم جرح ـ **على ثأر جرح، وأنه مَن فتك فبنفسه وأهله إلا من ظلم. وأن الله على أبر هذا. وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن بينهم النصر على من حارب هذه الصحيفة. إن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه. وأن النصر للمظلوم. وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة. وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم. وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها. وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله. وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تُجَار قريش ولا مَن نصرها، وأن بينهم النصر على مَن دهم يثرب، وإذا دعوا إلى الصلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه. وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا مَن حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذين قبلهم. وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة. وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه. وأن الله أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأن مَن خرج آمن، ومَن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم وأن الله جار لمن بر واتقى».**

توضح نصوص هذه المعاهدة البنود التي عقدها الرسول ﷺ بين المسلمين من جهة واليهود والمشركين من أهل المدينة من جهة أخرى، وادعَهُم فيها وأقرَّهم على دينهم وأموالهم. وفي هذه المعاهدة نظّم

الرسول ﷺ الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية بكافة سكان المدينة. لقد نصّت المعاهدة على قيادة محمد ﷺ لكافة سكان المدينة «مسلمين ومشركين ويهود» فإليه يرجع الأمر كله، ولهن أن يحكم في كل اختلاف يقع بين السكان. كما نصّت المعاهدة على تعاون أهل المدينة في رد كل اعتداء يقع عليها من الخارج.

وقد طمع اليهود أول وصول الرسول ﷺ إلى المدينة أن يضموه إليهم، فوادعوه وعاهدوه على حرية نشر الدعوة للدين الجديد. ولكنهم لم يلبثوا حين رأوا أمر المسلمين يستقر ويسمو ويشتد أن بدأوا يقلبون للمسلمين ظهر المجن ويعملون للوقيعة بينهم. ولم يتركوا وسيلة للدس وإثارة البغضاء بين المهاجرين والأنصار وإيقاظ الأحقاد الماضية بين الأوس والخزرج بذكر يوم «بُعَاث»[1] إلا وسلكوها.

وبعقد الاتفاق الذي عقده الرسول مع اليهود معترفاً بهم مقرًّا بوجودهم وبعقائدهم كان الأمل كبيراً في قلوب المسلمين أن تسير العلاقة بين اليهود والمسلمين سيرة حسنة. إلا أنه كانت المضايقة والتربُّص من جانب اليهود، ثم كانت مرحلة التآمر والقتل على نبيّ المسلمين ومحاولة التخلص منه. وبدأت العداوة تصبح هي طابع العلاقة بين اليهود والمسلمين، وأخذت هذه الحرب الصامتة تشتد من جانب اليهود ضد المسلمين على مراحل، وفي كل مرحلة كان موقف اليهود فيها يكشف عن طبيعة وجودهم وعقائدهم في أي موقع يسيطرون فيه. فقد كانت بداية الإفصاح عن النيّات السيئة المبيَّتة في قلب اليهود نحو المسلمين تأخذ مرحلة الحذر والاستياء من المسلمين. وتمثلت هذه المواقف في عدم الترحيب واستقبال المهاجرين بعد أن علم اليهود أن من بين المسلمين المكيين أصحاب همّة اقتصادية نشطة، وما إن استقروا في المدينة حتى قرروا إنشاء سوق اقتصادية خاصة بالمسلمين.

والمرحلة الثانية كانت التهيؤ لرفض المسلمين ومضايقتهم حين أدرك

(١) الرسول القائد، لواء ركن/ محمود شيت خطاب ص٥٧ ـ ٧١.

اليهود أن المسلمين ليسوا مجرد مجموعات مهاجرة تريد أن تعيش في أمن وحماية أصحاب المهجر الجديد. وإنما هي قوة تريد أن تنمِّي نفسها وأن تصنع لنفسها الأرض التي تمكنها من النمو والقدرة على الحركة، كان ذلك حين أدرك اليهود ما فعله رسول الله ﷺ عقب إقامته بالمدينة كي يستقر ويبتعد عن مضايقتهم. وفي هذه المرحلة التي كان فيها اليهود يعدُّون أنفسهم لرفض الوجود الإسلامي الذي ينمو بدأت الحرب بين اليهود والمسلمين. وكان ذلك حينما أرسل الرسول ﷺ السريتين إلى جهة الغرب، وأما السرية الثالثة فكان الرسول ﷺ على رأس القوة فيها قاصداً بها جهة الشمال لا الغرب. وكذلك عقب النتائج التي ترتبت على أولى معارك الإسلام ضد الذين حاربوا الدعوة وقاوموها «معركة بدر» التي كان لنتائجها صدى بعيد الأثر في تكوين صورة سياسية عن ملامح الجماعة المسلمة التي استطاعت أن تقوم بعمليات مضادة كرد على ما واجههم به أهل مكة. وأصبح رسول الله ﷺ زعيم المسلمين، سيد المدينة بلا منازع، يده عليها، وصاحب الرأي فيها[1].

وقد عرف بعض اليهود بالمدينة بشدة عداوتهم لرسول الله ﷺ، مع أن علماءهم يعرفون أنه سيُبعث نبيّ وكانوا يعرفون صفاته من التوراة، فمن أعدائه الذين انتصبوا لعداوته:

حُيَي، وأبو ياسر، وسلام بن مشكم، وكنانة بن ربيع، وكعب بن الأشرف، وعبدالله بن صوريا، وابن صلوبا، ومخيريق، ولبيد بن الأعصم الذي سحر النبيّ ﷺ وجاء جبريل وأخبره بذلك السحر، ومالك بن الصلت، وشأس بن قيس اليهودي الذي كان شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد لهم. مرّ يوماً على الأنصار وهم مجتمعون يتحدثون فغاظه ما رأى من ألفتهم بعد ما كان بينهم من العداوة، فأمر فتًى شاباً من اليهود أن يجلس معهم ويذكر لهم يوم «بعاث»، أي: الحرب التي كانت بينهم، وأنشدهم ما كانوا يتقاولون به من الأشعار. ففعل وذكر كل قوم شاعرهم

(١) تاريخ اليهود العام، صابر طعيمة ج٢ ص٢٣ ـ ٢٦.

وتنازعوا وتواعدوا على المقاتلة فنادى هؤلاء: يا آل الأوس، ونادى هؤلاء: يا آل الخزرج، ثم خرجوا للحرب وقد أخذوا السلاح واصطفُّوا للقتال. فلما بلغ رسول الله ﷺ خرج إليهم فيمن كان معه من المهاجرين فقال: «**يا معشر المسلمين، الله الله اتقوا الله. أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية؟ واستنقذكم به من الكفر وألَّف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟**»، فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فبكوا وتعانقوا ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين[1]. وأنزل الله تعالى في شأن شأس بن قيس: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران: ٩٩]. وأنزل الله تعالى في الأنصار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠، ١٠١].

وكان عبدالله بن أبي بن سلول وهو رأس المنافقين جميل الصورة ممتلئ الجسم فصيح اللسان وهو المعني بقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون: ٤]. ومن نفاقه ما أخرجه الثعلبي عن ابن عباس قال: نزلت الآية: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤] إلى آخر الآية التي في المنافقين، كلها فيه وفي أصحابه. لقد لاقى الرسول ﷺ من شدة الأذى من المنافقين واليهود بالمدينة شيئاً كبيراً، ولكنه بالنسبة لأذى أهل مكة لا يُقارن. فكان ﷺ بالمدينة في غاية العز والمنعة والقوة، وأذى اليهود غايته المجادلة والتعنت[2].

لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص١٥٢ ـ ١٥٤.
(٢) محمد رسول الله، محمد رضا ص١٤٦.

شهراً، وكان يحب أن يصرف إلى الكعبة لما بلغه أن اليهود قالوا: يخالفنا محمد ويتَّبعُ قبلتنا، فقال: «**يا جبريل، وددت أن الله صرف وجهي عن قبلة يهود**»، فقال جبريل: إنما أنا عبد فادعُ ربك وسَلْه، وجعل إذا صلّى إلى بيت المقدس يرفع رأسه إلى السماء ينتظر أمر ربه، فنزل عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۖ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وفي صحيح البخاري بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، فاستداروا إلى الكعبة[١]. قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة: ١٤٢]. وهذا ردٌّ على اليهود والمنافقين الذين ساءهم ذلك.

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أراد أن يجعل شيئاً يجمع به الناس للصلاة، فذكر عنده البوق وأهله، وذكر الناقوس وأهله، فكره حتى أُرِي رجل من الأنصار يقال له: عبدالله بن زيد الأذان وأريه عمر بن الخطاب تلك الليلة. فأما عمر فقال: إذا أصبحت أخبرت رسول الله ﷺ، وأما الأنصاري فطرق رسول الله في الليل فأخبره. وأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأذّن بالصلاة وزاد بلال في الصبح: «الصلاة خير من النوم» فأقرّها رسول الله ﷺ[٢].

فرض صيام شهر رمضان على رأس ثمانية عشر شهراً من هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] الآية. وقال تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فأثبت صيامه على المقيم الصحيح ورخَّص فيه للمريض والمسافر، وأثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام. وكان رسول الله ﷺ وقد صام عاشوراء وهو اليوم العاشر من محرّم وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان كان هو الفريضة وترك عاشوراء، فمَن شاء صامه ومَن شاء تركه.

---

(١) صحيح البخاري، باب: قد نرى تقلب وجهك في السماء ج١ ص١١٠.
(٢) محمد رسول الله، محمد رضا ص١٤٧ ـ ١٤٩.

وكان يهود المدينة يصومونه لأن الله أنجى فيه موسى وقومه من الغرق وأغرق فرعون وقومه، فصامه رسول الله وأمر بصيامه قائلاً: «**نحن أحق بموسى منكم**»[(١)]، وأمر ﷺ بزكاة الفطر قبل أن تُفرض الزكاة في الأموال، وأمر بإخراجها قبل أن يذهب لصلاة العيد، وأقام ﷺ بالمدينة عشر سنين يضحي في كل عام، وكان يضحي بكبشين أملحين عن أمته والآخر عن نفسه وآله، فيأكل هو وأهله منها ويطعم المساكين.

والزكاة ركن من أركان الإسلام الخمسة، وقد فُرضت في السنة الثالثة للهجرة. قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [التوبة: ٦٠]. وقول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣]. وكان رسول الله ﷺ يأخذ الزكاة من الناس ويوزعها على المحتاجين[(٢)].

❋ ❋ ❋ ❋

الجهاد في سبيل الله

أُذِنَ لرسول الله ﷺ في القتال في السنة الثانية للهجرة، وقد مكث النبيّ ﷺ يدعو كفار قريش ثلاث عشرة سنة إلى عبادة الله الواحد الأحد بغير قتال صابراً على أشد الأذى والاضطهاد هو وأصحابه. ولما هاجر ﷺ وكثر أصحابه وقام الأنصار بنصره وأصرّ المشركون على الكفر أذن لهم الله جلَّ جلاله في القتال. وأول ما أنزل في أمر القتال قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩] الآية.

فالجهاد في منهج النبيّ ﷺ وسيلة لا غاية، وطريق إلى هدف، وإذا وصل عنده يحميه ويذود عنه. فالجهاد بأنواعه الحجاجية أو القتالية إنما

(١) مختصر صحيح مسلم، للألباني ج١ ص١٦ حديث ٦١٣ (م/١٥٠/٣).
(٢) محمد رسول الله، محمد عرجون ج٣ ص١٥٦ ـ ١٥٧.

يستهدف هداية أبناء الإنسانية أينما كانوا أو كيفما كانوا على كلمة سواء، هي كلمة التوحيد التي تجعل من المجتمع المسلم كله على اختلاف أوطانه وأجناسه وحدة إيمانية متساوية الحقوق والواجبات. ومن هنا كان ﷺ لا ينفر إلى جهاد القتال إلا بعد أن يستنفذ كل ما منحه الله من قوة البيان والرغائب الوجدانية التي تجذب النفوس إلى الدخول في الإسلام. إن الجهاد وسيلة لدفع ما يعترض طريق الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته ونشر العدل، ومقاومة الظلم والفساد في الأرض. ولم يكن قط هجوماً لإكراه الناس على اعتناق الحق الأعلى وقبول دعوته. فالجهاد كان في سبيل الدعوة إلى الله، هذه الدعوة التي جمعت أشتاتاً من الأمم كانت متخالفة لا تجمعها عقيدة، فوحّدت بينها بعقيدة التوحيد والإيمان.

إن المؤاخاة التي عقدها رسول الله ﷺ بنيت على أساس الحب في الله بين المهاجرين والأنصار، فكانوا وحدة ذهبت بها الفواصل بين الأفراد حتى انتهت هذه الوحدة إلى الإيثار، وتسنّمت ذرا الإيمان الذي جعل منها قوة روحية تعاضدت على المكايد وتخطت أعتى العقبات، وتسامت في إيمانها إلى قمة الحب في الله. وقد كانت المؤاخاة هي أول عمل قام به رسول الله ﷺ في منهجه التربوي الاجتماعي الذي أقام على قواعده تركيب مجتمعه ليعده في مواجهة الحياة في سيره بدعوته إلى الله تعالى، وتبليغ رسالته إلى الناس كافة. مما جعله عرضة لمكايد أعدائه في الداخل من شراذم اليهود الحانقين، ومن ملأ الكفر والفجور في مكة ومَن يتعصب لها ممن حولها من قبائل الشرك والوثنية. إن الوحدة القائمة على أساس الحب في الله والإخاء الصادق بين المسلمين من المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم وجاهد معهم. فجعلهم الله تعالى ورسوله أمة واحدة دون الناس يتكاثرون عدداً وعُدّة وقوة، ضابطاً لأعمالهم مصححاً تركيب مجتمعهم، راسماً لهم منهج السير في مستقبل حياتهم في حروبهم وسلمهم. مما حقق لهم وحدة اجتماعية فكرية مادية مرهوبة الجانب[١].

(١) محمد رسول الله، محمد عرجون ج٣ ص٢٠٦.

روى الأئمة: ابن حنبل ومسلم والترمذي وابن ماجه أن الرسول ﷺ كان إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومَن معه من المسلمين خيراً ثم قال لهم: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله، وقاتلوا مَن كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً. وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادفعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكُفّ عنهم. ادعهم للإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأفراد المسلمين يجري عليهم ما يجري على المسلمين، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا فسَلْهُم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، وإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم**»[١].

كان عدد مغازيه ﷺ التي خرج فيها بنفسه تسع عشرة غزوة وكانت أولها غزوة العشير[٢]. وسراياه التي بعث بها سبعة وأربعين سرية. وأول بعوثه سنة اثنين من الهجرة، بعث عمه حمزة في ثلاثين رجلاً يعترضون عيراً لقريش، وكانوا جميعاً من المهاجرين، ولم يبعث رسول الله ﷺ أحداً من الأنصار مبعثاً حتى غزا بهم بدراً، وذلك أنهم شرطوا له أنهم يمنعونه في دارهم. ثم سرية عبيد بن الحارث بن عبد المطلب، وكانوا ستين رجلاً إلى رابغ. ثم سرية سعد بن أبي وقاص ومعه عشرون رجلاً من المهاجرين يعترض عيراً لقريش.

إن أول مغازيه التي خرج فيها بنفسه ﷺ «غزوة ودان أو غزوة الأبواء» في وادي الفرع على رأس ستين رجلاً من المهاجرين مريداً لعير قريش، فلما لقي بني ضمرة عقد بينه وبينهم صلحاً على أنهم لا يغزونه، ولا يكثرون عليه جمعاً، ولا يعينون عليه عدواً، وأن عليهم النصر على مَن رامهم. ثم غزوة «بواط» في مائتين من أصحابه يعترض لعيراً لقريش ولم

(١) مختصر صحيح مسلم، للألباني، كتاب: السير ج٢ ص٢٩٤ رقم ١١١ م١٤١/٥.
(٢) صحيح البخاري، باب: غزوة العشير ج٥ ص٩٠.

يلقَ حرباً. ثم «غزوة العشيرة» حين خرج ﷺ على رأس مائة وخمسين يعترض عيراً لقريش فبلغ العشيرة بناحية ينبع، وبعد رجوعه منها أغار ابن كرز الفهري على سرح المدينة فخرج ﷺ في طلبه حتى بلغ وادياً يقال له: سفوان من ناحية بدر، فرجع رسول الله إلى المدينة، وهذه الغزوة هي غزوة بدر الأولى.

سرية عبدالله بن جحش في اثني عشر رجلاً إلى نخلة ـ بستان قرب مكة ـ حيث مرّت بهم عير لقريش قادمة من الطائف، فتشاوروا وقالوا: إن قاتلناهم هتكنا حرمة الشهر وإن تركناهم دخلوا حرم مكة، فأجمعوا على قتلهم. فقتلوا عمر الحضرمي واستأسروا رجلين واستاقوا العير وقدموا على النبيّ ﷺ فقال: «**ما أمرتكم بالقتال في الشهر الحرام**»، وتكلمت قريش أن محمداً سفك الدماء وأخذ المال في الشهر الحرام[1]. فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧] الآية.

❋ ❋ ❋ ❋

غزوة بدر الكبرى

بدر هي الفتح الأعظم الذي أعزّ الله به الإسلام والمسلمين، وهي النصر المؤزّر الذي توّج الله به جبين نبيه محمد ﷺ يوم بدر، يوم التقى الجمعان، جمع المجتمع المسلم في رسوخ يقينه وقوة إيمانه مع قلة عدده وضآلة عدته المادية القتالية. وجمع الفجور الظلوم والكفر الغشوم في غروره وكثرة عدده ووفرة عدته المادية القتالية[2]. فغزوة بدر كانت يوم السابع عشر من رمضان على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة، وكان سببها إقبال أبي سفيان من الشام في عير عظيمة وفيها أموال كثيرة، فلما سمع بهم

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص١٥ ـ ١٦١.
(٢) محمد رسول الله، محمد عرجون ج٣ ص٢٨٣.

رسول الله ﷺ ندب المسلمين إليهم وقال: «**هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها**»، وكان أبو سفيان قد سمع أن رسول الله ﷺ يريده فحذره، وبعث إلى مكة يستنفر قريشاً، وكان السبب في خروجهم حماية العير وإنقاذها.

وكان الذين خرجوا من قريش نحو ألف، منهم ستمائة دارع ومعهم مائة فرس، وكان معهم سبعمائة بعير، وخرجوا ومعهم المغنيات يضربن بالدفوف، وهم في غاية البَطَر والخيلاء اعتماداً على كثرة عددهم وعدتهم. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال: ٤٧]. وكان المطعمون لهذا الجيش اثني عشر رجلاً منهم أبو جهل، ينحر كل واحد منهم كل يوم عشرة جزر، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: ٣٦].

أما قوة المسلمين فكانت عدة الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ممن شهد بدراً إنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوز معهم النهر[1]. وخرجت الأنصار ولم تكن قبل ذلك خرجت معه، وكانت الإبل سبعين والأفراس خمسة. ولما أراد رسول الله ﷺ الخروج لبس درعه ذات الفضول وتقلّد سيفه العضب. وكان أمام رسول الله ﷺ رايتان سوداوان، إحداهما: مع علي بن أبي طالب يقال لها: العقاب، والأخرى: مع بعض الأنصار.

وقد استشار النبيّ ﷺ أصحابه في طلب العير أو محاربة النفير، وأخبرهم بمسيرة قريش. وقال لهم: «**إن الله وعدكم إحدى الطائفتين: إما العير، وإما قريش**» وفي رواية: يا رسول الله، عليك بالعير ودع العدو، فتغيّر وجه رسول الله ﷺ. وتكلم المهاجرون فأحسنوا، وكان يخشى أن

(١) صحيح البخاري، باب: قصة غزوة بدر ج٥ ص٩٤.

تكون الأنصار لا ترى وجوب نصرته. فلما قال لهم: «**أشيروا عليّ**»، قال له سعد بن معاذ وهو سيد الأنصار: قد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهوداً ومواثيق على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك. فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر لخضناه معك ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً. إنا لصُبر عند الحرب، صُدق عند اللقاء، ولعل الله يريك فينا ما تقر به عينك. فسُرَّ رسول الله ﷺ لقوله ثم قال: «**سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، إما العير وإما النفير**»[(١)].

كان أبو سفيان قد ساحل وترك بدراً يساراً ثم أسرع لما علم بمقدم المسلمين، فلما رأى أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش وهم في الجفنة أن الله قد نجّى عيركم وأموالكم فارجعوا. فقال أبو جهل: لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم فيها ثلاثاً، فتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا. ومضت قريش حتى نزلت بـ«العُدْوة القصوى» من الوادي. ونزل المسلمون على كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب إلى الجانب الآخر من الوادي وهي «العُدْوة الدنيا» وسبقهم المشركون إلى ماء بدر فأحرزوه، وأدرك المسلمين النعاس فأرسل الله عليهم مطراً سال منه الوادي فشرب المسلمون واتخذوا الحياض ثم حفروا عند الماء «القليب» وبنوا حوضاً مليئاً بالماء[(٢)]. قال ابن إسحاق[(٣)]: خرج رسول الله ﷺ حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به، فقال الحباب بن المنذر: يا رسول الله هذا منزل أنزلكه الله تعالى لا تتقدمه ولا تتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال: «**بل الرأي والحرب والمكيدة**»، قال: فإذاً هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى أدنى ماء القوم، فإني أعرف غزارة مائه فأنزل به، ثم نفوز بما وراءه من القليب،

---

(١) مختصر صحيح مسلم، للألباني، كتاب: الهجرة والمغازي ج٢ ص٣٠٩ رقم ١١٥٦ م٥/١٧٠.

(٢) محمد رسول الله، محمد رضا ص١٦٤.

(٣) السيرة النبوية، لابن هشام غزوة بدر الكبرى ج٢ ص٢٧٢، وقد وصله الحاكم ج٢ ص١٢٦.

ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون. فقال ﷺ: «**أشرت بالرأي**»، وأطفأ المطر الغبار حتى ثبتت عليها الأقدام والحوافر. وضرّ ذلك بالمشركين لكون أرضهم كانت سهلة لينة، وأصابهم ما لا يقدرون معه على الارتحال. وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: ١١]. قال ابن معاذ رضي الله عنه: يا رسول الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببناه وإلاّ جلست على ركائبك فلحقت بمَن وراءنا. ولو ظنوا أنك تلقى حرباً لما تخلّفوا. فأثنى عليه ﷺ. ثم بنى له العريش فوق تلّ مشرف على المعركة ومعه أبو بكر الصديق وسعد بن معاذ[١].

لما أصبح المسلمون عدَّل النبيّ ﷺ صفوف أصحابه وأقبلت قريش ورآها ﷺ فقال: «**اللَّهمَّ هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تُجَادُّك وتكذب رسولك، اللَّهمَّ فنصرك الذي وعدتني**»[٢]. خرج الأسود المخزومي وقال: لأشربنّ من حوضهم أو لأهدمنه، فلما أقبل قصده حمزة بن عبد المطلب فقتله في الحوض. ثم خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد ودعا إلى المبارزة. فأمر النبيّ عبيدة بن الحارث وعمه حمزة وعلي بن أبي طالب بالخروج إليهم فقتل عبيدة عتبة إلا أن عبيدة أصيب في ركبته فمات منها، وقتل حمزة شيبة، وقتل علي الوليد، وقيل: إنها أول مبارزة في الإسلام.

وخرج رسول الله ﷺ من العريش لتعديل الصفوف ثم قال لهم: «**إن دنا القوم منكم فانضحوهُم واستبقوا نبلكم ولا تَسُلُّوا السيوف حتى يَغْشَوكُم**»[٣].

---

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص١٦٥ ـ ١٧٢، السيرة النبوية، لابن هشام، غزوة بدر الكبرى ج٢ ص٢٧٢، وقد وصله الحاكم ج٣ ص١٢٦.
(٢) مختصر صحيح مسلم، للألباني ص٣١٠ الحديث رقم ١١٥٨ رواه بما يفيد الحديث.
(٣) صحيح البخاري، باب: غزوة بدر ج٥ ص٩٩ بألفاظ مختلفة بما يفيد الحديث.

وخطبهم خطبة حثّهم فيها على الجهاد والمصابرة. تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض. عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال وهو في العريش يوم بدر: «**اللَّهمَّ إني أنشدك عهدك ووعدك، اللَّهمَّ إن تهلك هذه العصابة اليوم فلا تُعبد**»(١). ثم خرج رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾» وقال: «**والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقْتَلُ صابراً مقبلاً غير مُدْبِر إلا أدخله الله الجنة**»(٢)، ولما رمى رسول الله ﷺ المشركين بالحصى ولم يبقَ من المشركين رجل إلا امتلأت عينه وأنفه وفمه لا يدري أين يتوجه، فانهزموا وردفهم المسلمون يقتلون ويأسرون. وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال: ١٧].

واقتتل الناس اقتتالاً شديداً، فانهزم المشركون، كان بدء القتال في الصباح وكانت الهزيمة في الظهر. وبلغ عدد القتلى من المشركين سبعين والأسرى أربعة وسبعين، وعدد القتلى من المسلمين أربعة عشر.

إن الله تعالى أمدّ المسلمين بالملائكة يوم بدر فقاتلوا معه، فلما انقضى أمر بدر أنزل الله عزَّ وجلَّ فيه من القرآن سورة الأنفال وفيها قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ٩، ١٠]. وقوله تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ

(١) صحيح البخاري، باب: غزوة بدر ج٥ ص٩٣.

(٢) رواه البخاري في الصحيح ج٦ ص١١٦ رقم ٢٩١٥، ورواه أحمد في مسنده ج٢١ ص٣٥.

﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ [آل عمران: ١٢٣ ـ ١٢٦].

وكان فداء الأسرى على قدر أموالهم، فمَن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلمهم، فإذا حذقوا فهو فداؤه. وكان من بين الأسرى العباس عم النبيّ ﷺ، وقد جاء في بعض الروايات أن العباس قال: علام يؤخذ منا الفداء وكنت مسلماً ولكن القوم استكرهوني، فقال النبيّ ﷺ: «**الله أعلم بما تقول، إن كان حقاً فإن الله يجزيك**»، وقد أنزل الله تعالى في العباس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال: ٧٠].

استشار رسول الله ﷺ أصحابه في الأسرى فقال أبو بكر: يا رسول الله أهلك وقومك، أرى أن تستبقيهم وتأخذ منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً، وقد وافق الصحابة أبا بكر على أخذ الفداء. أما عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، قد كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، ما أرى أن تكون لك أسرى فاضرب أعناقهم. لكن رسول الله ﷺ أخذ برأي أبي بكر وقال: «**لا يَفْلتَنَّ أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق**»[1]. وأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٩]. فبكى رسول الله ﷺ وقال: «**إن كاد ليمسنا في خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم، ولو نزل العذاب ما أفلت منه إلا ابن الخطاب**»، وفي فضل أهل بدر عن

(١) مختصر صحيح مسلم، للألباني، كتاب: السِّيَر والمغازي ج٢ ص٣١١ رقم ١١٥٨ م١٥٧/٥.

علي كرّم الله وجهه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**اطلع الله على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»(١).

جعل رسول الله ﷺ على «الأنفال»، أي: الغنائم، عبدالله بن كعب بن عمرو الأنصاري، ثم انصرف. فلما نزل الصفراء قسم الغنائم كما أمر الله عزَّ وجلَّ. قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: ١]. روي عن عبادة بن الصامت قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، فلقوا العدو، فلما هزمهم الله اتبعتهم طائفة من المسلمين يقتلونهم وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ، واستولت طائفة على العسكر لنهب الغنيمة. فلما نفى الله العدو، ورجع الذين طلبوهم، قالوا: لنا النفل، فنحن طلبنا العدو، وبنا نفاهم الله وهزمهم. وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: ما أنتم أحق به منا، بل هو لنا، نحن أحدقنا برسول الله لئلا ينال العدو منه غرة. وقال الذين استولوا على العسكر والنهب: ما أنتم أحق به منا، هو لنا استولينا عليه. فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ الآية. فقسمه رسول الله عن فَوَاق بينهم ـ يعني: عن سرعة ـ وكان هذا قبل أن ينزل: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: ٤١]. وكان المعنى عند العلماء: أي: إلى الله وإلى الرسول الحكم فيها، والعمل بها بما يقرب من الله. عن أبي أمامة الباهلي قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال، فقال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى الرسول، فقسمه رسول الله ﷺ عن بواء يقول: «**على السواء**»، فكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البَيْن.

فلما نزل رسول الله ﷺ الصفراء قسم بها الغنائم، وضرب عنق

(١) صحيح البخاري، باب: فضل شهداء بدر ج٥ ص٩٨.

النضر بن الحارث بن علقمة، وهو الذي جاءت ابنته قتيلة إلى رسول الله وأنشدته:

يا راكباً إن الأُثيلَ مظنةً ... من صُبح خامسةٍ وأنت موفّقُ
أبلغْ به مَيْتاً بأن تحيَّةً ... ما إن تزال بها النجائب تَخْفِقُ
مني إليه وعبرةً مسفوحةً ... جادت بواكفها وأخرى تخنقُ
ظلَّت سيوفُ بني أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تُشَقَّقُ
أمحمد يا خير ضنْء كريمةٍ ... من قومِها والفحل فحل مُعرقُ
ما كان ضَرَّك لو مننت وربما ... مَنَّ الفتى وهو المغيظ المحنقُ
والنضرُ أقربُ من قتلت قرابةً ... وأحقهم إن كان عتقٌ يعتقُ

فقال رسول الله ﷺ: «**أما إني لو سمعت هذا قبل قتله لم أقتله**»، والأثيل: موضع قرب المدينة. والنجائب: وهي الناقة الكريمة. جادت: من الجود وهو المطر. بواكفها: يقال: وكفت بالدمع إذا سال دمعها قليلاً قليلاً. تنوشه: تتناوله. ضنء: النسل والولد والأصل. والمعدن: معرق كريم الأصل. المحنق: أحنقه إذا أغاظه[1].

إن غزوة بدر كانت وما تزال أول وأعظم نموذج وضع فيه المنهج الإلٰهي موضع التطبيق، والذي لا تتحكم فيه القوة المادية وحدها مهما كانت، ولتطبيق هذا المنهج الإلٰهي كانت غزوة بدر المثل المضروب لإعلاء شأن كلمة الحق، وإسفال كلمة الشرك دون أن يكون للقوة المادية التي يملكها المجتمع المشرك منفذ لإنقاذ مجتمعها من البوار.

لما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة غزا بنفسه بني سليم فبلغ رسول الله ماء من مياههم يقال له: «الكدر» فأقام ﷺ ثلاث ليال لم يلقَ حرباً ثم رجع إلى المدينة، فهرب القوم وبقيت نِعَمهم.

كان المسلمون قبل «بدر» يخشون مواطنيهم من غير المسلمين من أهل

(١) الدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبدالبر ص١٠٩ ـ ١١٢.

المدينة، فلا تبلغ بهم الجرأة إلى حد أخذ الحق ممن يعتدي على مسلم منهم. فلما عادوا من بدر منتصرين انقلب الأمر تماماً، فأصبح سلطانهم مهيباً في المدينة وما حولها. عزمت قريش على أخذ ثأرها من المسلمين مهما كلفها الأمر من جهود وخسائر في الأنفس والمال، فأخذت تستعد لذلك. وكان من نتائج انتصار المسلمين أن عقدت أكثر القبائل التي على طريق مكة الشام التي تتاخم الساحل معاهدات مع المسلمين، فسيطر المسلمون على هذا الطريق، فلا يمر أحد منهم إلا بإذنهم. أما مشركو المدينة فقد أعلن أكثرهم إسلامهم، وبقي بين صفوفهم بعض المنافقين. ولكن يهود المدينة ازدادوا حقداً على المسلمين وأخذ بعضهم يجاهر بعدائه لهم وينقل أخبارهم للمشركين ويؤوي أعداءهم ويدلهم على عورات المسلمين. لذلك فقد أصبح بقاؤهم خطراً محدقاً بالمسلمين فتمكن المسلمون من القضاء على أكثر أعدائهم كأفراد مثل: «أبي عفك اليهودي، وعصماء بنت مروان، وكعب بن الأشرف»[١].

❋ ❋ ❋ ❋

مقتل أبي عفك اليهودي

كان أبو عفك من بني عمرو بن عوف شيخاً كبيراً قد بلغ عشرين ومائة سنة، وكان يهودياً. كان يحرّض على رسول الله ﷺ، ويقول الشعر، فقال سالم بن عمير، وهو أحد البكائين وقد شهد بدراً: عليَّ نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه. فأمهل بطلب له غرة حتى كانت ليلة صائفة، فنام أبو عفك بالفناء وعلم به سالم بن عمير، فأقبل فوضع السيف على كبده ثم اعتمد عليه حتى غشي في الفراش، وصاح عدو الله، فثاب إليه ناس ممن هم على قوله فأدخلوه منزله وقبروه.

❋ ❋ ❋ ❋

(١) الرسول القائد، محمود شيت خطاب ص١٣٩ ـ ١٤٠.

مقتل عصماء بنت مروان

سرية عمير بن عدي بن خرشة إلى عصماء بنت مروان من بني أمية بن زيد. وكانت تعيب الإسلام وتؤذي النبيّ وتحرض عليه وتقول الشعر، فجاءها عمير بن عدي في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها، وحولها نفر من ولدها نيام منهم مَن ترضعه في صدرها، وكان ضرير البصر، ونحى الصبي عنها ووضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها، ثم صلّى مع النبيّ ﷺ بالمدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «**أقتلت ابنة مروان؟**»، قال: نعم، فهل على ذلك من شيء؟ فقال: «**لا ينتطح فيها عنزان**». فكانت هذه الكلمة أول ما سمعت من رسول الله ﷺ[1].

❋ ❋ ❋ ❋

غزوة يهود بني قينقاع

بنو قينقاع اسم لشعب من اليهود الذين كانوا في المدينة، وكان عددهم قليلاً وصناعتهم الصياغة، وهم أغنى سكان المدينة، قال ابن إسحاق: كان من أمر بني قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق قينقاع ثم قال: «**يا معشر اليهود احذروا من الله عزَّ وجلَّ مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبيّ مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله إليكم**»، قالوا: يا محمد، إنك ترى أنا كقومك، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربتنا لتَعْلَمَنَّ أنَّا نحن الناس. لقد أغلظوا لرسول الله ﷺ في الجواب، ولم يقفوا عند حدود الأدب، وادّعوا الشجاعة، وقد حاصرهم رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يطلع منهم أحد، حتى نزلوا على حكمه فكتفوا وهو يريد قتلهم، ويبلغ عددهم أربعمائة. فقام عبدالله بن أبي بن سلول فقال:

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد ج٢ ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.

أحسن في موالي، فقال رسول الله: «**هم لك لا بارك الله لك فيهم**». ثم أمر بإجلائهم وغنم الله ورسوله والمسلمون ما كان لهم من مال، ولم يدرِ الحول عليهم حتى هلكوا بدعوته ﷺ[١].

غزا رسول الله ﷺ غزوة «بني قينقاع»، وذلك بعدما نقض بنو قينقاع عهد الموادعة الذي كان بينهم وبين النبيّ ﷺ. وقد حدثت هذه الغزوة في أعقاب حادثة مفادها: أن امرأة مسلمة من الأنصار جاءت تشتري حلياً من سوق قبيلة قينقاع اليهودية في المدينة، فجلست القرفصاء أمام أحد الحوانيت وعلى وجهها غطاء أو خمار. فجاء رجل من بني قينقاع فربط طرف ثوب المرأة إلى أعلى ظهرها خلسة بشوكة قوية أو إبرة، فلما نهضت ظهرت عورتها، فضحك وقهقه من كان على مقربة منها من اليهود. فصاحت المرأة مستغيثة فجاء أحد المسلمين وقتل الرجل الذي صنع بها ذلك. وهنا اجتمع مَن كان في السوق من بني قينقاع وقتلوا الرجل المسلم، ثم ذهبوا وتحصّنوا في حصونهم. فسار إليهم رسول الله وحاصرهم حتى استسلموا، فأمر ﷺ عندئذ بإجلائهم عن المدينة ومصادرة أسلحتهم. وقد توسط لهم عبدالله بن أبي بن سلول قائلاً لرسول الله: يا محمد، أحسن في مواليَّ ـ أي: حلفائي ـ فهؤلاء منعوني يوم بعاث وإني رجل أخشى الدوائر. ثم توجه بعد ذلك بنو قينقاع في قوافل حملتهم إلى الشام ومنهم من ذهب إلى خيبر ووادي القرى[٢].

وبنو قينقاع قوم من اليهود وهم حلفاء لعبدالله بن أبي بن سلول وكانوا أشجع اليهود في تلك الفترة، وكانوا صاغة فوادعوا النبيّ ﷺ. فلما كانت وقعة بدر أظهروا البغي والحسد ونبذوا العهد، فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨]. فقال رسول الله ﷺ: «**أنا أخاف بني قينقاع**» فسار إليهم بهذه الآية. فكانوا أول من غدر من اليهود وحاربوا وتحصّنوا في

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ج٣ ص٤٧ ـ ٤٨ ـ ٥٣.

(٢) الغزوات الكبرى ومعارك الفتح، عبدالكريم غزال ص١٠٢ ـ ١٠٣.

حصنهم، فحاصرهم أشد الحصار حتى قذف الله في قلوبهم الرعب. فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ، أن لرسول الله أموالهم، وأن لهم النساء والذرية، فأمر بهم فكتفوا، فكلم فيهم عبدالله بن أبي بن سلول رسول الله ﷺ وألحّ عليه فقال: «**خَلُّوهُم لعنهم الله**»، ولعنه معهم وتركهم من القتل وأمر بهم أن يجلوا من المدينة، فلحقوا بأذرعات فما كان أقل بقاءهم بها(١).

وكان من حديث بني قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق بني قينقاع، ثم قال: «**يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبيّ مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم**»، قالوا: يا محمد، إنك ترى أننا كقومك لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس. قال ابن إسحاق: فحدثني مولى لآل زيد بن ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيهم، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣]. قال ابن إسحاق: إن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ، وحاربوا فيما بين بدر وأُحد.

قال ابن إسحاق: وحدثني أبي إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبدالله بن أبي بن سلول، وقام دونهم. قال: ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وكان أحد بني عوف، لهم من حلفه مثل الذي لهم من عبدالله بن أبي بن سلول، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ، وتبرأ إلى الله عزَّ وجلَّ، وإلى رسوله من حلفهم، وقال: يا رسول الله، أتولى الله ورسوله من حلفهم، وقال: يا رسول الله، أتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد ج٢ ص٢٨ ـ ٢٩.

حلف هؤلاء الكفار وولايتهم. قال: ففيه وفي عبدالله بن أبي بن سلول نزلت هذه القصة[١]. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ [المائدة: ٥١، ٥٢] ـ أي: عبدالله بن أبي سلول ـ وقوله: «**إني أخشى الدوائر**» ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢]، ثم القصة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥﴾ [المائدة: ٥٥]، وذكر القرآن الكريم لتولي عبادة بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا، وتبرئه من بني قينقاع وحلفهم وولايتهم قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾ [المائدة: ٥٦].

بعد انتقال الزعامة السياسية في المدينة للمسلمين في شخص رسول الله ﷺ أصبح اليهود يشعرون بخطر النظام الجديد على كل الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة والتي كانت تعبر عن السيادة المستقلة لجماعات اليهود. وبدأت هذه الجماعات تعرض للمسلمين وتستعد لهم قبل أن تستقر أوضاعهم. وأصبح الصراع مكشوفاً عقب اللقاء المتوتر الذي تمّ بين النبيّ ﷺ وبين اليهود في سوق بني قينقاع، حين دعا اليهود إلى الإسلام، فأبوا وأغلظوا الرد لقول رسول الله ﷺ مخاطباً إياهم: «**يا معشر اليهود احذروا من الله عزَّ وجلَّ مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبيّ مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله إليكم**». فكانت إجابة هذه الدعوة الرقيقة المسالمة موقفاً يفصح عن صلف وغباء وتحدٍّ واستعداد للمجابهة والمواجهة والعراك. «يا محمد إنك ترى أننا كقومك، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لو حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس».

وكان مما ساعد على تصاعد العداء المبيت من جانب الجماعات

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ج٣ ص٥٠ ـ ٥٣.

اليهودية ذلك الحادث الذي وقع لفتاة عربية مسلمة، هذا الحادث الذي صوّر أنموذجاً للخلق اليهودي وانعدام جوانب المروءة أو النخوة أو العفّة في جميع أساليب التعامل. وبهذا الموقف الذي أدى إلى تفاقم العلاقة بين المسلمين واليهود وتصعيد حالات العداء التي كان المسلمون يعملون على تجنبها. فقد كان اليهود يدركون أن الوقت في صالحهم، فإذا لم يكسروا شوكة المسلمين بعد بدر فإن خطر المسلمين سيتضاعف. ثم إن بداية المضايقات وتصاعدها وبلوغها حالات الصدام كانت تتمثل في قطاع هائل من اليهود وهم «بنو قينقاع» الذين توجه إليهم رسول الله بنفسه في سوقهم فرفضوا دعوته.

ثم ساروا على طريق الاستخفاف بالمسلمين وبحرماتهم، فلم يبالِ المسلمون أمام كل الظروف المحيطة بهم. وقاموا بمحاصرة يهود بني قينقاع، فقد كان عددهم وعدتهم أقوى مما لدى المسلمين بكثير، فهم عند بعض المؤرخين يصل عددهم تقريباً إلى ألف وأربعمائة مقاتل. وكان هذا العدد يتحرك على أرض تمكنه من القتال والمناورة، ذلك أنهم كانوا قد اتخذوا لهم حصوناً ومخابئ، بالإضافة إلى كميات من التموين واحتياجات القتال. ومع ذلك فإن أولئك الذين هددوا وتوعدوا الرسول عليه السلام في سوقهم: «لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس» قد ظلوا في حصونهم ومخابئهم حتى قطع المسلمون عنهم كل صلة لهم بالخارج، واضطر اليهود أن يستسلموا دون قيد أو شرط[1].

غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السويق، وكان حين رجع إلى مكة نذر أن لا يأتي النساء حتى يغزو محمداً ﷺ. فخرج بمائتي راكب من قريش ليبر بيمينه فنزل بجبل يقال له: «نيب» من المدينة، فبعث رجالاً من أصحابه إلى المدينة فأتوا ناحية منها يقال لها: العريض، فحرقوا أسواراً من نخل بها وقتلوا اثنين بها وانصرفوا راجعين. وخرج رسول الله ﷺ في طلبهم في مائتين من المهاجرين والأنصار حتى بلغ «قرقرة الكدر» ثم انصرف راجعاً

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج٢ ص٢٩ ـ ٣٠.

بعد أن فاته أبو سفيان ورجاله. وقد رأوا أزواداً من أزواد القوم قد طرحوها في الحرث، يتخففون منها للنجاة هي «السويق» فسميت «غزوة السويق». لما رجع رسول الله ﷺ من غزوة السويق غزا نجداً يريد غطفان، وهي غزوة «ذي آمر» لأن جمعاً من بني ثعلبة ومحاربة تجمعوا بذي آمر يريدون الإغارة، جمعهم دعثور بن الحارث المحاربي. فخرج لهم رسول الله ﷺ في أربعمائة وخمسين من رجاله، فلما سمعوا بمجيئه هربوا في رؤوس الجبال، فرجع رسول الله ولم يلق كيداً. ثم أسلم دعثور بمعجزة من النبيّ ﷺ وكان سيداً شجاعاً، ودعا قومه إلى الإسلام فاهتدى به خلق كثير.

بعث ﷺ بسرية زيد بن حارثة إلى «القرد» ماء من مياه نجد، وسببها أن قريشاً غيَّرت اتجاه سير قوافلها عن طريق العراق. فخرج من قريش تجار فيهم أبو سفيان. وأصاب العير وما فيها وهرب الرجال. أما قتل كعب بن الأشرف اليهودي فهو قد أساء إلى نفسه إذ ساقه الغرور إلى ارتكاب متن الشطط بعداء النبيّ ﷺ معتمداً على ثروته وجاهه وشعره. فإنه بعد أن عاهد النبيّ مع من عاهده من اليهود نقض العهد ونشط يهجو رسول الله والمسلمين بأشعاره.

❋ ❋ ❋ ❋

مقتل كعب بن الأشرف

قال أبو جعفر: في السنة الثالثة للهجرة سرى النبيّ ﷺ سرية إلى «كعب بن الأشرف». وعن ابن إسحاق قال: كان من حديث ابن الأشرف أنه لما أصيب أصحاب بدر، وقدم زيد بن حارثة إلى أهل السافلة وعبدالله بن رواحة إلى أهل العالية بشيرين، بعثهما رسول الله ﷺ إلى المدينة، وبعد أن مَنَّ الله على المسلمين بالفتح، وقتل من قتل من المشركين. وعن محمد بن إسحاق قال: كان كعب بن الأشرف رجل من طيء، ثم أحد بني نبهان، وكانت أمه من بني النضير. قال كعب حين بلغه الخبر: ويلكم أحق هذا أترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمي هذان الرجلان ـ يعني: زيد بن

حارثة، وعبدالله بن رواحة ـ وهؤلاء أشرف العرب وملوك الناس. والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظاهرها. فلما تيقن عدو الله الخبر، خرج حتى قدم مكة، فنزل على المطلب بن أبي وداعة بن ضمرة السهمي، وجعل يحرّض على رسول الله ﷺ، وينشد الأشعار، ويبكي على أصحاب القليب الذين أصيبوا ببدر من قريش[١] فقال:

طحنَتْ رحى بدرٍ لمَهلك أهلهِ ... ولمثل بدرٍ تَستهلُّ وتدمعُ
قُتلتْ سراةُ الناس حول حِياضهِم ... لا تَبعدوا إن الملوك تُصبرعُ
كم قد أصيب به من أبْيَض ماجدٍ ... ذي بهجة يأوي إليه الضُّيَّع[٢]
طلق اليدين إذا الكواكبُ أخلَفتْ ... حمال أثقالٍ يسود ويربعُ[٣]
ويقول أقوام أسَرّ بسُخْطهم ... إن ابنَ الأشرف ظلَّ كعباً يجزعُ
صدقوا فليتَ الأرض ساعة قُتلوا ... ظَلّت تَسُوخ بأهلها وتصدَّعُ
صار الذي أثر الحديث بطعنة ... أو عاش أعمى مرعشاً لا يسمعُ
نُبِّئتُ أن بني المغيرة كلهم ... خشعوا لقتل أبي الحكيم وجُدعوا[٤]
وابنا ربيعة عنده ومُنَبّه ... ما نال مثل المُهلكين وتُبَّعُ
نُبّئتُ أن الحارث بن هشامهم ... في الناس يبني الصالحات ويجمعُ
ليزور يثرب الجموع وإنما ... يَحمِي على الحسب الكريمُ الأروعُ[٥]

قال ابن هشام: قوله: «تبع» وأسر يسخطهم[٦].

ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة، فشبّب بأم الفضل بنت الحارث، فقال:

---

(١) تاريخ الطبري، ج٢ ص٤٨٧ ـ ٤٨٨.
(٢) الضيع: وهو الفقير.
(٣) يربع: كثير المعروف.
(٤) التجديع: قطع الأنف، وأراد به هنا ذهاب عزهم.
(٥) الأروع: الذي يروعك بحسنه وجماله.
(٦) السيرة النبوية، لابن هشام ج٣ ص٥٥ ـ ٥٦.

أرَاحِل أنتَ لم تَحلُل بمنقبةٍ وتارك أنت أمَّ الفضل بالحرمِ
صفراءُ رادعة لو تعصر انعصرت من ذي القوارير والحنَّاء والكتمِ
يربَح ما بين كعبيْها ومرفقِها إذا تأتّتْ قياماً ثم لم تَقُمِ
أشباهُ أم حكيم إذا تُواصلنا والحبْلُ منها مَتين غيرُ مُنجَذِمِ
إحدَى بني عامر جُنَّ الفؤادُ بها ولو تَشاءُ شفَت كعباً من السَّقَمِ
فرع النّساءِ وفرعُ القوم والدُها أهلُ التجلَّة والأبناءِ بالذَّمَمِ
لم أرَ شمساً بليلٍ قبلهَا طَلَعَتْ حتى تجلَّتْ لنا في ليلة الظلمِ

ثم شبّب بنساء من نساء المسلمين حتى أذاهم، فقال النبيّ ﷺ: «**مَن لي من ابن الأشراف؟**»، فقال محمد بن مسلمة أخو بني عبد الأشهل: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله. قال: «**فافعل إن قدرت على ذلك**»، فرجع محمد بن مسلمة، فمكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب. فذكر ذلك لرسول الله فدعاه فقال له: «**لمَ تركتَ الطعام والشراب؟**»، قال: يا رسول الله، قلت قولاً لا أدري أفي به أم لا؟ قال: «**إنما عليك الجهد**»، قال: يا رسول الله، إنه لا بد لنا من أن نقول. قال: «**قولوا ما بدا لكم، فأنتم في حِل من ذلك**»، فاجتمع في قتله محمد بن مسلمة وسلكان بن وقش وهو أبو نائلة أحد بني عبد الأشهل، وكان أخا كعب من الرضاعة، وعباد بن وقش والحارث بن أوس من بني عبد الأشهل، وأبو عبس بن جبر أخو بني حارثة.

ثم قدموا إلى ابن الأشرف قبل أن يأتوه أبا نائلة، فجاءه فتحدث معه. ثم قال: ويحك يا ابن الأشرف إني قد جئتك لحاجة أريد فاكتم عليّ، قال: كان قدوم هذا الرجل بلاءً علينا، عادينا العرب ورمونا عن قوس واحدة. وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس. فقال كعب: أنا ابن الأشرف، أما والله لقد كنت أخبرتك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما كنت أقول، فقال سلكان: إني قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك ونوثق لك. قال: ترهنونني أبناءكم. فقال: لقد أردت أن تقضمنا إن معي أصحاباً لي على مثل رأيي، وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم،

ونرهنك من الحلقة «السلاح» ما فيه لك وفاء، فقال: إن في الحلقة لوفاء. رجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره، وأمرهم أن يأخذوا السلاح فينطلقوا فيجتمعوا إليه، فاجتمعوا عند رسول الله ﷺ.

عن ابن عباس قال: مشى معهم رسول الله ﷺ إلى بقيع الغرقد، ثم وجههم وقال: «**انطلقوا على اسم الله، اللَّهمَّ أعنهم**» ثم رجع رسول الله إلى بيته في ليلة مقمرة، فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة، وكان حديث عهد بعرس، فوثب في ملحفته ـ لباس فوق سائر اللباس ـ فأخذت امرأته بناحيتها، وقالت: إنك امرؤ محارب، وإن صاحب الحرب لا ينزل في مثل هذه الساعة. قال: إنه أبو نائلة لو وجدني نائماً لما أيقظني، فنزل وتحدثوا معه، ثم قالوا له: هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى؟ قال: إن شئتم، فخرجوا يتماشون. فأخذ أبو نائلة بفود رأسه، ثم قال: اضربوا عدو الله. فاختلفت عليه أسيافهم، وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن إلا أوقدت عليه نار، ووقع عدو الله وقد أصيب الحارث بن أوس بجرح في رأسه فاحتملناه فجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل وهو قائم يصلي. فأخبرناه بمقتل عدو الله، وتفل على جرح صاحبنا، فأصبحنا، وقد خافت يهود بوقعتنا، فليس بها يهودي إلا وهو يخاف على نفسه. وزعم الواقدي أنهم جاؤوا برأس ابن الأشرف إلى رسول الله ﷺ[1].

وقال عباد بن بشر في ذلك شعراً، وهو ممن شهد بدراً مع رسول الله ﷺ، وقتل يوم اليمامة شهيداً:

صرخت به فلم يعرض لصوتي ... وأوفى طالعاً من رأس جدر
فعدت له فقال مَن المنادي؟ ... فقلت أخوكَ عبَّادُ بن بشر
وهذي درعنا رهناً فخذها ... لشهر إن وفى أو نصف شهر
فقال معاشر سغبوا وجاعوا ... وما عدموا الغنى من غير فقر

(١) تاريخ الطبري، ج٢ ص٤٨٨ ـ ٤٩١.

فأقبل نحونا يهوي سريعاً وقال لنا لقد جئتم لأمر
وفي أيماننا بيض حداد مجربة بها الكفار نغري
فعانقه ابن مسلمة المرادي به الكفار كالليث الهزبر
وشدّ بسيفه صلتاً عليه فقطره أبو عبس بن جبر
وكان الله سادسنا فأبْنَا بأنْعَمِ نعمة وأعز نصر
وجاء برأسه نَفَرٌ كرام هم ناهيك من صدق وبر[1]

ولما انهزمت قريش في بدر، وجاء البشيران من قبل رسول الله ﷺ، فبشروا بنصر المسلمين وهزيمة المشركين. بلغ ذلك كعب بن الأشرف الطائي الأصل، واليهودي العقيدة ابن النضرية اليهودية قال: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم ـ يعني أمية بن خلف، وأبا جهل، وعتبة بن ربيعة ـ لبطن الأرض خير من ظهرها. وكشّر عن نابه كالكلب العقور، وأخذ يسب النبيّ ﷺ ويتشبّب بنساء المسلمين. ثم ذهب إلى قريش يستعدي رجالها على حرب النبيّ ﷺ فاستضافوه واجتمعوا عليه، وهو يسب النبيّ والمسلمين. وسألوه عن دينهم فقال: إن دينكم خير من دين محمد، وكذب اللعين وغش. فنزل فيه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١]. ولما عاد إلى المدينة وأوحى الله تعالى إلى رسوله بما قاله كعب وما فعله وما عزم عليه تمّ الأمر الذي استوجب قتله بنقضه العهد وتأليبه الأعداء على المسلمين. إن لهذه المقطوعة من السير العطرة نتائج وعبراً في مشروعية الاحتيال على قتل مَن وجب قتله لغدره وخيانته بتأليب الكفار على المؤمنين. مع جواز استعمال المعاريض والتوريات للتوصل إلى إحقاق حق، وإبطال باطل[2].

❋ ❋ ❋ ❋

(١) عيون الأثر، ابن سيد الناس ج١ ص٣٩٥ ـ ٣٩٦.
(٢) هذا الحبيب يا محب، أبو بكر الجزائري ج١ ص٢٥٥ ـ ٢٥٨.

غزوة أُحد

كانت في السنة الثالثة للهجرة، وأحد جبل مشهور بالمدينة في شمالها الغربي. وسمي بذلك لتوحده وانفراده عن غيره من الجبال وذات يوم نظر رسول الله إلى جبل أحد فقال: «**هذا جبل يحبنا ونحبه**»[١]. فغزوة أُحد كانت امتداداً لغزوة بدر التي كانت قاصمة لملأ الفجور الوثني، ترنّح منها طواغيته ترنُّحاً أدار رؤوسهم. ولكنهم بعد صحوة من سكر الهزيمة تماسكوا مستمسكين بعتو كفرهم، وأبوا إلا أن يعودوا إلى موافقة جند الله. فكفار قريش وقفوا أمام دعوة الحق التي جاءتهم على يد رجل منهم يعرفون صدقه وأمانته. وانبعثوا لمناهضة هذه الدعوة الراشدة التي أرادتهم سنداً لها يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. ولكن هؤلاء الكفرة ركبوا متن الشيطان غروراً وعتواً وطغياناً وكفراً، فكانت غزوة بدر نكالاً لهم ووبالاً عليهم، هزموا فيها شر هزيمة حَسَّت صناديدهم، واستأصلت أشراف جاهليتهم قتلاً وأسراً وتشريداً. وقد منَّ عليهم رسول الله ﷺ بما جُبِلَ عليه من مكارم الأخلاق والعفو عند المقدرة، فأطلق أسراهم وقبل منهم الفداء. وذهب طلقاء بدر يجرُّون أذيال الخيبة إلى مكة والحقد الحانق يشوي أبدانهم وحفائظ الضغينة تملأ قلوبهم، فلم تترك فيها مكاناً لغير المناداة بالثأر لقتل أشرافهم في بدر.

واتفق أشراف قريش ممن أصيب من آبائهم وأبنائهم وإخوانهم أن تكون أرباح تلك العير التي كانت سبباً في وقعة بدر تجهيزاً لجيشهم على حرب رسول الله ﷺ. فكوّنوا جيشاً بقيادة أبي سفيان بن حرب عدده ثلاثة آلاف مقاتل معهم مائتا فرس، وجملة من النساء بالدفوف يحرضن على القتال وعدم الهزيمة والفرار. وسارت قريش حتى نزلوا ببطن الوادي من قبل جبل أُحد مقابل المدينة[٢].

---

(١) صحيح البخاري، باب: فضل الجهاد والسير ج٤ ص٤٣.

(٢) محمد رسول الله، محمد رضا ص١٩٣ ـ ١٩٤.

وكتب العباس بن عبد المطلب للنبيّ ﷺ وأخبره بجمعهم وخروجهم، فتشاور رسول الله مع أصحابه وقال: «**امكثوا بالمدينة فإن دخل القوم المدينة قاتلناهم**»، وكان ذلك رأي أكابر المهاجرين والأنصار. وأرسل إلى عبدالله بن أبي بن سلول يستشيره تألفاً له ولم يستشره قبل ذلك، فكان رأي عبدالله مع رأيه ﷺ، فقال رجال من المسلمين لم يحضروا بدراً وأسفوا على ما فاتهم: يا رسول الله، إنا كنا نتمنى هذا اليوم اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنَّا جَبُنّا عنهم. ووافقهم حمزة بن عبد المطلب فترجح عنده ﷺ موافقة رأيهم، وإن كرهه ابتداء ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولم يكن قد أوحي إليه في شأن البقاء أو الخروج فأنفذ مشورتهم[١]. ثم دخل ﷺ بيته وتقلّد السيف وخرج وقد لبس لأمَتَه وألقى الترس على ظهره وأخذ قناته بيده. ولما خرج رسول الله متقلداً سيفه ندم الطالبون لخروجه على ما صنعوا، قالوا: «ما ينبغي لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت» فقال: «**ما ينبغي لنبيّ إذا لبس لأمَتَهُ أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه**».

عقد ﷺ ثلاثة ألوية: لواء الأوس وجعله بيد أسيد بن حضير، ولواء الخزرج وجعله بيد الحباب بن المنذر، ولواء المهاجرين وجعله بيد علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وكان المسلمون مائة دارع وفارسان وكان الخارجون معه ﷺ ألفاً. ثم انخذل عبدالله بن أبي بن سلول ومن معه من المنافقين وكانوا ثلاثمائة، فبقي المسلمون سبعمائة: ومضى رسول الله حتى نزل الشِّعْب من أُحُد فجعل ظهره وعسكره إلى جبل أُحد، وجعل الرماة وكان عددهم خمسين رجلاً على جبل صغير مرتفع. عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أجلس النبيّ ﷺ جيشاً من الرماة وقال: «**لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا**»[٢].

وخرج طلحة بن أبي طلحة وكان بيده لواء المشركين فطلب المبارزة وخرج إليه علي بن أبي طالب فضربه فقطع رجليه. فكان لواء المشركين

(١) صحيح البخاري، باب: غزوة أحد ج٣ ص١٣٠ ـ ١٣١.
(٢) صحيح البخاري، باب: غزوة أحد ج٣ ص١٢٠ ـ ١٢١.

شؤماً عليهم فكلما حمله أحَدٌ قتل، وهكذا قتل أحد عشر رجلاً حملوا اللواء. ولما قتل أصحاب اللواء صاروا كتائب متفرقة، فجاش المسلمون فيهم ضرباً حتى أجهضوهم وأزالوهم عن أمكنتهم، وانهزم المشركون ووقع المسلمون ينتهبون المعسكر ويأخذون ما فيه من الغنائم، واشتغلوا عن الحرب. حتى إن الرماة طمعوا في الغنيمة ناسين أمر الرسول القائد ﷺ ظناً منهم أن الحرب قد انتهت وأن قريشاً قد هزمت. وكرّ المشركون راجعين فحملوا على من بقي من الرماة فقتلوهم، ووقعت الهزيمة في المسلمين.

وقد ثبت رسول الله ﷺ ولم يفارق مكانه، ففقد المسلمون التمييز بين إخوانهم وأعدائهم ووقع القتل في المسلمين بعضهم في بعض. وكان الشهداء من المسلمين سبعين رجلاً، وعدة القتلى من المشركين ثلاثة وعشرين رجلاً. ووصل العدو إلى رسول الله ﷺ وأصابته حجارتهم حتى وقع وأغمي عليه، وخدشت ركبتاه فأخذ عليّ بيده ورفعه طلحة بن عبيدالله حتى استوى قائماً، وأصيبت رباعيته اليمنى والسفلى وشج في وجهه وكَلِمَت شَفَتُه السفلى، وكُسِرَت الخوذة على رأسه. ثم أراد الرسول أن يعلو الصخرة التي في الشعب، فلما ذهب لينهض لم يستطع لأنه ضعف لكثرة ما خرج من دم من رأسه الشريف ووجهه وهو يقول[1]: «**كيف يُفْلِحُ قوم خَضَبُوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم**»[2]، فنزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وصار المسلمون ثلاث فرق: فرقة استمروا في الهزيمة إلى قرب المدينة، فما رجعوا حتى انفضّ القتال، وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران: ١٥٥]. والفرقة الثانية ثبتت مع النبيّ ﷺ، ثم تراجعت إليه الفرقة الثالثة لما عرفوا أنه حي. قال موسى بن عقبة: لما غاب النبيّ ﷺ عن أعين بعض القوم

(١) سيرة ابن هشام ج٣ ص١٠٦، محمد رسول الله، محمد رضا ص١٩٣ ـ ٢٠٧.
(٢) صحيح البخاري، باب: ليس لك من الأمر شيء ج٥ ص١٢٧.

واختلط بعضهم ببعض وسمعوا الصراخ قال رجال من المنافقين: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتِلْنَا هاهنا، وقال بعضهم: لو كان نبياً ما قتل فارجعوا إلى دينكم الأول. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

واشتغل المشركون ذكوراً وإناثاً بقتلى المسلمين يمثلون بهم، وهم يظنون أنهم أصابوا رسول الله ﷺ وأشراف أصحابه. والتمس رسول الله عمه حمزة فوجده مبقور البطن ومجدوع الأنف والأذنين، فساءه التمثيل به، فقال: «**لئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثِلَنَّ بثلاثين رجلاً منهم**»، ولما رأى المسلمون حُزْن رسول الله وغيظه على من فعل بعمه، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً في الدهر لنمثلن بهم. فعن ابن عباس قال: إن الله عزَّ وجلَّ أنزل في قول رسول الله ﷺ وقول أصحابه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٦، ١٢٧]. فعفا رسول الله ﷺ ونهى عن المثلة وقال: «**أصبر وأحتسب**»[1]. وقد كثر القتلى يوم أحد فكان الرجل والرجلان والثلاثة يكفنون في الثوب الواحد ثم يدفنون في القبر الواحد بدمائهم. وأمر النبيّ ﷺ بدفن الشهداء، ولم يُصَلِّ على أحد منهم ولم يُغَسِّلهم.

ولما أراد رسول الله الرجوع إلى المدينة ركب فرسه وخرج المسلمون حوله فقال: «**اللَّهمَّ لك الحمد كله لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما أبعدت، ولا مبعد لما قربت**»، ثم عاد إلى المدينة يهدئ روع نساء القتلى ويدعو لهن. وقد نهاهن عن اللطم وحلق الرؤوس، وتخميش الوجوه، وشق الجيوب. وقال الله تعالى

(١) صحيح البخاري، باب: مَن قتل من المسلمين يوم أُحد ج٣ ص١٣١.

تعزية لأصحاب رسول الله على ما أصابهم من الجراح والقتل بأُحد: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩].

غزوة «**حمراء الأسد**» كانت صبيحة أحد، تبعد عن المدينة ثمانية أميال. قال الواقدي: «باتت وجوه المدينة على بابه ﷺ. فلما طلع الفجر أذّن بلال بالصلاة، جاء عبدالله بن زيد المزني فأخبر النبيّ ﷺ أنه أقبل من عند أهله بالقرب من المدينة فسمع قريشاً يقولون: ما صنعتم شيئاً، أصبتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم ولم تبيدوهم، وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم». فقال رسول الله: «**أرشدهم صفوان ولم يكن رشيداً**»، فصلّى رسول الله ﷺ الصبح وأمر بلالاً أن ينادي أن رسول الله يأمركم بطلب العودة، وألاّ يخرج معنا أحدٌ إلا مَن شهد أُحُداً. أراد بذلك إظهار الشدة بالعدو والزيادة في تعظيم مَن شهد أُحُداً. أقام رسول الله ﷺ ثلاثة أيام بحمراء الأسد، وكان المسلمون يوقدون تلك الليالي خمسمائة نار حتى ترى من المكان البعيد، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه، فكبت الله بذلك عدوهم، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة.

أما «**بعث الرجيع**» قال ابن إسحاق والواقدي إنه ماء لهذيل بين مكة والطائف، وسبب هذا البعث أن بني لحيان من هذيل مشوا إلى قبيلتين من بني الهون ابن خزيمة، فجعلوا لهم إبلاً على أن يكلموا رسول الله ﷺ أن يخرج إليهم نفراً من أصحابه يفقهوهم في الدين. فبعث معهم ﷺ ستة من أصحابه برئاسة عاصم بن ثابت. خرج هؤلاء حتى أتوا الرجيع فغدروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلاً ليعينوهم على قتلهم، وأخذ عاصم ومَن معه أسيافهم ليقاتلوا القوم. إلا أن القوم كانوا يريدون أن يسلموهم إلى كفار قريش ويأخذوا في مقابلهم أجراً إلا أن الصحابة رضي الله عنهم قاتلوا حتى قتلوا[1].

أما «**سرية بئر معونة**» وتسمى أيضاً بسرية القُرَّاء كانت في السنة الرابعة

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص٢٠٧ ـ ٢٠٨.

للهجرة. قال ابن إسحاق: إنه قدم على رسول الله ﷺ أبو براء عامر بن مالك، فعرض رسول الله عليه الإسلام فلم يُسلم ولم يبعد وقال له: يا محمد، إني أرى أمرك هذا حسناً شريفاً وقومي خلفي فلو أنك بعثت معي نفراً من أصحابك لرجوت أن يتبعوا أمرك، فإن هم اتبعوك فما أعز أمرك. فقال ﷺ: «**إني أخشى عليهم**»، فقال: أنا لهم جار. فبعث رسول الله المنذر بن عمرو ومعه القراء وهم سبعون. فلما وصلوا إلى بئر معونة بعثوا حرام بن ملحان بكتابه ﷺ إلى عامر بن الطفيل، وهو ابن أخي أبي البراء. فلم ينظر في الكتاب بل وثب على حرام فقتله، فاستصرخ عليهم قبائل من سليم فنفروا معه. واستبطأ المسلمون حراماً فأقبلوا في أثره فأحاط بهم القوم فكاثروهم فقاتلوا فقتل أصحاب رسول الله ﷺ، وجاءه خبر أهل بئر معونة فقال ﷺ: «**هذا عمل أبي بَراء قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً**»، فبلغ ذلك أبا براء فشقّ عليه إخفاء عامر إياه، وما أصاب أصحاب رسول الله بسببه وجواره.

قال ابن إسحاق: وقال حسان بن ثابت يحرض بني أبي بَراء على عامر بن الطُّفيل:

بَنِي أمِّ البَنِين ألم يَرُعْكم ... وأنتم من ذوائب أهل نجدِ
تَهكمُ عامر بأبي براء ... يخفِّره وما خطأ كعَمْدِ
ألا أبلغْ ربيعةَ ذا المساعي ... فما أحدثتَ في الحدثانِ بعْدي
أبوك أبو الحروب أبو براء ... وخالَك ماجدٌ حكم بنُ سَعْدِ

وقال العلامة الزرقاني: إنما لم يخبره سبحانه وتعالى بما ترتب على ذهاب القراء وأهل الرجيع قبل خروجهم كما أخبره بنظير ذلك من الأشياء، لأنه في سبق علمه تعالى إكرامهم بالشهادة[1].

❋ ❋ ❋ ❋

(١) السيرة النبوية، لابن هشام، بئر معونة ج٣ ص١٩٣ ـ ١٩٨، تاريخ الطبري ج٢ ص٥٤٥ ـ ٥٥٠.

غزوة يهود بني النضير

كانت في السنة الرابعة للهجرة، والنضير اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا في المدينة وكانوا هم وقريظة نازلين بظاهر المدينة في حدائق وآطام «حصون» لهم. خرج رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه وصلّى في مسجد قباء ثم أتى بني النضير فكلمهم أن يعينوه في دية الرجلين اللذين قتلهما عمر بن أمية الضمري ظناً منه أنه ظفر بثأر بعض أصحابه الذين قتلوا ببئر معونة، وأخبروا رسول الله بذلك فقال ﷺ: «**بئس ما صنعت**» لقد كان لهم من أمان وجوار. فلما عرض عليهم رسول الله ذلك قالوا: نفعل يا أبا القاسم، وكان رسول الله جالساً إلى جنب جدار من بيوتهم فخلا بعضهم ببعض وهمُّوا بالغدر به. وجاء رسول الله الخبر وما همُّوا به فنهض سريعاً متوجهاً إلى المدينة، ثم بعث لهم أن أخرجوا من بلدي فلا تساكنوني بها وقد تبين ما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشراً فمن رئي بعد ذلك ضربت عنقه، فأرسل إلى رسول الله إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك. فكبّر رسول الله ﷺ وكبّر المسلمون لتكبيره. فسار إليهم رسول الله في أصحابه فصلّى العصر بفضاء بني النضير. فحاصرهم فقالوا: نخرج، فقال ﷺ: «**أخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة**»، «السلاح»، فرضوا بذلك وكان حصارهم خمسة عشر يوماً. قال ابن إسحاق: نزلت في بني النضير سورة الحشر بأسرها يذكر فيها ما أصابهم الله به من نقمته، وما سلّط عليهم به رسول الله ﷺ[1].

وبنو النضير إحدى ثلاث طوائف كانت تسكن حول المدينة من اليهود، وقد وادعهم الرسول ﷺ، وكتب لهم بذلك كتاباً. إلا أن بني النضير نقضوا عهدهم بتآمرهم على قتل رسول الله بصورة مكشوفة. فبعد انتهاء غزوة أُحد، وما حدث بواقعة بئر معونة، وإن عمرو بن أمية لما وقع في أسر عامر بن الطفيل أعتقه وعاد عامر إلى المدينة. وفي طريقه لقي رجلين

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص٢١٢ ـ ٢٢٠.

من بني عامر فقتلهما ثأراً لشهداء بئر معونة، وكان القتيلان معاهدين للنبيّ ﷺ ولم يعلم بذلك عمرو وأخبر النبيّ بالحادث فقال رسول الله: «**لأدينهما**»، وفعلاً جاء ذووهما يطالبون بديتهما. وكانت معاهدة اليهود تقضي بأن يدي كل من الطرفين ما لزمه من دية شرعية.

فخرج النبيّ ﷺ مع أبي بكر وعمر وعلي إليهم - أي: إلى بني النضير - يطالبهم بالإسهام في دية العامريين بموجب المعاهدة، فأنزلوا رسول الله مع أصحابه في ظل جدار من بيت أحدهم، وأظهروا أنهم يسعون في تحقيق طلبه، وإذا بهم يتآمرون على قتله، وعينوا لذلك عمرو بن جحاش وأخبروه أن يطلع على السطح ويلقي عليه رحى من فوقه يقتله بها. وأنكر عليهم سلام بن مشكم عملهم وقال: لا تفعلوا، لكنهم أجمعوا على أن ينفذوا خطتهم. وقبل أن يفعلوا أوحى الله تعالى إلى رسول الله ﷺ بما هَمُّوا به من قتله فقام على الفور كأنه يقضي حاجة ودخل المدينة. ولما استبطأه أصحابه قاموا ولحقوا به فأخبرهم بمؤامرة اليهود، وأن خبر السماء قد سبقهم. وكانت آية المائدة قد نزلت في هذه الحادثة وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ١١]. وتتلى الآية تذكيراً بنعمة الله وفضله على المؤمنين ليشكروا بالصبر والطاعة. لقد بعث إليه رسول الله يأمرهم بالخروج من جواره وبلده، لنقضهم العهد الذي بينهم وبينه. فبعث إليهم المنافقون وعلى رأسهم ابن أبيّ - كبير المنافقين - يشجعونهم على البقاء وعدم الجلاء. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾

كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [الحشر: ١١ ـ ١٥]، وهم بنو قينقاع أهلكهم الله.

ولما لم ينصاعوا للأمر بالجلاء أعلن رسول الله ﷺ الحرب عليهم، وخرج إليهم برجاله، فحاصرهم قرابة نصف شهر. وأثناء ذلك هددهم بإحراق نخلهم وقطعه، وفعلاً أحرق بعض المؤمنين طرفاً وقطعوا بعضاً. وتألم لذلك بعض المسلمين لا سيما حين قال اليهود لرسول الله: عهدنا بك تنهى عن الفساد، وتعيب صاحبه، فكيف تأذن بإحراق النخيل؟ ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الحشر: ٥]. ونزل اليهود أخيراً على حكم رسول الله منصاعين لأمره، وهو أن يخرجوا من المدينة حاملين أموالهم ما عدا الحلقة «السلاح» حتى لا يحاربون بها مرة أخرى. فأخذوا أموالهم حتى إن أحدهم يهدم سقف بيته ويحمل بعض أخشابه، أو يأخذ باب منزله. وفي هذا يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾ [الحشر: ٢ ـ ٤].

وأُجلي بنو النضير عن المدينة، وقسم رسول الله أموالهم بين المهاجرين إذ هم أصحاب الحاجة. فإن أموال بني النضير لم تكن غنائم أُحرزت بالقتال، وإنما كانت فيئاً أفاءها الله على رسوله بدون قتال. وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحشر: ٦]. إن سورة الحشر جُلُّها نزل في يهود بني النضير. وإن من نتائج وعِبَر هذه الغزوة تبين الكمال المحمدي في الوفاء بالعهود والالتزام، وبيان سجية من سجايا اليهود وهي نقض المعاهدات.

عبرة خاصة أنه لما أخرج بنو النضير من ديارهم، وتركوها خراباً، قربها عمرو بن سعدي اليهودي، وكان متألهاً في بني قريظة لا يفارق الكنيسة. فرأى خرابها وفقدان أهلها بعدما كانوا يعمرونها، فأتى ببوق، فنفخ فيه فاجتمع رجال بني قريظة فذكرهم بحال بني النضير، وحال بني قينقاع من قبلهم وما حلّ بهم من ذل وهوان وخسران. وقررهم بما يعرفون من التوراة، وهو أن محمداً هو النبيّ الخاتم وأنه رسول الله ﷺ حقاً وصدقاً، وأن النجاة في اتباعه والخسران في حربه والكفر به ومعاداته. فأقروا لما أكثر عليهم من الحجج والشواهد والبراهين، فقال له كعب بن أسد القرظي: ما يمنعك من اتباعه وأنت صاحب عهدنا وعقدنا فإن اتبعته اتبعناه، وإن أبيت أبينا. قال: ما عندي في أمره إلا ما قلت ما تطيب نفسي أن أصير تابعاً. وهكذا يحمل الكبر صاحبه على جحود الحق وإنكاره وإن خسر نفسه وأهله في الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين[١].

قال عمرو بن أمية الضمري فاتك الجاهلية وفارس الإسلام: أجل لقد صادفت في طريقي إلى المدينة رجلين من بني عامر فقتلتهما ولعلي أكون قد أطفأت وقدة غيظ تستعر في صدور المسلمين، مما أصاب فينا بنو عامر يوم بئر معونة. وقد أدرك إن هما إلا رجلان معهما من رسول الله عهد وجوار، ولهما حرمة وذمام، وأنه ضلّ فيما أراد. قال: أخبر رسول الله ﷺ، وما نقض على الرسول هذا الخبر حتى رآه قد تربَّد وجهه، وقال: لقد قتلت؟ لأدينهما، أي: أدفع ديتهما. ولكن رسول الله في ضنك من المال، ودية القتيل عاجلة لا تتحمل النسيئة. ليذهب إلى بني النضير، إنهم حلفاؤه ومعاهدوه، ولقد عقد معهم يوم حضر إلى المدينة عقداً، ألاّ يحاربهم ويحاربوه، وإنهم بعد ذلك حلفاء بني عامر، فليس ما يمنع أن نستعين بهم على دفع دية القتيلين.

ودعا رسول الله نفراً من صحابته، حيث يقيم بنو النضير في أطراف المدينة. فقام حيي بن أخطب زعيم بني النضير وجماعته محيين ومعظمين

(١) هذا الحبيب محمد رسول الله يا محب، أبو بكر الجزائري ص٢٨٩ ـ ٢٩٣.

رسول الله وقلوبهم لتخني على المكر والكيد. قال لهم رسول الله: «**لقد قتل واحد من المسلمين اثنين من بني عامر، حسب أنه أصاب فيهما عدواً. ولكنهما كانا معنا في حلف، ولهما ذمام، وقد جئناكم نستعين بما لكم على دية هذين القتيلين، بما بيننا من حلف وعهد**». قال حيي بن أخطب: لك ما تريد، استرح إلى هذا المكان، وأنظرنا قليلاً، حتى نجمع المال. وجلس رسول الله ﷺ وجلس معه أصحابه انتظاراً لما وعدوه. أما هم فسرعان ما أقبل بعضهم يتآمرون: كيف لا يفتكون بمحمد وهو بين أظهرهم ليس معه من ينصره إلا نفراً من أصحابه عزلاً من السلاح. قالوا: لئن قتلتموه لتستريحن، ولئن أفلت منكم اليوم فلن تظهروا عليه أبداً. مَن منكم ينتدب لقتله؟ قال عمر بن جحاش: أنا بذلك زعيم، دعوني أقتله، وانطلق يعد صخرة يرضخه بها. وتسلّق الجدار ولكنه نظر فإذا برسول الله قد انصرف وخذل الله الكيد والمكر.

وعاد رسول الله إلى أصحابه، وأعلن فيهم أن بني النضير قد غدروا ونكثوا، وأنهم قد أرادوا له قتلاً، ولولا أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إليه بسوء نيتهم وخبث دخيلتهم. والمسلمون في حِل من عهدهم ولا جناح عليهم في حربهم، إذ لم يعد أمان لجوارهم، ولا عهد لميثاقهم. وانتدب رسول الله محمد بن سلمة لينذرهم الخروج من ديارهم، وذهب إليهم، ونادى فيهم: «يا بني النضير قد علمنا مكركم وغدركم، واطلع الله ورسوله على مؤامرتكم، فلا بقاء بعد اليوم في ديارنا، فارحلوا سالمين بأنفسكم ولكم أسوة في إخوانكم بني قينقاع». وأدرك بنو النضير عاقبة فعلتهم، وكادوا يصيخون للنذير، ويتهيؤون للخروج لولا أن قيّض الله لهم عبدالله بن أبي بن سلول رأس المنافقين بالمدينة الذي قال لهم: «لا تخرجوا من دياركم، وإياكم والجلاء عن أوطانكم، وإننا سنكون في حزبكم ومن أنصاركم». فعلم رسول الله كفرهم وعنادهم، ونهض لقتالهم، وحاصرهم ليالي، فلم يفتحوا له باباً، ولم يلقوا إليه يداً. ولكنهم ما رأوا المسلمين يقطعون النخيل، ويتهيؤون للغارة حتى خار عودهم، والتجؤوا إلى رسول الله يسألونه أن يجليهم، ويكف عن دمائهم على ألاّ يأخذوا من أموالهم إلا ما

حملت جمالهم. وأجابهم رسول الله إلى طلبهم واحتملوا إثم غدرهم، فتركوا الديار ورحلوا[١].

لم تكن مفاجأة للمسلمين مواقف التحلل من الارتباط الذي أخذوه على اليهود في المدينة، ولم يكن اليهود في ظل التحلل من العهود إلى أساليب إشاعة الفتنة وعمل العراقيل ضد المسلمين. خصوصاً بعد إجلائهم «لبني قينقاع» لذا فإن المسلمين أخذوا حذرهم من اليهود، فقد كانوا لا يقلون خطراً عن قريش. وبعد الظروف التي حاقت بالمسلمين في غزوة أُحد، فإنه لم يكن أمام اليهود ليشفون مُر كيدهم وغيظهم من المسلمين إلا المؤامرة والوشاية والخديعة ضدهم. وأرادوا قتل النبيّ ﷺ باعتباره الرمز الحقيقي للخطر الذي ينمو ويتصاعد ضد مصالحهم، وباعتباره القوة التي تستطيع جمع المسلمين وتعبئة مشاعرهم. خصوصاً بعد أن بدأ المسلمون يعدون أنفسهم للقوى المضادة من أهل مكة، ويحذرون من مجموعات المنافقين من أهل المدينة حتى فوجئوا بمحاولة ضربة غدر قاتلة. وكانت هذه الضربة هي حالة الخيانة التي تربّص فيها اليهود «بنو النضير» الذين يقطنون المدينة إلى الشمال بخمسة كيلو مترات، وأرادوا قتل النبيّ ﷺ والتخلص منه ومن المسلمين في شخصه نهائياً.

ولما كانت التقاليد العربية ملزمة فيما يتعلق بالدية والالتزام بها، وهو أن تشترك قبيلة القاتل وأحلافها في الدفع والغرامة. ولما كان بنو النضير مرتبطين مع المسلمين بالتحالف، فقد توجه إليهم رسول الله بنفسه يطلب منهم أن يتعهدوا بالتزامهم ويشتركوا مع المسلمين في دفع دية القتيلين لأنهما كانا مواليين لهم. ورغم سوء العلاقة بين العرب والمسلمين واليهود والتي مرت بأطوارها المختلفة من بدء الهجرة إلى إجلاء يهود بني قينقاع من المدينة، فإن أبسط أساليب التعامل المرتبطة بالعرف والتقاليد وخاصة عند الخلق العربي القويم قد جعل اليهود حين يصل رسول الله إلى بني النضير يعدون مؤامرة بالخديعة والوشاية، وإن المؤامرة قد تمّ الإعداد لها ضد

(١) قصص القرآن، جاد المولى، أبو الفضل، البيجاوي، السيد شحاته ص٢٩٥ ـ ٢٩٩.

شخص رسول الله ﷺ. وحين وصل رسول الله إلى موقع تجمع يهود بني النضير، رحّب به الجميع ووافقوا على ما عرضه عليهم من دفع الدية، والاشتراك في غرمها. وقالوا له: «لا نفعل يا أبا القاسم إلا ما أحببت». وكانوا قد أعدُّوا جنايتهم حين علا الرجل اليهودي سطح الجدار الذي كان يجلس إلى جانبه رسول الله وأراد أن يلقي بصخرة كبيرة فوق رأس النبيّ ﷺ وينتهوا منه. وأمام هذا التآمر وخطورة هذا الجرم، فإن المعجزة الإلٰهية قد لعبت دورها في توجيه رسول الله وحمايته.

وفي اليوم التالي يفاجئهم رسول الله برسوله إليهم محمد بن مسلمة على رأس قوة من المسلمين تحمل لهم إنذاراً بجلائهم عن مواقعهم، ومَن يتواجد في موقعه منهم يضرب عنقه. وكان من تأثير هذه الجدية في المجابهة من جانب المسلمين أن اليهود من بني النضير ضعفوا وتخاذلوا، وكانت المهلة التي حددها رسول الله لهم عشرة أيام. إلا أن القوة المضادة من قطاعات كثيرة يهودية قد عقدت تحالفات فيما بينها وبين بعض القبائل العربية المناوئة للمسلمين، فاستغل الجميع الموقف الذي بادر به النبيّ ﷺ لوضع حد للتآمر ضده، وأرادوا أن يجعلوها حرباً كبيرة لينالوا من المسلمين ومن قوتهم وهيبتهم. وبالدسائس التي دست استطاع «حُيَيّ بن أحطب» قائد يهود بني النضير أن يجابه الإنذار الإسلامي بعد التقاعس الذي دبّ فيهم أول الأمر قائلين: لن نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك. وبين موقف التآمر الذي أخذه ابن أبيّ بن سلول من المسلمين حين أرسل سراً إلى بني النضير يشجعهم على رفض الإنذار ويغريهم بالمقاومة ويقول لهم: «لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم فيموتون عن آخرهم». ورغم كل هذا الذي عبَّأ به اليهود أنفسهم من تآمر وتحالف فإن رسول الله قد وجّه المسلمين إلى أن يقوموا إلى اليهود في مواقعهم ويهاجموهم في حصونهم. ومع صبر المسلمين وقوة إيمانهم واصلوا حصارهم، ولم يجرؤ خلالها اليهود في أن يحاولوا فك الحصار عن حصونهم، واضطروا اليهود إلى أن يرفعوا أصواتهم بالاستسلام المخجل فإن المسلمين أعملوا في الموقف هذا تعاليم دينهم وما ألفوه من قواعد العفو

والصفح، وأنهوا الموقف بينهم وبين يهود بني النضير بجلائهم مقابل أن تصان أرواحهم، وأن يُسلِّم اليهود سلاحهم للمسلمين ولا يخرجون به.

وأن ما تمّ بعد موقف المسلمين من اليهود قد أكد طبيعة التناقض بين الأخلاق الإسلامية والطبيعة العدوانية عند اليهود، والتي تعبّر عن اختلاف في الطبع التكوين ومنهج الحياة وكل أمور السلوك العام، فالسلوك اليهودي قائم على أساليب الاستغلال والسيطرة ويرتبط دائماً بالسلوك المرتشي المتآمر والمنحرف بدعوى العلم ونقاء الجنس. إضافة إلى طبيعة مكونات التراث الذي يعبر عن الطبع الذي يمتلئ بمشاعر العداء للناس ونزعة الشر في السلوك والتعامل والجوار في علاقة اليهودي بغيره. أما الخلق العربي المسلم السمح فهو يحفظ حق الجوار وحرمة العهد والوعد، وخاصة بعد أن امتزجت قِيَم المروءة والنخوة العربية بقِيَم وآداب وتعاليم الإسلام الذي يعبّر عن الإيمان بقضية الحب والخير[١].

«**غزوة ذات الرقاع**» أو غزوة صلاة الخوف: جاء في صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: غزوت مع رسول الله ﷺ قبل نجد فوازينا العدو فصافقنا لهم. فقام رسول الله ﷺ يصلي لنا فقامت طائفة معه، وأقبلت طائفة على العدو وركع رسول الله بمَن معه وسجد سجدتين ثم انصرفوا مكان الطائفة التي لم تصلِّ فجاؤوا فركع رسول الله بهم ركعة وسجد سجدتين ثم سلّم، فقام كل واحد منهم فركع لنفسه ركعة وسجد سجدتين. وسبب خروجه ﷺ إلى هذه الغزوة أنه بلغه أنهم جمعوا جموعاً لمحاربته فخرج في أربعمائة من أصحابه وسار إلى أن وصل إلى موضع يسمى وادي الشقرة، ولم يرَ أحداً فسار حتى نزل نخلاً وهو موضع من نجد من أرض غطفان، فلما يجد في مجالسهم إلا نسوة فأخذهن. فبلغ الخبر القوم فخافوا وتفرقوا في رؤوس الجبال. ثم اجتمع جمع منهم وجاء لمحاربة جيش رسول الله ﷺ وأخاف الناس بعضهم بعضاً، ولم يكن بينه وبين القوم حرب.

«**غزوة بدر الثالثة**»: وتسمى غزوة السويق خرج رسول الله ﷺ إلى بدر

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج٢ ص٣١ ـ ٣٨.

ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه لميعاد أبي سفيان. وخرج أبو سفيان في قريش وهم ألفان حتى نزل موضعاً قريباً من مُر الظهران ثم بدا له الرجوع. فرجع ورجع الناس فسمّاهم أهل مكة جيش السويق يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق. وهذه حيلة دبرها أبو سفيان، لأنه لم يكن يريد حرباً بل خرج لئلا يقال: أخلف وعده ولم يخرج. على أنه لم يعارضه أحد من قريش في الرجوع، فكان الجيش أيضاً لا يريد الحرب. وأقام رسول الله ﷺ ببدر ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان، وفي هذه المدة باع المسلمون ما معهم من التجارة فربحوا كثيراً.

«**غزوة دومة الجندل**»: وهي أول غزوات الشام في السنة الخامسة للهجرة، وسببها أنه بلغ رسول الله ﷺ أن بها جمعاً كثيراً يظلمون من مرّ بهم، وأنهم يريدون الدنو من المدينة. فخرج ﷺ في ألف من أصحابه فأصاب أهل دومة الجندل الرعب وتفرقوا ثم عاد إلى المدينة. قال ابن الأثير وغنم المسلمون إبلاً لهم.

أما «**غزوة المريسيع**»: أو غزوة بني المصطلق فقد كانت في السنة الخامسة من الهجرة. وسببها أن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي كان قد جمع الجموع لمحاربة النبيّ ﷺ فخرج حتى بلغ ﷺ المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل، حمل المسلمون على المشركين فقتلوا عشرة وأسروا باقيهم وكانوا أكثر من سبعمائة. وسَبُوا الرجال والنساء والذرية وساقوا النَّعَم ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد[1].

❋ ❋ ❋ ❋

غزوة الخندق

وهي الأحزاب كانت في السنة الخامسة للهجرة وسببها أنه لما وقع إجلاء بني النضير سار جمع من كبرائهم إلى أن قدموا مكة على قريش

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص٢١٢ ـ ٢٢٧.

يدونهم ويحرضونهم على حرب رسول الله ﷺ وقالوا لهم: يا معشر يهود إنكم أهل كتاب أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أوْلى بالحق منه. فلما قالوا ذلك لقريش سَرَّهُم ما قالوا واستعدوا للحرب. ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤوا غطفان ودعوهم إلى مشاركتهم في الحرب، وذكروا لهم استعداد قريش فأجابوهم.

إن اليهود ـ لعنهم الله ـ أجابوا قريشاً بأن دين قريش الوثني خير من دين محمد، مخالفين بذلك دينهم الداعي إلى عبادة الله الواحد توصلاً إلى غرضهم وهو محاربة المسلمين وطردهم من المدينة، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ الآيات [النساء: ٥١].

خرجت قريشاً وقائدها أبو سفيان بن حرب، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن في بني فزارة، والحارث بن عوف في بني مُرَّة، ومسعود بن رخيلة في قومه من أشجع. فلما سمع رسول الله ﷺ بتحزُّبهم وخروجهم لمحاربته أمر بحفر الخندق حول المدينة في الجهات التي لم تكن حصينة لتعوق العدو المهاجم. والذي أشار سلمان الفارسي عليه بحفره، واشتغل رسول الله بحفر الخندق بنفسه ليقتدي به المسلمون.

لما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف. أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال بين الجرف والغابة في عشرة آلاف. وكان كعب بن أسد القرظي قد وادع النبيّ ﷺ على قومه وعاقده على ذلك، إلا أنه نقض العهد وصار هو وقومه بنو قريظة مع الأحزاب على رسول الله. وعلم بذلك رسول الله ﷺ، وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف من تحزُّب الأحزاب، وظن المؤمنون كل الظن، يقول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠﴾ [الأحزاب: ١٠].

فالذين جاؤوهم من فوقهم بنو قريظة بعد نقضهم للعهد، والذين جاؤوهم من أسفل منهم قريش وغطفان. يقول الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا

وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب: ١١ ـ ١٣]. وانتهز المنافقون هذه الفرصة لتثبيط العزائم، وهَمَّ بالفشل بنو حارثة وبنو سلمة معتذرين بأن بيوتهم عورة. ثم ثبّتهم الله، ودام الحصار على المسلمين قريباً من شهر ولم يكن بينهم غير الرمي بالنبال[١].

وجاء نُعَيْم بن مسعود إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمُرْني بما شئت. فقال له رسول الله: «**إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنا إن استطعت فإن الحرب خُدْعَة**»[٢]. ونجح نعيم بن مسعود في خدعته أوقع الفشل بين بني قريظة وقريش. ثم جاءتهم ريح في ليال شاتية البرودة، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم وأصيبوا بالبرد وماتت مواشيهم. فلما انتهى إلى رسول الله ما اختلف من أمرهم وما فرق الله من جماعتهم. نزل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب: ٩]. قال ﷺ بعد انصراف الأحزاب: «**لأن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم**»[٣]. وكان كما أخبر ﷺ هذه الغزوة كانت آخر محاولة من جانب قريش للقضاء على الإسلام.

❋ ❋ ❋ ❋

غزوة يهود بني قريظة

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ لما رجع يوم الخندق وضع السلاح واغتسل فأتاه جبريل وقد عصب رأسه فقال:

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام، غزوة الخندق ج٢ ص٢٤٠، تاريخ الطبري ج٢ ص٥٧٨ ـ ٥٧٩.
(٢) مختصر صحيح مسلم، للألباني ص٢٩٩ حديث رقم ١١٢٨ (م٥ ـ ١٤٣).
(٣) صحيح البخاري، باب: الأحزاب ج٥ ص٢٤١.

وضعت السلاح فوالله ما وضعته. فقال رسول الله ﷺ: «**فأين؟**» فقال جبريل: ها هنا. وأومأ إلى بني قريظة، قالت: فخرج إليهم رسول الله[١] فأمر مؤذناً فأذّن في الناس مَن كان سامعاً مطيعاً فلا يُصَلِّيَنَّ العصر إلا في بني قريظة. فلما دنا رسول الله من حصونهم قال: «**يا إخوان القِرَدة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟**»، قالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولاً. وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب. فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله إنهم موالينا، فقال رسول الله: «**ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟**»، قالوا: بلى. قال: «**فذاك إلى سعد بن معاذ**» قال رسول الله: «**أُحكم فيهم**»، قال: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلهم، وأن تسبي ذراريهم، وأن تُقسم أموالهم. فقال رسول الله ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله**»[٢]. قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾ [الأحزاب: ٢٦]، ظاهروهم، أي: عاونوهم من أهل الكتاب، وهم بنو قريظة، من صياصيهم: من الحصون والآطام التي كانوا فيها.

وقد ذخر تاريخ المدينة المنورة في الجاهلية وفي عهد النبيّ ﷺ بذكر الآطام، وواكبه الشعر. ولم ترد لفظة أطم في القرآن الكريم، ولكنه عندما قصّ علينا أخبار غزوتَيْ بني النضير وبني قريظة، أشار ـ والله أعلم ـ إلى الآطام بالحصون في غزوة بني النضير. قال تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢] الآية. وبالصياصي في غزوة بني قريظة بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٦] الآية. والصياصي جمع صيصة وهي الحصن وكل ما يمتنع به صاحبه

(١) صحيح البخاري، باب: مرجع النبيّ ﷺ من الأحزاب، ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم ج٥ ص١٤٢.
(٢) صحيح البخاري ج٥ ص١٤٣.

للدفاع، وكانت كلمة الصياصي مرادفة لكلمة الآطام[١].

إن النبيّ ﷺ لما أنذر بني النضير من اليهود بالجلاء عن المدينة لنقضهم العهد ومحاولة غدرهم به صلوات الله وسلامه عليه، أرسل إليهم عبدالله بن أبيّ المنافق يقول: «**وأقيموا في حُصُونكم فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم**...» إلخ. فجعلوا يتداولون الرأي، فقال حُيي بن أخطب: «نَرُمُّ حصوننا ثم نُدْخِلُ ماشيتنا وندرب أرقتنا وننقل الحجارة إلى حصوننا، وعندنا من الطعام ما يكفينا سنة وماؤنا واقن في حصوننا وتن الماء دام ولم ينقطع، لا نخاف قطعة فترى محمداً يحصرنا سنة؟...»[٢].

وهذا بيان إلى ما يرمز إليه من سعة الآطام فهي على ما في كلمة ابن أبيّ تتحمل ألفي شخص بالإضافة إلى أصحابها. وإن رحباتها على ما في كلمة حيي بن أخطب مستعدة لإيواء مواشي قبيلة غير صغيرة. مع ملاحظة أن عدداً من بني النضير كانوا فلاحين والزراعة من شأنها الإكثار من تجمع المواشي. كما يشير إلى أن في آطامهم آباراً تغنيهم عن الخروج للورود، وأن فيها من الطعام ما يكفيهم سنة.

كان بين الأوس والخزرج حروب قديمة، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة لقبهم بالأنصار لأنهم هم الذين نصروه وانمحى ما كان بينهم من العداوة وصاروا بنعمة الإسلام إخواناً. أما يهود المدينة فكانت «بني قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع» قد عاهدهم رسول الله ﷺ وأقرهم على دينهم وأموالهم. لكنهم ثاروا ونقضوا عهده وتعنتوا في مناقشته وحسدوه على انتصاراته وكادوا له وعادوا ينكرون عليه نبوته. فلما رأى رسول الله منهم الغدر وشدة العناد ودس الدسائس أراد التخلص منهم فمكّنه الله سبحانه وتعالى منهم وأجلاهم عن المدينة. وبعد غزوة بني قريظة الذين حزّبوا الأحزاب عليه في غزوة الخندق لم تقم لليهود قائمة بالمدينة، وخضع

(١) أطوم المدينة المنورة، السيد عبيد مدني ص٢١٣.
(٢) مغازي الواقدي ج١ ص٣٦٨.

المنافقون كل الخضوع وكانوا فئة قليلة. أما المدينة فقد صارت مركزاً لسلطة دينية عظيمة واستطاعت إخضاع جزيرة العرب بعد سنين قليلة[١].

حُيي بن أخطب زعيم بني النضير المنبوذ الطريد، يقيم في أرض خيبر منذ أجلاه رسول الله ﷺ عن المدينة. جزاءً وفاقاً لما ارتكبه وقومه من نكث للعهد، وما كانوا يتوقعونه للمسلمين من غائلة السوء. وقد تمكن حُيي أن يجمع إليه نفراً من قومه ممن أجلُوا عن المدينة، وأكل الحقد قلوبهم وأنْ يحزبوا على رسول الله أعداءه. وكانت بنو قريظة تساكن رسول الله بالمدينة على عهد بينهم وبينه: ألاّ يحاربهم ولا يحاربوه، وأن يهادنهم ويهادنوه، وأن يكونوا بعد ذلك على غيرهم أحلافاً. وظلوا قائمين على العهد حتى وفد عليهم حُيي بن أخطب ومعاونوه، وحاولوا إغراء كعب بن أسد القرظي رئيس يهود بني قريظة، وما زال حُيياً يُزوِّر له الغدر، ويزخرف له الفجور، حتى لانت عريكته، ونقض العهد، وخرج بقومه لقتال المسلمين. وبينما المسلمون يتهيؤون لصد قريش ومن حالفهم، إذا بوافد يلقي إلى رسول الله: أن بني قريظة قد نكثت عهودها ونقضت عهودها. ساق الله إلى المسلمين «نُعَيْم بن مسعود»، وهو رجل من رجال غطفان. فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمُرني بما شئت. فقال رسول الله: «**إنما أنت فينا رجل واحد، فخذِّل عنا إن استطعت، فإنَّ الحرب خُدعة**».

ذهب نعيم بما وهبه الله من قبس الإيمان، وبما رخص له رسول الله من خداع، وبما أباح له من نسيج خيوط الدهاء، واستطاع أن ينال من الأعداء ما لا ينال بالسيوف. ذهب إلى بني قريظة وكان نديماً لهم في الجاهلية وقال لهم: «**يا بني قريظة، قد عرفتم ودي إياكم: إن قريشاً ليسوا مثلكم، البلد بلدكم لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه، وقد تظاهروا عليه، فإن رأوها نهزة** ـ أي: فرصة ـ **أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلُّوا**

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص٢٤١ ـ ٢٤٣.

بينكم وبين الرجل، ولا طاقة لكم إذا خلا بكم» قالوا: وما الرأي وقد عاهدناهم على أن نحارب معهم؟ قال: «**أن تأخذوا رهناً من أشرافهم، وبذل تكفلون صدقهم ونصرتهم**»، وتركهم نعيم بعد أن بثّ خديعة فيهم. وذهب إلى قريش فقال لهم: تعلموا أن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيكم أن نأخذ من قريش وغطفان، رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم. وذهب نعيم إلى غطفان وحدثهم بمثل ما حدث قريش، وانخدعوا كما انخدعت قريش.

أوفدت قريش وغطفان عكرمة بن أبي جهل في نفر منهم إلى بني قريظة يستنفرونهم القتال. فقالوا لهم: إن اليوم سبت لا نعمل فيه شيئاً، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم. فإننا نخشى إن ضرّستكم الحرب أن تشمّروا لبلادكم وتتركونا ومحمداً، ولا طاقة لنا بقتاله. إلا أن قريش وغطفان قالوا لبني قريظة: لا ندفع إليكم من رجالنا، ووقع التخاذل في صفوف الأحزاب. ورجع رسول الله إلى الذين ظاهروا قريشاً وغطفان من بني قريظة، فوجدهم قد قذف الله في قلوبهم الرعب، فانتقم منهم وأنزلهم من حصونهم وصياصيهم، ثم عاقب رجالهم بالقتل ونسائهم بالسبي والأسر[١].

وبعد حكم سعد بن معاذ في المفاوضات التي ارتضاها اليهود من بني قريظة، وتعهدوا فيها بالموافقة على الحكم الذي يصدره سعد، حبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة ثم ساقهم مجموعة بعد مجموعة ليضرب أعناقهم باعتبارهم ناقضي عهد، وكافرين بالدين الصحيح. وكانوا في أغلب التقديرات ما بين ستمائة إلى سبعمائة، وكانوا يخرج بهم من الأسر ليرسلوا أرسالاً إلى حيث تضرب أعناقهم. ثم أحضر رسول الله الرأس المخطط للمؤامرة عدو الله «حُيي بن أخطب»، ورغم النهاية الطبيعية له فإنه أبى إلا أن تكون آخر كلماته في الحياة كفراً وجحوداً. فما أن أحضر أمام

(١) قصص القرآن، جاد المولى، أبو الفضل، البيجاوي، سيد شحاته ص٣٠٣ ـ ٣٠٥.

رسول الله ﷺ حتى قال: أما والله ما لمتُ نفسي في عداوتك ولكن مَن يخذل الله يُخذل. ثم أقبل على الناس: إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل ثم جلس فضرب عنقه، وفيه قال حبل بن حوال الثعلبي:

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ولكِنَّ من يخذل الله يخذل
وجاهد حتى أبلغ النفس عذرها وقلقل يبغي العز كل مقلقل

لقد طلب رسول الله ﷺ من المسلمين أن يتعقبوا رؤوس الكفر من اليهود بعد أن تخلَّص المسلمون من أخطار التجمع اليهودي لبني قريظة في المدينة حتى لا يتركوا رؤوس الكفر دون أن تنال عقاباً وإلا تعرّض المسلمون لأخطارهم مرة ثانية[١].

سرية القرطا: بعث رسول الله ﷺ محمد بن مَسْلَمة الأنصاري في ثلاثين راكباً إلى القرطا من بني بكر على طريق البصرة إلى مكة. فلما أغاروا عليهم هرب باقيهم بعد أن قتل منهم عشرة واستاق مائة وخمسين بعيراً وثلاثة آلاف وقدموا إلى المدينة وأسروا ثمامة بن أثال. ثم صار ثمامة رضي الله عنه من فضلاء الصحابة، وهدى الله به خلقاً كثيراً من قومه، وقام مقاماً حميداً بعد وفاة النبيّ ﷺ حين ارتدت اليمامة مع مسيلمة. فأطاعه ثلاثة آلاف وانحازوا إلى المسلمين.

غزوة بني لحيان: كانت سنة ست من الهجرة، وسببها أن رسول الله ﷺ حزن على عاصم بن ثابت وأصحابه من القراء الذين قتلوا ببئر معونة. فأظهر ﷺ أنه يريد الشام ليصيب من القوم غِرَّة ثم غيَّر اتجاهه حتى نزل غران وهي منازل بني لحيان، وقد وجد أن القوم قد حذروا وتمنّعوا في رؤوس الجبال، ثم خرج حتى أتى عسفان، فبعث أبا بكر رضي الله عنه في عشرة فوارس لتسمع بهم قريش فيذعرهم ثم رجع رسول الله ولم يَلْقَ كيداً[٢].

(١) بنو إسرائيل بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم، د. صابر طعيمة ص٩١ ـ ٩٣.
(٢) نهاية الأرب، النويري ج١٧ ص٢٠٠.

إغارة عيينة بن حصن في خيل لغطفان على لقاح رسول الله ﷺ في الغابة، وكانت عشرين لقحة وفيها رجل من بني غفار وزوجته فقتلوا الرجل واحتملوا المرأة، فانطلقت المرأة على حين غفلة منهم وركبت ناقة النبيّ ﷺ اسمها العضباء. وقالت: يا رسول الله، إني نذرت أن أنحرها إن نجّاني الله عليها. فقال: «**بئسما جزيتها أن حملك الله عليها ونجّاك أن تنحريها، إنه لا نذر لأحد في معصية ولا لأحد فيما لا يملك، إنما هي ناقة من إبلي**».

غزوة ذي قرد والغابة ماء قريب من المدينة، وسببها إغارة عيينة بن حصن الفزاري على لقاح رسول الله ﷺ. ركب رسول الله وأدركوا العدو فهزموه واستنقذوا اللقاح، وكانت مدة غيبته خمسة أيام، صلّى بذي قرد صلاة الخوف.

سرية الغمر والغمر ماء لبني أسد قرب مكة، خرج عكاشة في أربعين رجلاً فهرب القوم فوجدوا ديارهم خالية لهربهم، فأغاروا عليها فاستاقوا مائتي بعير، وقدموا بالإبل على رسول الله ﷺ ولم يلقوا حرباً.

سرية محمد بن مسلمة الأنصاري إلى ذي قصة موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً في طريق الربدة. وسببها ما بلغهم أن بني ثعلبة وأنمار أجمعوا على أن يغيروا على سرح المدينة وهي ترعى، وكانت الماشية قد ازدادت بسبب ما غنمه المسلمون، فخرج محمد بن مسلمة ومعه عشرة إلى بني ثعلبة وقد كمن لهم المشركون فقتلوهم. فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في أربعين رجلاً إلى منازلهم ولم يجدوا أحداً وأخذوا نعماً من نعمهم وشيئاً من متاعهم وقدموا به إلى المدينة.

سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجموم، وهو موضع على أربعة أميال من المدينة، سببها أنه عليه الصلاة والسلام بلغه أن عيراً قد أقبلت من الشام، فبعث زيداً ومعه سبعون راكباً ليتعرض لها فأخذها وما فيها. وأسر أبا العاص بن الربيع وهو زوج زينب بنت رسول الله ﷺ فدخلت زينب على رسول الله فسألته أن يرد عليه ما أخذ منه فقبل. وقال ﷺ: «**أكرمي مثواه**

ولا يخلص إليك فإنك لا تَحِلِّيْنَ له»، ثم ذهب أبو العاص إلى مكة فأدى إلى كل ذي مال ماله، ثم أسلم وقدم المدينة.

سرية زيد بن حارثة بوادي القرى من جهة الشام، وسببها أن رسول الله ﷺ كان قد أوفد دِحْيَةَ الكلبي بكتاب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام فأعطاه جائزة وكساه. فلقيه الهنيد وهو عائد وأصابوا كل شيء كان معه، فسمع رهط رفاعة الجزامي ممن كان أسلم فاستنقذوا ما كان في أيديهم وردوه على دحية. وقدم دحية على رسول الله وأخبره فبعث زيد بن حارثة في خمسمائة رجل فأغار عليهم، وأكثروا فيهم القتل وأخذوا ماشيتهم. ثم رحل رفاعة في نفر من قومه فدفع لرسول الله كتابه الذي كتبه له ولقومه حين قدم عليه فأسلم، فأرسل رسول الله علي بن أبي طالب إلى زيد فردّ عليهم كل ما أخذ منهم[١].

سرية عبدالرحمٰن بن عوف إلى دومة الجندل: أمر رسول الله ﷺ عبدالرحمٰن بن عوف أن يتجهز لهذه السرية وقال له: «**خذ يا ابن عوف اغزوا جميعاً في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ولا تَغُلُّوا ولا تغدروا ولا تُمَثِّلوا ولا تقتلوا وليداً، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم**»[٢]. فسار عبدالرحمٰن بجيشه وكانوا سبعمائة رجل حتى قدم دومة الجندل وأسلم رئيسهم الأصبغ وأسلم معه ناس كثيرون من قومه دون قتال.

سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر: خرج ومعه مائة رجل وكان قد بلغ رسول الله ﷺ أنهم ساعون في جمع الناس لإمداد يهود خيبر، فأغاروا على نِعَم كثيرة وساقوا النعَم معهم وكانت خمسمائة بعير ومائتي شاة، وقدم علي رضي الله عنه ومَن معه إلى المدينة.

سرية زيد بن حارثة إلى قرفة: وسببها أن زيد بن حارثة خرج في

---

(١) تاريخ الطبري، ج٢ ص٤٧١، ٥٩٦ ـ ٦٠٢، السيرة النبوية، لابن هشام ج١ ص٢٩٣ ـ ٢٧٩، محمد رسول الله، محمد رضا ص٢٤٧.

(٢) مختصر صحيح مسلم، للألباني، كتاب السير ج٢ ص٢٩٤ حديث ١١١١ (م١٤١/٥).

تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبيّ ﷺ، فلما كان بوادي القرى لقيه ناس من فزارة فضربوه وأصحابه وأخذوا ما كان معهم وقدم على رسول الله فأخبره فبعث إليهم بجيش فأحاطوا بمن وجدوه من بني فزارة فقتلوهم وأخبروا رسول الله بما ظفروا به.

❋ ❋ ❋ ❋

مقتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق اليهودي

وكان سبب قتله أنه كان يظاهر كعب بن الأشرف على رسول الله ﷺ، ويؤذي رسول الله ويبغي عليه، وهو ممن كان قد حزَّبَ الأحزاب على رسول الله. وعن عبدالله بن كعب بن مالك قال: كان مما صنع الله به لرسوله أن هذين الحيين من الأنصار «الأوس والخزرج» كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين، أي: يتفاخران. لا تصنع الأوس شيئاً فيه عن رسول الله ﷺ غناء، أي: كفاية وخير، إلا قالت الخزرج: والله لا يذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله في الإسلام، فلا ينتهون حتى يوقعون مثلها. قال: وإذا فعلت الخزرج شيئاً، قالت الأوس مثل ذلك. فلما أصابت الأوس كعب بن الأشرف في عداوته لرسول الله ﷺ، قالت الخزرج: لا يذهبون بها فضلاً علينا أبداً. قال: فتذاكروا من رجل لرسول الله في العداوة كابن الأشرف فذكروا ابن الحقيق وهو بخيبر. فاستأذنوا رسول الله ﷺ في قتله، فأذن لهم. فخرج إليه الخزرج من بني سلمة خمسة نفر: عبدالله بن عتيك، ومسعود بن سنان، وعبدالله بن أنيس، وأبو قتادة الحارث بن ربعي، وخزاعي بن الأسود. فخرجوا، وأمَّر عليهم رسول الله عبدالله بن عتيك، ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة.

فخرجوا حتى قدموا خيبر، فأتوا دار ابن أبي الحقيق ليلاً، فلم يدعوا باباً في الدار إلا أغلقوه من خلفهم على أهله حتى قاموا على بابه فاستأذنوا فخرجت إليه امرأته، يقول: فصاحت ونوّهت بنا، وابتدرناه وهو على فراشه بأسيافنا. قال: ولما صاحت بنا امرأته، جعل الرجل منا يرفع عليها السيف،

ثم يذكر نهي رسول الله ﷺ فيكف يده، فلما ضربناه بأسيافنا تحامل عليه عبدالله بن أنيس بسيفه في بطنه حتى أنفذه. قال: فقلنا: كيف لنا بأن نعلم أن عدو الله قد مات؟ فقال رجل منا: أنا أذهب فأنظر لكم، فانطلق حتى دخل في الناس، قال: فوجدته ورجاله يهود عنده، وامرأته في يدها المصباح تنظر في وجهه ثم قالت: فاظ، أي: هلك وإلٰه يهود. قال: يقول صاحبنا: فما سمعت من كلمة ألذّ إلى نفسي منها. فقدّمنا على رسول الله وأخبرناه بقتل عدو الله، واختلفنا عنده في قتله، كلنا يدعيه. فقال رسول الله ﷺ: «**هاتوا أسيافكم**»، فجئناه بها فنظر إليها فقال لسيف عبدالله بن أنيس: «**هذا قتله، أرى فيه أثر الطعام**»[١]، فقال حسان بن ثابت، وهو يذكر قتل كعب بن الأشرف وسلام بن أبي الحقيق[٢]:

لله درُّ عصابةٍ لاقيتُهم ... يا ابن الحُقيق وأنت يا ابن الأشرف
يسرون بالبيض الخفاف إليكم ... مرحاً كأسد في عرين مُغرف[٣]
حتى أتوكم في محل بلادكم ... فسقوكم حقناً ببيض ذفف[٤]
متبصرين لنصر دين نبيهم ... مستضعفين لكل أمر مجحِف[٥]

❋ ❋ ❋ ❋

مقتل أسير بن رزام اليهودي

وسببها أنه لما قتل سلام بن أبي الحقيق أمَّرَت يهود عليها أسيراً فاقترح عليهم طريقة للانتقام من رسول الله ﷺ وهو أن يذهب إلى غطفان ويجمعهم ويسير إلى رسول الله في عقر داره فسار إلى غطفان فلما بلغه ﷺ

(١) تاريخ الطبري، ج٢ ص٤٩٥ ـ ٤٩٧.
(٢) سيرة ابن هشام ج٣ ص٦١.
(٣) يسرون: وهو السير ليلاً. والبيض: السيوف. العرين: موضع الأسد، ومغرف: ملتف الشجر.
(٤) ذفف: أي: سريعة القتل.
(٥) مجحف: مستصغرين لكل أمر.

بعث عبدالله بن رواحة في ثلاثين رجل فقدموا عليه فقالوا: إن رسول الله بعثنا إليك لتخرج إليه يستعملك على خيبر فطمع وخرج معه ثلاثون من اليهود، وندم أسير على مسيره وأراد الفتك بعبدالله بن رواحة فتنبّه له وقتلوهم ثم قدموا على رسول الله ﷺ فحدّثوه الحديث فقال: «**حقاً نجّاكم الله من القوم الظالمين**»(١).

سرية كرز بن جابر الفهري: سببها أن ثمانية من عكل وعرينة قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام. وكانوا حين قدموا إلى المدينة سقاماً مصفرة ألوانهم، فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا أهل ضَرع ـ أي: ماشية ـ ولم نكن أهل ريف، وكرهنا الإقامة في المدينة فلو أذنت لنا فخرجنا إلى الإبل، فأمر لهم بذود من الإبل ومعها راع. فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة وصحت أجسامهم كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعي رسول الله ومثَّلوا به فقابلوا الإحسان بالإساءة وسرقوا الإبل. وقد بعث النبيّ ﷺ في آثارهم خيلاً من المسلمين وأمَّر عليهم كرز بن جابر فجاء بهم، فأمر النبيّ ﷺ بقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركوا في ناحية الحرة في الشمس حتى ماتوا(٢). وأنزل الله تعالى في هؤلاء: ﴿**إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ**﴾ [المائدة: ٣٣] الآية.

❋ ❋ ❋ ❋

أمر الحديبية

بئر سمي المكان باسمها قريبة من مكة بعضها في الحِل وبعضها في الحرم، وسببها أن النبيّ ﷺ رأى في منامه أنه دخل البيت هو وأصحابه آمنين محلِّقين رؤوسهم ومقصِّرين. فخرج رسول الله من المدينة معتمراً زائراً

(١) نهاية الأرب، للنويري ج١٧ ص٢١١ ـ ٢١٢، محمد رسول الله، محمد رضا ٢٤٨ ـ ٢٥١.

(٢) مختصر صحيح مسلم، للألباني ج٢ ص٢٧١ الحديث ١٠٤٢ (م٥/١٠١).

للبيت لا يريد حرباً بعد أن أمضى عليه الصلاة والسلام ست سنوات بعد الهجرة في المدينة. واستنفر من حوله من الأعراب ممن أسلم ليخرجوا معه وهو يخشى قريشاً أن يتعرضوا له بحرب أو يصدُّوه عن البيت فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب وساق معه الهدي، وكان جملة أصحابه الذين خرجوا معه ألف وستمائة، وركب رسول الله راحلته القصواء. وقد روى ابن إسحاق، أنه لم يخرج ﷺ معه بسلاح إلا سلاح المسافر، فلما كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكلبي، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعوا بمسيرك فخرجوا وأنزلوا بذي طوى يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً[١]. فقال رسول الله: «**يا ويح قريش؛ لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام. فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله حتى يُظهره الله**»[٢]. ثم قال: مَن رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها، فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله. فسلكوا بين ظهر الحمض على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة. فقال ﷺ: «**لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها**»[٣].

فلما اطمأن رسول الله أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة وسألوه ما الذي جاء به، فأخبرهم أنه لم يأتِ يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت ومعظّماً لحرمته. فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تجلون على محمد، إنه لم يأتِ لقتال وإنما جاء زائراً لهذا البيت، فاتهموهم وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تحدث عنا بذلك العرب. ثم بعثوا إلى رسول الله مكرز بن

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ج٣ ص٢٢٥، محمد رسول الله، محمد رضا ص٢٥٢ ـ ٢٦٣.

(٢) زاد الميعاد، لابن القيم، صلح الحديبية ج٢ ص٢٣ ـ ٢٥.

(٣) المصدر السابق.

حفص، ومن ثم الحليس سيد الأحابيش، ثم عروة بن مسعود الثقفي الذي قال لأصحابه عندما رجع مكة وقد بهره ما رأى من احترام أصحاب رسول الله ﷺ فقال لقريش: «أي قوم، فوالله وفدت على الملوك وما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً». ودعا رسول الله عثمان بن عفان فبعثه إلى أشرف قريش يخبرهم أنه لم يأتِ لحربهم وإنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته، فخرج عثمان إلى مكة واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله أن عثمان بن عفان قد قتل. قال ﷺ: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**».

ودعا رسول الله المسلمين إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة. قال سلمة بن الأكوع: بايعناه وبايعه الناس على عدم الفرار وأنه إما الفتح وإما الشهادة، ولم يتخلف أحد من المسلمين. قال الله تعالى يذكر هذه البيعة: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨]. ولما علمت قريش بهذه البيعة خافوا وأشار إليهم أهل الرأي بالصلح على أن يرجع ويعود من قابل.

بعثت قريش سهيل بن عمرو، فطالت المراجعة بينه وبين النبيّ ﷺ، فلما التأم الأمر بينهما على الصلح وكتب كتاب الصلح وجاء فيه: «اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردَّهُ عليهم ومَن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه، وإن بيننا منازعة مكفوفة، أي: أمور مطوية، أي: ترك المؤاخذة بما تقدم بينهم من أسباب الحرب وغيرها وأنه لا إسلال ولا إغلال، أي: لا سرقة ولا خيانة، وأنه مَن أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومَن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه»[1].

إن من مزايا هذا الصلح كما نقل النووي عن العلماء أن المصلحة

(١) زاد الميعاد، لابن القيم، صلح الحديبية ج٢ ص١٢٦.

المترتبة على هذا الصلح هي ما ظهر من ثمراته وفوائده التي علّمها النبيّ ﷺ وخفيت عليهم وحمله ذلك على موافقتهم، وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين ولا تظهر عندهم أمور النبيّ ﷺ. فلما حصل الصلح جاؤوا إلى المدينة وجاء المسلمون إلى مكة وخلُّوا بأهلهم وأصحابهم ممن يستنصحونهم، وسمعوا عن أحوال الرسول ومعجزاته وحسن سيرته وجميل طريقته. فمالت أنفسهم إلى الإسلام حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة[1].

قال الزهري في حديثه: ثم انصرف رسول الله حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح: ١، ٢]. وكان أبو بكر الصدِّيق يقول: ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية، لكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد ﷺ وربه، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.

❋ ❋ ❋ ❋

غزوة خيبر

خيبر واحة كبيرة، وهي ذات حصون ومزارع تبعد عن المدينة ستة وتسعين ميلاً، وتعتبر مركزاً لدسائس اليهود، هاجروا إليها. ويهود خيبر رجال محاربون ولهم عدة حصون منيعة. وقد كانت هذه الغزوة في السنة السابعة للهجرة، أراد الرسول ﷺ التخلص من جوارهم حيث إنهم أهل مكر وخداع. لما عاد رسول الله من الحديبية خرج إلى خيبر، وكان معه ألف وستمائة مسلحين تسليحاً حسناً منهم مئتا فارس. وفي البخاري عن أنس رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ أتى خيبر ليلاً فنام هو وأصحابه دونها ثم ركبوا إليها بكرة فصبّحوها بالقتال. وفي رواية لابن إسحاق أنه ﷺ لما أشرف

(١) تاريخ الطبري، ج٢ ص٦٣٢ ـ ٦٤٢، نهاية الأرب، للنويري ج١٧ ص٢٢٩ ـ ٢٤٤.

على خيبر قال لأصحابه: «**قفوا**»، ثم قال: «**اللَّهمَّ رب السماوات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذَرَيْن، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها. ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، أقدِموا بسم الله**»[١].

وقد فتحت الحصون كلها عنوة إلا حصن الوطيح وحصن سلالم فقد مكث المسلمون على حصارها أربعة عشر يوماً. فهمَّ رسول الله أن يحمل عليهم فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله الصلح على حقن دمائهم والخروج من خيبر مع ترك أموال فصالحهم على ذلك. وأخذ رسول الله كنز أبي الحقيق ويقوم بعشرة آلاف دينار خلاف العقود والجواهر والذهب، وكان الله سبحانه وتعالى قد وعد رسوله عند انصرافه من الحديبية بمغانم كثيرة[٢] بقوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفتح: ٢٠].

عن محمد بن سيرين عن أنس بن مالك عن أبي طلحة قال: «لما أشرف رسول الله ﷺ على خيبر وجد اليهود وهم في عملهم معهم مساحيهم، فقالوا: محمد والخميس ـ أي: الجيش ـ فقال رسول الله: «**خَرِبَت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنْذَرِين**». وكان رسول الله وقد خرج من المدينة إلى خيبر ثم سلك على عصر ثم على الصهباء ثم أقبل بجيشه إلى خيبر حتى نزل بواد يقال له: الرجيع. فنزل ﷺ بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله. وتدنّى رسول الله ﷺ الأموال يأخذها مالاً مالاً ويفتحها حصناً حصناً، فكان أول حصونهم ممن افتتح حصن «ناعم».

عن جابر بن عبدالله قال: لما كان يوم خيبر جاء محمد بن مسلمة

---

(١) زاد الميعاد، لابن القيم، غزوة خيبر ج٢ ص١٣٤.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام ج٣ ص٣٤٣، ونهاية الأرب، للنويري ج١٧، محمد رسول الله، لمحمد رضا ص٢٧٨ ـ ٢٨٨.

فقال: يا رسول الله لم أرَ كاليوم قط قتل محمود بن مسلمة. فقال رسول الله ﷺ: «**لا تمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإنكم لا تدرون ما تُبْتَلُون به منهم، فإذا لقيتموه فقولوا: اللَّهمَّ أنت ربُّنا وربُّهم ونواصينا ونواصيهم بيدك، وإنما تقتلهم أنت ثم الزموا الأرض جلوساً فإذا غشوكم فانهضوا وكبِّروا**». ثم قال رسول الله: «**لأبعثن غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبانه لا يُوَلِّي الدبر**»، فلما كان من الغد بعث علياً وهو أرمد شديد الرمد فقال: «**سر**»، فقال: يا رسول الله، ما أبصر موضع قدمي، فتفلَ في عينه وعقد له اللواء ودفع إليه الراية. فقال علي: على ما أقاتلهم يا رسول الله؟ قال: «**على أن يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد حقنوا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى**».

وتمّ فتح حصن «الغموص» وهو حصن ابن أبي الحقيق، وأصاب رسول الله ﷺ سبايا منهن صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق. فاصطفى رسول الله صفية لنفسه وجعلها عند أم سليم حتى اعتدت وأسلمت ثم أعتقها وتزوجها وجعل عتقها صداقها.

قال ابن إسحاق: ثم جعل رسول الله يتدنى الحصون والأموال، فحدثني عبدالله بن أبي بكر أنه حدّثه بعض أسلم أن بني سهم من أسلم أتوا رسول الله فقالوا: يا رسول الله، والله لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء. فلم يجدوا عند رسول الله شيئاً يعطيهم إياه فقال: «**اللَّهمَّ إنك قد عرفت حالهم وأنْ ليست بهم قوة وأنْ ليس بيدي ما أعطيهم إياه فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناءً وأكثرهم طعاماً وودكاً**» ـ أي: دسم اللحم ودهنه ـ. فغدا الناس ففتح الله عليهم حصن الصعب بن معاذ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه. فلما افتتح رسول الله من حصونهم ما افتتح انتهوا إلى حصنيهم الوطيح والسلام، وكانا آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً، وكان شعار أصحاب رسول الله يوم خيبر «أمت أمت».

وقد حاصر رسول الله ﷺ أهل خيبر في حصنهم الوطيح والسلالم حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن يسيرهم وأن يحقن لهم دماءهم ففعل.

وكان رسول الله قد حاز الأموال كلها الشق ونطاة والكتيبة وجميع حصونهم إلا ما كان من ذينك الحصنين. فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله أن يعاملهم في الأموال على النصف، وقالوا: نحن أعلم بها منكم وأعمر لها. فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم. وعن ابن إسحاق عن الزهري وعبدالله بن أبي بكر وبعض ولد محمد بن مسلمة قالوا: بقيت بقية من أهل خيبر تحصّنوا فسألوا رسول الله أن يحقن دماءهم ويسيرهم ففعل بذلك أهل «فدك» فنزلوا على ذلك.

عن نافع عن ابن عمر أن النبيّ ﷺ قاتل أهل خيبر فغلب على النخل والأرض وألجأهم إلى قصرهم فصالحوه على أن لرسول الله الصفراء والبيضاء والحلقة، أي: الذهب والفضة والسلاح، ولهم ما حملت ركابهم على أن لا يكتموا ولا ينيبوا شيئاً، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد.

فغيبوا «مسكاً»، أي: جلد فيه الحلي لحيي بن أخطب. وفي الخبر قال رسول الله لسعيه أين المسك، قال: أذهبته الحروب والنفقات. فوجد المسك فقتل ابن أبي الحقيق وسبى نساءهم، وأراد أن يجليهم فقالوا: دعنا نعمل في هذه الأرض ولنا الشطر ما بدا لك ولكم الشطر. فقسم أموالهم للنكث الذي نكثوا. ففي هذا أنها فتحت صلحاً وأن الصلح انتقض فصارت عنوة ثم خمَّسها رسول الله وقسمها.

ذكر البلاذري بأسانيده قال: قالوا: أتى رسول الله ﷺ منصرفه من خيبر «وادي القرى» فدعا أهلها إلى الإسلام فامتنعوا من ذلك وقاتلوا. ففتحها رسول الله عنوة وغنمه الله أموال أهلها، وترك الأرض والنخل في أيدي يهود وعاملهم ما عامل عليه أهل خيبر، وقيل: إن عمر أجلى يهودها. وقال أيضاً: لما بلغ أهل تيماء ما وطئ به رسول الله أهل وادي القرى صالحوه على الجزية، فأقاموا ببلادهم وأرضهم في أيديهم[1].

(١) عيون الأثر، ابن سيد الناس ج٢ ص١٣٣ ـ ١٥٣.

أوجبت الضروريات المصيرية التي واجهت المسلمين بعد أن اتضح لهم خطر الجماعات اليهودية، وتربصهم وتآمرهم ونقمتهم على الإسلام والمسلمين وذلك بعد رد الفعل الذي تمّ من قبل المسلمين ضد ما قام به اليهود من خيانة ودسيسة وتآمر في حوادث كثيرة مثل تلك التي قام بها يهود بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة أوجبت أن يتجه المسلمون إلى قريش ليقيموا شعائر العمرة، ولكن اليهود لم يكفوا عن حقدهم ودسائسهم، فلجأوا إلى الإشاعة والبلبلة ضد الإسلام والمسلمين وهم يتجهون إلى منطقة الحصون اليهودية في خيبر. وما إن عاد المسلمون إلى المدينة حتى أدركوا ما صنع اليهود في خيبر من إعداد واستجماع طوائفهم كي يستغلوا كثرة عدد رجالهم وسلاحهم ووفرة المؤنة ومناعة الحصون لحرب المسلمين. وأمام التحفُّز للانقضاض من جانب اليهود في خيبر، فإن المسلمين عقب عودتهم من مكة بعد صلح الحديبية الذي اعتبر نجاحاً سياسياً للمسلمين لأنهم به اطمأنوا إلى حماية ظهورهم من مناوشات قريش. قرروا أن يخرجوا بقيادة رسول الله على رأس قوة إسلامية كانت أكبر ما أمكن للمسلمين أن يبعثوا به، فقد بلغ عدد الجيش الإسلامي «١٦٠٠» مقاتل لمواجهة اليهود الرابضين في حصونهم. وفي خلال سبعة أيام تمكن المسلمون من اقتحام كل الحصون اليهودية غير اثنين منها، فقبل احتلالها صرخ اليهود بالاستسلام، وقَبِلُوا شروط المسلمين التي كان منها:

١ ـ أن يحقن المسلمون دماء المقاتلة من اليهود ويتركوا الذرية.

٢ ـ ضرورة الجلاء اليهودي عن خيبر بكل أراضيها.

٣ ـ اشترط المسلمون أن لا يأخذ أحد من يهود خيبر أكثر من ثوب واحد.

٤ ـ تكون ذمة الله تعالى محرّمة منهم إن كتموا شيئاً.

وبهذه النهاية التي استبسل فيها المسلمون بإيمانهم رغم الفارق الهائل بين إمكاناتهم وإمكانات أعدائهم انتهى الوجود الاجتماعي والاقتصادي لليهود من على أرض مسرح الدعوة الإسلامية. واستقر الأمر بالإسلام والمسلمين

بعد أن تخلصوا من خطر اليهود ورفضهم للإسلام ومقاومتهم له بالتآمر والدس والخديعة والوشاية. والخلق اليهودي الفاجر، بل والعقيدة الدينية والسياسية التي تحكم سلوك اليهود تجاه غيرهم من البشر خصوصاً العرب والمسلمين(١).

صلح أهل فدك وفدك بلدة يهودية بالقرب من خيبر، لما علم أهلها بانهزام خيبر بعثوا إلى الرسول ﷺ يصالحونه على النصف من فدك، فقبل ذلك منهم فكانت فدك لرسول الله خالصة.

غزوة وادي القرى واد بين تيماء وخيبر فيها قرى كثيرة نزلها اليهود وزرعوها. لما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر نزل وادي القرى فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا ففتحها رسول الله عُنْوَة وغنمه الله أموالهم، وترك الأرض والنخيل بأيدي اليهود وعاملهم عليها. وصالح أهل تيماء على الجزية.

وبعد عودة رسول الله من خيبر في السنة السابعة للهجرة بعث خمس سرايا: «سرية عمر بن الخطاب» إلى هوازن بجهة تربة «سرية أبي بكر الصدِّيق» إلى بني كلاب قبيلة بنجد «سرية بشير بن سعد الأنصاري» إلى بني مرة بفدك، و«سرية غالب بن عبدالله الليثي» إلى أهل المنيعة بناحية نجد، و«سرية بشير بن سعد» إلى يمن وجناب من أرض غطفان.

❋ ❋ ❋ ❋

عمرة القضاء

تمّت في السنة السابعة للهجرة. لما رجع رسول الله ﷺ من خيبر خرج في ذي القعدة في الشهر الذي صدّه فيه المشركون بالحديبية معتمراً عمرة القضاء مكان عمرته التي صدُّوه عنها. فاقتصّ رسول الله منهم وأمر ألاّ

(١) تاريخ اليهود العام، صابر طعيمة ج٢ ص٣٩ ـ ٤٤.

يتخلّف أحد ممن شهد الحديبية. وكانوا ألفين سوى النساء والصبيان وساق معه ستين بدنة وحمل السلاح والدروع والرماح وقاد مائة فارس خوفاً من غدر أهل مكة. فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه وصَفُّوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه. فلما دخل رسول الله ﷺ اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى ثم قال: «**رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوة**». وبعد فراغه نحر هديه وحلق رأسه وأمر أصحابه بالذهاب إلى يأجج «موضع على ثمانية أميال من مكة» يقيمون على السلاح ويأتي الآخرون ليقضوا نسكهم. جاء في البخاري عن حديث البراء: فلما دخلها ومضى الأجل أتوا علياً رضي الله عنه فقالوا: قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل. فخرج رسول الله ﷺ[1].

هذا وقد بعث رسول الله عدة سرايا بعد عودته من عمرة القضاء وهي: سرية الأخرم إلى بني سليم، وسرية غالب بن عبدالله الليثي إلى بني الملوح بين عسفان والقديد، وسرية أخرى لغالب بن عبدالله الليثي بفدك، وسرية شجاع بن وهب الأسدي إلى جمع من هوازن يقال لهم: بنو عامر، وسرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح وراء ذات القرى.

❋ ❋ ❋ ❋

سرية مؤتة

مؤتة قريبة من بيت المقدس شرق البحر الميت، وكانت هذه الغزوة سنة ثمانية من الهجرة. وقد سمّى البخاري هذه السرية: غزوة، وإن لم يخرج النبيّ ﷺ فيها لكثرة جيش المسلمين فيها. وسببها أن رسول الله كان أرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بصرى من جهة هرقل، فلما نزل مؤتة تعرض له شرحبيل الغساني وهو من أمراء قيصر على الشام فقال: أين تريد؟ لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم. فأوثقه وضرب عنقه ولم يقتل

(١) صحيح البخاري، باب: عمرة القضاء ج٥ ص١٧٩ ـ ١٨٠.

لرسول الله رسول غيره، فلما بلغ رسول الله ﷺ اشتد الأمر عليه وجهز جيشاً لمقاتلة الروم. فأمر رسول الله مولاه زيد بن حارثة على ثلاثة آلاف وندب رسول الله الناس وقال: «**إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة على الناس، فإن أصيب فليرتضِ المسلمون رجلاً من بينهم يجعلونه عليهم أميراً**»، وأوصاه أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعو من هناك إلى الإسلام فإن أجابوا وإلا فاستعينوا عليهم بالله وقاتلوهم[١]. قال رسول الله ﷺ يوصي الجيش: «**أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً. اغزوا باسم الله في سبيل الله مَن كفر بالله، ولا تغدروا ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً فانياً ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً**»[٢].

وقد جمع العدو أكثر من مائة ألف من الروم، وضمّ إليهم القبائل القريبة الموالية، فلما نزل المسلمون معان إلى مؤتة. قاتل الأمراء الثلاثة حتى استشهدوا، فاصطلح على خالد بن الوليد لتولي القيادة فقاتلهم قتالاً شديداً واستطاع أن يجمع شملهم بعد أن تفرّق المسلمون. وذكر ابن إسحاق اثني عشر قتيلاً من المسلمين، وكانت مدة القتال سبعة أيام. وأخبر النبيّ ﷺ أصحابه بما حدث في ساحة القتال قبل رجوع الجيش إلى المدينة، ونادى في الناس: «**الصلاة جامعة**»، ثم صعد المنبر وعيناه تذرفان وقال: «**يا أيها الناس، باب خير باب خير، أخبركم عن جيشكم هذا الغازي إنهم انطلقوا فلقوا العدو فقتل زيد شهيداً فاستغفروا له. ثم أخذ الراية جعفر فشدّ على القوم حتى قتل شهيداً فاستغفروا له. ثم أخذ الراية عبدالله بن رواحة وأثبت قدميه حتى قتل شهيداً فاستغفروا له. ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمير نفسه، ولكنه سيف من سيوف الله فآب بنصره**» فمن يومئذٍ سمي خالد: سيف الله[٣].

---

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد ج٢ ص١٢٨، تاريخ الطبري ج٣ ص٤١.
(٢) مختصر صحيح مسلم، للألباني كتاب: السير ج٢ ص٢٩٤ رقم ١١١١ م٥/١٤١.
(٣) صحيح البخاري، باب: غزوة مؤتة ج٥ ص١٨٣ بما يفيد الحديث.

سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل من بلاد بلي، وسببها أن رسول الله ﷺ بلغه أن جموعاً من قضاعة تجمعوا للإغارة على المسلمين، وأرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة منتهزين فرصة انهزام المسلمين في مؤتة. وسميت هذه السرية «ذات السلاسل» لأن الأعداء ارتبط بعضهم ببعض. وقد بعث رسول الله عمرو بن العاص ومعه ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرساً. وحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا مذعورين بعد أن اقتتلوا ساعة، فهزمهم المسلمون ولم يغنموا شيئاً.

سرية أبي عبيدة بن الجراح أو سرية الخَبْط. بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح على رأس ثلاثمائة رجل إلى أرض جهينة ليلقى عيراً لقريش ولمحاربة حي من جهينة.

كما أرسل رسول الله ﷺ «أبا قتادة» إلى نجد ومعه خمسة عشر رجلاً أن يشنُّوا الغارة على غطفان فقاتلوهم وسبوا سبياً كثيراً واستاقوا النعَم. ثم أرسل رسول الله ﷺ «أبا قتادة» إلى إضم قفي ثمانية رجال ليوهموا قريشاً أنه توجه إلى تلك الناحية بعد أن نقضت قريش العهد حتى يفاجئهم على غير استعداد منهم لحربه.

وخرج أبو قتادة ومن معه فلقوا عامر بن الأضبط الأشجعي فسلّم عليهم بتحية الإسلام فقتله ملحم بن جثامة لشيء بينه وبينه. فلما قدموا على رسول الله وأخبروه الخبر نزل فيهم القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ الآية [النساء: ٩٤]. وذكر الطبري أن ملحم بن جثامة توفي في حياة النبيّ ﷺ فدفنوه فلفظته الأرض مرة بعد أخرى، فأمر به فألقي بين جبلين وجعل عليه حجارة. وقال رسول الله ﷺ: «**إن الأرض لتقبل من هو أشر منه، ولكن الله أراد أن يريكم آية في قتل المؤمن**»(١).

❋ ❋ ❋ ❋

(١) صحيح البخاري، باب: المناقب ج٤ ص٢٤٦.

غزوة فتح مكة

لما كان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين قريش، كان فيما شرطوا أن مَن أحبّ أن يدخل في عقد رسول الله وفي عهده فليدخل فيه، ومَن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه. فدخلت خزاعة في عقد وعهد رسول الله، ودخلت بكر في عقد قريش وعهدهم. وكان بين خزاعة وبني بكر حروب وقتلى في الجاهلية، وتشاغلوا عن ذلك لما ظهر الإسلام. فلما كانت هدنة الحديبية تنص على وقف القتال بين المسلمين وقريش. قام رجل من بني بكر فهجا رسول الله وسار يتغنّى بالهجاء، فسمعه غلام من خزاعة فضربه فثار الشر بين القبيلتين مما كان بينهما من العداوة وناصرت قريش بني بكر على خزاعة، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله من الميثاق. عند ذلك خرج سيد خزاعة عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ ودخل المسجد ووقف على رسول الله وهو جالس بين الناس وأنشد:

يا رب إني ناشد محمداً ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولداً وكنا والداً ... ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا ... وادْعُ عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ... إن سيم خسفاً وجهه تربَّدا
في فيلق كالبحر يجري مزبداً ... إنَّ قريشاً أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكد ... وهم أذَلُّ وأقَلُّ عَدَدا
هم بيَّتُونَا بالوتير هُجَّدا ... وقتلونا رُكَّعاً وسُجَّدا

فقال رسول الله ﷺ: «**نصرت يا عمرو بن سالم ودمعت عيناه**»(١).
وفي رواية قام وهو يجر رداءه ويقول: «**لا نصرت إن لم أنصركم بما أنْصُرُ به نفسي**».

(١) زاد الميعاد، لابن القيم ج٢ ص١٦٠.

وكان رسول الله ﷺ قد قال للناس: «**كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليشدد العقد ويزيد في المدة**»، وإذا بأبي سفيان قدم على رسول الله، ولكن رسول الله أعرض عن أبي سفيان ولم يجبه بشيء، ووجد من أبي بكر وعمر وعلي وفاطمة رضي الله عنهم كل إعراض حتى يئس ورجع، لكنه علم أن رسول الله عزم على أمر على ما كان من تعدٍّ لنقض العهد.

وأخذ رسول الله ﷺ يستعد سراً للزحف على مكة وكان يقول: «**اللَّهمَّ خُذْ على أسماعهم وأبصارهم فلا يَرَوْنَا إلا بَغْتَة**». أمر الناس بالجهاز وطوى عنهم الوجه الذي يريده. وأرسل إلى أهل البادية ومَن حوله من المسلمين يقول لهم: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فيحضر رمضان بالمدينة**»، وذلك بعد أن تشاور مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في السير إلى مكة، فقال له أبو بكر: هم قومك، وحضه عمر حيث قال: هم رأس الكفر. فعندئذٍ ذكر رسول الله أن أبا بكر كإبراهيم وكان في الله ألين من اللين، وإن عمر كنوح وكان في الله أشد من الحجر وأن الأمر أمر عمر[١].

خرج رسول الله ﷺ لعشر مضين من شهر رمضان في السنة الثامنة للهجرة. فصام رسول الله وصام الناس معه حتى إذا كان ما بين عسفان وأصبح أفطر، ثم مضى حتى نزل مر ظهران في عشرة آلاف من المسلمين، وكان قد خرج من المدينة ثم تلاحق به ألفان فيكون المجموع اثني عشر ألفاً. وخرج أبو سفيان في تلك الليلة يتجسس الأخبار فرأى العباس وقال له: «**ما الخبر؟**»، قال: هذا رسول الله ورائي وقد دلف إليكم بما لا قِبَلَ لكم به، عشرة آلاف من المسلمين. قال: «**فما تأمرني؟**»، فقال: هذه بغلة رسول الله لو تركب معي عجزها فأستأمن لك رسول الله فوالله لو ظفر بك ليضربن عنقك. فخرجت به إلى رسول الله، فقال رسول الله: «**اذهب فقد أمَّنَّاه حتى تغدو به عليّ بالغداة**»، وبعد أن تشهّد أبو سفيان قال ﷺ: «**يا عباس، احبسه خطم الجبل حتى تمر عليه جنود الله**»[٢]. قال العباس:

---

(١) نهاية الأرب، للنويري ج١٧ ص٢٩٠، الطبقات الكبرى، لابن سعد ج٢ ص١٣٤، السيرة النبوية، لابن هشام ج٤ ص٣٦.

(٢) صحيح البخاري، باب: غزوة الفتح ج٥ ص١٨٦.

يا رسول الله، أبو سفيان يحب الفخر فاجعل له شيئاً في قومه، فقال: «**نعم. مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومَن دخل المسجد فهو آمن، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن**»(١).

روى البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته القصواء مردفاً أسامة بن زيد خلفه. ودخل واضعاً رأسه الشريف على راحلته تواضعاً لله تعالى حين رأى ذلك الفتح العظيم وكثرة المسلمين وهو يقول: «**اللَّهمَّ إن العيش عيش الآخرة**»، وقد أمر رسول الله رؤساء الجيش أن يكفوا أيديهم وقال: «**لا تقاتلوا إلا مَن قاتلكم**»، ولكن دخوله لعشرين بقين من رمضان(٢).

دخل رسول الله ﷺ في ناحية المسجد، ثم عاد عثمان بن طلحة حاجب الكعبة، فأخذ منه مفتاح الكعبة ودخلها وصلّى ركعتين بين العمودين اليمانيين ثم وقف على باب الكعبة وقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت** ـ أي: خدمته ـ **وسقاية الحاج. ألا وقتل الخطأ مثل العمد والسوط والعصا فيهما الدية مغلظة فيها أربعون خلفة** ـ أي: الناقة الحامل في بطونها أولادها ـ **يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب**». ثم تلا رسول الله ﷺ: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾» [الحجرات: ١٣]. «**يا معشر قريش، ويا أهل مكة، ما ترون أني فاعل بكم؟**»، قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، ثم قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»، أما مفتاح الكعبة فقد ردَّه رسول الله إلى عثمان بن طلحة وقال: «**خذوها يا بني أبي طلحة خالدة لا ينزعها منكم أحد إلا ظالم**»، ودفع السقاية إلى العباس بن عبد المطلب. وفي هذا اليوم صار رسول الله سيد

(١) مختصر صحيح مسلم، للألباني ج١ ص٣٢٢ حديث ١١٨٢ (م٥ ـ ١٧٠ ـ ١٧٢).
(٢) صحيح البخاري، باب: دخول النبيّ ﷺ من أعلى مكة ج٥ ص١٨٩.

مكة بعد أن هاجر منها مضطهداً[١].

اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ﷺ فجلس لهم على الصفا، فبينما رسول الله يبايع الناس جاءه رجل فأخذته الرعدة، فقال رسول الله: «**هوّن عليك فإني لست بملك، وإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**». دخل رسول الله مكة يوم الفتح وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً لكل حي من أحياء العرب. فجاء ومعه قضيب حديد يهوي به إلى كل صنم فيخر لوجهه وهو يقول: «﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾» [الإسراء: ٨١]. ثم أمر بلالاً أن يؤذن ظهر يوم الفتح على ظهر الكعبة. وبعد فتح مكة ترك العرب عبادة الأصنام واعتنقوا الإسلام وحاربوا مع رسول الله لنشر دينه فكان ذلك انتصاراً عظيماً وفتحاً مبيناً[٢].

وبعد أن قضى رسول الله على الأصنام التي كانت حول الكعبة، وجَّه نظره إلى هدم الأصنام الأخرى المجاورة حتى تطهر البلاد من الوثنية ويعبد الله الواحد القهار. فبعث خالد بن الوليد إلى «العزى» ليهدمها وكانت بنخلة على بُعد ليلة من مكة. وبعث سرية سعد بن زيد إلى «مناة» صنم للأوس والخزرج وغسان، وكانت بالمشلل جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى قديد. وبعث سرية عمرو بن العاص إلى «سواع» صنم لهذيل على ثلاثة أميال من مكة. وبعث النبيّ ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يُحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتى قدمنا على النبيّ ﷺ فذكرنا فرفع النبيّ ﷺ يديه فقال: «**اللَّهمَّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد**» مرتين[٣].

---

(١) زاد الميعاد، لابن القيم ج٢ ص١٦٥، مختصر صحيح مسلم، للألباني ج١ ص٣٢٢ الحديث ١١٨٣.

(٢) محمد رسول الله، محمد رضا ص٣١٩ ـ ٣٣٤.

(٣) صحيح البخاري، بعث النبيّ خالد إلى بني جذيمة ج٥ ص٢٠٣.

غزوة حنين

حنين وادٍ بين مكة والطائف إلى جنب ذي المجاز، وتسمى أيضاً غزوة أوطاس أو غزوة هوازن، وكانت هذه الغزوة في العاشر من شوال من العام الثامن للهجرة، وسببها أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة خافت هوازن وثقيف أن يسير إليهم ويغزوهم فعزموا على قتاله، وكان قائد جيشهم مالك بن عوف، قد أمرهم أن يسوقوا معهم إلى الحرب كل شيء: المواشي والأموال والنساء والأبناء، كي يثبتوا ولا ينهزموا، وكان مجموع جيشهم عشرين ألفاً.

كان مع النبيّ ﷺ اثنا عشر ألفاً، فقال أبو بكر: «لا نُغْلَبُ اليوم من قِلَّة»، وقيل: قالها غيره. خرج رسول الله من مكة ولما اقترب من مكان العدو ورتَّبَ أصحابه ووضع الألوية والرايات من المهاجرين والأنصار، ولبس رسول الله درعين والبيضة والمغفر وركب بغلته «دلدل» حتى ورد جعرانة. ولما كان رسول الله بحنين في الوادي عند غبش الصبح خرج عليهم القوم وكانوا قد كمنوا لهم في شعاب الوادي ومضايقه. فحمل عليهم المسلمون فانكشفوا، ثم انشغلوا بالغنائم مثلما حدث في غزوة أحد، فلما انشغلوا بالغنائم استقبلهم العدو بالسهام فعادوا منهزمين لا يلوي أحد على أحد. وقد ثبت رسول الله ﷺ وكان ثباته سبباً في كسب الموقعة ومعه نفر قليل لم يبلغوا مائة.

قال رسول الله ﷺ لعمه العباس وكان عظيم الصوت ناد: «**يا أصحاب البيعة، يوم الحديبية، يا أصحاب سورة البقرة**». فأقبلوا كأنهم الإبل إذا جنت على أولادها، فأمرهم أن يَصْدُقُوا الحملة على العدو فاقتتلوا قتالاً شديداً، فنظر ﷺ إلى قتالهم فقال: «**الآن حمي الوطيس**»[1]. فولّى المشركون الأدبار والمسلمون يقتلون ويأسرون فيهم، وأسر المسلمون نحو ستة آلاف وغنموا من الإبل أربعة وعشرين ألفاً، ومن الغنم أربعين ألفاً ومن الفضة أربعة آلاف أوقية.

---

(١) مختصر صحيح مسلم، باب: غزوة حنين ج٢ ص٢٣٤ رقم ١١٨٩ (م٥/١٦٧).

وبدأ رسول الله ﷺ بالأموال فقسمها وأعطى المؤلَّفة قلوبهم النصيب الأوفر من الغنائم. فلما رأت الأنصار ما أعطى رسول الله في قريش والعرب تكلموا في ذلك وقالوا: حَنَّ الرجل إلى أهله، فقال رسول الله ﷺ: «**يا معشر الأنصار، أما ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟**»، فقالوا: رضينا يا رسول الله بك حظاً وقسماً، فقال ﷺ: «**لو سلك الناس وادياً، وسلكت الأنصار شِعْباً لاخترت شِعْبَ الأنصار**»(١). قدم وفد من هوازن على رسول الله وقد جاؤوا مسلمين فسألوه أن يَمُن عليهم بالسبي فرضي رسول الله وردّ عليهم نساءهم وأبناءهم.

انصرف رسول الله ﷺ وكان قد انتهى إلى جعرانة ثم أحرم بعمرة ودخل مكة ثم أخذ الطريق إلى المدينة. وقد أنزل الله تعالى في هذه الموقعة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

سرية أبي عامر الأشعري إلى أوطاس: لما فرغ رسول الله ﷺ من حنين بعثه إلى أوطاس خلف الفارِّين من هوازن واستشهد. ثم خلفه أبو موسى فقاتل القوم حتى هزمهم فظفر المسلمون بالغنائم والسبايا.

سرية الطفيل بن عمر الدوسي إلى ذي الكفلين: لما أراد الرسول ﷺ السير إلى الطائف بعث الطفيل بن عمر إلى ذي الكفلين ليهدمه، وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف فهدمه، ووافى النبيّ ﷺ إلى الطائف وقدم بدبابة ومنجنيق وهي من أدوات الحرب وقد استخدمت لأول مرة في غزوة الطائف.

❋ ❋ ❋ ❋

(١) صحيح البخاري، باب: غزوة الطائف ج٥ ص٢٠١.

غزوة الطائف

كانت في شوال سنة ثمانية للهجرة، خرج رسول الله ﷺ من حنين يريد الطائف لما علم أن مالك بن عوف وجمعاً من أشراف قومه لحقوا بالطائف ودخلوا حصونهم وتهيأوا للقتال. وقد سار رسول الله ﷺ قريباً من حصن الطائف فرموا المسلمين بالنبل وقتل منهم اثنا عشر رجلاً. ودام حصار الطائف ثمانية عشر يوماً ونصب عليهم المنجنيق ونادى منادي رسول الله ﷺ: أيما عبد نزل من الحصن وخرج لنا فهو حر، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً، فأعتقهم رسول الله ﷺ. ولم يؤذن لرسول ﷺ في فتح الطائف، فأمر عمر بن الخطاب فأذن في الناس بالرحيل.

بعث قيس بن سعد إلى صداء: بعث رسول الله ﷺ قيس بن سعد إلى ناحية اليمن بعد انصرافه من الجعرانة في أربعمائة فارس وأمره أن يقاتل قبيلة صداء. فقدم زياد بن الحارث الصدائي فسأل عن ذلك البعث فقال: يا رسول الله أنا وافدهم إليك فاردد الجيش وأنا أتكفل بإسلام قومي. فقال رسول الله: «**اذهب إليهم فَرُدَّهم**» فردّهم ورجع إلى قومه فأسلموا[1].

سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى تميم: بعثة رسول الله ﷺ في خمسين فارساً إلى تميم. وسببها بعث رسول الله بشر بن سفيان إلى كعب لأخذ صدقاتهم، فأخذ بشر صدقاتهم، أما تميم فقالوا: لا ندع بعيراً واحداً يخرج. فأخبر بشر رسول الله فبعث عيينة بن حصن فهجم عليهم وأخذ منهم أحد عشر رجلاً وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً إلى المدينة. فقدم منهم ثمانون من رؤسائهم فأسلموا فردّ رسول الله عليهم أسراهم.

سرية الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق: بعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة لأخذ الصدقات من بني المصطلق، فلما سمعوا بمجيء الوليد لأخذ

(١) نهاية الأرب، للنويري ج١٧ ص٣٣٥، محمد رسول الله، محمد رضا ص٣٣١.

الصدقات، خرج عشرون رجلاً بالإبل والغنم يؤدونها عن زكاتهم. فظن أنهم يريدون قتله لرؤية السلاح معهم، فرجع وأخبر النبيّ ﷺ أنهم ارتَدُّوا ولَقُوهُ بالسلاح. فهَمَّ رسول الله أن يبعث إليهم من يغزوهم، فبلغ ذلك القوم فقدم عليه القوم الذين لقوا الوليد فأخبروا النبيّ الخبر على حقيقته فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات: ٦].

سرية قطبة بن عامر إلى خثعم: في السنة التاسعة للهجرة أرسل رسول الله ﷺ قطبة بن عامر في عشرين رجلاً إلى حي من خثعم، وأمر أن يشن الغارة عليهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً وقتل قطبة مع مَن قتل، وساقوا النعَم والشاة والنساء إلى المدينة.

سرية الضحاك بن سفيان إلى بني كلاب: أرسل رسول الله ﷺ جيشاً إلى قرطاء ـ موضع بنجد ـ فدعوهم إلى الإسلام فأبوا فقاتلوهم فهزموهم وغنموا أموالهم.

سرية علقمة بن مجزر إلى الحبشة: سببها أنه بلغ رسول الله ﷺ أن أناساً من الحبشة ترايا‌هم أهل جدة فبعث إليهم علقمة في ثلاثمائة فانتهى إلى جزيرة البحر وقد خاض إليهم فهربوا منه.

سرية علي بن أبي طالب إلى الفلس: بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب إلى الفلس ـ صنم بنجد ـ كانت تعبده طي ليهدمه، ومعه مائة وخمسون رجلاً. فشنُّوا الغارة على محلة آل حاتم فهدموا الفلس وملأوا أيديهم من السبي والنعَم والفضة، وفي السبي سفانة بنت حاتم الطائي ـ أخت عدي ـ وهرب عدي بن حاتم إلى الشام. فقدموا إلى المدينة وقد مَنَّ رسول الله على سفانة فأسلمت وكان المَن عليها سبباً في إسلام أخيها عدي بن حاتم[1].

❋ ❋ ❋ ❋

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد ج٢ ص.٢٦٢ محمد رسول الله، محمد رضا ص٣٣٣.

غزوة تبوك

وهي غزوة العُسْرَة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: ١١٧]. وكانت هذه الغزوة هي آخر غزواته ﷺ في رجب سنة تسع من الهجرة، وكان حين خروجه حر شديد وقحط شديد وكان قَلَّما يخرج في غزوة إلا كَنَى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يقصد له إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بيَّنها للناس، لبُعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهْبَتَه، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنه يريد الروم. وسببها أن الروم جمعت جموعاً كثيرة بالشام، فندب رسول الله أصحابه إلى الخروج وحثّهم على النفقة. وجاء الباكون يطلبون من رسول الله ما يركبون عليه قال: «**ما أجد ما أحْمِلُكُم عليه**»، فانصرفوا باكين وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩٢].

سار رسول الله ﷺ بالناس وهم ثلاثون ألفاً والخيل عشرة آلاف، وقد كان هذا الجيش بعد تخلُّف المنافقين أعظم جيش تألف في العرب، واستخلف رسول الله علي بن أبي طالب على أهله فأرجف المنافقون بعلي بن أبي طالب وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً له وتخفُّفاً منه. فلما قال ذلك المنافقون أخذ عليّ سلاحه حتى أتى رسول الله وهو بالجرف فقال: يا نبيّ الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني وتخفَّفْتَ مني. قال: «**كذبوا، ولكني إنما خَلَّفْتُكَ لما ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ ألا إنه لا نبيّ بعدي**».

بَعْثُ خالد بن الوليد إلى دومة الجندل: أرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر بدومة الجندل، فانتهى إليه خالد وقد خرج من حصنه في

ليلة مقمرة هو وأخوه حسَّان، فشدّت عليه خيل خالد بن الوليد فاستأسر وقتل أخوه حسان وفتح له دومة الجندل وصالحه على ألفي بعير وثمانمائة فرس، فقدم بأكيدر وأخيه مصاد على رسول الله، فصالحه على الجزية وحقن دمه ودم أخيه وخلَّى سبيلهما.

سرية خالد بن الوليد إلى بني الحارث بنجران: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في أربعمائة في السنة العاشرة للهجرة وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا قَبِلَ منهم، إن لم يفعلوا قاتلهم فأسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم إليه.

بَعْثُ علي بن أبي طالب إلى اليمن: بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب إلى اليمن في ثلاثمائة فارس فدعاهم إلى الإسلام فأبوا فقتل منهم عشرين رجلاً، ثم تفرقوا فكفّ عن ملاحقتهم، ثم دعاهم إلى الإسلام فأسرعوا وأجابوا.

بَعْثُ أسامة بن زيد: ضرب رسول الله ﷺ على الناس بعثاً إلى الشام أمَّر عليهم أسامة بن زيد، مولاه، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والدوارم من أرض فلسطين، فتجهز الناس وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون. قال ابن هشام: وهو آخر بعث بعثه رسول الله ﷺ[1].

❋ ❋ ❋ ❋

المنهج النبوي للجهاد في الإسلام

روى الأئمة أن رسول الله ﷺ كان إذا أمَّرَ أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومَن معه من المسلمين خيراً ثم قال له: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله، وقاتلوا مَن كفر بالله، واغزوا ولا تَغُلُّوا، ولا تَغْدُرُوا، ولا تُمَثِّلُوا، ولا تَقْتُلُوا وليداً. وإذا لقيتم عدوكم من**

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ج٤ ص١٩١، نهاية الأرب، للنويري ج١٧ ص٣٥٦ ـ ٣٧١.

المشركين فادفعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم الذي يجري على المسلمين ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم»[1].

وهذه الوصية عن رسول الله ﷺ كانت هي منهج الدعوة إلى الله التي التزمها قادة الجهاد. فكانت بياناً لمنهج الدعوة الذي يحقق المقصود من شرعية الجهاد، فلا يجوز لقادة الجهاد أن يتجاوزوا مرتبة منها إلى غيرها من المراتب، أولها: الدعوة إلى الإسلام وهي دعوة إلى الحق والهدى وإلى المؤاخاة، فالإسلام إيمان وأمان، وعدل ورحمة، فمَن قَبِلَهُ فهو أخ لكل مسلم له من الحقوق ما لكل مسلم، وعليه من الواجبات ما على كل مسلم. فإن لم يقبل الدعوة إلى الإسلام جاءت المرتبة الثانية، وهي الإلزام بخَرَاجٍ من المال لا يؤود من يلزم به من القادرين عليه. وهذا الخراج سمّاه منهجُ الدعوة «الجزية» وهي مقابل الدفاع عن دافعيها وحمايتهم ممن يدهمهم بالاعتداء عليهم. وتاريخ الدعوة إلى الله حافل بالذين اهتدوا وسارعوا مستجيبين لدعوة الحق، فكانوا من أقوى المؤمنين إيماناً وأزكاهم جهاداً في سبيل الله، وذابت الجزية في موجبات التكافل الأخوي وكثر الداخلون إلى ساحة الإسلام.

وفي هذه الوصية النبوية نهي عن الفساد في الأرض ونهي عن الجبن والاعتداء، وعن الغلول والغدر لأنهما من دنايا الأخلاق. وما أخرجه البيهقي عن أبي بن كعب قال: أتى النبيّ ﷺ بأسارى، فقال رسول الله ﷺ: «**هل دعوتموهم إلى الإسلام؟**»، فقالوا: لا، فقال: «**خَلُّوا سبيلهم حتى**

(١) مختصر صحيح مسلم، للألباني، كتاب: السير ج٢ ص٢٩٤ رقم ١١١ (م٥/١٤١).

يَبْلغوا مأمنهم» ثم قرأ ﷺ قوله تعالى: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾» [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

إن أول غزوات الرسول ﷺ «غزوة بدر» وما كان في هذه الغزوة من أحداث ووقائع انتهت بها إلى النصر المؤزر. وما كان لذلك من أثر عميق في قلوب من بقي من أعداء الإسلام، مما جعلهم بعد إفاقتهم من الهزيمة التي حَلَّتْ بهم فأهلكت أشرافهم يفكرون في الثأر من المجتمع المسلم بغزوه في عقر داره. وكانت «غزوة أحد» بأحداثها وشدائدها درساً أفاد منها المجتمع المسلم، وسراجاً أضاء الطريق أمامه في سيره برسالته. وكانت محنة أحد صيقلاً أذاب صدأ هزيمتها عن صدور أصحاب رسول الله ﷺ فجعلت منهم بطولات لا ترهب الموت، وقيادات سياسية تحسن الرأي، وقيادات عسكرية تدير المعارك بتفكير مُجَرّب يعرف المخارج من أزمات المضايق[1].

ومن ثم تتابعت البعوث والسرايا والغزوات ووقف أصحاب رسول الله ﷺ متأهبين لكل حادث ونازلة يخوضون لججها بنفوس رضية سمحة بالفداء وحب الشهادة. وما كان يمضي يوم دون أن يكون فيه بعث أو سرية أو إعداد لغزوة تقاتل فيها كتائب الإسلام فتنتصر. أما ما كان من أحداث اليهود وربائبهم من المنافقين فقد بدأ انهيارهم بإجلاء بني قينقاع أعتى وأجرم طوائف اليهود الذين نقضوا العهود. ثم حصار بني النضير وإجلائهم بعد خذلان المنافقين لهم. ثم حصار بني قريظة عقب غزوة الخندق لنقضهم عهد رسول الله ﷺ وممالأتهم أعداءه من شراذم الكفر والشرك. وهكذا كان القضاء على اليهود وقوتهم المادية وإجلائهم عن جزيرة العرب قضاء على المنافقين ودسائسهم، وكانت غزوة تبوك آخر غزواته ﷺ التي قادها بنفسه، وعاد إلى المدينة بأصحابه موفور المكانة لم يلقَ في غزوته الخاتمة كيداً ولا واجه حرباً. بعد أن أرى أصحابه أن ما كان

(١) محمد رسول الله، محمد عرجون ج٤ ص٣٢٠ ـ ٣٣٥.

في أنفسهم من تهيب الروم إنما هو خيال، كما أراهم أن عموم رسالته يقتضيهم أن يخرجوا بها إلى هذه الأمم في أقطار الأرض، وأنهم صاروا بالإسلام ورسالته رواداً للإنسانية وقادة لمسيرتها تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ليحقق الله تعالى لهم وعده باستخلافهم في الأرض، وتمكين دينهم الذي ارتضاه لهم(١).

❋ ❋ ❋ ❋

رسل رسول الله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام

بعد صلح الحديبية بعث رسول الله ﷺ بالكتب إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام. وكانت شجاعة عظيمة من رسول الله في إرسال الكتب إلى هؤلاء، ولا سيما إلى هرقل وكسرى، فإن هؤلاء كانوا ملوكاً أقوياء على تخوم بلاده. إلا أن رسول الله لما كان واثقاً من قوة رسالته ونصر الله سبحانه وتعالى له، أقدم على إرسال رسله بقلب ثابت وعزم صادق على الخروج بالدعوة ونشر الرسالة خارج نطاق الجزيرة العربية إعلاناً لعموم الرسالة، وربط ذلك بالجهاد في سبيل الله تعميماً للدعوة إلى الله في آفاق الحياة وإظهار عزة الإسلام.

قيل لرسول الله ﷺ عندما أراد إرسال كتبه إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام: إنهم لا يقرأون الكتاب إلا إذا كان مختوماً. فاتخذ رسول الله خاتماً من فضة وكان نقشه من ثلاثة أسطر «محمد» سطر «رسول» سطر «الله» سطر، والأسطر الثلاثة تقرأ من أسفل إلى فوق. وكان ﷺ يفتتح أكثر كتبه بلفظ: «**من محمد رسول الله إلى فلان**»، وربما افتتحها بلفظ: «**أما بعد**»، وكان يأتي في صدر كتبه فيقول: «**سلام عليك**» أو «**السلام على مَن آمن بالله ورسله**» أو «**السلام على مَن اتَّبَعَ الهدى**». ثم

(١) محمد رسول الله، محمد عرجون ج٤ ص٣٢٠ ـ ٣٣٥.

يأتي بالتحميد بعد السلام فيقول: «**فإني أحمد الله الذي لا إلٰه إلا هو**» ويختم كتابه بالسلام فيقول: «**السلام عليك ورحمة الله وبركاته، أو السلام على مَن اتَّبع الهدى**»(١).

❋ ❋ ❋ ❋

وفادة الوفود على رسول الله ﷺ

بدأت وفادة وفود القبائل التي كانت تتربص بدخولها الإسلام على النبيّ ﷺ، بعد أن دوّخ المجتمع المسلم سائر القبائل التي تمثل جمهرة العرب في كثرتها وكثافة رجالها واعتزازها بقوتها المادية. ولكن انتصارات المسلمين بقيادة سيد المرسلين ﷺ كان دويها المرعب قد ملأ قلوب بقايا البطون العربية بالفزع، مع هزائمهم أمام البعوث والسرايا التي كان يرسلها إليهم ﷺ في مضارب أحيائهم، مزودة بقوة الإيمان وحب الموت في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر دعوة الحق. فكانت تنزيلات النصر المؤزر تترى متوالية متتابعة، وهكذا كانت مواقف الجهاد أمام مواقف الطغيان حتى فاء المنهزمون إلى كنف الإيمان فآمنت طوائفهم. ووسعهم حلم رسول الله ورحمته وقبل من أتاه منهم تائباً مسلماً وضمّه أخاً للمسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم، ولم يؤاخذهم بما كان منهم من سوء وأذى، ونشر بينهم التسامح والعفو ونسيان الماضي، فقال لهم ليمسح عن قلوبهم آثار الضغائن: «**الإسلام يَجُبُّ ما قبله**»(٢).

وقدمت على رسول الله وفود كثيرة منها وفد «هوازن» بالجعرانة، ووفد «مالك بن عوف» سنة ثمان، ووفد «بني تميم» سنة تسع، ووفد «نجران» بعد الهجرة، ووفد «الداريين» قبل الهجرة وبعدها وبعد غزوة تبوك، ووفد «ثقيف»، ووفد «بني عامر بن صعصعة»، ووفد «ضمام بن ثعلبة»، ووفد

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص٢٦٢ ـ ٢٧٧.
(٢) محمد رسول الله، محمد عرجون ج٤ ص٤٨٨ ـ ٤٩٠.

«عبد القيس» ومنازلهم البحرين، ووفد «بني حنيفة بن لجيم» ومعهم مسيلمة الكذاب، ووفد «طيء»، ووفد «عدي بن حاتم الطائي»، ووفد «بني زبيد»، ووفد «كندة»، ووفد «الأزد»، ووفد «الحارث بن كعب»، ووفد «رفاعة بن زيد الجذامي»، ووفد «همدان»، ووفد «بني فزارة»، ووفد «بني أسد» قالوا: يا رسول الله، أسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلك العرب، فأنزل الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧]، ووفد «بلي»، ووفد «بني مُرَّة»، ووفد «خولان»، ووفد «بني محارب»، ووفد «صداء»، ووفد «سلامان»، ووفد «بني عبس»، ووفد «مزينة»، ووفد «الأشعرين» قال في حقهم رسول الله ﷺ: «**أتاكم أهل اليمن كأنهم السحاب، وهم خيار مَن في الأرض**»، ووفد «دوس»، ووفد «بَهْرَاء»، ووفد «غامد»، ووفد «الأزد» قال في حقهم رسول الله ﷺ: «**حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء**»، ووفد «بني المنتفق» قال عنهم رسول الله: «**إنهم من أتقى الناس في الدنيا والآخرة**»[1].

❋ ❋ ❋ ❋

حجة الوداع

حجّ رسول الله ﷺ حجة الوداع لأنه ودّع الناس فيها، وتسمى هذه الحجة (حجة التمام والكمال) لنزول قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ورسول الله واقف بعرفة، قيل: لم ينزل بعد هذه الآية شيء من الفرائض. ولم يحج رسول الله بعد أن هاجر غير هذه الحجة، وعندما كان بمكة قبل الهجرة كان لم يترك الحج قط.

قال ابن إسحاق: ثم مضى رسول الله ﷺ على حجه فأرى الناس

(١) زاد الميعاد، لابن القيم ج٣ ص٣٤، ٥٤، ٥٦.

مناسكهم، وخطب خطبته التي بيَّن فيها ما بيَّن، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**أيها الناس، اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تَلْقَوا ربكم كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بَلَّغْت. فمَن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى مَن ائتمنه عليها، وإن كل رِبا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلمون. قضى الله أنه لا رِبا وأن رِبَا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وأن أول دمائكم دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل فهو أول ما أبدأ به في دماء الجاهلية. أما بعد، أيها الناس: فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم. أيها الناس، إن النسيء زيادة في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يُحِلُّونه عاماً ويحرِّمونه عاماً ليواطئوا عِدَّة ما حرَّم الله فيُحِلُّوا ما حرّم الله ويُحرِّموا ما أحلّ الله. وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض** ـ يعني: أن الحج قد عاد في ذي الحجة ـ **وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية: ذي القعدة، وذي الحجة، ومحرّم، ورجب. أما بعد، أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلْنَ فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهم عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا. أيها الناس، اسمعوا قولي فإني قد بَلَّغْت. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلُّوا أبداً أمراً بيّناً: كتاب الله وسُنَّة نبيه. أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمون أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوان فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلموا**

أنفسكم. اللَّهمَّ قد بلغت؟»، فقال الناس: نعم، فقال رسول الله ﷺ: **«اللَّهمَّ اشهد»**[١].

❋ ❋ ❋ ❋

زوجات النبيّ ﷺ أمهات المؤمنين
خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

إن خديجة هي التي تسامت بالرغبة في أن يكون محمد ﷺ زوجاً لها فدسّت إليه صديقتها. وفيها أن محمداً ﷺ كان واضح القصد، واضح العذر، فهو لم يتكلف التأبّي على الزواج ولم يتظاهر بعدم حاجته إليه، ولكن يمنعه من الإقدام أن يده لا تملك ما يتزوج به. لقد وضح الطريق وسَهُلَت مهمة الصديقة الأمينة، ودعي محمد صلوات الله عليه إلى الجمال والمال والشرف والعقل والكمال إلى خديجة بنت خويلد سيدة نساء العالمين كفؤاً كريماً، فزوجها عمها وزوَّجَهُ عمه. ولدت خديجة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ جميع أولاده إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية. فأكبر أولاده القاسم وبه كان يكنى أبا القاسم ثم الطيب، ثم الطاهر، ثم رقية، ثم زينب، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة الزهراء[٢].

سودة بنت زمعة رضي الله عنها:

بعد وفاة السيدة خديجة بنت خويلد تزوج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القرشية العامرية، جبراً لخاطرها عزاءً لها عن زوجها السكران بن عمرو الذي هاجر إلى الحبشة وعاد إلى مكة ومات[٣].

---

(١) زاد الميعاد، لابن القيم ج١ ص٢٢٨.
(٢) محمد رسول الله، محمد عرجون ج١ ص٢٠٢ ـ ٢٠٤.
(٣) موسوعة آل النبيّ، د. بنت الشاطئ ص٢٣٨ ـ ٢٣٩.

عائشة بنت أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنهما:

ولدت في السنة التاسعة قبل الهجرة، أسلمت صغيرة وتزوجها رسول الله ﷺ بمكة ودخل بها في المدينة بعده الهجرة بثمانية أشهر. وكانت أحب نسائه إليه بعد خديجة. روت عن النبيّ ﷺ أكثر من ألف حديث، وكانت من أكبر النساء عقلاً، فصيحة الكلام صحيحة المنطق، وتحفظ كثيراً من القصائد، كريمة لا تدخر شيئاً. قُبِضَ رسول الله ﷺ وهي بنت ثمانية عشر ولم يتزوج بكراً غيرها، وقبض ﷺ ورأسه في حجرها ودفن في بيتها. وتوفيت سنة سبع وخمسين للهجرة وقد قاربت سبعاً وستين سنة، وصلّى عليها أبو هريرة ودفنت بالبقيع[١].

حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما:

ولدت حفصة قبل مبعث النبيّ ﷺ بخمس سنين، وقد كان عمر رضي الله عنه قد عرض حفصة على أبي بكر وعرضها على عثمان فلم يجيباه بشيء فقال عمر لرسول الله، فقال له: «**إن الله قد زوّج عثمان خيراً من ابنتك، وزوّج ابنتك خيراً من عثمان**»، فتزوج عثمان أم كلثوم، وتزوج رسول الله حفصة بعد أن انقضت عدتها من زوجها خنيس بن حذافة، وكان عمرها عشرين عاماً، وتوفيت سنة واحد وأربعين من الهجرة في زمن معاوية.

زينب بنت خزيمة بن الحارث رضي الله عنها:

في السنة الرابعة من الهجرة تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة من بني هلال، بعد أن استشهد زوجها في غزوة أحد وهو عبدالله بن جحش ابن عمة الرسول وأخو زوجته زينب، ولم تلبث عنده شهرين أو ثلاثة ثم توفيت[٢].

---

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص١٤٥، ١٧٧.

(٢) موسوعة آل النبيّ، د. بنت الشاطئ ص٣٠٢ ـ ٣٠٥، ٢٣٥ ـ ٢٣٩.

أم سلمة بنت زاد الركب رضي الله عنها:

دخل بها رسول الله ﷺ في السنة الرابعة للهجرة، واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة القرشية المخزومية عريقة المنبت، ذات جمال وإباء وفطنة، أبوها أحد أبناء قريش المعدودين يلقب بـ«زاد الركب» لأنه كان إذا سافر لا يترك أحداً يرافقه ومعه زاد، بل يكفي رفقته من الزاد. وزوجها الذي مات عنها أبو سلمة بن عبد الأسد بن المغيرة الصحابي الفارس، ابن عمة الرسول بَرَّة بنت عبد المطلب، وأخوه ﷺ من الرضاعة أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب، توفيت آخر سنة إحدى وستين، وصلّى عليها أبو هريرة ودفنت بالبقيع. وهي آخر مَن مات من نساء النبيّ ﷺ[1].

زينب بنت جحش رضي الله عنها:

تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بن رئاب الأسدية، وهي أخت عبدالله بن جحش، وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة النبيّ ﷺ وكان ذلك في السنة الخامسة من الهجرة. كان زيد بن حارثة مولى خديجة وهبته لرسول الله قبل البعثة فأعتقه وتبنّاه وكانوا يدعونه زيد بن محمد، وقد زوّجه رسول الله بنت عمته زينب بنت جحش. ولما خطبها رسول الله لزيد امتنعت ثم قالت: أشاور نفسي، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وعند ذلك قالت: لا أعصي رسول الله قد أنكحته نفسي. ثم إن زيداً كان يشكو لرسول الله، لأنها تؤذيه وتتكبر عليه بسبب النَّسَب ورسول الله يقول له: «**أمسك عليك زوجك**»، لكن لم يطق معاشرتها فطلّقها. وبعد أن انقضت عدتها تزوجها رسول الله ﷺ، وذلك أن الله تعالى أراد نسخ تحريم زوجة المتبنى فنزل قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]، فكان يدعى بعد ذلك: زيد بن حارثة. وقال

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص٢١٩ ـ ٢٢٠.

تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

توفيت سنة عشرين من الهجرة، وعمرها ثلاثة وخمسون سنة وهي أول نساء رسول الله موتاً بعده، صلّى عليها عمر بن الخطاب ودفنت بالبقيع. وقيل: هي أول امرأة رضي الله عنها صنع لها النَّعش. عن عائشة قالت: يرحم الله زينب، نالت في هذه الدنيا الشرف الذي لا يبلغه شرف، إن الله زوجها نبيه ونطق به القرآن، وأن رسول الله ﷺ قال لنا ونحن حوله: «**أسْرعُكُنَّ بي لحوقاً أطولكنّ باعاً**»، فبشّرها رسول الله بسرعة لحوقها به وهي زوجته في الجنة.

جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار رضي الله عنها:

كان اسمها (بَرَّة) وسمّاها رسول الله ﷺ جويرية وكانت تحت مسافع بن صفوان فقتل في الغزو. قالت: يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه وقد أصابني من البلاء ما لم يَخْفَ عليك. وقد كاتبت على نفسي فأعني على كتابتي، فقال رسول الله: «**أوَخير من ذلك أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك؟**»، فقالت: نعم، ففعل رسول الله فبلغ الناس أنه تزوجها فقالوا: أصهار رسول الله، فأرسلوا ما كان في أيديهم من بني المصطلق. فلقد أعتق بها مائة من أهل بيت بني المصطلق، فما أعلم أعظم بركة منها على قومها. وكانت حين تزوجها رسول الله بنت عشرين سنة، وتوفيت سنة خمسين من الهجرة وعمرها خمس وستون سنة، وبسبب زواجها هدى الله أكثر بني المصطلق إلى الإسلام، ثم أسلم الحارث، ومن هنا تظهر حكمة رسول الله من زواجها[١].

صفية بنت حُيَي رضي الله عنها:

في غزوة خيبر جمع رسول الله ﷺ السبي فكان من نصيب دحية بن خليفة الكلبي صفية بنت حيي، وكانت امرأة حسناء فتنافس الناس فيها.

---

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص١٨١ ـ ٢٢١ ـ ٢٧٤.

فجاؤوا إلى رسول الله وقالوا: يا نبيّ الله، أعطيت دحية صفية سيدة بني قريظة والنضير لا تصلح إلا لك. فقال: «**ادعوه**»، فلما نظر إليها رسول الله قال لدحية: «**خذ جارية من السبي غيرها**»، وكانت صفية بنت حيي من سبط هارون أخي موسى عليه السلام فاصطفاها ﷺ لنفسه وأسلمت وأعتقها وتزوجها، وكان عمرها سبعة عشر عاماً.

رملة أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنها:

أرسل رسول الله ﷺ إلى النجاشي ليزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بعد أن تنصّر زوجها عبيدالله بن جحش ومات بالحبشة. فأرسل النجاشي إلى أم حبيبة يخبرها بخطبة رسول الله وأمرها أن توكل من يزوجها، فوكلت خالد بن سعيد بن العاص فزوّجها، وقالت أم حبيبة: فخرجنا في سفينتين وقدمت إلى المدينة حتى قدم رسول الله من خيبر. فتوفيت أم حبيبة سنة أربعة وأربعين من الهجرة.

مارية القبطية أم إبراهيم رضي الله عنها:

تلقى رسول الله ﷺ كتاب المقوقس عظيم القبط وهديته مارية القبطية، وكانت بيضاء جَعْدَة جميلة. فأسلمت وتزوجها رسول الله في السنة الثامنة من الهجرة، وكانت حسنة الدين ولدت لرسول الله غلاماً فسمّاه إبراهيم وتوفيت في خلافة عمر بن الخطاب سنة ست عشرة من الهجرة، وصلّى عليها ودفنت بالبقيع. وحسبنا أن نذكر أنها وحدها التي تظاهر عليها أزواج النبيّ جميعاً، فكدن يظفرن بتحريمها على زوجهن الرسول ﷺ، لولا أن أُنزلت فيها آية التحريم. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١﴾ [التحريم: ١].

ميمونة بنت الحارث الهلالي رضي الله عنها:

تزوج رسول الله ﷺ بها سنة سبع، وكان اسمها (بَرَّة) فسمّاها ميمونة، وهي أخت أم الفضل زوج العباس، وأخت أسماء بنت عميس لأمها زوج

حمزة. وهي آخر امرأة تزوجها رسول الله، وآخر مَن توفي من أزواجه بعد منتصف القرن الأول من الهجرة[١].

خولة بنت حكيم رضي الله عنها:

وهي التي وهبت نفسها للنبيّ ﷺ فأنزل الله تعالى فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٥٠﴾ [الأحزاب: ٥٠].

تزوج رسول الله ﷺ خمس عشرة امرأة دخل بثلاث عشرة، أما الرابعة عشرة فطلّقها ولم يبنِ عليها ويقال لها: «عمرة»، وذلك أن أباها قال له: وأزيدك أنها لم تمرض قط، فقال ﷺ: «**ما لهذه عند الله خير**»، وأما الخامسة عشرة يقال لها: «أميمة» بنت النعمان، فقد طلّقها قبل أن يدخل بها. جمع رسول الله بين إحدى عشرة زوجة، وتوفي عن تسع وهن: «سودة، عائشة، حفصة، زينب، أم حبيبة، أم سلمة، صفية، جويرية، ميمونة».

إن الدين الإسلامي قد أباح تعدد الزوجات. قال الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣]. اشترط العدل، أي: وإن خفتم ترك العدل فواحدة، ذلك أدنى ألا تعولوا، أي: لا تجوروا ولا تميلوا. وإن الحكمة من تعدد الزوجات أنه جاء لضروريات اجتماعية، مثل نقص عدد الرجال عن النساء وكذا بسبب قتلهم في الحرب. أما الضروريات الشخصية فهناك ظروف شتى قاهرة تضطر إلى

(١) زاد الميعاد، لابن القيم ج١ ص٢٨.

الزواج بأكثر من امرأة واحدة منها: مرض الزوجة مرضاً مزمناً، أو بلوغها سن الشيخوخة، أو عقم المرأة، أو الرغبة في كثرة النسل. ثم إن زيادة عدد النساء بلا زواج مدعاة للفسق والفجور والفاقة، ولا شك أن إباحة تعدد الزوجات للقادرين عليه علاج لكل ما تقدم(١).

إن الرسالة المحمدية قد أصرّت على تقرير بشرية محمد عليه الصلاة والسلام، كذلك لم تنزع من قلبه عواطف البشر ولا عصمته مما يجوز عليهم فيما عدا ما يتصل بالنبوة من وجوب الصدق والأمانة. فهو كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]. فهو ﷺ يسكن إلى زوجة ويشغل بالأبناء، ويعاني مثل الذي يعانيه ابن آدم من حب وكره ورغبة وزهد، ويجري عليه مثلهم من تعب ويُتْمٍ ومرض وموت.

ولكن البشير النذير والسراج المنير لم يكن مع ذلك كأحد من البشر، وإن الله سبحانه وتعالى لم يدع لرسوله حياته الخاصة على نحو ما يفعل أي رجل من البشر، وهو جلّ جلاله قد اصطفاه من بين المخلوقات جميعاً ليبعثه بآخر رسالات السماء. فكان ﷺ يتلقى من حين إلى آخر أوامر ربه في أخص الشؤون الزوجية. وكانت علاقاته بنسائه تخضع أحياناً لتوجيه رب العزة والجلال: فمحنة الإفك لم يحسمها إلا نزول الوحي ببراءة عائشة، وزواج الرسول من زينب ما كان ليتم لولا نزل به عتاب صريح من الله الذي كره لمحمد أن يخفي في نفسه ما الله مبديه وأن يخشى الناس والله أحق أن يخشاه، وطلاق الرسول لزوجته حفصة أشفقت منه السماء على أبيها عمر، فنزل أمين الوحي على النبيّ بأمر الله أن يراجع حفصة رحمةً بعمر. وكذا ضيق نساء النبيّ بما فرض عليهن من حياة خشنة لم يضع حداً إلا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨] الآية. وسلوك

(١) محمد رسول الله، محمد رضا ص٣٦٣ ـ ٣٦٦.

نساء النبيّ ﷺ كان يخضع لرقابة مباشرة من السماء، والله تعالى يقول: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾ [الأحزاب: ٣٢] الآية.

❋ ❋ ❋ ❋

بنوه وبناته ﷺ

ولدت خديجة لرسول الله ﷺ أولاده كلهم إلا إبراهيم الذي ولد بالمدينة من مارية القبطية. وأكبر بنيه القاسم وبه يكنى، وهو أول من مات من ولده، ثم ولدت له زينب ثم رقية ثم أم كلثوم ثم فاطمة، ثم ولد له في الإسلام عبدالله وهو الطيب والطاهر ومات بعد القاسم. أما إبراهيم فولد سنة ثمان من الهجرة ومات في سنة عشر من الهجرة، وبناته كلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه ﷺ.

لقد اختلفوا في عدد الذكور من أبناء رسول الله ﷺ من خديجة، فقول ابن إسحاق: أكبر بنيه «القاسم ثم الطيب ثم الطاهر». وفي تاريخ الطبري: «القاسم والطيب والطاهر وعبدالله». وفي الروض الأنف رواية عن الزبير بن العوام: «القاسم، وعبدالله وهو الطاهر والطيب» لأنه ولد بعد النبوة. والمشهور عند جمهور المسلمين أن له ولدين من خديجة هما «القاسم وعبدالله» وما الطيب والطاهر سوى لقبين لعبدالله. وكان العاص بن وائل السهمي إذا ذكر رسول الله قال لقومه: دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له لو مات لانقطع ذكره، فأنزل الله (سورة الكوثر)، أي: أن من أبغضك هو الأبتر، وأن ذكرك مرفوع على المنابر إلى آخر الدهر، يبدأ بذكر الله ويثني بذكرك. فمثلك لا يقال له: الأبتر، وإنما الأبتر هو شانئك المنسي في الدنيا والآخرة. أما الشقيقات الأربع فقد خرجن إلى الدنيا في أكرم منبت، واستقبلهن البيت الكبير استقبالاً لم تظفر بمثله لداتهن، فقد كنّ ثمرة زواج قام على الحب والمودة الخالصة، يرى فيهن الأب صورة لطيفة من زوجته الحبيبة التي أنسته بحنانها الغامر كل ما ذاق في طفولته من يُتْم،

وكانت له عوضاً جميلاً عما قاسى من حرمان. فالشقيقات الأربع هن: «زينب، رقية، أم كلثوم، فاطمة الزهراء»[١].

زينب بنت محمد ﷺ:

لم تكن جاوزت العاشرة من عمرها حين رنت إليها عيون الهاشميين وتسابقت بيوتات مكة على الظفر بها عروساً. فتقدم ابن خالتها أبو العاص بن الربيع أحد رجال مكة المعدودين شرفاً ومالاً، وكانت السيدة خديجة تُنزله منزلة الابن. تقدّم أبو العاص إلى رسول الله ﷺ يعرب له عن رغبته في الزواج من زينب، فكان جوابه: «**نعم الصهر الكفء**»، رزقت منه بولديها (علي وأخته أمامة)، أما علي فقد مات مراهقاً لم يكن له عقب، وتزوج علي بن أبي طالب أمامة بعد وفاة خالتها فاطمة وماتت من غير خلف[٢].

رقية بنت محمد ﷺ:

لم يكن قد مضى على زواج زينب من أبي العاص غير وقت قصير حتى جاء وفد من آل عبد المطلب يلتمسون مصاهرة ابن عمهم الأمين بخطبة ابنتيه رقية لعتيبة وأم كلثوم لعتبة أبناء عمه عبد العزى (أبو لهب) فوافق ﷺ، فما كاد رسول الله يتلقى رسالة ربه ويدعو إلى الدين حتى أخرجت رقية وأم كلثوم من بيت أبي لهب وردتا إلى بيت أبيهما، وكانت قريش قد تآمرت على الرسول في بناته قائلة: إنكم فرغتم محمداً من همِّه فردوا عليه بناته فأشغلوه بهن. وتقدم عثمان بن عفان إلى رسول الله يسأله شرف المصاهرة فزوّجه ابنته رقية. ولما رأى رسول الله ما يصيب أصحابه من البلاء قال لهم: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم أحد عنده**»، فكان عثمان ورقية أول مَن هاجر إلى الحبشة، وظلت أسماعهم مرهفة تتلهف على أنباء الرسول وصحبه فقررا العودة إلى مكة، وعلمت

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ج١ ص٢٠٢، موسوعة آل النبيّ، د. بنت الشاطئ ص٤٦١ ـ ٤٦٧، محمد رسول الله، محمد رضا ص٣٣٦.

(٢) تاريخ الطبري، ج٢ ص٢٩٢، ٤٦٨، موسوعة آل النبيّ، د. بنت الشاطئ ص٤٨٣.

بوفاة والدتها السيدة خديجة وعندها هاجر الرسول إلى المدينة وهاجرت هي وزوجها معه، وفي دار الهجرة وضعت طفلها عبدالله الذي مات بعد ولادته، فمرضت وتوفيت إلى رحمة الله، وهي تنعت بذات الهجرتين، وصلّى عليها رسول الله ودفنت بالبقيع(١).

أم كلثوم بنت محمد ﷺ:

أراد الله بها خيراً ففارقها عتبة بن أبي لهب، ونجت بذلك الفراق من نكد العيش مع حمَّالة الحطب. وجاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ليشكو إليه صاحبيه أبا بكر وعثمان من أنه عرض على أحدهما بعد الآخر أن يتزوج من بنته حفصة فلم يجيباه. فقال رسول الله لعمر: «**تتزوج حفصة مَن هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان مَن هي خير من حفصة**»، تزوجت أم كلثوم من عثمان بن عفان بعد وفاة أختها رقية، ولذا سمي عثمان «ذو النورين»، توفيت أم كلثوم في السنة التاسعة للهجرة من غير ولد، وصلّى عليها رسول الله ﷺ ودفنت بالبقيع.

فاطمة الزهراء بنت محمد ﷺ:

كانت أصغر أخواتها، لكنها مع ذلك دخلت التاريخ الإسلامي كما لم يدخله أحد قط بعد أبيها، وتركت فيه من خطير الآثار. لقد شاء الله أن يقترن مولدها بالحادث الجليل الذي ارتضت فيه قريش محمداً حكماً فيما اشتجر بينها من خلاف على وضع الحجر الأسود بعد تجديد بناء الكعبة كما آثر الله سبحانه وتعالى فاطمة بالحظ الأوفى فكتب لها أن تشهد رسالة والدها وما لقيه من عناء في سبيل نشر الدعوة إلى توحيد الله منذ طفولتها، وتعيش دون إخوتها جميعاً حتى يجود سيد الخلق بأنفاسه ويلحق بالرفيق الأعلى(٢).

---

(١) الإصابة، لابن حجر ج٨ ص٣٨، موسوعة آل النبيّ، د. بنت الشاطئ ص١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢) موسوعة آل النبيّ، د. بنت الشاطئ ص٥٥٩ ـ ٥٧٠.

لقد كانت يوم خرج أبوها رسول الله ﷺ إلى قريش وقد نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾، فجعل ينادي: «**يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنكِ من الله شيئاً**»(١). فخفق قلبها حناناً وتأثراً من أن أباها رسول الله اختارها من بين إخوتها جميعاً ليؤكد أنه لا يغني من الله شيئاً عن أعز الناس عنده وأحبهم إليه وأدناهم منه. وليست هذه المرة الوحيدة التي يضرب النبيّ فيها المثل بابنته فاطمة تأكيداً لما يريد نشره في أمته من الحق. فلقد حدثوا أن امرأة من قريش سرقت بعد أن أسلمت، وبلغ الرسول أمرها فأشفقت قريش أن تقطع يدها. فاستشفعوا لها عند رسول الله حتى جاء أسامة بن زيد ليشفع فيها، وكان الرسول يشفعه، فلما فعل قال ﷺ: «**لا تكلمني يا أسامة، فإن الحدود إذا انتهت إليّ فليس لها مَتْرَك، ولو كانت فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»(٢)، ولم يقل رسول الله لو كانت بنت محمد. سمَّى فاطمة وهي من عرفت قريش مكانتها الأثيرة عند أبيها. ولقد سمع ﷺ يقول: «**فاطمة سيدة نساء أهل الجنة**»(٣). وعن المسور بن مخرمة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**فاطمة بِضعةٌ مني، فمَن أغضبها أغضبني**». وفي صحيح البخاري عن ابن جريج قال لي غير واحد: كانت فاطمة أصغر بنات النبيّ ﷺ وأحبهن إليه. إن تلك المكانة لفاطمة عند أبيها لم تنقص حبه لأخواتها الثلاث. إلا أن حظ مكانة الزهراء من حب أبيها قد ازداد بعد موت هؤلاء الأخوات، ثم تضاعف بمولد الحسنين وانحصار ذريته في نسل هذه الابنة الوحيدة التي بقيت له.

جاءت فاطمة الزهراء مهاجرة من مكة لترى أباها ﷺ في أعز موضع، ولتجد المهاجرين وقد اطمأن بهم المقام وآخى الرسول بين الأنصار وبينهم،

(١) صحيح البخاري، كتاب: بدء الخلق ج٤ ص٢٢٤.
(٢) مختصر صحيح مسلم، للألباني كتاب: الحدود ج١ ص٢٧٨ رقم ١٠٤٦.
(٣) صحيح البخاري، باب: مناقب فاطمة عليها السلام ج٤ ص٣٦.

ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب وقال: «**هذا أخي**»[١]. وضعت فاطمة الزهراء بكرها «الحسن» في السنة الثالثة من الهجرة واحتفلت مدينة الرسول ﷺ بمولده، وتصدّق جده رسول الله على الفقراء بزنة شعره فضَّة. فلما بلغ من العمر عاماً أردفته بشقيقه «الحسين» سنة أربع من الهجرة، وتفتّح قلب رسول الله لهذين الحفيدين الغاليين، وأقبل على سبطيه الحسن والحسين يغمرهما بكل ما امتلأ به قلبه الكبير من حب وحنان. فلا عجب أن دعاهما ابنيه، فعن أنس بن مالك أنه ﷺ كان يقول لفاطمة: «**ادعي لي ابنَي**»، فإذا ما جاءا إليه شمّهما وضمّهما. ونقل الترمذي في سننه عن أسامة بن زيد أنه قال: طرقت باب النبيّ ﷺ في بعض الحاجة، فخرج رسول الله وهو مشتمل على شيء لا أدري ما هو، فلما فرغت من حاجتي قلت: ما هذا الذي أنت مشتمل عليه يا رسول الله؟ فكشفه فإذا الحسن والحسين وقال: «**هذان ابناي وأبناء ابنتي، اللَّهمَّ إني أحبهما وأحب مَن يحبهما**»[٢].

وشكا رسول الله ﷺ من مرض ألمّ به في السنة الحادية عشرة للهجرة فجاءت فاطمة لزيارته وهو عند أم المؤمنين عائشة وأجلسها إلى يمينه، وأسرّ إليها أنه يحسب أن قد حان أجله، فلما بكت هوَّن عليها بقوله: «**اتقي الله واصبري، فإنه نعم السلف أنا لك**»، وقال: «**ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الأمة؟**»، فضحكت بعد بكاء، فعجبت عائشة وقالت: ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب إلى حزن. وبعد أيام مرض ﷺ وأقامت الزهراء إلى جانبه، وإنه وقد اشتد به الوجع يأخذ الماء بيده ويجعله على رأسه وهو يقول: «**واكَرْبَاه**»، وهي تقول: واكربي لكربك يا أبتاه. فردّ رسول الله عليها: «**لا كرب على أبيك بعد اليوم**»، ثم حمّ القضاء ولحق بالرفيق الأعلى، وقد لحقت به ولما تمضِ ستة شهور على

(١) موسوعة آل النبيّ، د. بنت الشاطئ ص٥٩٤.

(٢) مختصر صحيح مسلم، للألباني، باب في فضائل فاطمة عليها السلام ج٢ ص٤٣٨ رقم ١٦٥٥.

وفاته ودفنت بالبقيع. وبات المسلمون محزونين بعد أن شيعوا إلى القبر آخر بنات النبيّ ﷺ[١].

❋ ❋ ❋ ❋

وفاة رسول الله ﷺ

مرض رسول الله ﷺ في آخر صفر سنة إحدى عشر من الهجرة. وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوماً. فلما تعذر عليه الصلاة بالناس قال: «**مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس**»، وضجّ المسلمون لفقده، فخرج معصوب الرأس فحمد الله وأثنى عليه وقال: «**يا أيها الناس، بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم. هل خلد نبيّ قبلي فيمن بعث إليه فأخلد إليكم. ألا إني ألحق بربي وأنكم لاحقون بي فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصي المهاجرين فيما بينهم، فإن الله تعالى يقول:** ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾»، وهذه آخر خطبة للنبيّ ﷺ[٢].

روى البخاري من حديث أنس: أن المسلمين بينما هم في صلاة الفجر يوم الاثنين وأبو بكر يصلي بهم، لم يفاجئهم إلا رسول الله قد كشف سَجْف حجرة عائشة فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة ثم تبسّم يضحك. فنكص أبو بكر ليصل الصف وظنّ أن رسول الله يريد أن يخرج للصلاة. قال أنس: وهَمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله فأشار إليهم بيده أن أتِمُّوا صلاتكم، ثم دخل الحجرة وأرخى الستر فتوفي من يومه. ودفن من الغد نصف النهار، وذلك يوم الثلاثاء، غسّلوه ﷺ وعليه قميصه، غسله علي بن أبي طالب والعباس وابنه يعينانه في تقليب جسمه

(١) مختصر صحيح مسلم، للألباني، باب في فضائل الحسن والحسين ج٢ ص٤٣٧ رقم ١٦٥٣ م٧/١٣٠.

(٢) محمد رسول الله، محمد رضا ص٣٥٣ ـ ٣٥٥.

الشريف، وكفنوه في ثلاثة أثواب بيض. ولما فرغوا من جهازه وضع على سريره في بيته ودخل الناس عليه ﷺ أرسالاً، أي: جماعات يصلُّون عليه[١].

وحفر له في المكان الذي توفي فيه، وقال أبو بكر: سمعت رسول الله يقول: «**ما مات نبيّ قط إلا يُدْفَن حيث تُقبض روحه**». حفر لحده حيث قبض ونزل في قبره ﷺ عمه العباس وعلي والفضل وقثم بن العباس، ورش قبره ﷺ بماء وجعل عليه حصاء، ورفع قبره عن الأرض قدر شبر.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ولقد مات وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي فأكلت منه حتى طال عليّ فأكلته ففني فيا ليتني لم آكله[٢]. وروى البخاري عن عمر بن الحارث رضي الله عنه: توفي رسول الله ﷺ ولم يترك ديناراً ولا عبداً ولا أمة وما ترك رسول الله إلا سلاحه وبغلته وأرضاً جعلها صدقة[٣].

❋ ❋ ❋ ❋

إدحاض مفتريات على المعصوم سيد المرسلين

قال الله عزّ من قائل: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠]. إن بعض النقّاد من اليهود والنصارى قد حادوا عن الصراط السوي، وانتهجوا طريقاً بعيداً عن الإنصاف حين تعرضوا في سيرة سيد المرسلين. فهم دائماً يلتمسون ما عساه أن يشين سمعته، أو ينقص كرامته، ويحاولون أن يلصقوا به المعايب، ويرموه بالمثالب، وينسبون إليه أفظع الجرائم. على حين ما يزيد عن ثلث العالم

(١) صحيح البخاري، باب: مرض النبيّ ﷺ ووفاته ج٦ ص١٥.
(٢) مختصر صحيح مسلم، للألباني، كتاب: الزهد ج٢ ص٥١١ رقم ٢٠٧٤.
(٣) صحيح البخاري، باب: مرض النبيّ ﷺ ووفاته ج٦ ص١٨.

من الناس «المسلمون» في مشارق الأرض ومغاربها، يتخذونه بحق أنموذجاً أعلى للفضيلة، ومثالاً أكمل للمروءة والكمال. قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ [الصف: ٨، ٩]. وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

وجرى بنا قبل ذكر هذه المفتريات أن نوضح كيف تحمّل المسلمون الأذى في سبيل الدعوة إلى الله. وقام النبيّ ﷺ بالدعوة إلى دين الله، وصبر على كفار قريش ومَن على شاكلتهم صبر الكريم الحليم الذي يريد لأمته الهداية والصلاح، حتى لم يبقَ في قوس الصبر منزع للصبر.

فإنه ﷺ بذل النصح فقوبل بالعنف، وأرشد فاستهزئ به، وأنذر فأوذي. وقال: «**اتقوا الله**»، فقالوا: مجنون، وقال: «**اعبدوا الله**»، فقالوا: أتجعل الآلهة إلٰهاً واحداً. وأتى بالمعجزة فقالوا: ساحر. وقرأ عليهم القرآن، فقالوا: شاعر. ودعاهم إلى الدين القويم ونبذ الوثنية، فما كان منهم إلا القسوة والتألُّب عليه وعلى أصحابه وتبييت الشر لهم حتى اضطروا إلى الهجرة فراراً بدينهم.

إن هذه المفتريات خاصة باليهود وهم أهل كتاب آمن به المسلمون، وجاء ذكره في القرآن. وإذا كان المسلمون لم يقترفوا هذه الجرائم مع المشركين الذين عبدوا الأصنام من دون الله واضطهدوا النبيّ، فكيف يتصور إقدام المسلمين على مثلها مع اليهود، وهم أهل كتاب ودين. اللَّهمَّ إن محمداً ما كان يطلب مُلكاً، ولكنه النبيّ المصلح لا يبغي من وراء دعوته إلا إصلاح ما فسد من أمرهم، وجمع ما تفرق من شملهم، وهدايتهم إلى أقوم الطرق، بعد أن فسدت عقائدهم، وطمست معالم دينهم.

لقد قرر هؤلاء المؤلفون ومَن حذا حذوهم أن جميع هؤلاء اليهود الذين وقعت هذه الجرائم عليهم قد قتلوا بغير حق، سوى أنهم نظّموا الأشعار في هجو المسلمين. لقد تناسوا أن الشعر والهجو به لم يكن خاصاً باليهود، بل هو من خصائص العرب، فقد كان سلاحهم الذي يدافعون به

عن أنفسهم. وقد اتخذه كثير منهم أداة للتشهير والازدراء بالإسلام والمسلمين، ولجأ المسلمون إلى النبيّ يستأذنونه في الدفاع عن أنفسهم، فلم يزد على أن أذن لحسان في الرد عليهم بشعر مثله. إن القرآن الكريم قد أمر المرسلين بالصبر على احتمال الأذى، قال الله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦]. ومن العجب أن يدّعي المفترون ما نسبوا إلى النبيّ ﷺ زوراً وبهتاناً.

إن رسول الله هو أول مَن يأتمر بأمر ربه، ويلتزم نص كتابه المنزَل عليه، وهو المثَل الأعلى لتابعيه. وتوجيهات القرآن لم تكتفِ بأمر المسلمون بتحمُّل الأذى والصبر عليه، بل إن القرآن نهاهم عن مقابلة الشر بمثله. وإذا كان بعض المؤرخين قد زلّ ونسب إلى النبيّ ﷺ تلك الجرائم من غير سند أو حجة واضحة. من ذلك ذكرهم قتل: عصماء بنت مروان اعتماداً على ما جاء في بعض السِّيَر، وهذه اليهودية من بني خطمة، وكانت كثيراً ما تعيب الإسلام وأهله وتسب النبيّ ﷺ. فقال رسول الله حين بلغه ذلك: «**ألا رجل يكفيني هذه؟**»، فقال عمير بن عدي وكان من قومها: أنا أكفيكها يا رسول الله، فقتلها، فقال رسول الله: «**لا ينتطح فيها عنزان**»، ثم أثنى عليه وسمّاه البصير وكان كفيفاً. فلما رأى المستضعفون من قومها الذين أخفوا إسلامهم اتقاء شرها أن الإسلام عز بعد قتلها أظهروا إسلامهم. ثم علّق الناقد على هذه القصة بأن هذه المرأة قتلت شر قتلة، وأن النبيّ ﷺ لم يكتفِ بالقتل جزاء على الهجاء، بل أثنى على القاتل. وما يقوض أركان هذه الأراجيف ما أورده البخاري وهو الثقة الذي لا يشك في روايته في حديث لابن عمر قال: «إن امرأة وجدت قتيلة في إحدى الغزوات التي حضرها النبيّ ﷺ، فنهى النبيّ عن قتل النساء والأطفال»، فهل بعد ذلك يقال: إن النبيّ أمر بقتل امرأة لأنها هجت المسلمين[١]؟

(١) محمد المثل الكامل، محمد بك ص٣٨٩ ـ ٣٩١.

أما حادثة اغتيال «أبي عفك اليهودي» فقد كان مُسِنًّا بلغ مائة وعشرين سنة، وكان يحرّض على إيذاء النبيّ ﷺ ويهجوه بشعره. فأمر رسول الله بقتله. هذه القصة واهية الأساس، فقد ثبت أن النبيّ ﷺ نهى عن قتل الشيوخ. وأخرج أبو داود عن أنس أن رسول الله قال: «**انطلقوا باسم الله وعلى ملّة رسول الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً**»، الحديث. وهذا كاف في أنه مُحَرَّمٌ على المسلمين أن ينالوا الشيوخ بأذى، فهل ينسب إلى رسول قتل شيخ كل ما فعل أنه فاه ببعض أبيات من الشعر لن يتجاوز صداها مربط ناقته.

أما حادث قتل «كعب بن الأشرف اليهودي» فقد تحدث بها ثقات الرواة، ووردت في صحيح الأحاديث. إن أصل كعب بن الأشرف عربي من بني نبهان «بطن من طيء»، وكان أبوه أصاب دماً في الجاهلية، ولما نزح أبوه إلى المدينة أصبح حليفاً ليهود بني النضير. ولما صار ذا ثروة وجاه تمكن من أن يتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق، وهو زعيم يهودي، فكان كعب هذا ثمرة هذا الزواج، وصارت صلته وثيقة بالعرب واليهود لنسبه ونشأته.

وبعد انتصار المسلمين في «غزوة بدر» زاد ذلك من حقد اليهود وضغينتهم على المسلمين، وأن كتاب الله لا يأمر بالعقاب على غل خفي أو حقد دفين. ولذلك لم يحرك أحد من المسلمين ساكناً، ولم يعتدوا على أحد من اليهود. ولكن كعباً على ارتباطه بعهد مع المسلمين أطلق لملكته الشعرية العنان، وأثار على المسلمين حرباً شعواء. ولم يقف عند هذا الحد بل سار نحو مكة، وعاهد أعداء المسلمين جهرة، وحرّض قريشاً على مهاجمة المدينة. وأقسم في الكعبة ليحارب المسلمين ولينقض عهودهم، وليكون عضداً للمشركين إذا نشطوا من عقالهم، وخرجوا لمحاربة النبيّ في المدينة. وليته اكتفى بنقض العهود، والجهر بذلك في مكة، وإعلان استعداده لمقاتلة المسلمين، بل بيَّتَ الشر للنبيّ ونوى الاعتداء على حياته ﷺ.

هذه حقائق غفل عنها الحاقدون من الناقدين من اليهود والنصارى في تناولهم أدق تفصيلات قتل كعب، إذ يقولون: «إن انتشار الإسلام في بدء

الدعوة كان مما لا يحسد عليه إذا وُزِنَ بتقدم المسيحية في بدء أمرها. فالذين دانوا بالمسيحية إنما دانوا بها لما شاهدوا من تجلُّد مَن تحمّلوا الموت بسبب تلك العقيدة. ولكن الذين دخلوا في الإسلام إنما دفعهم إليه ما هالهم من جنوح المسلمين إلى الفتك بمَن لا يدخل في دينهم. بهذا الأسلوب أخفى الحاقدون من النقاد الحقائق التي يتبين منها أن كعباً قد تحوّل من حليف إلى محارب. فإن الحرب كانت قائمة بين المسلمين وغيرهم. فإن كعباً قد عقد أواصر الصداقة بينه وبين الأعداء وعزم على مناوأة المسلمين ونقض عهودهم والتحلل من مواثيقهم، فقُتل لذلك. فهل يعتبر ذلك قسوة أو خيانة؟ وإذا كان كعب قد بيَّت للنبيّ، وعزم على اغتياله غدراً فجوزي على عمله بالقتل، فهل يسمى ذلك بغياً واعتداء؟

لا جرم أنه نقض العهد وناصر أعداء النبيّ عليه فَعُدَّ محارباً، أما غيره من اليهود الذين سالموا النبيّ، وحفظوا ما عاهدوا عليه فقد عاشوا بجواره آمنين. مع أنهم لم يكونوا أقل من كعب نشاطاً في التحدث عن النبيّ بالسوء، وغاية ما ألزموه هو أنهم عاهدوه على ألاّ يساعدوا أعداء المسلمين ولا يحاربوا المسلمين. لقد أنكر الطاعنون على المسلمين قتل كعب غيلة، وما نريد أن ننبه إليه هو أن النبيّ ﷺ لم يُشر بها. وما فعل المسلمون بكعب أنهم أرسلوا إليه مجموعة فاختار قائدها أيسر الطرق للقضاء على عدوه. فقد كان عليه أن يسلك إحدى سبيلين: فإما أن يقاتل القبيلة جميعها، وإما أن يقتل غريمه، ولا يأخذ الأبرياء بذنب المجرم، فاختار الطريق الأخير حقناً للدماء. فهؤلاء الذين ينسبون إلى النبيّ هذه المفتريات يقضي قانونهم بقتل من يتجسس للأعداء. وهم مع ذلك يأخذون على المسلمين قتل من نقض عهدهم، وناصر أعداءهم، وجاهر بعداوتهم، وبيَّت الشر لنبيهم، فهم يحرّمون على الناس ما أحبُّوه لأنفسهم.

أما حادث قتل «سلام بن الحقيق النضري اليهودي» فهو رئيس بني النضير بعد نفيهم من المدينة. وكانوا في حلف مع المسلمين، وقد سلكوا سبيلاً شائناً باتصالهم بالقبائل المعادية، وكان من أثر ذلك قتلهم لكثير من المسلمين غدراً. وقد طلب منهم رسول الله أن يراعوا عهودهم

ويكفوا عن مناصرة أعداء المسلمين، فلم يستجيبوا. وبعد نفيهم من المدينة لجؤوا إلى خيبر، وأصبحوا بذلك مصدر فتنة ومبعث شر للمسلمين، واشتركوا في محاربتهم. وكان أبو الحقيق هذا قائداً في موقعة الأحزاب التي اجتمع فيها كثير من القبائل العربية واليهودية ليستأصلوا شأفة المسلمين، ولكن الله نصر المسلمين وشدّ أزرهم، وارتدّ الأحزاب مهزومين. ولكن أبا الحقيق لم يكف عن مناصرة القبائل العربية المناوئة للمسلمين.

ومن ذلك يتجلى أن يهود خيبر عامة ويهود بني النضير وزعيمهم خاصة أعداء للمسلمين يتربصون بهم الدوائر، فلا بد من تأديبهم، والحد من سطوتهم. فرأى المسلمون حقناً للدماء أن يطفئوا جذوة الشر، فأرسلوا جماعة للقضاء على مصدر الفتنة، وهو أبو الحقيق. إلا أن قتله لم يؤدِّ إلى الغرض المنشود، فكان لا بد من إرسال جيش لفتح خيبر. فهذا رجل قاتل المسلمين وحرّض القبائل وناصر أعداءهم، فهل إذا بعث إليه المسلمون بمن يثأر منه ويقتله لاموهم على ما فعلوا ووصفهم الناقدون الحاقدون بالقسوة والغلظة.

أما قتل اليهودي «أسير بن رزام» فإنه قام وحرّض اليهود، وسار إلى غطفان، وجمعهم وهمَّ أن يذهب بجمعه إلى المدينة ليغزوها ويبلغ ما يريد. فلما بلغ النبيّ ﷺ ما هو فيه، أرسل سرية بقيادة عبدالله بن رواحة فقدموا عليه وقالوا: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا به؟ فقال: نعم، ولي منكم مثل ذلك. فقالوا: إن رسول الله بعثنا إليك لتخرج إليه يستعملك على خيبر، وخرج مع المسلمين ومعه ثلاثون من اليهود، حتى إذا كان بقرقرة ندم أسير على خروجه، وهَمَّ ليفتك بعبدالله ففطن له وضربه بالسيف. وعلى الباغي تدور الدوائر، ومَن نكث فإنما ينكث على نفسه. فمثل هذا الغدر من أعداء الدين متوقع، وكان الفتك والقتل من المسلمين انتصاراً لدين رب العالمين[١].

لقد أظهر اليهود البغي والحسد، ونبذوا العهد بعد غزوة بدر حتى نزل

(١) المرجع السابق ص٣٩٠ ـ ٤٠١.

قول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨].

كان جوهر دعوة النبيّ ﷺ التي دعا إليها قومه، هو ترك عبادة الأصنام والإيمان بالإله الواحد. ولاقى الكثير ضد دعوته بل تعرض للقتل من جانب قريش. ولما كانت الاعتقادات اليهودية تقوم على التوحيد ورفض عبادة الأوثان. كان من الطبيعي بالنسبة لرسول الله عندما هاجر إلى يثرب أن يتوقع من القبائل اليهودية هناك أن تتحمس لدعوته وتسانده في مواجهة خصومه. ومع أن يهود يثرب رحّبوا بداية بمجيء الرسول إلى ديارهم إلا أن هذا الترحيب لم يكن بسبب ما نادى به من معتقدات، وإنما لأنهم كانوا يظنون بأن وجوده بينهم سيؤدي إلى اتساع حجم السوق التجارية التي أقاموها في المدينة، وزياد نصيبهم من الحركة التجارية في سوق مكة. وعندما اتضح لهم أن النبيّ سوف يتمم نشر دعوته في باقي أنحاء الجزيرة العربية، راحوا يتآمرون عليه من خصومه الوثنيين وتمنوا له الهزيمة. وعندما وصل النبيّ إلى يثرب أقام بين المهاجرين وأهل يثرب بما فيهم اليهود.

وعندما خرج رسول الله في العام الثاني للهجرة لملاقاة قريش في «بدر» وانتصر عليهم، بدأ القلق يساور جماعات اليهود من هذا النصر. ذلك أنه لو تمكن رسول الله من هزيمة قريش فلسوف يصبح سيد الجزيرة العربية بلا منازع. بدلاً من أن يتعالى اليهود على العرب لأن ديانتهم التوحيدية أسمى من ديانات القبائل الوثنية، وستصبح أمة محمد، هي شعب الإله الواحد الذي يؤمنون هم به، فتنهار بذلك إلى الأبد فكرة شعب الله المختار. فقد فتح محمد ﷺ أبواباً واسعة لكل من يريد أن يدخل في أمته، بما في ذلك اليهود.

إن اعتقاد اليهود بأنهم شعب الله المختار كان السبب الرئيسي في عدم معاونتهم رسول الإسلام، بل وفي تحالفهم مع الوثنيين ضده. وكان من المفروض أنهم إذا لم ينضموا إليه فإنهم يتعاونون معه للقضاء على عبادة الأوثان في جزيرة العرب، ونشر الإيمان بالله الواحد. إلا أن انتشار

الوحدانية بين الشعوب سوف يجعل الناس سواسية أمام الإلٰه، وهو ما لم يكونوا يرغبون فيه. وكان هناك سبب لإنكار اليهودية نبوة محمد ﷺ، فقد كانت هناك بعض القبائل اليهودية التي عانت من اضطهاد الدولة البيزنطية لها في بلاد الشام، وهذه كانت على استعداد لاتباع رسول الله. إذ قال هؤلاء: إن النبيّ هو مسيحهم الذي كانوا ينتظرون مجيئه، ولا مانع من أن يكون من سلالة إسماعيل، فهو الذي ينصرهم على أعدائهم من الرومان، إلا أنهم سرعان ما أنكروه عندما علموا بأنه شهد بأن عيسى ابن مريم هو المسيح[١].

❋ ❋ ❋ ❋

القرآن الكريم وبنو إسرائيل

يُعَدّ القرآن الكريم من أعظم المعجزات فيما جاء به من معالم وحكم وآيات بيِّنات. والقرآن وحده من بين الكتب السماوية التي أنزلها الله على الأنبياء والرُّسل هو الذي لم تتناوله يد التغيير والتبديل. فالكتب السماوية الأخرى نُسخت ولم تبقَ لها أصول حقيقية بعد تعديلها، فضاعت بذلك نصوصها الحقيقية. أما القرآن فهو الذي لم تمسه يد الإنسان بالتغيير والتبديل، وظلّ جامعاً للكتب السماوية الأخرى. وليست معجزة القرآن مؤقتة كمعجزات موسى وعيسى، بل إن معجزته باقية على مَر الزمن إلى يوم القيامة. إنه في مبدأ انتشار الإسلام وحين لم يكن الناس يتخلون بسهولة عن دينهم وعقائدهم القديمة أخذ بِلُبّ الجميع ومن ضمنهم المناهضين للدين الجديد، وكذلك الذين يسعون في سلوك طريق الحق والهداية، لأنهم أعجبوا ببلاغة القرآن الإلٰهية وبمعجزته. ومن ذلك الوقت أصاب اليهود جنون الغيرة والحقد الكامن في طبيعتهم. فعمدوا إلى وسيلتهم وسلاحهم، سلاح الكذب والافتراء، ومحض الادعاء. ولما رأوا

(١) تاريخ اليهود، أحمد عثمان ج٢ ص١٢١ ـ ١٢٦.

أن ما كان يفخرون به من العلم والمعرفة ليس له أدنى قيمة في مواجهة الإسلام وكمال صاحبه وخلقه العظيم. لجأوا إلى التصدي لمعجزة القرآن الكريم وادعوا أن نبينا افترى القرآن من عنده، وساعده في إخراجه يهودي فارسي، ونشروا فكرتهم الخبيثة. ورغم هذا، فإن الشعور الذي يحس به المسلمون عند تلاوة القرآن وسماعهم لأساليبه ونظمه وبلاغته ومعناه الإلٰهي حطم ادعاء اليهود، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨]. وبما أن اليهود ليس لهم نصيب من الحياء والفضيلة فإنهم لا يزالون يعيثون في الأرض فساداً. ومهما بثوا من أنواع سمومهم، فإن الله مُتِم نوره ولو كره الكافرون.

وهذه بعض الآيات البيِّنات من القرآن الكريم التي تبرز الأحكام التي أصدرها الله على بني إسرائيل إذ قال الله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]، أي: أن بني إسرائيل برغبتهم في الأمور الخسيسة أذلُّوا أنفسهم وحَقَّروها، فضربت عليهم الذلة ودمغوا بالمسكنة. فاليهود لازمتهم الذلة والعار والشقاء. وإن عاشوا فعيشتهم فقر وبؤس حتى ولو وجد المال في أيديهم من أي سبيل. وكانت النتيجة أن غضب الله عليهم فانقرضت دولتهم وتشتت جمعهم، إذ أنهم كانوا يكفرون بآيات الله وقتلوا أنبياءهم.

قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٤]، وقال أيضاً: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، أي: ألقينا بين بني إسرائيل البغض والعداوة عبر زمانهم وطول حياتهم، ومتى ما أشعلوا نار حرب أطفأها الله، إذ من دأبهم أن يعيثوا في الأرض فساداً. وهناك آيات كثيرة في القرآن قد وردت في حق بني إسرائيل، وهناك أحاديث كثيرة وردت عن النبيّ ﷺ عن اليهود أعداء الإسلام إذ يقول رسول الله: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم،**

يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»[١]. فأعداء الإسلام وأعداؤه الألدّاء أبداً هم بنو إسرائيل. فسماحة الدين الذي أتى به النبيّ ﷺ من عند الله ليكون لسعادة البشرية في الدنيا والآخرة لم تمنع اليهود من توجيه خصومتهم إلى الحق، ومن اتخاذ موقف يعادي الإسلام. وقد كشف القرآن عن شدة عداوتهم للمسلمين، إذ يقول الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [المائدة: ٨٢]، أي: أن الله سبحانه وتعالى يُقسم فيها بذاته العليا ليؤكد لرسول الله محمد ﷺ أن اليهود والمشركين من أشد الناس خصومة للمؤمنين. وما يستدعي النظر في هذه الآية الكريمة هو إيراد اليهود قبل كلمة المشركين. فاليهود الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء، وأنهم أضاعوا أجر أعمالهم في الدنيا والآخرة ولن ينصرهم من دون الله ناصر. ومهما أكثرنا من حمدنا لله سبحانه وتعالى على هدايته لنا نحن المسلمين وإرساله إلينا رسولاً هو سيدنا محمد ﷺ مع خصنا بكتاب عظيم هو القرآن الكريم. فإن حمدنا يتضاءل أمام نِعَمه العظيمة الكبرى التي لا تُعد ولا تُحصى[٢]. كنا آل محمد ليمر بنا الهلال ما نوقد ناراً، إنما هو الأسودان «التمر والماء»، إلا أنه كان حولنا أهل دور من الأنصار يبعثون إلى رسول بلبن منائحهم فيشرب ويسقينا من ذلك اللبن[٣]. أما في عبادته ﷺ واجتهاده في ذلك، فقد ثبت في الصحيحين عن أبي ذر: أن رسول الله ﷺ قام ليله حتى أصبح يقرأ هذه الآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨].

وعن المغيرة بن شعبة، أن رسول الله ﷺ قام حتى تفطرت قدماه فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً؟**»، وروى البيهقي عن ابن عباس قال: قال أبو بكر:

(١) صحيح مسلم، فتن ١٨٢، مسند الإمام أحمد ج٢ ص٤١٧.
(٢) الإسلام وبنو إسرائيل، الجنرال أتلخان ص١٦٦ ـ ١٧٥.
(٣) شمائل الرسول، لابن كثير ص٨٦ ـ ٩٢.

يا رسول الله، أراك شِبْتَ؟ قال: «**شيّبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت**»(١).

❋ ❋ ❋ ❋

دلائل نبوته ﷺ

إنزال القرآن عليه، وهو أعظم المعجزات وأبْيَن الحجج الواضحات، لما اشتمل عليه من التركيب المعجز الذي تحدّى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]. فبيَّن الله تعالى أن الخلق عاجزون عن معارضة هذا القرآن. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٦]، أي: أنزله عالم الخفيات الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن. قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩]. فبيّن الله تعالى أن نفس إنزال هذا الكتاب على مثل هذا النبيّ الأمي وحده كان من الدلالة على صدقه.

ففي هذا القرآن من الأخبار الصادقة عن الله جلّ جلاله وملائكته وعرشه ومخلوقاته العلوية والسفلية كالسماوات والأرضين وما بينهما وما فيهن. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨]. فالقرآن العظيم معجزة من وجوه كثيرة: من فصاحته وبلاغته ونظمه، وما تضمنه من الأخبار الماضية والمستقبلة وما اشتمل عليه من الأحكام المحكمة الجليلة. وفيما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من الأنبياء نبيّ إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان**

(١) كنوز الحقائق، لابن مردويه ج١ ص١٤٩، بلفظ: «**شيّبتني هود وأخواتها**».

الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[١].

أما الدلائل النبوية الحسية فأعظم ذلك انشقاق القمر المنير فرقتين، قال الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١] الآية. وقد اتفق العلماء مع بقية الأئمة على أن انشقاق القمر كان في عهد رسول الله ﷺ. وفي الصحيحين عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقّتين حتى رأوا حراء بينهما.

استسقاء رسول الله ﷺ ربه عزَّ وجلَّ لأمته حين تأخر المطر فأجابه إلى سؤاله سريعاً بحيث لم ينزل عن منبره إلا والمطر يتحادر على لحيته. روى البخاري ومسلم عن أنس قال: بينما رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله قَحَطَ المطر فادْعُ الله أن يسقينا. فدعا فمطرنا فما كدنا أن نصل إلى منازلنا، فما زلنا نمطر إلى الجمعة المقبلة. قال: فقام ذلك الرجل أو غيره فقال: يا رسول الله، ادْعُ الله أن يصرفه عنّا. فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهمَّ حوالينا ولا علينا**»، قال: فلقد رأيت السحاب يتقطع يميناً وشمالاً لا يمطرون ولا يمطر أهل المدينة[٢].

تكثيره ﷺ الماء في غير ما موطن، قال البخاري: عن أنس بن مالك قال: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر والتمس الناس الوضوء فلم يجدوه. فأتي رسول الله ﷺ بوضوء فوضع رسول الله يده في ذلك الإناء فأمر الناس أن يتوضأوا منه، فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا من عند آخرهم[٣]. وفي صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع قال: قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة ومائة أو أكثر من ذلك وعليها خمسون رأساً لا ترويها، فقعد رسول الله على الركية فإما دعا وإما بصق فيها. قال: فجاشت فسقينا واستقينا.

---

(١) مختصر صحيح مسلم، للألباني ج١ ص١٣ الحديث رقم (م١ ـ ٩٢ ـ ٩٣).
(٢) صحيح البخاري، باب: المناقب ج٤ ص٢٣٣.
(٣) صحيح البخاري، باب: المناقب ج٤ ص٢٣٧.

تكثيره ﷺ الأطعمة للحاجة إليها في غير ما موطن. قال الإمام أحمد في حديث عن أبي هريرة كان يقول: والله إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، فمرّ أبو القاسم فعرف ما في وجهي وما في نفسي، فقال: أبا هريرة انطلق إلى أهل الصُّفَّة فادعهم لي، وأهل الصُّفَّة أضياف الإسلام لم يأووا إلى أهل ولا إلى مال. فانطلقت فدعوتهم، فقال أبا هريرة: خذ فأعطهم. فأخذت القدح فجعلت أعطيهم فيأخذ الرجل القدح فيشرب حتى يروى ثم يرد القدح حتى أتيت على آخرهم، ودفعت إلى رسول الله ﷺ فأخذ القدح فوضعه في يده وبقي فيه فضلة، ثم رفع رأسه إليّ وتبسّم وقال: «**بقيت أنا وأنت فاقعد فاشرب**»، فشربت فما زال يقول لي اشرب حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له في مسلكاً. قال: «**ناولني القدح**»، فرددت إليه القدح فشرب من الفضلة[١].

قال الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: بعثني أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ لأدعوه وقد جعل له طعاماً، فأقبلت ورسول الله مع الناس فقلت: أجب أبا طلحة. فقال للناس: قوموا، فقال أبو طلحة: يا رسول الله إنما صنعت شيئاً لك. قال: فمسّها رسول الله ودعا فيها بالبركة. ثم قال: «**أدخل نفراً من أصحابي عشرة**»، فقال: «**كلوا**»، فأكلوا حتى شبعوا، وقال: «**أدخل عشرة**»، فأكلوا حتى شبعوا. فما زال يدخل عشرة ويخرج عشرة حتى لم يبقَ منهم أحد إلا دخل فأكل حتى شبع. ثم هيأها فإذا هي مثلها حين أكلوا منها. قال الإمام أحمد عن سمرة بن جندب قال: بينما نحن عند النبيّ ﷺ إذ أتي بقصعة فيها ثريد قال: فأكل وأكل القوم فلم يزالوا يتداولونها إلى قريب من الظهر، يأكل قوم ثم يقومون ويجيء قوم فيتعاقبونه. فقال له رجل: هل كانت تمد بطعام؟ قال: «**أما من الأرض فلا، إلا أن تكون كانت تمد من السماء**»[٢].

أما عن انقياد الشجر لرسول الله ﷺ فقد روى مسلم عن جابر بن

---

(١) شمائل الرسول، لابن كثير ص٢٧٦ ـ ٢٦٢ من مسند الإمام أحمد، الفتح الرباني ص٢٢ ـ ٦٢.

(٢) شمائل الرسول، لابن كثير ص٢٣٤ ـ ٢٤٠.

عبدالله قال: سرنا مع النبيّ ﷺ حتى نزلنا وادياً أفْيَح، أي: واسعاً، فذهب رسول الله يقضي حاجته فأتبعه بأداوة من ماء فنظر فلم يرَ شيئاً يستتر به، وإذا شجرتان بشاطئ الوادي فانطلق إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها وقال: «**انقادي عليّ بإذن الله**»، فانقادت معه حتى أتى الشجرة الأخرى وانقادت معه حتى كان في المنتصف جمعهما وقال: «**التئما عليّ بإذن الله**»، فالتأمتا فحانت مني لفتة فإذا أنا برسول الله مقبل وإذا الشجرتان قد افترقتا[١]. ومنه أيضاً حنين الجذع شوقاً إلى رسول الله ﷺ، قال الإمام الشافعي: عن أبي بن كعب عن أبيه قال: كان النبيّ ﷺ يصلي إلى جذع نخلة إذ كان المسجد عريشاً وكان يخطب إلى ذلك الجذع. فلما صنع له المنبر بدا رسول الله أن يقوم على ذلك المنبر فيخطب عليه، فمرّ إليه فلما جاوز ذلك الجذع خار حتى تصدّع وانشق، فنزل رسول الله لما سمع صوت الجذع فمسحه بيده ثم رجع إلى المنبر[٢].

قال الإمام أحمد عن سعيد بن المسيب عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان في نفر من المهاجرين والأنصار فجاء بعير فسجد له، فقال أصحابه: يا رسول الله، تسجد لك البهائم والشجر فنحن أحق أن نسجد لك. فقال: «**اعبدوا ربكم وأكرموا أخاكم، ولو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**»[٣].

روى البيهقي عن الحاكم عن عمر بن عبدالله بن أبي يعلى بن مُرَّة عن أبيه عن جده قال: رأيت من رسول الله ﷺ ثلاثة أشياء ما رآها أحد قبلي. كنت معه في طريق مكة فمرّ بامرأة معها ابن لها به لمم ما رأيت لماماً أشد منه، فقالت: يا رسول الله، ابني هذا كما ترى. فقال: «**إن شئت دعوت له**» فدعا له. ثم مضى فمرّ على بعير ناد جرانه يرغو فقال: «**عليَّ بصاحب هذا**

---

(١) مختصر صحيح مسلم، للألباني كتاب: الفضائل ج٢ ص٤٠٩ حديث ١٥٣٧.
(٢) صحيح البخاري، باب: علامات النبوة ج٤ ص٢٣٧.
(٣) الجامع الصغير، للسيوطي ج٢ ص١٣١، وسنن الترمذي ج٣ ص٤٦٥ حديث رقم ١١٥٩ وقال حسن غريب.

البعير» فجيء به فقال: «**هذا يقول: نَتَجْتُ عندهم فاستعملوني حتى إذا كبرت عندهم أرادوا أن ينحروني**». قال: ثم مضى ورأى شجرتين متفرقتين فقال لي: «**اذهب فمرها فليجتمعا لي**» قال: فاجتمعتا فقضى حاجته. قال: ثم مضى فلما انصرف مرّ على الصبي وهو يلعب مع الغلمان وقد ذهب ما به، فقال النبيّ ﷺ: «**ما من شيء إلا ويعلم أني رسول الله، إلا كفرة أو فسقة الجن والإنس**».

❋ ❋ ❋ ❋

ما اختصّ الله تعالى به رسوله ﷺ من المعجزات

القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. القرآن الذي أوحاه الله إليه فإنه معجزة متواترة عنه، مستمرة دائمة البقاء بعده مسموعة لكل مَن ألقى السمع وهو شهيد. كما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُعطيت خمساً لم يُعطهن أحد قبلي: نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تُحَلّ لأحد من قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبيّ يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة**»[1].

ذكر البخاري وغيره عن ابن عباس أنه قال: «**ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه العهد والميثاق، لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به وليتبعنه ولينصرنه، فكل نبيّ بشّر بمبعثه، كما قال الله تعالى**: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾» [آل عمران: ٨١].

---

(١) شمائل الرسول، لابن كثير ص٤٩٧ ـ ٥٠٠، دلائل النبوة، لأبي نعيم ص٥١٤ ـ ٥٢١.

أعطى الله جلّ وعلا أنبياءه عليهم السلام من الآيات البينات والخوارق والحجج، وأن الله تعالى جمع لعبده ورسوله سيد الأنبياء وخاتمهم ما لم يؤت أحداً قبله، فأعطاه الله تعالى آيتان من كنوز العرش آخر سورة البقرة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ . . .﴾ الآيتان [البقرة: ٢٨٥، ٢٨٦].

أعطى الله تعالى إدريس عليه السلام من الرفعة فقال: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾. ونبينا محمد ﷺ أعطي أفضل وأكمل من ذلك، لأن الله رفع ذكره في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾، ليس خطيب ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها: «**أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله**»، فقرن الله جلّ جلاله اسمه باسمه. روى الحاكم والبيهقي عن عمر بن الخطاب في قول آدم: يا رب، أسألك بحق محمد إلا غفرت لي، فقال الله: «**وما أدراك ولم أخلقه بعد؟**»، فقال: لأني رأيت اسمه مكتوباً مع اسمك على ساق العرش (لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله)، فعرفت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحَبَّ الخلق إليك. فقال الله: «**صدقت يا آدم، ولولا محمد ما خلقتك**»[1].

أما فيما أوتي داود عليه السلام فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ۝١٠﴾ الآية [سبأ: ١٠]. فالرسول ﷺ سبّح الحصى في كفه والأحجار والأشجار سلّمت عليه. وأما المعجزة في إلانة الحديد، ففي حفر الخندق عام الأحزاب سنة خمس عرضت لهم الكدية وهي الصخرة فلم يقدروا على كسرها. فقام رسول الله وقد ربط حجراً على بطنه من شدة الجوع، فضربها ثلاث ضربات لمعت الأولى حتى أضاءت له قصور الشام، وبالثانية قصور فارس، وثالثة انسالت الصخرة كأنها كثيب من الرمل. ولا شك أن انسيال الصخرة التي لا تنفعل ولا بالنار أعجب من لين الحديد الذي إن أحمي لان. وأما قوله: «**وأوتيت الحكمة وفصل الخطاب**»، فقد كانت الحكمة التي أوتيها محمد ﷺ والشرعة التي شرعت له أكمل.

(١) شمائل الرسول، لابن كثير ص٥٤٤ ـ ٥٥٨، دلائل النبوة للأصبهاني ص٧ ـ ١٢.

وآتاه الله تعالى ما لم يؤتَ أحداً قبله، وقد قال ﷺ: «**أوتيتُ جوامع الكلم واختُصِرَت لي الحكمة اختصاراً**»(١).

أما فيما أُوتِيَه سليمان عليه السلام قال الله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ الآية [سبأ: ١٢]. أما تسخير الريح لسليمان فقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب: ٩]. روى مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «**نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهْلِكَت عاد بالدَّبُور**». وقال أبو نعيم: سليمان سخرت له الريح، وأعطي رسول الله أعظم وأكبر لأنه أسري به ليلة واحدة من مكة إلى بيت المقدس مسيرة شهر، وعرج به في ملكوت السماوات مسيرة خمسين ألف سنة في أقل من ثُلُثِ ليلة(٢).

أما فيما أوتي عيسى عليه السلام ـ ويسمى: المسيح ـ فقيل: لمسحه الأرض، وقيل: لخروجه من بطن أمه ممسوحاً بالدهان، وقيل: لمسح جبريل له بالبركة. ومن خصائصه أنه لم يمت وسينزل من السماء قبل يوم القيامة، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلِئَت ظلماً وجوراً ويحكم بالشرعية المحمدية ثم يموت ويدفن بالحجرة النبوية كما رواه الترمذي. أما معجزات عيسى فهي إحياء الموتى، وللنبيّ ﷺ من ذلك كثير، وإحياء الأحجار أبلغ من إحياء الميت. وقد كلّم رسول الله الذراع المسمومة، وكذا تسليم الأحجار والأشجار وشهادتها بالرسالة. أما إبراء عيسى من الجنون فالرسول ﷺ أبرأ من الجنون، روى الإمام أحمد عن يعلى بن مرة أن امرأة أتت بابن لها صغير به لمم إلى رسول الله ففغر فاه ونفث فيه ثلاثاً وقال: «**بسم الله، أنا عبد الله اخسأ عدو الله**»، ثم ناولها إياه فذكرت أنه بريء من ساعته. وأما إبراء عيسى الأكمه وهو الذي يولد أعمى، فقد ردّ رسول الله يوم أُحد عين قتادة بن النعمان إلى موضعها بعدما سالت على خدّه(٣).

---

(١) مختصر صحيح مسلم، للألباني ج١ ص٧٥ حديث رقم ٢٥٧ (م٢ ـ ٦٤).
(٢) شمائل الرسول، لابن كثير ص٥٥٦ ـ ٥٦٨ ـ ٥٧٨، ص٥٧٧ ـ ٥٧٨.
(٣) الجامع الصغير، للسيوطي ج١ ص٩٧ كتاب كنوز الحقائق، رواه الديلمي.

قال الشيخ جمال الدين الأنصاري في ديوانه المكتوب عنه في مديح رسول الله ﷺ، وقد كان مكفوف البصر منير البصيرة قال:

محمد المبعوث للناس رحمة ... يُشَيِّد ما أوهى الضلال ويُصْلِحُ
لئن سَبَّحَت صُمُّ الجبال مجيبة ... لداود أو لان الحديد المصفحُ
فإن الصخور الصم لانت بكفه ... وأن الحصى في كفه ليسبحُ
وإن كان موسى أنبع الماء من عصا ... فمن كفه قد أصبح الماء يطفحُ
وإن كانت الريح الرخاء مطيعة ... سليمان لا تألو تروح وتسرحُ
فإن الصبا كانت لنصر نبينا ... برعب على شهر به الخصم يكلحُ
وأن أوتي الملك العظيم وسُخِّرَت ... له الجن تشفى ما رضيه وتلدحُ
فإن مفاتيح الكنوز بأسرها ... أتته فردّ الزاهد المترجحُ
وإن كان إبراهيمُ أعطي خُلَّةً ... وموسى بتكليم على الطور يمنحُ
فهذا حبيب بل خليل مكلم ... وخصص بالرؤيا وبالحق أشرحُ
وخصص بالحوض العظيم وبالِّلوا ... ويشفع للعامين والنار تلفحُ
وبالمقعد الأعلى المقرب عنده ... عطاء ببشراه أقرّ وأفرحُ
وبالرتبة العليا الأسنّة دونها ... مراتب أرباب المواهب تلمحُ
وفي جنة الفردوس أول داخل ... له سائر الأبواب بالغار تفتحُ

❋ ❋ ❋ ❋

شمائل رسول الله ﷺ

ما ورد في حسنه: روى البخاري عن البراء بن عازب أنه كان يقول: كان النبيّ ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خُلُقاً، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير. روى الإمام أحمد عن جابر بن سمرة أنه كان يقول: كان رسول الله ﷺ قد شمط «بياض الرأس يخالطه سواده» مقدم رأسه ولحيته،

وكان كثير الشعر واللحية. فقال رجل: وجهه مثل السيف «في صقاله»، قال: بل مثل الشمس والقمر مستديراً، وقد رأيت خاتمه عند كتفه مثل بيضة الحمامة يشبه جسده[١].

ففي حديث هند بنت أبي هالة ربيب رسول الله ﷺ، أمه خديجة بنت خويلد وأبوه أبو هالة عن الحسن بن علي بن أبي طالب قال: سألت خالي هند بن أبي هالة، عن حلية رسول الله، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به فقال: كان رسول الله ﷺ فخماً مُفَخَّماً يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من اليربوع وأقصر من المشذب «الطويل البائن»، عظيم الهامة رَجِلَ الشعر، إذا تعرقت عقيصته «الخصلة إذا ضفرت» فرق، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه، ذا وردة، أزهر اللون واسع الجبين أزج «المقوس» الحواجب، سوابغ في غير قرن، بينهما عرق يدره الغضب، أقنى العرنين «طول الأنف ودقة أرنبته» له نور يعلوه، مَن لم يتأمله حسبه أشماً «ارتفاع قصبة الأنف» كث اللحية، أدعج سهل الخدين، ضليع «واسع» الفم أشنب «البياض والبريق في الأسنان» مفلج الأسنان «منفرجها»، دقيق المسربة كأن عنقه جيد دمية «الجيد العنق والدمية الصورة التي بولغ في تحسينها» في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادن متماسك «الضخم المتماسك اللحم» البطن والصدر. عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس «رؤوس العظام»، أنور المتجرد موصول ما بين اللبة «النقرة» التي فوق الصدر والسرة بشعر يجري كالخط في الطول والدقة، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين الذراعين، رحب الراحة، وسبط القصب، ممتد عظام الأصابع، شثن الكفين والقدمين «غليظ الأصابع» وسائر الأطراف الممتد الأصابع، خمصان الأخمصين ـ ما ارتفع عن الأرض ـ مسيح القدمين «ليس بكثير اللحم فيهما» ينبو عنهما الماء، إذا زال زال قلعاً، يخطو تكفياً ويمشي هوناً، ذريع

(١) شمائل الرسول، لابن كثير ص٥ ـ ٥٢، صحيح البخاري، باب: صفة النبيّ ﷺ ج٤ ص٢٢٦، الشمائل، للترمذي ج٢ ص١٤٥، الوفاء بأحوال المصطفى، لابن الجوزي ج٢ ص٤٧٠.

المشية، إذا مشى كأنما يحط من صبب وإذا التفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جلّ نظره الملاحظة، يسوق أصحابه، ويبدأ من لقيه بالسلام[١].

قلت: صف لي منطقه؟ قال: كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكرة، ليست له راحة، لا يتكلم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه، يتكلم بجوامع الكلم، فصل لا فضول ولا تقصير، دمث ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئاً ولا يمدحه ولا يقوم لغضبه إذا تعرض للحق شيء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلَّبَها، وإذا تحدث يصل بها يضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، وإذ غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غضّ طرفه، جل ضحكه التبسُّم، ويفتر عن مثل حَب الغمام «البرد»[٢].

قال الحسين بن علي: سألت أبي عن دخول رسول الله ﷺ فقال: كان دخوله لنفسه، مأذون له في ذلك، وكان إذا أوى إلى منزله جزَّأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزءٌ لله وجزءٌ لنفسه، ثم جزَّأ جزأه بين الناس فرد ذلك على العامة بالخاصة ـ أي: أن الخاصة ترفع إلى العامة علومه ـ لا يدخر عنهم شيئاً. وكانت سيرته في جزء الأمة: إيثار أهل الفضل بأدبه وقسمه على قدر فضلهم في الدين، فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما أصلحهم والأمة من مسألته عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي، ويقول: «**ليبلغ الشاهد الغائب، وأبلغوني حاجة مَن لا يستطيع إبلاغي حاجته، فإنه من بلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه ثبّت الله قدميه يوم القيامة**». لا ذكر عنده إلا ذلك ولا يقبل من أحد غيره، يدخلون عليه زواراً ولا يفترقون إلا عن زواق العلم[٣].

---

(١) شمائل الرسول، لابن كثير ص٥١ ـ ٥٢.
(٢) الوفاء بأحوال المصطفى، لابن الجوزي ج٢ ص٤٧١.
(٣) شمائل الرسول، لابن كثير ص٥٢ ـ ٥٣، النهاية، لابن الأثير ج٢ ص١٣٣.

قال: وسألته عن مخرجه، كيف كان يصنع فيه؟ فقال: كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا فيما يعنيه، ويؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره ولا خلقه، ينتقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس، ويُحَسِّنُ الحسن ويُقَوِّيه، ويُقَبِّح القبيح ويوهيه، معتدل الأمر غير مختلف لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة. قال: فسألته عن مجلسه، كيف كان؟ فقال: كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يوطن «لا يلتزم في جلوسه مكاناً بعينه» الأماكن وينتهي عند إبطانها، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك، يعطي كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، مَن جالسه أو قاومه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف، ومَن سأله حاجة لم يَرُدَّه إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس منه بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبن «تنتهك» فيه الحرم، ولا تثني «تشاع» فلتاته، متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى، متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون الصغير ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب.

قال: فسألته عن سيرته في جلسائه فقال: كان رسول الله ﷺ دائم البِشْر سهل الخلق لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صَخَّاب ولا فَحَّاش ولا عَيَّاب ولا مَدَّاح، يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤس «لا يجيبه» ولا يخيب فيه، وقد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً ولا يعيِّره ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا ولا يتنازعون عنده، يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته حتى إن كان أصحابه يستجلبونه في المنطق، ويقول: إذا رأيتم طالب حاجة فأرفدوه

«أعينوه»، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز «يجاوز الحق» فقطعه بانتهاء أو قيام.

قال: فسألته كيف كان سكوته قال: على أربع: الحلم والحذر والتقدير والتفكر. فأما تقديره ففي تسويته النظر والاستماع بين الناس. وأما تذكره أو تفكره ففيما يبقى ويفنى، جُمِع له ﷺ الحلم والصبر، فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه، وجمع له الحذر في أربع: أخذه بالحسنى، والقيام لهم فيما جمع لهم الدنيا والآخرة ﷺ[1].

ويذكر الرافعي الإنسانية العليا من أوصاف النبيّ ﷺ التي جمعها من روايات مختلفة: أنه كان متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة، ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقَّت، لا يذم منها شيئاً، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها، فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، وكان خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء. من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه. لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، ولا يطوى عن أحد من الناس بشره. قد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق سواءً، يُحَسِّن الحسن ويُقَوِّيه، ويقبح القبيح ويوهيه، معتدل الأمر غير مختلف. وكان أشد الناس حياء، لا يثبت بصره في وجه أحد، له نور يعلوه كأن الشمس تجري في وجه، لا يؤيس راجيه ولا يُخَيِّب عافيه، ومَن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، أجود الناس بالخير.

صلّى الله وسلّم على صاحب هذه الصفات التي لا يجد الكمال الإنساني مذهباً عنها ولا إلى شيء منها، ولا يجد النقص البشري مساغاً إليها ولا إلى شيءٍ منها. كما أن فيها المعنى التام للحق، ومن اجتماع هذين يكون فيها المعنى التام للإيمان. هي صفات إنسانها العظيم، وقد

(١) شمائل الرسول، لابن كثير ص٥٦.

اجتمعت له لتأخذ عنه الحياة إنسانيتها العالية، فهي بذلك من برهانات نبوته ورسالته. ولو جمعت كل أوصافه ﷺ، ونظمتها بعضها إلى بعض، واعتبرتها بأسرارها العلمية لرأيت منها كوناً معنوياً دقيقاً قائماً بهذا الإنسان الأعظم يقوم الكون الكبير بسننه وأصول الحكمة فيه. ولأيقنت أن هذا النبيّ الكريم إن هو إلا معجم نفسي حي ألفته الحكمة الإلٰهية بعلم من علمها، وقوة من قوتها، لتخرج به الأمة التي تبدع العالم إبداعاً جديداً وتنشئه النشأة المحظوظة له في أطوار كماله[1].

ولا غرو فقد أدّبه القرآن بمثل قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩]. ومن ذلك أنه لما كسرت رباعيته، وشُجَّ يوم أُحُد، فجعل الدم يسيل عن وجهه وهو يمسح الدم ويقول: «**كيف يُفْلِحُ قوم خَضَبُوا وجه نبيهم بالدم، وهو يدعوهم إلى ربهم**»، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، تأديباً له ﷺ، وأمثال هذه التأديبات في القرآن كثيرة، لأنه عليه الصلاة والسلام المقصود الأول بالتأديب والتهذيب. ثم منه يشرق النور على كافة الخلق، فهو أدب بالقرآن، وأدب الخلق به، ولذلك قال ﷺ: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، وقال: «**إن الله يحب مكارم الأخلاق، والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق**»، وقال: «**إن الله حفّ الإسلام بمكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال**».

ومن أظهرها ما تخلّق به المصطفى ﷺ من: «حسن المعاشرة، وكرم الصنيعة، ولين الجانب، وبذل المعروف، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام، وعيادة المريض، وحسن الجوار، وإجابة الطعام والدعاء عليه، والإصلاح بين المائدة، والجود، والكرم، والسماحة، والابتداء بالسلام، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، واجتناب ما حرّم الإسلام: من اللهو، والباطل، والغيبة، والكذب، والبخل، والشح، والجفاء، والمكر، والخديعة، والنميمة، وسوء ذات البَيْن، وقطيعة الأرحام، وسوء الخلق، والتكبر، والفخر، والاختيال،

(١) وحي القلم، الرافعي ج٢ ص٣٩ ـ ٤٠.

والاستطالة، والبذخ، والفحش، والتفحش، والحقد، والحسد، والطيرة، والبغي، والعدوان والظلم». وكل ذلك مظهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾، وهكذا أثمر تأديب القرآن لسيدنا محمد ﷺ أخلاقاً وأفعالاً لم تجتمع لبشر قط قبله، ولا تجتمع لبشر بعده. ولم نسمع لأحد قط صبراً كصبره، ولا حلماً كحلمه، ولا وفاء كوفائه، ولا زهداً كزهده، ولا جوداً كجوده، ولا نجدة كنجدته، ولا صدق لهجة كلهجته، ولا تواضعاً، ولا علماً، ولا ثباتاً، ولا عفواً كتواضعه وثباته وعفوه[١].

أما عن كرمه ﷺ ففي الصحيحين عن جابر بن عبدالله قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا. أما عن تواضعه ﷺ فعن أنس أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: يا سيدنا وابن سيدنا. فقال رسول الله: «**يا أيها الناس، قولوا: لا، بقولكم ولا يستهونكم الشيطان، أنا محمد بن عبدالله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله**». وقال البيهقي عن عمرة قلت لعائشة: ما كان يعمل رسول الله ﷺ في بيته؟ قالت: كان رسول الله ﷺ بشراً من البشر يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه.

في ذكر مزاحه ﷺ قال الترمذي عن الحسن قال: أتت عجوز النبيّ ﷺ فقالت: يا رسول الله ادعُ لي أن يُدخلني الله الجنة. قال: «**يا أم فلان، إن الجنة لا يدخلها عجوز**»، فولَّت العجوز تبكي، فقال: «**أخبروها إنها لا تدخلها وهي عجوز، فإن الله تعالى يقول**: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝٣٦﴾» [الواقعة: ٣٥، ٣٦]. أما شجاعته ﷺ فإنه كان من أشجع الناس وأصبر الناس وأجلدهم، ما فرَّ قط من مصاف ولو تولى عنه أصحابه، قال بعض أصحابه: كنا إذا اشتد الحرب وحمي الناس، نتقي برسول الله ﷺ[٢].

وأما عن زهده ﷺ فالأحاديث كثيرة فيما رواه الإمام أحمد والبخاري وأخرجه النسائي عن ابن عباس: أن الله أرسل إلى نبيه ملكاً من الملائكة معه جبريل، فقال الملك لرسوله: «إن الله يخيرك بين أن تكون عبداً نبياً

(١) محمد ﷺ المثل الكامل، محمد بك ص٣٥١ ـ ١٥٤.
(٢) شمائل الرسول، لابن كثير ص٨٦ ـ ٩٢.

وبين أن تكون ملكاً نبياً»، فالتفت رسول الله إلى جبريل كالمستشير له، فأشار جبريل إلى رسول الله «أن تواضع» فقال رسول الله ﷺ: «**بل أكون عبداً نبياً**».

أما ما ورد في ذكر أخلاقه وشمائله فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ الآية [الأنعام: ١٢٤]. وقال تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ١ ـ ٤]. روى الإمام أحمد عن الحسن البصري قال: وسئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن».

❋ ❋ ❋ ❋

ذكر ما أنزل الله تعالى في القرآن الكريم من فضائله ومنزلته ﷺ

إن الله تعالى بعثه للعالمين رحمة فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. فأمن أعداؤه مدة حياته ﷺ فيهم وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣]. ومن فضائله ﷺ إخبار الله عزَّ وجلَّ عن إجلال قدر نبيه وتبجيله وتعظيمه، وذلك أنه ما خاطبه في كتابه العزيز إلا بالكناية التي هي النبوة والرسالة. وخاطب غيره من الأنبياء بأسمائهم ولم يذكرهم بالكناية، والكناية، عن الاسم غاية التعظيم. فقال عزّ من قائل لنبيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥] الآية. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤] الآية. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١] الآية. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ﴾ [المائدة: ٦٧] الآية.

ففي آيات كثيرة خاطب الله تعالى آدم ومن دونه من النبيين بأسمائهم. قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] الآية. ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾

[هود: ٤٨] الآية. ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ [هود: ٧٦] الآية. ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤] الآية. ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ﴾ [المائدة: ١١٠] الآية. ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [ص: ٢٦] الآية. ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾ [ص: ٣٤] الآية. ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ [مريم: ٧] الآية. ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [مريم: ١٢] الآية. فكل أولئك خوطبوا بأسمائهم.

فكل موضع ذكر الله تعالى محمداً باسمه أضاف إليه الرسالة فقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞۚ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ﴾ [آل عمران: ١٤٤] الآية. ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ٢٩] الآية. ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٠] الآية. ثم جمع الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [آل عمران: ٦٨] الآية. ثم قدّمه في الذكر من تقدمه في البعث فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣] الآية. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ﴾ [الأحزاب: ٧]، قال ﷺ: «**كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث**»(١).

ومن فضائله ﷺ أن الناس نهاهم الله عزَّ وجلَّ أن يخاطبوا رسول الله باسمه، وأخبر تعالى عن سائر الأمم أنهم كانوا يخاطبون أنبياءهم ورسلهم بأسمائهم كقولهم: ﴿يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف: ١٣٨] الآية. ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ [المائدة: ١١٢] الآية. ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ [هود: ٥٣] الآية. قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور: ٦٣] الآية. فندبهم الله إلى تكنيته بالنبوة والرسالة ترفيعاً لمنزلته وتشريفاً لمرتبته وخصّه الله بهذه الفضيلة من بين رسله وأنبيائه.

ومن فضائله ﷺ أن مَن تقدمه من الأنبياء عليهم السلام كانوا يدافعون

(١) الجامع الصغير، للسيوطي ج٢ ص٩٧.

ويردون عن أنفسهم ما يتهمهم به مكذبوهم. قال تعالى فيما أخبر عن قوم نوح: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ [الأعراف: ٦٠]. فقال دافعاً عن نفسه: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ [الأعراف: ٦١] الآية. وقولهم لهود: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦] الآية. فقال نافياً ذلك عن نفسه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: ٦٧] الآية. وتولّى الله عزَّ وجلَّ نبيه ﷺ فنزّهه عما نسبوه إليه تشريفاً له وتعظيماً فقال تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم: ٢] الآية. وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩] الآية. وقال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ [النجم: ٢] الآية.

ومن فضائله ﷺ أن الله تعالى خاطب داود عليه السلام بأن لا يتبع الهوى. قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]. وأخبر الله تعالى عن رسول الله ﷺ بعد أن أقسم بمساقط النجوم وطوالعها ونزول القرآن ومواقعه أنه لا ينطق عن الهوى. قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [النجم: ٣] الآية. تبرئة له وتنزيهاً عن متابعة الهوى.

ومن فضائله ﷺ أن كل نبيّ ذكر الله تعالى حاله وأنه غفر له ما كان منه، فقال تعالى في قصة موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: ٣٣] الآية. وقال: ﴿إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: ١٦]. وأخبر الله تعالى عن داود إذ تسوّر عليه الملكان فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [ص: ٢٣] الآية. فقال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [ص: ٢٤، ٢٥] الآية. وأخبر الله تعالى عن غفران نبيه ولم ينص على شيء من زلله إكراماً له فقال عزّ من قائل: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] الآية. فهذه الآية غاية الفضل والشرف. ومن فضائله ﷺ أن الله تعالى قرن اسمه باسمه في كتابه العزيز عند ذكر طاعته ومعصيته وفرائضه وأحكامه ووعده ووعيده. قال عزّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩] الآية. ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] الآية. ﴿إِنَّمَا

جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٣] الآية. ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣] الآية. ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١] الآية. قرن الله جلّ جلاله اسمه باسمه في هذه الأحكام والأحوال تعظيماً له ﷺ.

وقد بعث الله تعالى رسوله ﷺ إحساناً إلى كل العالمين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] الآية، أي: من أهل بلدهم. وقال تعالى يثني على أخلاق رسول الله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤]. وليس بعد ذلك ثناءً، فإن حسن الخلق أعظم ما يتحلى به الإنسان. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦]. إن صلاة الله تعالى على رسوله رحمته وحسن ثنائه عليه، والصلاة من الملائكة دعاء واستغفار ومن الله رحمة، وفيه تعظيم النبيّ ﷺ(١).

❁ ❁ ❁ ❁

الثناء على خاتم الأنبياء والرسل سيدنا محمد ﷺ في الآيات القرآنية

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد الذي شرحت صدره وطهّرته تطهيراً، والذي بعثته للمؤمنين نعيماً وعلى الكافرين سعيراً، وخاطبته بقولك: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩] الآية. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمدٍ الذي بشَّر به المسيح والكليم ودعوة أبيه إبراهيم وهي قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أوليته في الدنيا عزاً مشهوداً وفي الآخرة مقاماً محموداً، والذي فضّلته هو وأمته في المحشر بجعله شهيداً عليهم وجعلهم على الناس

(١) دلائل النبوة، للأصفهاني ج١ ص٥ ـ ١٢.

شهوداً، وجعلت أمته واسطة عقد الأمم وخاطبتهم بقولك: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] الآية. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أرسلته إلى الناس كافة فربح به أهل الحق وخسر المبطلون، والذي مننت به على أمته وإن له عندك لأجراً غير ممنون فقلت: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: ١٥١]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد المبعوث بالآيات البينة والحق المبين الذي أنزلت عليه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: ٢٥٢].

اللّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد، موصل متبعيه إلى محبتك ومغفرتك وجنات النعيم، المخاطب بقولك: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمدٍ خير الخلائق ونبيّ الأنبياء ورسول المرسلين، الذي أخذت له الميثاق عليهم تشريفاً لهم وتكليفاً لأممهم المتأخرين، فقلت: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي بعثته بالصدق والرفق واللين الذي قلت في حسن معاشرته للمؤمنين: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد نعمتك الكبرى على العالمين الذي قلت ممتنًّا به على المؤمنين: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]. اللّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي جعلت فضله يوم القيامة للعالمين مشهوداً، والذي أعطيته لواء الحمد وجعلته لك حامداً، ومنك ومن جميع الخلائق محموداً، والذي خصصته في المحشر بالشفاعة العظمى والشهادة على

أمته والأنبياء، ولم تجعله إلا على أممهم شهوداً، وقلت له في ذلك: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي نفيت الإيمان عمن لم يرضَ بحُكْمِه وأقسمت على ذلك بقولك: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد أفضل الخلق وأحبهم إلى مولاه الذي جعلت طاعته طاعتك فقلت: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي آتيته فضلاً كبيراً وخلقاً عظيماً، والذي ختمت به الأنبياء وعممت بعثته تعميماً، وأرسلته إلى الناس كافة وحكَّمته فيهم تحكيماً فقلت: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: ١٠٥]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي علّمته ما لم يكن يعلم والذي قلت في حقه تعريفاً وتشريفاً: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي جمعت له بوحيك ما تفرق في النبيين وقدّمته عليهم وإن جاء أخيراً، فقلت له: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أيدته على أعدائه تأييداً، وجعلته للخلائق سيداً ولك وحدك مسوداً، والذي شهدت بصدقه وجعلت ملائكته له شهوداً، فقلت: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أقمت به على أهل الكتاب الحجة، وبيّنت به لهم المحجة، وأنت العزيز الحكيم، فقلت: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة:

١٥، ١٦]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد البشير النذير، المقصود بقولك: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾ [المائدة: ١٩]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أنجزت له ما وعدته من العصمة بقولك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [المائدة: ٦٧].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي بشرت به في التوراة والإنجيل ووصفته بكل وصف جميل، ووعدت أهل الكتاب على اتباعه، فقلت: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي فاز بتصديقه المهتدون، والذي عمّت رسالته لقولك: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي قلت له إذ أمنته مكر الكافرين: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد هادي المؤمنين الذي لم تعذب المشركين حتى خرج من بينهم بمساويهم لقولك: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي سعد بموافقته المؤمنون، وشقي بمخالفته الكافرون، والمنزل عليه قولك وفيه وعد بالإنجاز مقرون: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ

كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أيده وحماه، وخذل الله من عانده وعاداه، والذي نصره الله وآواه، فقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد مبشر المؤمنين بجنات النعيم، ومنذر الكافرين ميزان الجحيم، والذي أنزلت عليه: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة: ٦١]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الجواد العطوف الحليم، الموصوف بقولك: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد صفوة الأصفياء، والمبعوث بالحق، الحاكم بالصواب، المشهود له بقولك: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: ٤٣].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الأمين المأمون، الذي أقسمت بحياته فقلت له: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي خصصته بآياتك البينات وذكرك الحكيم، والذي أنزلت عليه في كتابك الكريم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: ٨٧].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد المؤتمن المأمون المبين لأمته ما ينجيها من عذاب الهون، المنزل عليه قولك: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي بيَّنَ بالقديم والحديث ما كان وما يكون، والذي قلت له: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ

وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل: ٦٤]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الشاهد على أمته ومزكي المرسلين، المخاطب بقولك: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد إمام النبيين والمرسلين وقدوة العلماء، وهادي المؤمنين إلى الحق المبين، العامل بقولك: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي شرَّفتَهُ بالإسراء مع خير سفير، وقدّمته على الأنبياء فكان لهم نعم الإمام، والذي أنزلت عليه لبيان هذا الفضل الكبير: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أعطيته يوم القيامة لواء الحمد فكان لك حامداً ومنك محموداً، والذي مجَّدْتَه بالشفاعة العظمى وهي المقام المحمود، وقلت في ذلك: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي جعلته سيداً على العالمين، واتخذته عبداً خالصاً لك، الخائف منك مع كونه أميناً ولفضلك شكوراً، المخاطب بقولك: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾ [الإسراء: ٨٦، ٨٧]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد أفضل مَن كبَّرك تكبيراً، وأكمل مَن كان لك حامداً شكوراً، الذي أنزلت عليه القرآن فبشَّر مؤمناً وأنذر كفوراً، إذ قلت له: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الإسراء: ١٠٥].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي عزّ عليه أن أحداً من قومه يشقى، الذي ما ترك في عبادتك من وسعه شيئاً وما أبقى، والذي أنزلت عليه رحمة به ورفقاً: ﴿طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾﴾ [طه: ١، ٢]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد أكثر العالمين حمداً لك وشكراً، وأطوع

الطائعين لك نهياً وأمراً، الذي أنزلت عليك: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ [طه: ٩٩].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي رحمتَ به الخلق أجمعين، المخاطب بقولك: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أنذر الناس وبيَّن لهم أحسن تبيين، المأمور بقولك: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الحج: ٤٩]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أرسلته بدينك الحق وشرعك القويم، وخاطبته بقولك: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الحج: ٦٧]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد خير نبيّ جال بالجهاد في ديار الشرك وجاس، والذي زكيتنا به وطهرتنا من الأرجاس، وقلت لنا في ذلك: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ ۖ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٨] الآية.

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد المرسل لكافة الأمم الذي قلت له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ [المؤمنون: ٧٣].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي طهّرته من كل خُلُقٍ ذميم، والذي جمّلته بكل وصفٍ جميل وطبع كريم، الذي علّمت أصحابه حسن معاملته بقولك: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٢، ٦٣].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أعم المرسلين إنذاراً وتبشيراً، وأنزلت قولك: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد المخصوص بالآيات البينة والذكر الحكيم، المنزل عليه قولك: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ [النمل: ٦]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد النبيّ الأمي سيد أهل الإيمان واليقين، والزهّاد والمتوكلين، المخاطب بقولك: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [النمل: ٧٩].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي به قد أفلح المؤمنون، وخسر الكافرون، وعمي عن آياته الجاحدون، المنزل عليه قولك: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٦٧-٧٠]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي جعلت حظه فائتاً لجميع الأنبياء وقدّمته عليهم وهو آخرهم بقولك: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي ختمت به النبيين، والذي أنزلت عليه قولك تعظيماً لشأنه وتفخيماً: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي جمعت له أوصاف الشرف بقولك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي شرحت صدره ورفعت ذكره ومنحته فضلاً كبيراً وخلقاً عظيماً، الذي خصصته دون سائر الأنبياء بخصوصية هذه الآية تشريفاً له وتكريماً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي جعلت من يؤذيه في الدارين

لعيناً، فقلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أمر بصدقه وشهد بحقه من علماء أهل الكتاب كل ذي قلب رشيد ورأي سديد، المخاطب بقولك: ﴿جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٨]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أرسلته لجميع الناس المخصوص بقولك: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: ٢٨].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أقسمت على رسالته بقولك في الذكر الحكيم: ﴿يَٰسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [يس: ١ ـ ٤].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أغنيتَه عن جميع العالمين، والبريء من التكلُّف في الدنيا والدين، المأمور بقولك: ﴿ص ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ ۖ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۖ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ١ ـ ٢٩].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد أعبد العباد المخلصين، وأسعد العباد أجمعين، الذي أنزلت عليه قولك: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾﴾ [الزمر: ٢]. وقولك: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر: ١١، ١٢]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد سيد الخلق الذي هدى بأنوار كتابك أهل الغرب والشرق، الذي قلت له: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزمر: ٤١].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد صفوة المرسلين والنبيين، وقدوة العلماء ونخبة المؤمنين، المنزل عليه قولك: ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ [غافر: ٦٦].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد أفضل من شكرك ونصرك، المستقيم كما أمرته، بقولك: ﴿ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [الشورى: ١٥] الآية.

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد المبعوث بالدين القَيِّم والشرع القويم، المخاطب بقولك: ﴿ مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا مُّسْتَقِيمٍ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف: ٤٣].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الصادق المأمون، المشرقة شموس آياته وإن جحدها الكافرون، المنزل عليه قولك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [الحج: ٤٩ ـ ٥١]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد صاحب الشريعة الجامعة لما شرعه النبيون، الذي قلت له: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أرسلته بالحق صادقاً أميناً، ومكَّنتَ له بالفتح المبين والنصر العزيز تمكيناً، وأنزلت عليه قولك: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ [الفتح: ١ ـ ٣]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي بعثته لعبادك بالشهادة والبشارة والنذارة رسولاً، فقلت له: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: ٨، ٩]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي جعلت مبايعة أصحابه له مبايعة لك ترضيه وترضيهم، فقلت له: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح: ١٠] الآية. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أظهر الله دينه على الأديان كلها، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي وصفته وأصحابه بالشدة على الكفار والرحمة بينهم تعريفاً وتكريماً، فقلت: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ

أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ . . .﴾ [الفتح: ٢٩] الآية.

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي تعلم الأدب معه من كتابكَ المؤمنون الذي كان أصحابه يحدثونه بخفض الصوت وهم لحديثه سامعون، لقولك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ١، ٢]. وصلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أثنيت على الذين يَغُضُّونَ عنده أصواتهم، والذي وبّخت من أساء الأدب معه، فقلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [الحجرات: ٣ ـ ٥].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد أعلمنا بالله وشرائعه وأعملنا، وخيرنا من كل الوجوه وأفضلنا، المخصوص بقولك: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ [الطور: ٤٨، ٤٩].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد عبدك المصطفى، وسيد كل الورى المخصوص بالمعراج إلى السماوات العلا والمقام الأُلى، الذي أنزلت عليه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: ١ ـ ١٨].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي علّمت المؤمنين الأدب في معاملته لبيان قدره، فقلت: ﴿مَعَهُۥ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ۝٧ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝١١ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ۝١٢ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ۝١٣ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٓتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ۝١٤ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ۝١٥ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن فَرَرۡتُم مِّنَ ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝١٦ قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ۝١٧ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ۝١٩ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢٠ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ۝٢١ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ۝٢٢ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ۝٢٣ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٢٤ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ۝٢٥ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ۝٢٦ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ۝٢٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٢٩ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ۝٣٠ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ۝٣١ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ۝٣٣ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝٣٤ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٣٥ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ۝٣٦ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ۝٣٧ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ۝٣٨ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ۝٣٩ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ۝٤٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٤٢ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ۝٤٣ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ۝٤٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ۝٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۝٤٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۝٤٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٥٠ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ۝٥١ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ۝٥٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ۝٥٣ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ۝٥٤ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۚ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ۝٥٥ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ۝٥٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ۝٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٥٩ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٦٠ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ۝٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ۝٦٢ يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ۝٦٥ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا ۝٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ۝٦٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ۝٦٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ۝٧١ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ۝٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٧٣﴾ [الأحزاب].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي خصصته بخير دين وخير كتاب، الذي أوجبت على الناس طاعته، فقلت: ﴿هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ۝١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ۝١٣ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ۝١٦ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ۝١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝١٨ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٢ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٤ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَ

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أثنيت عليه بقولك: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ١ ـ ٤].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد أفضل الخلق الذي جعلت سيد الملائكة جبريل سفيراً إليه بالرسالة والذكر المبين، الذي نفيت عن كلامه الريب بالثناء عليه وعلى هذا السفير الأمين، بقولك: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢٤].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي وقيته أنواع الردى، والذي بلّغته غايات المنى المصطفى، المخاطب بقولك: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [سورة الضحى].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي أوليته خيرك وبرك وألهمته حمدك وشكرك وذكَّرْتَهُ نعمك إذ أنزلت عليه ذكرك، المخاطب بقولك: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [سورة الشرح].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد المخصوص بالحوض والكوثر والشفاعة العظمى في المحشر، المخاطب بقولك: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [سورة الكوثر].

اللَّهمَّ صلِّ وسلّم على سيدنا محمد الذي نشرت ذكره في الكتب السماوية كالزبور والتوراة والإنجيل. والذي سمّيته المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ويشكر ويصبر. الذي لم تقبضه حتى أقمت به الملّة العوجاء، وفتحت به أعيناً عمياً وآذاناً صمًّا وقلوباً

غلفاً. وسَدَّدْتَهُ لكل جميل ووهبتَ له كل خلق كريم وجعلت الهدى إمامه، والإسلام ملّته، والسكينة لباسه، والبِر شعاره، والتقوى ضميره، والحكمة مقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته. والذي هديت به بعد ضلالة، وعلَّمْتَ به بعد الجهالة، وأكثرتَ به بعد القلة، وجمعتَ به بعد الفرقة، وألَّفت به بين قلوب متفرقة وأهواء مشتتة وأمم مختلفة، وجعلتَ أمته خير أمة أُخرجت للناس. وصلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

الفصل الثامن
جِبِلَّة اليهود وأطماعهم

النشأة التاريخية لليهود

لقد كانت البداية الأولى في العراق بعد أن قذفت الجزيرة العربية من أحشائها أفواجاً من البشر في اتجاه منطقة الهلال الخصيب. وحوالى عام ١٨٠٠ قبل الميلاد كانت مجموعات من هذه الأفواج قد استطاعت أن تستقر في العراق لتؤلف دولة يذكرها التاريخ باسم دولة «الكلدانيين»، والتي قامت على أساس من علاقات الصراع التي يعمل لها مجموعة من الرجال المتسلطين، والذين انتزعوا لأنفسهم كهانة دينية وسيادة سياسية وسط هذا الجو الاجتماعي، نشأ النبيّ إبراهيم عليه السلام في أرض «أور» الكلدانية يحمل مهمة الدعوة إلى قضية العدل الاجتماعي التي آمن بها. وحتى يكون قد هيئ لحمل رسالة دينية أعم، وهو أن يوجه الدعوة الإلٰهية للناس عن طريق الإيمان والارتباط بقضية العدل ليصبح طريق رسالة الله الدينية متصلاً بآمال الناس. ولما أحسّ الكلدانيون إن إبراهيم النبيّ الرسول يشكل خطراً عليهم وعلى أسلوب حياتهم، وبعد أن ابتدأت جموع كبيرة من الناس تتحمس لدعوته، دخل الكهنة والسادة في معركة تحديات أوشكت في بعض مراحلها أن تقضي على حياته لولا أنه معدٌّ من قبل ربه لكي يواصل رسالته.

فبعد رسالة إبراهيم عليه السلام إلى قومه، والتي قصّها القرآن الكريم،

ومنذ حوالى عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد، كانت هجرات متوالية ذهب بعضها إلى الساحل اللبناني وعرفوا بـ«الفينيقيين»، وذهب البعض الآخر إلى الجزء المنخفض من أرض بادية الشام وتسمُّوا باسم «الكنعانيين» نسبة إلى أرض كنعان، أي: الأرض المنخفضة أو الكانعة حسبما تفيد الدلالة اللغوية في اللغة العربية.

وقد بدأت رحلة إبراهيم عليه السلام ومَن معه من الذين آثروا أن يرحلوا بما آمنوا به إلى فلسطين، من أعالي العراق حدثت هجرة مرحلية تمثل مجموعة من موجات حركة انتقال بعض القبائل إلى بادية الشام وتسمى باسم «العبرانيين» وهذا الاسم صفة لهم نسبة إلى عبورهم الصحراء أو لعبورهم نهر الأردن أو نهر الفرات. ولما قدم إبراهيم عليه السلام وبمن آمن معه إلى أرض فلسطين لم يطب له المقام بها لعدم تقبُّل الكنعانيين دعوته وعدم قبوله بينهم. وذلك لأن بعض الجماعات العبرية التي اعتادت على السطو والإغارة، والتي لم يتيسر لها أن تستقر في مكان بعينه ولم تكتسب من آداب الاستيطان بينهم، كان فيهم مَن يدعو إلى قِيَم جديدة، ولذا اعتزلهم الكنعانيون. فلما جاء إبراهيم عليه السلام بالدعوة الدينية اعتبره الكنعانيون واحداً من العبرانيين ولم يستجيبوا له(١).

وربما كان من المفاجآت عند بعض الناس أن يقال لهم: إن إبراهيم عليه السلام كان عربياً، وأنه يتكلم العربية. ولكنها الحقيقة التاريخية التي لا تحتاج إلى فرض غريب، أو تفسير نادر غير ترجمة الواقع بما يعنيه. وإنما الغريب أن يحيد مؤرخ عن هذه الحقيقة لينسب إبراهيم عليه السلام إلى قوم غير قومه الذي هو منهم في الصميم(٢).

وقد أحسّ إبراهيم عليه السلام عصبية القوم ورفضهم قبول ما يدعو إليه لالتصاق صفة العبريين به، والذين لم يمثلوا أخلاق إبراهيم ولم يكونوا معبرين عن دينه. فإن الحروب التي نشأت بين العرب سكان فلسطين

(١) تاريخ اليهود العام، صابر طعيمة ج١ ص٥ ـ ١٧.
(٢) إبراهيم أبو الأنبياء، عباس محمود العقاد ص١٢١.

والعبريين لم يكن إبراهيم عليه السلام يمثلها. وقد قرّر عليه السلام هو ومجموعات من الذين يواصلون الرحلة معه أن يتجه إلى مصر تخلصاً من الجدب الذي أصاب البادية بالقحط والكساد. ومن نتائج رحلة إبراهيم عليه السلام إلى مصر أن قدم إليه من الهدايا فتاة مصرية اسمها «هاجر»، ثم واصل إبراهيم عليه السلام رحلته إلى أرض كنعان «فلسطين» مرة ثانية، وتزوج من هاجر. وعقب طلب إبراهيم عليه السلام رجائه من ربه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: ١٠٠]، قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ١٠١]. هذا الغلام هو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام الذي أصبح أبا العرب وسيداً لهم. يقول الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: ١١٢]، الولد الثاني بعد إسماعيل لإبراهيم عليه السلام من زوجته سارة. قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء: ٧٢]. فيعقوب بن إسحاق عليه السلام الأب لأبناء إسرائيل واليهود من بعدهم. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣]. فجميع أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام من أبناء يعقوب الذي هو إسرائيل.

ودلالة التسمية باليهود أن يعقوب نبّه أولاده وأوصاهم بأن يكونوا تحت قيادة أخيهم يهوذا الولد الرابع له، ولم يكن الإخوة العشرة يدينون له بولاء واحد، بل يذعن له بالولاء بعضهم. فلما تولى أمرهم أطلقت لفظة «يهوذا» على أولئك الذين رضوا بأن يكونوا تحت لواء يهوذا. وعندما نطق العرب الكلمة «يهوذا» أبدلوا الذال بالدال، ومن تاريخها ـ عصر أبناء يعقوب ـ أصبحت تنطق لفظتي «الإسرائيليون واليهود» وهو ما يستفاد بالرؤية العلمية من السياق العام لآيات التوراة. إلا أن أحد المفكرين الإسلاميين «الشهرستاني» يقول عن اليهود واليهودية: «إنها دين انتسب إليه بنو إسرائيل في عصر موسى عليه السلام»، من قول: «هاد الرجل» أي: رجع وتاب، وإنما لزمهم هذا الاسم لقول موسى: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾، أي: رجعنا وتضرّعنا[1].

(١) تاريخ اليهود العام، صابر طعيمة ج١ ص١٧ ـ ٣٤.

تحدد التوراة مولد «إبرام» إبراهيم عليه السلام بعام **١٩٩٦** قبل الميلاد. ولا شك أنه عبراني آرامي، فالتوراة تزعم أن العبرانيين ينحدرون من نسل عابر بن فالج بن أرفخشد بن سام بن نوح. ويؤثر فريق من المؤرخين إرجاع هذه التسمية إلى عبور الصحراء، أو عبور النهر، على أساس أن القبائل كانت تسكن جزيرة العرب منذ القدم. وكانت تعبر الصحراء العربية في سني القحط والجفاف، إلى أنهار الهلال الخصيب. ومن كلمة العبور هذه جاءت كلمة «العبرانيين والعرب». وقد أصبحت هذه التسمية عامة شاملة، تطلق على كل من يعبر الصحراء إلى الهلال الخصيب ووادي النيل، من جزيرة العرب. عبر أهل إبراهيم جزيرة العرب إلى نهر الفرات، واستقروا في مدينة «أور» الكلدانية بجنوب العراق. فاعترض إبراهيم عليه السلام على عبادة قومه، وأفحم «النمروذ» ملكهم عندما حاجه، فتعرض لمحاولة الإحراق، فهاجر مع قلة من أهله وأتباعه فراراً بدينه حتى استقر بمدينة «حران» ثم رحل إلى «شكيم» نابلس، إلى أن استقر به المقام في «حبرون» الخليل[١].

ولإبراهيم عليه السلام ولدان: إسماعيل من زوجته هاجر، تزوج من رعلة الجرهمية، فولدت له نسلاً في الحجاز، و«إسحاق» من زوجته سارة. وتزوج من «رفقة» فولدت له توأمين هما عيصو ويعقوب. وتزوج يعقوب الملقب بإسرائيل ببنتَيْ خاله «ليئة، وراحيل»، كما تزوج من جاريتيهما «بلهة، وزلفة» فأنجبن له ستة أسباط هم: «روبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وزبولون، ويساكر»، و«راحيل» أنجبت له سبطين هما «يوسف، وبنيامين». و«بلهة» أنجبت له سبطين هما «جاد، وأشير». ومن هؤلاء الأسباط الاثني عشر تحدّر بنو إسرائيل. فبنو إسرائيل إذن هم نسل أسباط يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الاثني عشر.

واليهود نسبة تنسب إلى «يهوذا» السبط الرابع ليعقوب عليه السلام، وهو

(١) العرب واليهود في التاريخ، أحمد سوسة ص٥٥، ١١٧، ٢٤٢.

الذي أشار على إخوته بإلقاء يوسف في الجب، واتهام الذئب بدمه. أما اليهود فإنهم أتباع التوراة والتلمود، وغيرهم من الأمم الأخرى الذين اعتنقوا الديانة اليهودية ينحدرون من أصول وأجناس مختلفة. لقد حاول اليهود هدم الفوارق والحدود بين هذه التسميات: «العبرانيين، وبني إسرائيل، والساميين»، لا لسبب إلا لأنهم أرادوا أن يُدْخِلُوا في روع الناس أنهم جميعاً من نسل أسباط يعقوب عليه السلام «إسرائيل». فهم بذلك الأشراف جنساً، والأصل نسباً، والأصدق ديناً، فهم الأصل وما عداهم من الشعوب ليسوا إلا جداول وروافد تنبع منهم. فهي على ذلك عقد نقص تحكمت في اليهود، منذ أن وجدوا اليهود فغرست فيهم حب التعالي والفخر الزائف[١].

وليس من تعليل لهذه الترهات سوى أن اليهود كانوا يشعرون دوماً بشعور الطفولة، لأنهم كانوا على امتداد تاريخهم الطويل، ضعفاء مستضعفين، لا وزن لهم في نظر من كانوا ينزلون في كنفهم، ويحتمون بحرابهم، فعوّضوا عن ذلك بفخر زائف، ولذلك كرههم الناس ونبذوهم. ولهذا طاردهم التاريخ، منذ أن حاولوا تسلُّق التاريخ، وعزلهم حقدهم وإجرامهم منذ أن حلُّوا بين الناس[٢].

ومن المتفق عليه أنه ليس لليهود مراحل طويلة من التاريخ فيها استيطان تاريخي في بقعة من الأرض يلقون عليها، وهذه سمة بارزة في تاريخهم. ولم يزل اليهود في هجرتهم من موطن بين العراق وحوران وكنعان يعيشون إلى جوار القبائل ولا يتغلبون على واحدة منها في وقعة فاصلة حتى لجأوا إلى مصر، وعادوا منها بعد قرون إلى الأرض التي زعموا أنها «أرض الميعاد» وإن لم يتفقوا على حدودها[٣].

ويعتبر العبرانيون أن المدة التي قضوها في مصر محنة المحن في

(١) جذور الفكر اليهودي، داود سنقراط ص١٤ ـ ١٨.
(٢) خطر اليهودية العالمية، عبدالله التل ص٢٢.
(٣) العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود، د. علي حسني الخربوطلي ص١٤.

تاريخهم كله ولكنهم يغالطون. فهم لم يستفيدوا قط من هجرة في تاريخهم كله كما استفادوا من هجرتهم إلى مصر، حيث نعموا بالحياة الرغدة وبجو صحي زاد من عددهم، ونهلوا من مناهل الحضارة المصرية مما زاد في خبرتهم بتدبير أمورهم والدفاع عن أنفسهم. فأصبحوا يمارسون الزراعة كما أحسنوا حمل السلاح بحيث أصبحوا قادرين على منازلة قبائل البادية التي عجزوا طوال خمسة قرون على مناهضتها مما اضطرهم إلى الاعتصام بمصر. ولولا هذه الزيادة في عددهم وفي خبرتهم لما استطاعوا أن يقاتلوا قبائل البادية التي كانوا يهابونها ويهربون منها، ولاستطاعوا أن يهزموها ويطردوها من مواقعها إذا اجترأوا على قتالها. ولا تأتي لهم من دواعي الاستقرار في أرض كنعان ما يعينهم على إقامة الملك وبناء الهياكل من الحجارة بدلاً من العرائش والخيام[١].

بعد هجرة يعقوب عليه السلام إلى «بابل» حيث أقام عند خاله عشرين سنة عاد إلى فلسطين، واشترى أرضاً في «أورشليم» وابتنى مذبحاً سمّاه «بيت إيل» وهو بيت المقدس. وأصاب البلاد أثناء وجوده قحط شديد، فغادرها وقومه في سنة ١٤٠٠ق.م إلى مصر حيث تكاثروا فيها. وفي مصر أحاطهم يوسف عليه السلام برعايته، وأكرمهم فرعون إذ رأى يوسف يهتم بهم، وتذكر التوراة أن هذا الإكرام والاهتمام أدى إلى زيادة عددهم وثروتهم. وعاش بنو إسرائيل في مصر في عزلة وابتعدوا عن الاختلاط بالشعب المصري، فهم في كل زمان ومكان يميلون إلى الانعزالية مما لا يوجد الألفة والتفاهم بينهم وبين سائر الشعوب، فقد تولى العرش في مصر فرعون جديد، فبدأ الخطر يتهدد بني إسرائيل فقد أوجس الفرعون الجديد منهم خفيفة، فتقول التوراة: «ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف عليه السلام، فقال لشعبه: هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر منا، هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدث حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض».

(١) الثقافة العربية، العقاد ص٥٩.

كان فرعون مصر قد نظر إلى بني إسرائيل نظرة ريبة وشك، فقد خشي أن ينضموا إلى الأعداء إذا دخلت مصر حرباً. فقد كانت أنظار الإسرائيليين وعواطفهم تتجه دائماً إلى خارج مصر، وليس إلى داخلها. كما أنهم اعتادوا ألاّ يعيشوا في ظل حكم سياسي إلا واستغلوه لتحقيق مطامعهم الاقتصادية(١).

التفت بنو إسرائيل حول موسى عليه السلام وهو بمصر للخلاص من استعباد المصريين، ولذلك لم يكادوا يتحققون من نجاتهم من فرعون حتى شغبوا على موسى. إن بني إسرائيل ثاروا على الحكم المصري بمصر لما أحسوا أنهم فقدوا امتيازاتهم التي كانوا ينعمون بها خلال عهد العماليق. وقد كرر بنو إسرائيل موقفهم هذا ضد موسى لما أفقدهم حياة الرخاء بمصر وجاء بهم إلى البرية، التي فقدوا بها ما كانوا ينعمون به من خيرات، فالحرية عندهم لم يكن لها جزاء. وفي بعض أماكن البرية لم يجدوا ماء فخاصم الشعب موسى وتذمروا عليه. وفي الطريق إلى فلسطين ترك موسى بني إسرائيل بناءً على أمر ربه ليصعد إلى جبل الطور ويمكث ثلاثين ليلة صائماً ليتلقى من الله الوصايا والتعليمات، وطالت هذه الليالي فبلغت أربعين. وهنا يتناسى بنو إسرائيل كل معجزات موسى ويعودون إلى طبيعتهم الوثنية، ونزل موسى من الجبل وغضب على قومه لعودتهم للوثنية وعبادة العجل. وكان عقابهم أن تسلط بعضهم على بعض في معارك سقط فيها عدة آلاف. وبدأ موسى عليه السلام يسير بقومه تجاه فلسطين، وكان قد شاع بين الناس غدر بني إسرائيل وتآمرهم ضد البلاد التي ينزلونها. فلم تعد فلسطين مفتوحة لهم كما كانت من قبل، بل وقف أهلها في وجه بني إسرائيل يردونهم عنها. وكان بنو إسرائيل يخافون الحرب.

فقد تمكنت منهم الذلة، فصاحوا بموسى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ۖ فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

(١) المرجع السابق ج١ ص٣٤ ـ ٤٢.

[المائدة: ٢٢]. وبدأت محاولات لإغرائهم بالدخول ووعود بالنصر، ولكنهم أصرُّوا على موقفهم: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: ٢٤]. ولم يستجب لموسى أحد سوى أخيه هارون، فشكا موسى إلى ربه فنزل عليهم حكم الله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۚ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [المائدة: ٢٦]. يقول عبدالوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء: إن التيه هو الذي حدد بأربعين سنة وليس التحريم مطلق أبدي، أي: لن يكون لهم بها استقرار، ومن أجل هذا يوقف في القراءة بعد قوله تعالى: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ﴾.

مات هارون ثم موسى عليهما السلام في فترة «التيه»، وتولى «يوشع بن نون» قيادة بني إسرائيل بعد موسى. فاتجه يوشع بأتباعه إلى شرق نهر الأردن ثم بدأ بعبور الأردن إلى فلسطين، واستولى على مدينة «أريحا». وقد قسم يوشع الأرض التي استولى عليها بين الأسباط[١].

لقد كان موسى عليه السلام وشريعته المنزلة وجهاده المرير ضد فرعون وقومه من أجل تخليص بني إسرائيل من الاستعباد الفرعوني، وقيادته لبني إسرائيل في الخروج من مصر، ودعوته لهم بالالتزام بتعاليم شريعته المنزلة. وكان عصيان بني إسرائيل لموسى وتمردهم عليه وتكذيبهم له وإيذاؤه حتى إنه عليه السلام يئس منهم فطلب فراقهم قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]. وقد سجل على بني إسرائيل في هذه المرحلة قصور أفهامهم وتعصبهم ضد الحق وقسوة قلوبهم وجبنهم المفرط إلى جانب عدوانيتهم وغدرهم، ومركب النقص في تعاملهم مع الأمم والشعوب[٢].

وهكذا بعد توزيع «يوشع» الأرض التي استولى عليها في فلسطين بين

(١) حقيقة اليهود، سعد العفنان ص٣٧ ـ ٣٨.
(٢) مقارنة الأديان اليهودية، د. أحمد شلبي ص٦٧ ـ ٦٩، ١٧٤.

الأسباط، بدأت قصة اغتصاب اليهود لفلسطين. ويمكن تقسيم حياة بني إسرائيل بفلسطين أقساماً ثلاثة متميزة تتلخص في:

❋ ❋ ❋ ❋

عهد القضاة

لم يفتح العبرانيون في أرض الميعاد إلا منطقة التلول الداخلية، ولم يزيدوا عليها شيئاً. أما مدن الساحل فقد استطاعت أن تصمد لهجوم العبرانيين، وظلّ أسباط يعقوب عليه السلام أجيالاً عديدة شعباً مغموراً يعيش في منطقة التلال الخلفية. ومشغولاً بمناوشات لا نهاية لها مع الفلسطينيين وسواهم من القبائل النازلة حولهم. وسفر القضاة الإصحاح الثاني والثالث سجل يسطر كفاحهم، وما أصابهم من نكبات إبان تلك الفترة. وكان حكم اليهود في هذه الفترة قضاة من الكهنة ينتخبهم كبراء الشعب، ولم يكن في بني إسرائيل ملوك في تلك الأيام، ولم تكن إطاعة القضاة واجبة.

لم تتألف من بني إسرائيل أمة واحدة متماسكة، بل ظلوا زمناً طويلاً يؤلفون اثني عشر سبطاً مستقلاً. وكان نظام الحكم عندهم لا يقوم على أساس الدولة بل على أساس الحكم الأبوي في الأسرة. فكان شيوخ العشائر في مجلس من الكبراء هو الحكم الفصل في شؤون القبيلة. فإذا فشل التقاضي أمام هؤلاء لجأ المتقاضون إلى القاضي الذي كان يمثل الرئيس في الجماعات اليهودية. وقد استمر عهد القضاة حوالى أربعة قرون بناءً على حساب سفر القضاة.

وفي هذا العهد وضع حجر الأساس للحياة اليهودية والفكر اليهودي، وقد اشترك في وضع هذا الأساس العناصر الداخلية اليهودية. وعلى هذا بدأت حياتهم تتغير خلال عهد القضاة، فبدأوا ينقلون من حياة البدو إلى حياة الاستقرار. كما بدأوا يعرفون الزراعة بجانب الرعي الذي كان كل

عملهم، وتعلّموا من الكنعانيين بعض التقدم في الصناعة. وبالإضافة إلى هذا التأثر في مطالب الحياة اليومية، فإن الإسرائيليين تأثروا بالكنعانيين في عباداتهم. إن إلٰه الكنعانيين «بعل» كان معبوداً لبني إسرائيل في كثير من قراهم. وفي أحوال كثيرة أصبح للطائفتين معبد واحد، تمثال «يهوه» وتمثال «بعل»، وقد ظلّ ذلك إلى عهد يوشع[١].

واحتل الإسرائيليون بقيادة «يوشع» أريحا ومدن فلسطين الجبلية حتى مدينة القدس، التي كانت قد حمتها أسوارها المنيعة، وأصحابها «اليبوسيون» الأشدّاء. أما ساحل فلسطين من العريش حتى يافا، فقد احتله الفلسطينيون، واستطاعوا أن يقيموا لهم في السهل الساحلي الفلسطيني كياناً مستقلاً. إلا أنهم بعد ما يقرب من قرن ونصف القرن اندمجوا مع الكنعانيين فأصبحوا منهم. لم يحاول «يوشع» أن يتحرش بالفلسطينيين نظراً لتفوقهم الحربي. وبعد موته تحرّش جماعته بالفلسطينيين، فهزمهم هؤلاء، واستولوا على تابوت عهد موسى عليه السلام، الذي كانوا يصطحبونه معهم في الحرب، تيمُّناً به، فنقلوه معهم إلى أسدود. ولم يسترجع تابوت العهد إلا في زمن داود عليه السلام ضمن شروط صلح بينه وبين الفلسطينيين.

وتذكر التوراة: أن اليهود كادوا أن ينقرضوا بعد موت موسى وهارون ويوشع لولا أن قيّض لهم قضاة منهم خلصوهم من أعدائهم. ولم يستطيعوا أن يطردوا سكان فلسطين في هذه الفترة، لذلك سكنوا بينهم. سكنوا بين اليبوسيين في القدس، والحواريين في نابلس، والفرزيين في بيت لحم، والزيديين في يافا. وتزوجوا منهم، وعبدوا آلهتهم الوثنية. لقد طلب اليهود من «صموئيل» آخر كبار القضاة، أن يعين لهم ملكاً أسوة بالممالك الكنعانية والفلسطينية المجاورة، فعين «شاؤول» ملكاً عليهم، وهو من نسل بنيامين شقيق يوسف عليه السلام[٢].

❋ ❋ ❋ ❋

(١) جذور الفكر اليهودي، داود سنقراط ص١٠٨ ـ ١١٠.
(٢) مقارنة الأديان اليهودية، د. أحمد شلبي ص٦٩ ـ ٧١.

عهد الملوك

انهار عهد القضاة أمام مطالب الحياة الملحّة، فقد كان خطر سيطرة الفلسطينيين على اليهود عاملاً هاماً في محاولة جمع الأسباط كلهم في وحدة شاملة بعد ما نالهم من إخفاق في عهد القضاة. وبعد ما شاع من فسق القضاة وأخذهم الرشوة. ولما شاخ «صموئيل» جعل ابنيه قضاة لبني إسرائيل، ولكنهما لم يسلكا طريقه ومالا وراء الكسب والرشوة. فاجتمع شيوخ بني إسرائيل وجاؤوا إلى صموئيل وقالوا له: اجعل منا ملكاً كسائر الشعوب. واختار لهم صموئيل «شاؤول» ليكون ملكاً علهيم، ويسميه القرآن الكريم «طالوت». وبرز له «جلبات» قائد الفلسطينيين الذي يسميه القرآن الكريم «جالوت» وقد استطاع داود عليه السلام أن يتغلب عليه. فأثار ذلك حقد شاؤول عليه، حتى عزم على قتله لئلا يزاحمه على الملك. وانتهز الفلسطينيون فرصة هذا الخلاف فهاجموا بني إسرائيل وقتلوا شاؤول، فاستقر الملك لداود، وبقي الملك وراثياً في عقبه. ومن أبرز أعمال داود أنه استولى على أهم مدن فلسطين وهي «أوسالم أو أورشليم» ومعناها بالكنعانية محل السلام أو مدينة السلام. وكانت المنطقة التي تقع منها هذه المدينة تحت سلطان «اليبوسيين» من القرن الخامس عشر قبل الميلاد، واليبوسيين بطن من بطون كنعان. وقد سميت المدينة «يبوس» خلال مدتهم، ولما استولى عليها داود أعاد اسمها القديم «أورشليم» واتخذها عاصمة له[١]. ولا يستطيع أحد أن يقول: إن أرض الميعاد وقعت يوماً في قبضة العبرانيين، على أن مما وطد مُلك داود عليه السلام وهيأ له شيئاً من الاتساع أن أمور مصر في عهده كانت مرتبكة فخفّت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام. وكانت أمور الدولة الآشورية مرتبكة كذلك، وقد منح هذا شيئاً من حرية الحركة والتبسط وممارسة السيادة[٢].

لقد اتخذ داود عليه السلام من مدينة الخليل عاصمة لمُلكه مدة سبع

(١) العقد الثمين، أحمد كمال ص١٥٢.

(٢) جذور الفكر اليهودي، داود سنقراط ص١١٠ ـ ١١٣.

سنين، ثم استطاع ولأول مرة في تاريخ اليهود أن ينتزع القدس من أصحابها اليبوسيين سنة **١٠٤٩** قبل الميلاد، وأن يتخذها عاصمة لمُلكه. لقد ثار عليه بنو يهوذا في الخليل، بزعامة ابنه «أبشالوم»؛ لأنهم رفضوا أن تنقل عاصمة ملكهم لمدينة غير المدينة التي اعتادوا أن يعيشوا فيها، والتي دفن فيها أجدادهم «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» عليهم السلام.

لقد كان يتردد اسم يوسف عليه السلام قبل ظهور داود عليه السلام بسبب فضل يوسف في إيواء إخوته في مصر. وبعده أصبح يتردد بيت «يهوذا» بصفته بيت الملك بيت داود. أما بيت «لاوي» بيت موسى وهارون عليهما السلام، بيت الكهنة والكهانة، فإنه قد فرض نفسه على جميع المراحل. وما زال اليهود حتى يومنا هذا يعملون على إقامة مملكة يهوذا، عليها ملك من نسل داود حفيد يهوذا. كما أن كبار الحاخامات والكهنة والأحبار ما زالوا ينتخبون من نسل موسى وهارون حفيدَي لاوي على حد زعمهم.

حكم داود عليه السلام مدة أربعين عاماً من **١٠١٠**ق.م ـ **٩٧١**ق.م، سبع سنوات منها في الخليل، والباقي في القدس، بنى له فيها قصراً وهيكلاً عرفا باسمه. وجاء من بعده ابنه سليمان عليه السلام، فازدهرت المملكة في عهده وشاع ذكره في المناطق المجاورة. وحكم سليمان أيضاً مدة أربعين عاماً من **٩٧١**ق.م ـ **٩٣١**ق.م، وبنى لنفسه قصراً وهيكلاً عُرف باسمه. وبعد موت سليمان عليه السلام انقسمت مملكته إلى مملكتين «يهوذا في الجنوب وعاصمتها القدس، وإسرائيل في الشمال وعاصمتها السامرة». فمملكة داود وسليمان عليهما السلام لم تعمر سوى **٧٣** عاماً. لقد كان نجاح داود في تأسيس مملكته نجاحاً محدوداً، وذلك لقصور همّة شعبه عن مجاراة همّته. فلم يكن الشعب الذي حكمه شعباً واحداً متجانساً، بل إنه كان خليطاً متنافراً من: إسرائيليين، وكنعانيين، بينهم جيوب آرامية في الشمال وجيوب فلسطينية في الساحل، وقبائل عربية في الجنوب والشرق. هذا بالإضافة إلى أن الإسرائيليين كانوا متباغضين متحاربين فيما بينهم. أما ابنه سليمان عليه السلام فقد استطاع أن يوطد حسن جوار مع «شينشق» فرعون مصر، الذي زوّجه

من إحدى بناته حتى يؤمن له ميمنته الشرقية عبر سيناء. كما تفاهم مع «بلقيس» ملكة سبأ على كثير من الأمور، ومنها تأمين طريق التجارة البري من اليمن عبر الحجاز إلى فلسطين[١].

❋ ❋ ❋ ❋

عهد الانقسام وزوال ملك بني إسرائيل

بعد وفاة سليمان عليه السلام حوالى سنة **٩٣٥**ق.م أعلن «رحبعام» نفسه ملكاً على دولة يهود، وبايعه سبط يهوذا وبنيامين في «أورشليم» على ذلك. ثم اتجه إلى الشمال لأخذ البيعة من باقي الأسباط، فاجتمع حوله شيوخ بني إسرائيل في «نابلس»، وانضم إليهم أخوة «بربعام» الذي ثار على أبيه وهرب إلى مصر وعاد إلى فلسطين بعد وفاة سليمان. وقد طلب شيوخ بني إسرائيل من «رحبعام» أن يخفف من قسوة سليمان وتضييقه عليهم. إلا أنه أغلظ عليهم في القول، وأن أباه أدّبهم بالسياط وهو سيؤدبهم بالعقارب. ولذلك رفض شيوخ الأسباط في الشمال أن يبايعوه، وبايع الأسباط العشرة «بربعام» ملكاً عليهم. وهكذا انقسمت المملكة إلى مملكتين: جنوبية اسمها «يهوذا» وعاصمتها «أورشليم»، وشمالية اسمها «إسرائيل» وعاصمتها شكيم «نابلس».

غزا «شينشق» فرعون مصر فلسطين، وصعد على أورشليم ونهبها وبسط سيطرته على دولة يهوذا، ثم على دولة إسرائيل وامتد سلطانه إلى الجليل. وقد تعرضت هذه الدولتان إلى الضغط من جهة الشمال للقضاء على القوة اليهودية الدخيلة في المنطقة من جهة، وللمنافسة بين العراق ومصر من جهة. لقد كانت دولة إسرائيل تمثل أغلبية الأسباط، وكانت أوسع رقعة من دولة يهوذا. ولكن دولة إسرائيل كانت مضطربة كثيرة الانقلابات، في حين كانت دولة يهوذا أكثر استقراراً. ومن أجل هذا تغلب

(١) مقارنة الأديان اليهودية، د. أحمد شلبي ص٧٨ ـ ٨٠.

على مملكة إسرائيل، ملوك من أسر متعددة، وتغيرت عاصمتها أكثر من مرة. أما يهوذا فقد ظلّ الملك بها في سلسلة من ذرية سليمان، وظلت عاصمتها «أورشليم»، وتساوى عدد الملوك هنا وهناك، وكان عددهم **١٩** ملكاً[١].

بقيت المملكتان «يهوذا وإسرائيل» في حرب متواترة فيما بينهما، ومع الشعوب والممالك المجاورة لهما حتى غزا الآشوريون المنطقة كلها. فقضى بذلك «سرجون الثاني» على مملكة إسرائيل الشمالية سنة **٧٣٢**ق.م قضاءً تاماً، فنفى سكانها إلى الشمال، وحلّ محلهم آراميون من سكان المدن الشمالية. وهكذا اختفى سكان مملكة إسرائيل نهائياً من التاريخ. أما مملكة يهوذا فقد غزاها «نبوخذ نصر» سنة **٥٩٧**ق.م، غزوته الأولى، وأخذ معه ملكها «يواكيم، وحزقيال» أسيرين إلى بابل، ونصب «زيديكياه» ملكاً عليها. إلا أن هذا ثار عليه، مما دعا نبوخذ نصر إلى العودة إلى القدس ثانية، وحاصرها مدة **١٨** شهراً، وسبى اليهود السبي الأول إلى بابل، سنة **٥٨٦**ق.م. بعد ذلك هاجر من بقي من اليهود حياً إلى مصر. وكان في هؤلاء «إرميا» الذي كان قد تنبأ بهذه النهاية المحزنة، ونبّه اليهود إلى مغبّة أعمالهم مسبقاً. وبذلك اختفت مملكة يهوذا هي الأخرى من التاريخ، بعد أن عاشت نيّفاً و**١٣٠** عاماً بعد سقوط إسرائيل. ومع هذا، فمملكة يهوذا لم تسلم من الغزوات إبان هذه الفترة، فقد غزاها الآشوريون سنة **٦٧٧**ق.م، وأسروا ملكها «منسي» ونفوه إلى العراق. وفي سنة **٦١٠**ق.م، هاجم «نخو» ملك مصر يهوذا وفرض الجزية عليها. وبعد سقوط يهوذا زال ملك اليهود نهائياً.

بقي اليهود في الأسر البابلي يعيشون عيشة ذل وهوان، لدرجة أن أجبرهم البابليون على أن يتخذوا لأنفسهم زيًّا خاصاً وهيئةً خاصةً يعرفون بها، فلا يضيعون بجرائمهم في زحمة الناس. بقوا في الأسر مدة **٤٧** عاماً إلى أن أعادهم ابن غانيتهم أستير «كورش» الأخميني إلى القدس سنة

(١) جذور الفكر اليهودي، داود سنقراط ص١٢٣ ـ ١٢٨.

٥٣٩ق.م، بعد أن دمّر كورش بابل على رؤوس البابليين انتقاماً لأخواله اليهود. لقد ساعد كورش أخواله ببناء الهيكل سنة **٥٣٦**ق.م، تحت حراب الفرس، ومقاومة اليبوسيين سكان البلاد الأصليين، إلا أن كورش مات قبل أن يتم بناء الهيكل. فأوقف خليفته «سمرويش» بناءه بسبب مقاومة اليبوسيين إلا أن «دارا» خليفة سمرويش أمر بمعاودة البناء فتمّ ذلك سنة **٥١٥**ق.م. وهكذا بقيت الدول الهزيلة التي أقامها اليهود في يهوذا منذ رجوع اليهود إليها من بابل، دولاً تابعة للدول العظمى «الفرس، فاليونان، فالرومان» ولم يقم لليهود كيان شبه مستقل إلا في زمن «الميكابيين» ولفترة لم تتجاوز قرناً واحداً من الزمان. فقد بقي اليهود طيلة الحكم الفارسي أقلية محصورة في القدس وما جاورها، إلى أن سقطت المنطقة بكاملها تحت الحكم الإغريقي سنة **٣٣٢**ق.م حين غزا الإغريق العالم، بقيادة الإسكندر المقدوني. وتناوب حكم المنطقة بكاملها خلفاء الإسكندر: «البطالسة في مصر، والسلوقيون في بلاد الشام»، وفي عام **٣٢٠**ق.م ثار اليهود على بطليموس، فهدم القدس وأحرقها. وحين انتقل الحكم من البطالسة إلى السلوقيين احتل «أنطوخيوس» القدس سنة **١٦٨**ق.م فثار عليه اليهود، فأخضعهم وهدم أسوار المدينة، وأجبرهم على ترك الديانة اليهودية والارتداد إلى الوثنية. وفي هذه الأثناء ظهر «الميكابيون» سنة **١٦٦**ق.م، فاستطاعوا أن ينتزعوا من السلوقيين كياناً شبه مستقل لم يكن لليهود خلاله كيان متماسك، وإنما كانوا متنازعين فيما بينهم على السلطة.

وفي عام **٦٣**ق.م احتل «بومبي» الروماني مدينة القدس بدعوة من اليهود «الفريسيين» المتمسكين بحرفية الشريعة المتشددين في تطبيقها. لقد طالب الفريسيون الإمبراطور الروماني «أنطوانيوس» بأن ينحي الملك «هيرودوس» عن حكمهم، قبل ظهور المسيح عليه السلام، وأن يعين والياً رومانياً بدلاً منه، وأن يضع فلسطين تحت الحكم الروماني مباشرة مفضلين حكم الأجنبي على اليهودي. وبعد «هيرودوس» تولى حكم فلسطين ولاة قساة منهم «بيلاطوس» الذي حوكم في عهده المسيح عليه السلام حيث حاكمه مجلس «السنهدرين» المكوّن من سبعين حاخاماً ويعنى بشؤون اليهود الدينية

والاجتماعية، وحكم عليه بالموت. أما بيلاطوس فقد غسل يديه بالماء حين سلّمهم المسيح عليه السلام قائلاً: «إنني بريء من دم هذا القديس»[١].

وبعد هذا العرض المقتضب عن تاريخ اليهود نجيب على سؤال يروجه اليهود ويخدعون به جماهير الناس، وهو «إلى أي مدى يمكن أن تُعد فلسطين وطناً قومياً لليهود بسبب حياتهم بها هذه الفترة» والإجابة تكون بإبراز حقائق لا تحتمل التأويل سبق ذكرها، وليس دورنا هنا إلا تجميعها بإيجاز:

أولاً: دخل بنو إسرائيل فلسطين غزاة من الخارج دون أن يكون لهم بها جذور أو تاريخ، واستعملوا القوة والوحشية ليحصلوا على الانتصار على السكان الأصليين.

ثانياً: لم يستطع اليهود أن يمدوا سلطانهم إلى كل فلسطين. ووقفوا عند منطقة التلال الداخلية، أما منطقة الساحل فقد ظلّت في أيدي السكان الأصليين.

ثالثاً: كانت مدة بني إسرائيل بفلسطين منذ دخول «يوشع» حتى سقوط مملكة يهوذا حوالى خمسة قرون، وهي أشبه بمدة هولندا بأندونيسيا، وبريطانيا بالهند. والعجيب أن هناك تشابهاً من نوع آخر، فقد أطلقت هولندا على أندونيسيا اسم جزر الهند الهولندية إشارة إلى التملك الذي تدّعي إسرائيل مثله بفلسطين، ولكن الصراع الوطني أعاد الحق إلى نصابه.

رابعاً: لم يعرف بنو إسرائيل بفلسطين حياة الاستقرار على الإطلاق وظلّ السكان الأصليون يناضلون ضدهم حتى أخرجوهم.

خامساً: أحسّ المجاورون لفلسطين من الشمال ومن الجنوب بالعنصر الغريب الذي دخل المنطقة، فاشترك هؤلاء المجاورون في الصراع حتى قضي على هذا العنصر الغريب[٢].

---

(١) مقارنة الأديان اليهودية، د. أحمد شلبي ص٨٢ ـ ٨٣.

(٢) المجتمع الإسرائيلي، د. فؤاد حسين علي ص٥ ـ ٦.

وفي عهد الإمبراطور الروماني «فسبسيان» عيّن ابنه «تيتوس» حاكماً على فلسطين وهو الذي سبى اليهود السبي الثاني وقضى على مملكة يهوذا وسقطت أورشليم وحطم معبدها عام ٧٢م، وساق إلى الأسر من اليهود فازدحمت شوارع روما بمسيرتهم. واختص «فرونتو» بيهود أورشليم فعمل فيهم صلباً وتعذيباً، وأما الأطفال والنساء فقد بيعوا في مختلف أسواق الإمبراطورية الرومانية بأبخس الأثمان لكثرتهم. أما اليهود الذين قدروا على النجاة من القتل أو الأسر الكثير، فقد هربوا إلى بلاد ما بين النهرية أو الجزيرة العربية ومصر وبرقة. وقد أدى هذا الوضع إلى انقسام المجتمع اليهودي إلى مسيحيين ويهود، فهذا المجتمع اليهودي رأى في المسيحية التي يدعو لها «بولس» موسوية متحررة من الطقوس اليهودية مثل تقديس السبت، والطعام وإعداده، والختان. وإن هذه المسيحية هي الدين الذي يجب اعتناقه مع التغاضي عن فكرة المسيح المصلوب والإله الإنسان، وابن الله كما تعتقده المسيحية. وقد عاون المسيحية على الانتشار هدم المعبد في «أورشليم» والقضاء على الكيان الإسرائيلي في فلسطين. فأقبل اليهود على اعتناقها تكفيراً عن سيئاتهم وخطاياهم التي تحملها عنهم المسيح عليه السلام إبان حياته على الأرض[1].

وفي عهد الإمبراطور الروماني «فسبسيان» عين ابنه «تيتوس» وهذا هو الذي سبى اليهود السبي الثاني عام ٧٠ب.م بعد أن أحرق المدينة بكاملها، ودكها على رؤوس ساكنيها. ولم تلبث فوضى ذلك الشعب الصغير المزعج وفساده وضوضاؤه أن استنفذت صبر روما، فعزمت على إبادته لكي لا تسمع حديثاً عنه. وعسكر على خرائب القدس فيلق روماني بعد أن أزيل الهيكل من الوجود، وعرضت أقدس أوانيه وكتبه في ساحة روما.

وبعد تدمير المدينة وحرقها، وبعد زوال الهيكل، اجتمعت فلول اليهود الهاربة في العريش. وبعد أن تدارسوا أمرهم، أقسموا قبل رحيلهم وشتاتهم في المنافي والمعازل «الدياسبورا» على خمسة مبادئ ظلت دستور عملهم

(١) جذور الفكر اليهودي، داود سنقراط ص١٢٩ ـ ١٣٠.

وما تزال نجوماً تهديهم إلى ضلالهم، وتضليل غيرهم، وهذه المبادئ هي:

١ ـ أن يبقوا محافظين على دينهم مهما لاقوا في ذلك من عنت وعناء.

٢ ـ أن يبقوا محافظين على لغتهم إلى جانب أي لغة قد يضطرون إلى تعلُّمها.

٣ ـ أن يبقوا على اتصال دائم فيما بينهم، مهما بعدت الشقة وتفرقت بهم السبُل.

٤ ـ أن يعملوا وبكافة الوسائل المتاحة، على الرجوع إلى أرض الميعاد، وأن يقولوا كل صباح: «شُلَّت يميني إن نسيتك يا أورشليم».

٥ ـ أن يعملوا على إفساد جميع شعوب الأرض، وبأية وسيلة ممكنة.

وقد حمل اليهود مبادئهم الخمسة هذه، وتشتتوا في جميع أنحاء الأرض يعملون بها. وكانت هذه المبادئ هي السبب المباشر في كل ما تعرض له اليهود من ويلات، منذ ذلك التاريخ حتى اليوم، وإلى أن تقوم الساعة، ولم يغيروا من هذه المبادئ ويقلعوا عما فيه من ضلال وتضليل[١].

ثم طرأ عامل آخر اقتصادي عاون المسيحية على الانتشار ألا وهو أن القيصر «فسبسيان» كان قد فرض قانوناً يحتم على اليهود الذين كانوا يدفعون ضريبة للمعبد أن يدفعها اليهود إلى روما ليحصلوا على الرعوية. فتضايق اليهود من فرض هذه الضريبة، ففكروا في حيلة تعفيهم منها فأنكروا يهوديتهم جنساً وعقيدة. إلا أن «قيصر» كلّف موظفيه بالتحري عن هؤلاء اليهود، ومعرفة مدى صدقهم في دعواهم هذه وعما إذا كانوا يمارسون طقوسهم اليهودية سراً أم لا. وكانت نتيجة هذا التحري أن اليهود تنكروا حقاً ليهوديتهم حتى لا يقعوا تحت طائلة العقاب وتحصل منهم الضرائب.

(١) إنجيل متى ص٥ ـ ١٧.

وهكذا أقبل اليهود على المسيحية، وبعد أن كانت قاصرة على فقرائهم أصبحت دين الموسرين القادرين منهم.

ثم نجد المسيحية تبدأ بفرقتين: الأولى وهي الطائفة «المسيحية اليهودية»، والفرقة الثانية هي طائفة «المسيحيين الوثنيين». وقد وقفت كل فرقة من الأخرى موقفاً عدائياً إذ استند اليهود المسيحيون على قول المسيح عليه السلام: «لا تظنوا إني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل»[1]. وهم يعتقدون أن الذي يؤمنون به جزاؤهم الجنة. وكان اليهود المسيحيون ينظرون إلى المسيح على أنه إنسان كغيره من البشر، ولد من أبوين من نسل داود. ثم خشيت هذه الطائفة من تفوق طائفة المسيحية الوثنية عليها، فاتفق اليهود فيما بينهم ورأوا ضرورة الجمع بين العهدين القديم والحديث. وأخذ اليهود يؤرخون حياة المسيح تاريخاً يعتمد على الروايات التي كانت منتشرة بين الجماهير في ذلك الوقت، وبعد نصف قرن تقريباً من انتقال المسيح عليه السلام إلى الرفيق الأعلى ظهرت الأناجيل.

أما المسيحيون الوثنيون الذين اعتنقوا المسيحية على يد «بولس» وأعوانه ففهمهم للمسيحية كان من نوع آخر. فهم لا يدركون الدعوة القائلة أن المسيح هو المخلّص أو أنه جاء من نسل داود، فمثل هذه الآراء لا تغنيهم. لذلك حوّلوا فكرة المخلّص ونسبته إلى داود عليه السلام إلى الله فقالوا: «ابن الله»، وهذه الفكرة ليست غريبة على الوثنيين. ففي وثنيتهم توجد مثل هذه الأفكار بخلاف اليهود الذين ينكرونها. لذلك نجد طائفة المسيحيين الوثنيين تجرد حياة المسيح من كل ما هو بشري، بل ابتدعوا فكرة تقول: «إن ابن الله ولدته مريم من روح القدس». ورفضوا الختان وأحكام الطعام والسبت، ولم يبقَ لهذه الطائفة من اليهودية إلا التوراة والأنبياء.

وهكذا نشأت الفرقتان المسيحيتان، وقد تشعبت كل فرقة إلى شعب

(١) المجتمع الإسرائيلي، د. فؤاد حسين ص٧ ـ ٩.

وأطلق اليهود المسيحيون على «بولس» رسول الوثنيين كما سمُّوا مدرسته مدرسة الشيطان، ولقبوه بلقب «نيكولوس»، أي: مفسد الأخلاق. وردّ المسيحيون الوثنيون على هذه الإهانات بأبشع منها واشتد العداء بين الطائفتين، فتعددت الأناجيل، وحاولت كل طائفة أن تؤول عبارات المسيح التأويل الذي يتفق وميولها.

والواقع أن الخصومة بين الطائفتين لم تقف عند الطقوس كما لم تبعثها العقائد والمذاهب اليهودية المسيحية فقط، بل العناصر السياسية أيضاً فيه التي أجّجتها. إن اليهود المسيحيين يكرهون روما والرومانيين، بينما الوثنية المسيحية مخلّصة لمدينة روما والرومانيين. وقد انتقلت هذه الخصومات من الكلام إلى العمل، فسالت الدماء اليهودية، ولعل أبشع مأساة أصابت اليهود قديماً هي تلك التي وقعت أيام «هدريان» ما بين عام ١١٧ ـ ١٤٠ ميلادية، وذلك عندما حاول اليهود التخلص من روما. كما اتخذ القيصر «دقلديانوس» المسيحية ديناً رسمياً للدولة[١].

وفي عام ١٣٥ب.م، ثار اليهود الذين بقوا بعد السبي الروماني، يسكنون الجبال المجاورة للقدس، ثاروا بقيادة «باركوخبا» فأخضع الإمبراطور «هادريان» ثورتهم، وحوّل «أورشليم» إلى مستعمرة رومانية. وحرّم على اليهود دخولها وسكناها، وسمّاها: «إيلياء كبتولينا». لقد أسكن «هادريان» في القدس جالية رومانية يونانية، وأقام فيها معبداً للإلٰه اليوناني «جيوبتر» على أطلال الهيكل القديم. وكانت هذه الضربة آخر ضربة وجهت لليهود في فلسطين. وظلت «أورشليم» تعرف بهذا الاسم الروماني «إيلياء كبتولينا» إلى أن تنصّر الإمبراطور قسطنطين وأمه هيلانة سنة ٣١١ب.م، فأعاد إليها الاسم القديم الذي عرفت به «أورشليم». كما أعاد أحكام «هادريان» الخاصة فمنع اليهود من الإقامة في القدس، وأخذ يضطهدهم[٢].

لقد كان الاعتراف بالمسيحية من أكبر النكبات التي نكب بها اليهود ما

(١) جذور الفكر اليهودي، داود سنقراط ص١٣٠ ـ ١٣١.
(٢) المجتمع الإسرائيلي، د. فؤاد حسين ص١٠.

بين عام ٢٨٤ ـ ٣٤٠ ميلادية، مما اضطر اليهود إلى التشرُّد في مختلف البلاد، سواء كانت أوروبية أو أفريقية أو آسيوية. وفي القرن الرابع الميلادي عقد صلح بين الكنيسة والدولة الرومانية، نصّ على اعتبار اليهودية هي العدو الأول للمسيحية عقائدياً وسياسياً، فصدرت مجموعة القوانين المعروفة باسم قوانين «قسطنطين».

إن حال اليهود بعد سبيهم وتشريدهم كان تعساً على الإمبراطورية الرومانية، بخلاف أولئك الذين لجأوا إلى الشرق بعيدين عن قبضة روما. ولما اعتلى القيصر «زينو» العرش حدث أن طائفة أصحاب اللون الأخضر قتلوا عدداً من اليهود ومن ثم أحرقوا جثثهم. فغضب القيصر وقال: إن أصحاب اللون الأخضر يستحقون العقوبة، وذلك لأنهم أحرقوا اليهود أمواتاً وكان الأفضل أحياءً[١].

عانى اليهود خلال مدة القرن والنصف التي سبقت ظهور الإسلام. فقد كان عليهم أن يتحمّلوا الإهانة والتحقير، حتى استعادوا دورهم الهام في عهد الدولة الإسلامية. لقد عانوا في عهد الفرس والبيزنطيين، إذ توزع اليهود من مكان لمكان في القرن السادس، فإما أن يجبروا على التعميد أو ينزعوا من أرضهم بالقوة. وأصبحت فلسطين دولة مسيحية بنهاية القرن الرابع مما أدى إلى توافد أفواج من الحجّاج المسيحيين، كان اليهود يؤدُّون لهم دور المرشد السياحي. على حين بدأ المسيحيون ينقلون رفات ذويهم، كما بنوا الكنائس حول مقابرهم[٢].

إن غالبية اليهود كانت قد تركت أرض فلسطين بشكل اختياري حتى قبل عام ٧٠ ميلادية عندما دمّر الرومان معبد القدس. وبعد هذا انتشر عدد كبير منهم في سوريا وآسيا الصغرى. أما بعد فشل تمرد «باركوخيا» في النصف الأول من القرن الثاني، فقد أصبح وجود اليهود في الشرق الأوسط كله عدا بابل وبلاد الفرس ضعيفاً، وكانت صلتهم بأرض فلسطين أن تنقطع

(١) من العهد القديم إلى قيام دولة إسرائيل ج١ ص١١٣.
(٢) تاريخ اليهود، أحمد عثمان ج٢ ص١١٤ ـ ١١٥.

تماماً. ومما ساعد على هذا التباعد، الانتصارات التي حققها المسيحيون الذين أصبحوا يشكلون غالبية سكان هذه المنطقة بعد أن صارت المسيحية هي الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية منذ منتصف القرن الرابع الميلادي على أثر اعتناق الإمبراطور «قسطنطين» هذه الديانة. وقد منع الأحبار اليهود من استعمال الفكر في القضايا الدينية على اليهود. وبالطبع فإن الاضطهاد الذي لاقوه من المجتمع المسيحي بسبب انعزالهم من المشاركة في الحياة الاجتماعية، وبسبب الخلاف على رسالة المسيح، قد زاد من تمسك اليهود بعزلتهم. وكانت تعاليم الأحبار تعد اليهود في بلدان هجرتهم لانتظار طويل يأتي بعده الخلاص. فهم فسّروا ما حدث لليهود على أنه غضب من الرب عليهم فيرسل إليهم مسيحه. الملك الذي سوف يقودهم إلى أرض فلسطين من جديد، وهو الذي سوف يعيد بناء المعبد الذي هدمه الرومان. وعلى هذا نرى تعاليم التلمود هي التي أدت في النهاية إلى عزلة اليهود في بلدان هجرتهم وإلى وقوعهم ضحية للاضطهاد بعد ذلك[١].

والتلمود بصورة عامة هو مجمل القواعد والوصايا والشرائع والتقاليد الدينية والأدبية والروايات المختلفة المتعلقة بدين وتاريخ وجنس بني إسرائيل. وكان اليهود حتى كتابة التلمود يتناقلونه مشافهة، إلا أنه بعد أن تعاظم شأنه، وتراكم شحمه، قرّر أحبارهم تدوينه. ويرجح أن عملية تدوين التلمود قد بدأت مع بداية عملية تدوين التوراة في بابل، في القرن السادس قبل الميلاد، بعد رجوع اليهود من الأسر البابلي، سنة **٥٣٩**ق.م. ويقال: إن أول من جمع التلمود في كتاب هو الحاخام «يوخاس» وأنه سمّاه «المشنا» وهي عبارة عن مجموعة من التعاليم والقوانين الدينية والمدنية والسياسية التي أقرّها أحبار اليهود في العصور المختلفة. وقد زيدت عليه، وفي القرون اللاحقة، متون وحواشي بما يعرف بـ«الجمارا» وهي تقوم على الروايات المسموعة من كبار الحاخامات على مدى أجيال متعددة. ولهذا فإن (الجمارا) تفسر (المشنا) كما تفسر (المشنا) التوراة.

---

(١) جذور الفكر اليهودي، داود سنقراط ص٨٨ ـ ٩٤.

ويزعم اليهود أن موسى عليه السلام كان قد شافه قومه بالتلمود، وأن أخاه هارون عليه السلام قد تداوله من بعده. ثم أخذه أنبياء بني إسرائيل على التوالي من بعضهم حتى وصل في القرن الثاني بعد الميلاد إلى الحاخام «يهوذا» الذي دوّنه بشكله الحالي. وهناك ما يؤكد أن عملية التدوين والإضافات ظلت سائرة حتى القرن السادس بعد الميلاد، عند ظهور الإسلام. واليهود يقدمون التلمود على التوراة، وهو موقف ينفرد به اليهود من دون سائر حملَة الرسالات، فليس من المعقول أن يكون الفرع أثبت وأفضل من الأصل[١].

ويعتبر أكثر اليهود التلمود كتاباً منزلاً يضعونه في منزلة التوراة، ويرون أن الله أعطى موسى التوراة مدوّنة، ولكنه أرسل على يده التلمود شفاهاً. ولا يقنع بعض اليهود بهذه المكانة للتلمود، بل يضعون هذه الروايات الشفوية في منزلة أسمى من التوراة. ويرى بعضهم ألاّ خلاص لمن ترك تعلُّم التلمود واشتغل بالتوراة فقط، لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى. ويعدون التوراة خبزاً ويرون أن الإنسان لا يعيش على الخبز فقط، وأن الأُدم هو التلمود. ويصرّحون بأن مَن يقرأ التوراة بغير (المشنا والجمارا) فليس له إلٰه[٢].

لقد تبدلت الأوضاع في الشرق العربي قبل الإسلام إلى الأسوأ في ظل السيطرة الهمجية للحكم الأجنبي الذي نجم عن حركة اليهود وأسيادهم في فارس وبابل والذي توَّجَهُ مسيح اليهود «قورش» بالإجهاز على الدولة البابلية الثانية في العراق. فاستطاع الفرس أن يقضوا على كل أثر حضاري للشعوب السامية العربية في العراق وشواطئ الخليج العربي، وامتد شرهم وتدميرهم إلى الشام ومصر وكل المنطقة العربية. فرزحت منطقة الشرق العربي قروناً طويلة تحت الحكم الهمجي للأمم الدخيلة التي مهّد لها اليهود.

وفي ظل هذه الأوضاع المظلمة عكف اليهود بعد عودتهم من السبي

(١) مقارنة الأديان اليهودية، د. أحمد شلبي ص٢١٦.
(٢) حقيقة اليهود، سعد العفنان ص٥٢ ـ ٥٣.

البابلي على تدوين «التوراة» فبدلوها من شريعة سماوية مقدسة إلى مجموعة كتب تاريخية مدوّنة، حوت الأكاذيب والأباطيل وشوّهت الحقائق والوقائع، وحطّت من شأن الأمم المجيدة، وأعلت من شأن الأمم الوضيعة، وخلطت بين الخرافات السخيفة والأساطير المختلفة، وبين الحكمة الرشيدة والعظة النافعة. وساوت بين أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم، وبين الأفّاقين الكذّابين الذين زعموا أنهم أنبياء فجاؤوا بالظلم والضلال.

لذا فقد جاء ما دوّنه اليهود متناقضاً يكذّب بعضه بعضاً، ناقصاً محرّفاً. فيه الكثير من الافتراء على الله جلّ شأنه وعلى الأنبياء عليهم السلام، وكان مغرضاً حقوداً، أباح اليهود فيه لأنفسهم دماء الأمم وأموالها وأوطانها، وسوّغوا ذلك بأنه إذا لم يتحقق في الماضي فإنه سوف يتحقق في آخر الزمان. وأكثروا من الوعود الكاذبة التي ادعوا بموجبها أن سيادتهم على الأمم والأرض كلها ستكون هي المآل النهائي[1].

إن عصر المنفى قصير جداً ويجدر أن لا يسمى عصراً. فقد دام **٤٩** سنة فقط، أي: جيلاً واحداً. إلا أنه عصر بكل ما في هذه الكلمة من معنى، لا لطوله، بل للتطور الكبير الذي أحدثه في الدين اليهودي. فالدين اليهودي، كدين للمنفيين اختص بهم واختصوا به قد نشأ في المنفى، وكانت المواد التي نشأ منها هذا الدين الجديد تتكون من سبع مواد هي:

أولاً: اختار الله العنصر العبري، باختيار شخص إبراهيم، ليكون له شعباً كغيره من الشعوب.

ثانياً: أعطى الله ميثاقه لهذا العنصر، وهو ليس عقداً بل هو عهد أزلي لا ينقض.

ثالثاً: تنفيذاً لهذا الميثاق، أخرج الله العنصر العبري من مصر وأنقذه من فرعون، وأهلك أهل فلسطين من أجله وأسكنه فلسطين ومَلَّكه إياها.

رابعاً: اختار الله داود ودفعه إلى ما هو تحقيق للميثاق، وإلى إنشاء

(١) أصول الصهيونية في الدين اليهودي، د. إسماعيل الفاروقي ص٧٠ ـ ٧٢.

الدولة الداودية، وجدّد الله له العهد بأن هذه الدولة الإلٰهية لن تزول. لهذا جعل الله للعنصر المختار ملكاً وأرضاً ودولة هي هذا الملك وهذه الأرض.

خامساً: انحرف العنصر العبري عن الطريق العبري، فأفلت منه الملك، فكيف يفلت الملك ومالكه هو الله.

سادساً: على العنصر العبري أن يتطلع إلى استرجاع هذا الملك بكل عقله وقلبه.

سابعاً: ولا بد أنه سيسترجعه لأنه لم ينحرف كله. فهناك بقية صالحة. وبهذا يصدق عهد «يهوه» بأن ملك العنصر العبري الذي هو ملكه لن يزول.

فعنصر المنفى أخذ هذه المواد وذكاها. فإذا العبقرية تنفجر إيماناً بهذا الإيمان، وحقداً أو تشفّياً بالعدو الذي سلب العنصر العبري ملكه. وأضاف عصر المنفى على المواد السبعة مادة «ثامنة»، هي تحويل أمل العودة واسترجاع الملك إلى إرادة فعالة مخططة، وإلى عمل إيجابي. وليست «الصهيونية» إلا هذه المواد الثمان، السبع الأولى مواد عقائدية، والثامنة هي المادة العملية، التي تستهدف تحويل ما في العقل والقلب إلى حقيقة تاريخية واقعة. فالذين حُملوا أسرى إلى بابل زعماء يهودا وقادتها العسكريون والسياسيون والاقتصاديون والمفكرون، ذلك لأن القادة هم الجديرون بالأسر والنفي في رأي القاهر المنتصر، أمام العوام. وطالما أن المنفيين كانوا في الغالب من القادة، فلا بد من أنهم كانوا أشد عنصرية وأكثر تعصباً للإبقاء على الكيان اليهودي. لهذا يتضح أن تفجر الصهيونية بين اليهود كان في المنفى لا في أورشليم أو أي بقعة أخرى وجد اليهود فيها[1].

فلنعرض مقتطفات من وصف «أشعيا» بالمنفى، يقول: على أنهار بابل هناك جلسنا. بكينا أيضاً عندما تذكرنا صهيون، ومعذبونا سألونا فرحاً قائلين: رنِّموا لنا من ترنيمات صهيون. كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض

(١) المرجع السابق مزامير ١٣٧، ٧٤، أشعيا ٤٠، ٢٥، ٤٢، ٤٥، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٤٩.

غريبة؟ إن نسيتك يا أورشليم فلتنسَ يميني مهارتها، وليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك، إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي. لماذا رفضتنا يا الله إلى الأبد، أُذكر جماعتك التي اقتنيتها منذ القدم وفديتها سبط ميراثك. جبل صهيون هذا الذي سكنت فيه. ارفع خطواتك إلى الحرب الأبدية. حتى متى يا الله يُعَيَّر المقاوم ويهين العدو اسمك إلى الغاية. لماذا ترد يدك ويمينك. أخرجها من وسط حضنك. إن العدو قد عيّر الرب وشعباً جاهلاً قد أهان اسمك. حتى متى يا الله يعير المقاوم ويهين العدو اسمك. لماذا ترد يدك ويمينك. أخرجها من وسط حضنك. قم يا الله أقم دعواك، أُذكر تعييرَ الجاهل إياك.

يقول أشعيا: البشرى بأن الخلاص قد أتى أخيراً «عزوا عزوا شعبي يقول إلٰهكم: طيبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل. إن إثمها قد عفي عنه. إنها قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها. على جبل عال اصعدي يا مبشرة صهيون ـ المبشرة هي إحدى الفتيات اللاتي كنّ يتقدمن من طابور الجيش معلنات عودة الجيش المنتصر ـ، ارفعي صوتك بقوة يا مبشرة أورشليم، وقولي لمدن يهوذا: هو ذا إلٰهك.

يتخيل هنا أشعيا عودة المنفيين إلى أورشليم. ويرى أن كورش اختاره الله كي يخلّص اليهود. واعتز أشعيا بـ«كورش» أعظم الاعتزاز وسمّاه المسيح، أي: ملك اليهود المنتظر.

هو ذا عبدي الذي أعضده. مختاري الذي سُرَّت به نفسي. وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم. أما الداعي إلى هذا الاختيار وهذه المعاضدة الإلٰهية فهو إرجاع المنفيين وتخليصهم، ثم إعادة بناء مجد أورشليم.

يقول أشعيا: يقول الرب خالقك: يا إسرائيل: لا تخف لأني فديتك، ودعوتك باسمي. لا تخف فإني معك من المشرق آتي بنسلك ومن الغرب أجمعهم. ائت ببنيي من بعيد وببناتي من أقصى الأرض، بكل مَن دعا باسمي ولمجدي خلقته. أنا الله القائل عن أورشليم: ستعمر، ولمدن يهوذا ستبنين، وللهيكل ستؤسس.

وينسب أشعيا إلى الله هذه الكلمات التي تفيض عنصرية وتبجحاً بشعب إسرائيل. يقول: إن الرب قال: «وقالت صهيون: قد تركني الرب. هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها. حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك». ثم يقول: «هكذا قال الرب: ها إني أرفع إلى الأمم يدي وإلى الشعوب رايتي، فيأتون بأولادك في الأحضان وبناتك على الأكتاف يحملن ويكون الملوك حاضنيك وسيداتهم مرضعاتك. بالوجوه إلى الأرض يسجدون لك ويلحسون غبار رجليك وأنا أخاصم مخاصميك، وأطعم ظالميك لحم أنفسهم ويسكرون بدمهم[١].

وليس من شك أن الصهيونية تستوحي إيمانها بصهيون من هذه الكلمات وهي تعتقد، كما يعتقد أشعيا، أن الله ذاته هو الذي يعمل دائباً على عودة المنفيين اليهود أنّى كانوا، محمولين في الأحضان وعلى الأكتاف إلى أورشليم. وهناك في أورشليم سيسجد الملوك وشعوبهم أمام إسرائيل وربها، ويعلنون خضوعهم لقانونها[٢].

بعد أن أخمد الإمبراطور الروماني «ترايان» التمرد اليهودي في مصر عام **١١٧**، وقضى «هدريان» على تمرُّد باركوخيا في فلسطين عام **١٣٥**، لم يشهد التاريخ اليهودي أي حدث ذي أهمية لمدة خمسة قرون بعد ذلك. وفي هذه الفترة قلّ عدد اليهود المقيمين في بلدان الشرق الأوسط عدا بلاد فارس وما بين النهرين، بينما زادت الجاليات اليهودية في مناطق آسيا الصغرى وأوروبا. واستمرت الحال على هذا المنوال إلى أن جاءت الفتوحات الإسلامية في النصف الأول من القرن السابع، وكانت بمثابة عودة الحياة للكيان اليهودي على الساحة العالمية. وكان بعض اليهود قد هاجر واستقر في مناطق عدة من الجزيرة العربية نفسها، وصارت لهم أهمية خاصة في منطقة يثرب.

وبما أن المصادر اليهودية لا تتحدث كثيراً عن هجرات اليهود إلى

---

(١) المرجع السابق ص٧٦.

(٢) تاريخ اليهود، أحمد عثمان ج١ ص١١٧ ـ ١٢٠.

جزيرة العرب، فقد أصبحت الروايات العربية هي أهم ما لدينا على انتشار اليهود في الجزيرة العربية. وهناك عدد من الروايات بخصوص تاريخ وصول اليهود إلى اليمن ونجران في جنوب الجزيرة العربية. والمعتقد أنه منذ القرن الرابع قبل الميلاد، جاء بعض اليهود من بابل إلى اليمن لتنظيم بعض الأعمال التي تتعلق بالتجارة، ومع مرور الوقت أصبحت هناك جالية يهودية مقيمة بشكل دائم في جنوب الجزيرة. وتقول بعض الروايات: إن الزيادات التي حدثت بعد ذلك في عدد اليهود المقيمين في هذه المناطق لم تكن نتيجة هجرات خارجية ولكن نتيجة اعتناق «يوسف إسعاد» ملك مملكة حمير المعروف باسم «ذو نواس» لليهودية في أوائل القرن السادس للميلاد، فدخل عدد كبير من قومه الديانة نفسها. وكان لسقوط دولة الحميريين أمام الأحباش المسيحيين في معركة عام **٥٢٥** بعد الميلاد، وانهيار سد مأرب أثر فعّال في هجرة الأقوام التي كانت تسكن هذه المنطقة وانتشارهم في أنحاء الجزيرة العربية، ومنهم الأوس والخزرج الذين استقروا بيثرب ومعهم بعض اليهود[١].

لقد تعرّض اليهود لكثير من المصائب في مختلف العصور، فقد كانوا لا يكادوا يستقرون في مكان حتى تتلقفهم الدولة أو الكنيسة صفعاً وإذلالاً وتعذيباً وحرماناً، فيهربون إلى مجتمع آخر، وغالباً ما كان كالمستجير من الرمضاء بالنار. لقد تفننت المسيحية في تعذيب اليهود واضطهادهم لكن لا تكاد العين تقع على الجزيرة العربية وتبصر اليهود فيها حتى تدرك مدى السعادة التي يتمتع بها اليهود في البيئة العربية الذكية. هنا نجد أبناء إسرائيل يتمتعون بكافة الحقوق الاجتماعية التي يتمتع بها العربي سيد البلاد وحاميها، فلا حرمان يهدده، ولا عدوان يتلقفه. هنا يعيش أبناء إسرائيل في أحضان شعب اشتهر بالذكاء والوفاء والكرم، فغمر الإسرائيليين بفضله ونبله وشجاعته. فاستطاع الإسرائيلي بين العرب وللمرة الأولى بعد قرون وقرون، أن يُظهر شجاعته ويتمتع بإنسانيته ليستطيع استخدام السيف ويحظى بتقدير

(١) المجتمع الإسرائيلي منذ تشريده حتى اليوم، د. فؤاد حسنين ص٢٧ ـ ٢٨.

الأبطال. وهكذا أخذ الإسرائيلي اللاجئ الطريد يسترد حريته المفقودة ورجولته المنكودة، وفطرته العربية الموروثة. والواقع أن تاريخ اليهود منذ العصر الجاهلي في بلاد العرب صفحة بيضاء، شهادة حق للعرب ونبلهم.

وليست هذه هي كل ما قدّمته الجزيرة العربية لليهود النازحين إليها، لقد عاد اليهود لاجئين إلى الوطن الأصلي للساميين، فرطنوا اللغة العربية بعد أن تركوها إلى الآرامية، والعبرية، والآشورية، والبابلية، واللاتينية. ولقد تخلصوا مما علق بهم من عادات وتقاليد لا تمت إلى العقلية السامية بصلة، وعادوا إلى حظيرة العروبة، وتُجمِع المصادر على أن بطوناً إسرائيلية لجأت إلى الجزيرة العربية تبتغي الحياة الكريمة بعد أن تعرضت فلسطين للسبي أكثر من مرة، فوجدت من القبائل العربية صدراً رحباً. كما جادت العروبة على اليهود باللغة العربية نثراً وشعراً وفصاحة وبلاغة، فقَوَّم العرب ما اعوج من لسانهم، وارتفعوا بحسهم اللغوي وذوقهم الأدبي حتى بلغوا مرتبة العرب[١].

❋ ❋ ❋ ❋

انتزاع النبوة والرسالة من بني إسرائيل

بعد أن كُلِّف رسول الله ﷺ بدعوة الناس جميعاً، وبعد أن قال له ربه سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، انضوى تحت لواء الإسلام بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، في الوقت الذي كانت فيه هذه العناصر تلقى تكريم الإسلام لإنسانيتهم في الحقوق والواجبات. ولما اشتدت المطاردة الكافرة من جانب قريش للمسلمين، وذهب رسول الله بنفسه إلى الطائف يلتمس مخرجاً للمسلمين، قوبل بالرفض والمقاومة. ولكن يقين المصطفى لم يهتز أبداً

(١) بنو إسرائيل بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم، د. صابر طعيمة ص٢٦٤ ـ ٢٦٨.

بعون الله له، ومن بين ما قال المصطفى يناجي ربه: «**إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي**»، وختمت هذه العبارة بقوله الشريف: «**إلى مَن تكلني؟**»، فكان ذلك القرب الذي دنا به المصطفى ﷺ فتدلى من ربه فكان قاب قوسين أو أدنى، والذي بدأه بالسيادة الروحية والدينية على كل ما في الكون.

وسجّل القرآن الكريم ملامح هذه المرحلة، والتي تمت فيها مبايعة جميع الأنبياء والمرسلين لسيد ولد آدم عليه السلام. والتي بمقتضى ما تم فيها لرسول الله فإن الله سبحانه قد نزع ميراث النبوة والرسالة من بيت إسحاق وذرية إسرائيل ليصبح في يد أبناء إسماعيل العرب من خلال الخاتم محمد ﷺ.

يقول رب العزة: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١].

وفي هذه الآية الكريمة والآيات التي تليها يقدم الله سبحانه لتكريم نبيه في إسرائه به من مكة في مسجدها الحرام إلى فلسطين في مسجدها الأقصى بهذا المدخل المنزّه المعجزة: ﴿سُبْحَانَ﴾ وسبحان هذه لا تدخل في تعبيرات القرآن الكريم إلا على كل خطير وذي شأن، ويتصل بالله وحده سبحانه.

ثم قصّ الله سبحانه على نبيه للإنسانية كلها إفساد بني إسرائيل مرة بعد الأخرى، ومع ذلك يناديهم رب العزة من فوق سبع سماوات أنهم إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساؤوا فلها، ومع ذلك لم يراعوا ولم يرتدعوا. ويحسم القرآن الكريم الموقف كله حين يقرر أنه لم يعد من شيء يصلح أن يكون وسيلة للعمل الصالح، ولا أن يقيم به المرء علاقة مع خالقه، ولا أن يهدي للتي هي أقوم، سوى الإسلام، وأن كل ما في أيديكم أيها اليهود باطل ولغو: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٩].

ومنذ ليلة الإسراء التي بايع فيها الأنبياء والمرسلون إمامهم محمد ﷺ،

وفي فلسطين بالذات، انتقل ميراث النبوة إلى العرب بفضل سيدنا محمد ﷺ، الذي ختم الله به النبوة، وجعله سيد العالمين. وذلك لينضوي تحت لواء دعوته الناس جميعاً، ومن ثم ولد إسحاق وإسماعيل بغير عنصرية أو زيف وعدوان، كما حاول المؤرخون اليهود أن يجعلوا هذه السمة ظاهرة تلازم كل تاريخهم الطويل[١].

❋ ❋ ❋ ❋

إساءات بني إسرائيل ومؤامراتهم ضد الإسلام

ليس في الأرض فريق من الناس تدلّل على نبيه كما تدلّل بنو إسرائيل على موسى عليه السلام، وليس على الأرض صنف من الناس أرسل الله جلّ وعلا إليهم عدة أنبياء كما أرسل لبني إسرائيل. ورغم ذلك فقد كان اليهود دائماً مصدر متاعب لنبيهم موسى عليه السلام والأنبياء من بعده، ثم تتابع على بني إسرائيل قضاة ينظمون أمورهم. ومرّت السنون، وتحولت معظم القبائل الإسرائيلية إلى الوثنية، وأهملوا تعاليم التوراة، وظهر عدة أنبياء حاولوا أن يذكروهم بالدين الحقيقي، دون جدوى[٢].

ولما كان اليهود قد خضعوا لأهوائهم وشهواتهم وعبدوا المال وجعلوه مدخلاً لكل ضروب العبادة، والتقرب إلى ما يبغون وما يستهدفون. حظي بنو إسرائيل في المنهج القرآني بنصيب وافر من الإحاطة والشمول لكافة المتعلقات التي تتصل بالعقيدة الإلٰهية. أو بأنماط الرسالة الدينية وما يستتبع ذلك من الكشف عن بيئة الرسالة ونوعية المؤمنين بها وموقف المعاندين أو المكابرين لها. فالقرآن الكريم بعد أن وجّه الدعوة الإلٰهية إلى بني إسرائيل إبان عصر الدعوة الإسلامية مفترضاً أن فيهم بقية من دين، وأن ما بين أيديهم فيه بعض الحق الذي يتممه الإسلام ويكمله. لكن الرد العام

(١) تاريخ اليهود العام، صابر طعيمة ج١ ص٤٢ ـ ٤٤.

(٢) بنو إسرائيل بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم، د .صابر طعيمة ص١٧ ـ ١٩.

والأغلب كان بالرفض، وانتقل الرفض من جانب اليهود إلى التكذيب بما جاء به الوحي الإلٰهي على قلب محمد ﷺ. ومن هنا استحضر القرآن الكريم كل تجارب بني إسرائيل في النبوة والرسالة، وأبان عن موقفهم المقاوم لعقيدة الإيمان بالله رب العالمين. وكشف القرآن عن فشل بني إسرائيل في حمل الميراث الإلٰهي وتداوله والدعوة له، وأخذ يقص البداية التاريخية التي منَّ الله فيها عليهم بالنبوة والرسالة. ويعيب القرآن الكريم عليهم فيه قتلهم الأنبياء ومقاومتهم للمرسلين، ويضع أنبياء إسرائيل ورسلهم في الموضع الكريم بهم كرسل من عند الله العزيز الحكيم. ويمسح عن سيرة أنبياء بني إسرائيل ورسلهم كل ما علق بها من رجس ودنس ليعود بها للتاريخ الإنساني نقية تمثل معنى القدوة والهداية التي منَّ الله بها على بني الإنسان تمهيداً للذي يدعو إليه النبيّ الخاتم محمد ﷺ.

ثم ميّز القرآن الكريم الخبيث من الطيب على طول تاريخ بني إسرائيل. فعدّد المخازي والمآسي، وأبرز مواقف الرفض والبهتان والكفر والعصيان عند الذين كفروا وجحدوا وبدَّلوا وغيَّروا دين الله الذي ارتضاه لعباده، وأشاد بطهر الذين قاوموا واعتصموا في مواجهة انحراف الكثرة الكاثرة من بني قومهم، وكفرهم وعدوانهم. كما تحدّث القرآن الكريم عن الجنس الإسرائيلي وعنصرية ادعاءاته، وعن متعلقات العهود والمواثيق التي أخذها الله عليهم فتنكروا لها وجحدوها. وبنقل النبوة والرسالة على يد نبيّ الإسلام محمد ﷺ من بيت يعقوب بن إسحاق، أي: من بيت إسرائيل بعد مطاف طويل بدأ بأبناء يعقوب وانتهى بالمسيح عليه السلام إلى بيت إسماعيل عليه السلام، أي: إلى العرب الذين أرادت مشيئة الله لهم أن يكونوا أداة الرسالة الخاتمة[1].

إن أعمال اليهود وإساءاتهم المناهضة للإسلام، ومؤامراتهم في عهد رسول الله ﷺ الذي حاربهم حرباً متواصلة وشلّ عصب شر اليهود وفسادهم، وحطم حيلهم ومناوراتهم ببطولة وبمثُل عليا في الجهاد.

(١) الإسلام وبنو إسرائيل، الجنرال آتلخان ص١٧٥ ـ ١٨٤.

وبشمائله التي اختصّه الله بها تؤيده في حرب هذه الطائفة الباغية الحاقدة إلى جانب نصر الله القوي العزيز له في جميع معاركه معهم. فعداوة اليهود للإسلام ولنبيه الكريم كانت منذ اليوم الأول لانتشار الدين الذي دعا البشرية عامة لعقيدة التوحيد، والاعتراف بإله واحد لا شريك له. وقد زادت هذه العداوة بعد الهجرة لما وجد الإسلام قبولاً وذيوعاً وانتشاراً وأنصاراً. فبمجرد أن علموا أن هذا الدين سيكتسح عقائدهم الزائفة، وسيقضي على كيانهم، صمّموا على الوقوف في وجهه معلنين عداءهم السافر له.

ولما أسرع الناس إلى الاهتداء بنور الإسلام أفواجاً، ودخلوا من أبواب الحق زرافات ووحداناً بعد أن لمسوا نبل الإسلام وصفاءه. انقلب عداء بني إسرائيل وغيرتهم منه إلى حقد أسود، ونتيجة لذلك دبّروا للنبيّ شتى المؤامرات لقتله. لقد قام النبيّ ﷺ بثلاث حملات تأديبية على اليهود لمؤامراتهم. فالحملة الأولى كانت في مقابلة العداوة والخيانة الواقعتين من بني قينقاع ـ إحدى قبائل اليهود بالمدينة ـ حيث نقضوا معاهدتهم مع النبيّ ﷺ، ونكثوا معه عهدهم مستغلين ظرف انشغال المسلمين في غزوة بدر. وعلى إثر انتصار رسول الله بنصر الله له، وجَّه قوته إلى هذه القبيلة الناكثة للعهد، فنفيت فلولها إلى خارج الحجاز. والحملة التأديبية الثانية كانت على يهود بني النضير الذين كانوا أشد فجوراً لما كثرت جرائمهم وخياناتهم بتدبير مؤامراتهم لقتل رسول الله ليتحقق لهم القضاء على الإسلام قضاءً مبرماً. وبمجرد أن علم رسول الله ذلك اتجه إليهم بقوته وأدبهم، وسمح لجميعهم بمغادرة المدينة متجهين إلى الشمال.

وأما الحملة التأديبية الثالثة فكانت أشد وقعاً من الحملتين السابقتين. لم يثبت في أول الأمر من بني قريظة ما يثير الريبة حولهم. إذ أنهم لما رأوا نفي بني النضير من المدينة انهارت معنوياتهم، وفزعوا مما شاهدوا من استئصال شأفة الفساد اليهودي. إلا أن يهود بني النضير بعد طردهم من المدينة مروا على خيبر التي كانت أشبه بمزرعة يهودية وجد فيها زعماء بني النضير حقلاً مهيأً للفساد. فلم يواصلوا هجرتهم من قبيلتهم، واستوطنوها مستخفين بين أهلها متحينين الفرصة للوثوب. ومن هناك بدأوا

يحرّضون أعداء الإسلام ويهود بني قريظة بالمدينة، وعقدوا اتفاقيات مع مشركي مكة للقضاء على الدولة الإسلامية. وهنا ظهرت حقيقة يهود بني قريظة الذين قرروا الانضمام إلى أعداء الإسلام ناقضين معاهدتهم مع رسول الله دون تردد. وكانت مواضعهم تهدد خطوط الدفاع الإسلامية من الجوانب والخلف، ولانشغال الجيش الإسلامي بمواجهة الأحزاب فإن خطة يهود بني قريظة بتعاونهم مع الأحزاب أربكت الجيش الإسلامي ووضعته في مواقف حرجة. وانتهت غزوة الأحزاب بفشلهم، وجاء دور تأديب يهود بني قريظة لخيانتهم ولنقض المعاهدة التي سبق أن وقعوها مع نبيّ الله الصادق الوعد الأمين. ولمحاولتهم طعن المسلمين من الخلف، عاد النبيّ ﷺ إلى المدينة بعد انتهاء غزوة الخندق وقام بمحاصرة بني قريظة حتى استسلموا ووقع عليهم حكم الله العادل. وعاشت المدينة بعد هذه الحملة عيشة هادئة بعد أن قطع رسول الله دابر فتنة اليهود وقضى على فسادهم بعد غزوة خيبر، حيث تمكن من القضاء على محاولات اليهود ومؤامراتهم بتأييد من الله له. وتمكين رسوله ﷺ من تطهير الجزيرة العربية من اليهود المفسدين[١].

إن اعتقاد اليهود بأنهم شعب الله المختار كان السبب الرئيسي في عدم معاونتهم رسول الإسلام ﷺ، بل وفي تحالفهم مع الوثنيين ضده. وكان من المفروض إن لم ينضموا إلى رسول الله أن يتعاونوا معه للقضاء على عبادة الأوثان في جزيرة العرب، ونشر الإيمان بإله واحد. إلا أن انتشار الوحدانية بين الشعوب سوف تجعل الناس سواسية أمام الإله، وهو ما لم يكن يرغبون فيه. وكان هناك سبب آخر لإنكار اليهود نبوة محمد ﷺ. فقد كانت هناك بعض القبائل اليهودية خارج الجزيرة العربية التي عانت من اضطهاد الدولة البيزنطية لها في بلاد الشام، وهذه كانت على استعداد لاتباع رسول الله. إذ قال هؤلاء: إن النبيّ هو مسيحهم الذي كانوا ينتظرون مجيئه. ولا مانع من أن يكون من سلالة إسماعيل، فهو سينصرهم على أعدائهم من الرومان. إلا

(١) تاريخ اليهود، أحمد عثمان ج١ ص١٢٥ ـ ١٢٦.

أنهم سرعان ما أنكروه عندما علموا بأنه شهد بأن عيسى ابن مريم هو المسيح[١].

❋ ❋ ❋ ❋

موقف القرآن من اليهود

موقف كله نصفة وعدل، فهو حينما سجّل على اليهود في آيات قاربت الألف عدداً. تاريخهم ووقائعهم ووقيعتهم، وفضح مؤامراتهم، وعرّى نفسياتهم، وأبان تنكرهم للدعوة الإلٰهية، وحجاجهم ولجاجهم، وما قاموا به من تحريف وزيف وحجب للحقائق وإلباسهم الحق ثوب الباطل. فإن القرآن الكريم المنصف لم يطلق هذه الأحكام إطلاقاً، بل استثنى قلة قليلة من اليهود، كان رائدها نشدان الحقيقة، وطلبتها الحق والوصول إليه والثبات عليه.

رأت هذه الفئة اليهودية القليلة، ما في تاريخهم من ضلال وضباب، وما في حاضرهم من مؤامرات ومناورات، وما في وثائقهم من تدليس وتحريف. رأوا كل ذلك، ورأوا معه كذلك أدلة وشواهد. رأوا القرآن الحق ينطق بالحق فاتبعوا دستوره، ورأوا الرسول يهدي إلى الحق فاتبعوا نوره، ورأوا دلائل الحق فآمنوا بالله، والله هو الحق المبين. هذه الفئة على قلتها لم يهضمها القرآن حقها، فسجل عليها، وسجل لها، سجل عليها تفكرها وتدبرها، وسجل لها لقاء ذلك ما أعدّه لها يوم القيامة، من نعيم مقيم[٢]. عن ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿لَّكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾ [النساء: ١٦٢].

إن بني إسرائيل في القرآن الكريم قد حظوا بنصيب وافر من الإحاطة

(١) الشعب الملعون في القرآن، د. محمد بن الشريف ص١٥٨ ـ ١٥٩.

(٢) بنو إسرائيل بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم، د. صابر طعيمة ص٥ ـ ٨.

والشمول لكل ما يتعلق بالعقيدة الإلٰهية كلية أو بوظيفة الرسالة الدينية بين الناس. كما بيَّن الله سبحانه ذلك وكشف عن بيئة الرسالة ونوعية المؤمنين بها من بني إسرائيل وموقف المعاندين لها والمكابرين لها. ومن هنا كان الخبر القرآني في كل ما يتعلق بالتاريخ الديني والسياسي لبني إسرائيل، فضلاً عن خبره فيما انتهوا إليه من أمر العقيدة الدينية ونظرتهم إلى الأوامر الإلٰهية خبراً مستفيضاً يمتلئ بالعظة. ولما كان بنو إسرائيل قطاعاً من البشر مستهدفاً من الرسالة الإسلامية بحكم عموميتها، ودعوتها للناس جميعاً بأن ينضموا تحت لواء عقيدة التوحيد التي قامت عليها. فطهر العقائد مما شابها من فكر الصنم والوثن من رموز وطقوس لوّثت أسفار العهد القديم وحرّفتها. ولما كانت مشيئة الله التي تستهدف بالرسالة الدينية العون الإلٰهي للبشر من خلال الأنبياء والمرسلين. فإن النهج القرآني قد راح في تفصيل موسَّع يكشف للناس عن نوعية الذين استجابوا للعون الإلٰهي، والذين رفضوا ذلك العون وذلك لترشيد الإنسانية نحو الأكمل متخلصة من أسرار الغرائز وسيطرتها. ومن هنا أفاض القرآن الكريم في الحديث عن بني إسرائيل في أطوار العقيدة الإلٰهية التي آمنوا بها. وفي أطوار النبوة والرسالة الإلٰهية باعتبار أن الرسالة الإلٰهية في بيت إسرائيل لم يستجب لها ردحاً طويلاً من الزمن، ولم تستثمر أهدافها المرجوة في الحق والخير في مجتمعهم، ولم يمضِ على مسارها إلا بضع سنين، وإذا بكل مقررات العقيدة الإلٰهية على يد صفوة من أنبياء الله ورسله في بني إسرائيل قد تلاشت ولم يعد بمقدور المتطهر على طريق الحق في اتجاه رب العالمين أن يجد لملامح عقيدة التوحيد أثراً.

ومن المعجزات حقاً أن القرآن الكريم بعد أن وجه الدعوة الإلٰهية في الإيمان بالحق إلى بني إسرائيل إبان عصر الدعوة الإسلامية مفترضاً أن فيهم بقية من دين، وأن ما بين أيديهم فيه بعض الحق والذي يتممه الإسلام ويكمله قد انتظر زمناً طويلاً للحوار، ويتمثل ذلك في الفترة التي أسلم فيها بعض من العامة من اليهود. لكن الكهانة اليهودية استطاعت أن تجعل الرأي العام مضللاً، ولذا كان الرد بالرفض والمقاومة والكيد لدعوة الإسلام.

وانتقل الرفض إلى التكذيب لما نزل به الوحي الإلٰهي على قلب الأمين محمد ﷺ.

ومن هنا استحضر القرآن الكريم تجارب بني إسرائيل في النبوة والرسالة الإلٰهية، وكشف زيف موقفهم الذي ألفوه. وكشف القرآن عن إخفاق بني إسرائيل في حمل التراث الإلٰهي والدعوة له. وأخذ القرآن الكريم يقصد البداية التاريخية التي منَّ الله فيها عليهم بالنبوة والرسالة. ثم أخذ يفصّل قضايا الحوار الذي أثاره اليهود إثر موقف الرفض الذي اتخذوه من الإسلام. وتمثل ذلك في حديث القرآن عن أنباء بني إسرائيل وأحداثهم، فضلاً عن تناوله بالتطهير والتكريم لسيرة جملة من أنباء بني إسرائيل بغير ما تداولته كتبهم وأسفارهم التي صنعها كهّان بني إسرائيل[١].

وقد دأب اليهود على اتهام «الجوييم» غير اليهود بالغفلة، والبلادة، والعجز عن استشفاف المستقبل، ووزن الأمور. وهذه بداهة من غرور اليهود، وأكاذيبهم، وهم قوم بهت. ولكن إذا صحّ هذا ـ جدلاً ـ في أمم الأرض جميعاً فلا يصح لنا نحن «المسلمين» بعد ما شرّفنا الله تعالى بالقرآن، وجعله لنا نوراً نمشي به في الناس، وتبياناً لكل شيء. لقد جاء القرآن الكريم بحقائق وتفصيلات شاملة، فهو يكشف مكونات النفسية اليهودية، ويبلغ أغوارها الفكرية، ويعري أخلاقهم الرهيبة، ووسائلهم الدنيئة، ونوعيتهم المفرطة في التعقيد والالتواء، المتشابهة في السوء عبر الأجيال، بل ويرسم القرآن الكريم السبل الناهضة لعلاجهم، وإبطال دسائسهم ويحدد الدواء الناجع لدائهم الوبيل. ثم هو يشن عليهم حملة واسعة النطاق والآفاق هي أكبر وأوسع مدى من اليهود والمعاصرين لنزوله من معركتهم مع الإسلام أول مرة. وما ذلك ـ والله تعالى أعلم بمراده ـ إلا ما سبق في علمه عزَّ وجلَّ من عودتهم إلى «كرَّة عالمية» من الإفساد في الأرض. وأنه لا سبيل إلى دحض مؤامراتهم الخسيسة على البشر جميعاً إلا

(١) معركة الوجود بين القرآن والتلمود، د. عبدالستار سعيد ص٧١ ـ ٧٢.

بقوة مؤمنة موصولة الأسباب بوحي الله، ومستظلة بلواء هذا الكتاب الغلاّب. ومن هنا يأتي هذا الموقف القرآني العظيم الشامل إرهاصاً وتأسيساً لليوم الأكبر الذي ينفرد فيه أتباعه المخلصون بدحر أخطر مؤامرة تعرضت لها البشرية في تاريخها الطويل[١]. لقد مرت على اليهود القرون في إثر القرون، وربما قامت لهم دول، وملكوا من الدنيا المال والعقار، وسكنوا الحصون والآطام. ولكن العلة تنبعث من داخلهم، فتجعلهم يتلفتون تلفُّت الخائف المذعور، أو الهارب الموتور، أو الكذاب المريب، وكأنهم بناء يتداعى من داخله. وقد طبعتهم هذه العلة بطابعها المخيف، فصارت قلوبهم مريضة، وشخصياتهم يغشاها الانكسار. ويسجل القرآن الكريم هذه الظاهرة التي تفردوا بها بين الأمم فيقول: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

فهذه الخصلة المركبة من (الذِلَّة والمسْكَنَة) ضربة من ضربات القدر الإلٰهي على اليهود. وهي تأتي على خلاف دعواهم في الاستعلاء، وغرورهم بالاختيار والاصطفاء، بل هي نقض عملي لكل أوهامهم. ولم يضربها القدر العادل عليهم بحكم الجبلة، ولا بأصل الخِلْقَة، وإنما هي حكم أمضاه الله تعالى عليهم عقوبة ونكالاً بذنوبهم. واستمر هذا الحكم في أجيالهم عدلاً وإنصافاً، لأنهم أمة سواء في الضلالة والبهتان. ردت نفسها إلى أسفل سافلين بعد التكريم. ورضيت إخراجهم صنيع أولاهم، بل فعلته، وحرصت عليه، ونقله كل جيل إلى خلفه.

ويسجل القرآن الكريم هذا المعنى ويؤكده مرة أخرى، ويضيف حقائق جديدة تكتمل بها صورة هذا القضاء الحتمي، قال الله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: ١١٢]. فالآية الكريمة اتفقت

(١) المرجع السابق ص٧٠ ـ ٧٣.

تماماً مع سابقتها في الحكم، وأسبابه، وهي ذات أمرين على جانب كبير من الأهمية:

الأول: أن هذا الحكم قد ضرب عليهم في كل مكان يحلون فيه، أو في كل قتال يشتبكون فيه مع المؤمنين ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾.

الثاني: يحدث أحياناً «استثناء» تقتضيه حكمة الله تعالى، وعلمه المحيط بكل شيء، فيمدهم بأسباب منه، أو من بعض الناس، ليتم سبحانه وتعالى أمراً ما في أرضه وخلقه.

وهذا واقعهم المتكرر رغم امتلاكهم المال والنفوذ، وتلاعبهم بأسرار الأمم، وأسعارها، وأسواقها. فهم لا يرفعون رؤوسهم إلا (بحبل) ما، وقد رأينا مصداق ذلك في حماية دول الطغيان العالمي لهم، وهو «استثناء» إلى حين، ولأمر حكيم. فإذا جاء وعد الله عزَّ وجلَّ وقامت القوة المؤمنة في الأرض، فسيعود اليهودي بإذن الله تائهاً شريداً، تغشاه «الذلة والمسكنة». فهذا بيان وبرهان لبعض المسلمين الذين خدعتهم صورة اليهودي المعاصر وراحوا يتساءلون عن أنباء القرآن العظيم أفلا يعلمون أن القرآن كله حق وصدق[1].

وصدق الله القائل في محكم كتابه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥].

❋ ❋ ❋ ❋

القرآن الكريم وأخلاقيات اليهود

أبان القرآن الكريم كثيراً من أخلاقيات اليهود وتصرفاتهم وعلاقاتهم، وعن كثير من خباياهم وخبث طواياهم وفساد نفسياتهم. يقول القرآن لأهله عن اليهود: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ۖ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [آل عمران: ٦٩]. واتفقت كلمة لفيف من أقطاب

(١) الشعب الملعون في القرآن، د. محمد بن الشريف ص١٢٨ ـ ١٣٤.

اليهود على أن يزلزلوا عقيدة بعض المسلمين ويلبسوا عليهم دينهم، فيعلنوا بين القبائل إيمانهم بمحمد بالغداة في أول النهار، ثم يعلنون كفرهم به في عشية اليوم نفسه. لعل بعض المسلمين يتزعزع إيمانه، فيرجع عن دينه، كما رجع هؤلاء المتظاهرون بالدين، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: ٧٢].

ورأى اليهود اللئام الوئام بين القبائل العربية ينشر ألويته فيجمعهم بعد فرقة، ويكتلهم بعد تفكك. فأرادوا أن يبثوا سموم التفرقة بين الأوس والخزرج، وعمدوا إلى إثارة ما كان بينهم في الجاهلية قبل إسلامهم. ولكن القرآن الكريم كشف مؤامراتهم وفَوَّت عليهم مآربهم عندما دعا المسلمين إلى التمسك بالوحدة والعقيدة ونسيان الماضي والاعتصام بحبل الله، والبُعد عن الفرقة التي يريدها هؤلاء الدسّاسون الماكرون المتآمرون، فأنزل الله فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وحكم القرآن على اليهود بأنهم جبناء، لن يقاتلوا. وإذا سنحت للجبان فرصة للقتال ورأى مطعناً، وقاتل، فهو لن يصمد، جبان بطبعه، وخاتمة الجبناء الهزيمة وعدم النصر. وبذلك يوجه القرآن أنظار الذين أخذوا بمظهر اليهود المادي، وما هم عليه من مال وعتاد وعدة. ويقول: لا يفتُّ في عضدكم أيها المؤمنون مظهر اليهود ولا مناوراتهم ولا معداتهم، فهم بعيدون عن المجابهة، إذ الشجاعة تنقصهم، وأنهم يلجأون في معاملتهم السياسية وحروبهم العسكرية إلى ما يلجأ إليه الجبان من غدر ولؤم، وانتهازية. واليهودي إن ملك عتاداً وسلاحاً فتّاكاً، فهو سلاح يهتز في يد جبان رعديد لن يصيب من المؤمنين مقتلاً، ولن يطعن في الصميم مؤمناً شجاعاً، وهذا هو مصداق قول الله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ [آل عمران: ١١١].

عداء، ومكر، وبغض، وكيد، هذه مجموعة من أخلاقيات اليهود يكشف عنها القرآن موصياً المؤمنين بأن يبتعدوا عنهم، ويكونوا على حذر

منهم ولا يركنون إليهم. فأنتم أيها المؤمنون تحبونهم، ولا يحبونكم، وتؤمنون بموسى نبيهم وبتوراته، وهم لا يؤمنون بنبيكم ولا بكتابكم. هم يتربصون الدوائر ويتمنون أن تحيق بكم المصائب، يفرحون لمصائبكم، ويحزنون لما يمسكم من حسنة أو ما ينالكم من خير(١). فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٨ ـ ١٢٠].

ودفعتهم حفيظتهم على محمد ﷺ أدبهم أن يلجأوا إلى العبارات الملتوية التي تحمل أكثر من معنى، أو التي تخفي وراءها سبًّا أو قذفاً، يلجأون إلى هذه الكلمات الملتوية بها ألسنتهم مخاطبين الرسول استهزاءً وطعناً. فكانوا يقولون للرسول عند لقائه: «السام عليكم»، يديرون ألسنتهم بها على نحو يجعل السامع يظن أنهم يقولون: «السلام عليكم»، وقد فوّت الرسول مقصدهم من تلك التحية المسمومة حينما كان يرد عليهم بقوله: «**وعليكم**»، فدعوتهم مردودة عليهم. وكانوا يقولون له: «راعا»، وهذه اللفظة وإن كانت تحمل معنًى ظاهرياً، أي: راعنا سمعك والتفت لحديثنا، فإنها تحمل معنًى ثانياً وهو وصف بالرعونة والطيش عندما تحرف وينطق بها «راعِنَا». ولذا نهى الله سبحانه الصحابة ومنعهم من أن تدور هذه اللفظة على ألسنتهم عند خطاب النبيّ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة: ١٠٤]. وقد فضح القرآن الكريم صنيع اليهود في هذا المجال فقال: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ

(١) المرجع السابق ص١٣٦ ـ ١٤٦.

وَطَعَنًا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء: ٤٦].

دفعهم التبجح إلى أن يذهب أحبارهم ورؤساؤهم إلى رسول الله ﷺ فيعرضون عليه مخططاً يهودياً كله مناورة وسياسة خادعة يريدون من ورائها فتنة محمد نفسه، وقالوا له: إنك علمت منزلتنا في قومنا، وإنا إذا اتبعناك اتبعك اليهود جميعاً ولم يخالفوك، وإن بيننا وبين بعض قومنا خصومة، فنحتكم إليك، فتحكم لنا، فنتبعك، ونؤمن بك. فنزل فيهم قول القرآن الكريم: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٩، ٥٠].

ولما علم سبحانه غدرهم، وسوء طويتهم، وفساد جبلتهم، وسواد ذات صدورهم، حذّر رسوله منهم فقال: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣]. وفي واقعنا اليوم ما تزال خياناتهم تقوى، ومؤامراتهم الخسيسة ما تزال تطلع علينا. مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

ذهب أبو بكر رضي الله عنه إلى اليهود يعرض عليهم أن يُحكِّموا صوت العقل والمنطق، وصوت الشريعة والحق. فيؤمنوا بمحمد الذي يعترف بالتوراة وبموسى، والذي بشّرت التوراة بمبعثه، ويقرضوا الله قرضاً حسناً بالإنفاق في سبيله. فسخروا من أبي بكر ومن دعوته هذه وقالوا: «إذا كان الله يطلب منا قَرضاً فهو إذاً فقير ونحن أغنياء»، ويرد الله سبحانه عليهم مهدداً، مذكراً إياهم بمواقف آبائهم الإجرامية من كل دعوة إلٰهية: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١]. ولما حارب المسلمون اليهود، وأثرت هذه الحرب في حالة الاقتصاد اليهودي

نضح هذا التأثير على أخلاقياتهم، ودفعهم إلى التطاول وسوء الأدب في حق الله. فأخذوا يقولون: إن يد الله مغلولة عنهم، ويقول القرآن الكريم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤].

وفي معاملاتهم المالية والاقتصادية يسجل القرآن عليهم ما نراه إلى اليوم منهم، من مادية صرفة، وجشع، وأنانية، وعلاقات غير إنسانية، ومعاملات غير مشروعة: رشوة، وربا، وغصب، وأكل أموال الآخرين. شعارهم ومبدؤهم في المعاملات يعلنه القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [آل عمران: ٧٥].

والأميُّون عندهم هم من ليسوا يهوداً، فإذا أكلوا أموال هؤلاء بالباطل، فهذه شريعتهم المالية شريعة النصب والسلب والنهب[١].

❋ ❋ ❋ ❋

مواقف ودسائس اليهود بعد وفاة رسول الله ﷺ

بعد موت الرسول ﷺ، وانتصار الإسلام وخروج جحافل الدولة الإسلامية لتمتد حدودها خارج الجزيرة العربية، غيَّر اليهود من سلوكهم وأصبحت سياستهم الجديدة تقوم على أساس التحالف من الدولة الإسلامية حيثما امتدت. ولولا سماحة المسلمين الذين اعتبروا اليهود مثلهم مثل النصارى من أهل الكتاب لكان الوجود اليهودي قد ضمر في العالم كله.

(١) تاريخ اليهود، أحمد عثمان ج٢ ص١٢٦ ـ ١٢٩.

حيث كانت الكنيسة الرومانية تعاملهم أسوأ معاملة وتهدف إلى القضاء عليهم تماماً. فجاء انتشار الدولة الإسلامية بمثابة عودة الروح للطوائف اليهودية التي سارعت بالهجرة إلى بلدان الدول الإسلامية للحصول على حمايتها.

على الرغم من أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثاني الخلفاء هو الذي طرد القبائل اليهودية إلى خارج أرض الحجاز بعد أن كان النبيّ قد سمح لهم بالبقاء في أرضهم مقابل دفع نصف الغلة. إلا أن اليهود بحسب ما جاء في بعض قصص «المدراش» كانوا يعتبرونه صديقاً لإسرائيل. فهو عوّضهم مالياً عن نصف قيمة الأرض التي تركوها، وساعدهم في الحصول على مواطن جديدة في بلاد الهلال الخصيب. والأهم من ذلك أنه أنقذهم من اضطهاد الرومان وأعطاهم الأمان في بلدان الدولة الإسلامية الجديدة. ففي عهد عمر رضي الله عنه عام ٦٣٤ ـ ٦٤٤م، اتسعت رقعة الدولة الإسلامية لتشمل سوريا وفلسطين والعراق وفارس ومصر. وعمر هو الذي وضع النظم السياسية والقانونية للدولة الإسلامية بعد أن تحوّل المسلمون في عصره من أمة إلى دولة، بل وإمبراطورية متسعة الأطراف. وعامل عمر الطوائف غير الإسلامية في دولته من أهل الكتاب معاملة إنسانية اتسمت بالطيبة.

لقد جاءت المعركة الفاصلة عندما التقت الجيوش العربية مع الجيوش البيزنطية عند نهر اليرموك، وحقق العرب في هذه الموقعة انتصاراً ساحقاً سنة ٦٣٦م. وقد فتحت الجيوش العربية مدينة القدس عام ٦٣٥م بعد حصار استمر أربعة أشهر. وظهر «سفرونيوس» بطريك كنيسة القيامة على أسوارها طالباً التسليم على شرط أن يحضر الخليفة عمر بنفسه ليعقد معهم اتفاقاً عند تسليم المدينة. وقد وافق عمر رضي الله عنه على شرط أهل القدس بعد السماح لليهود بالسكنى في مدينتهم. إلا أنهم أصبحوا يستطيعون دخول المدينة دون خوف من توقيع عقوبة الإعدام عليهم بعد ذلك. ومع مرور الوقت، عندما انقسم سكان القدس إلى نصارى ومسلمين استطاع بعض اليهود الإقامة في المدينة بدون أن يمنعه أحد.

إلا أن القدس لم تكن شاغل اليهود في تلك الفترة من الزمان. بل إن

عدداً كبيراً منهم حتى ممن كان يسكن فلسطين، فضّل الهجرة في أعقاب الجيوش الإسلامية. حيث أصبحت مراكز التجارة الرئيسية في الدول الإسلامية ـ بل وأحياناً مالية البلدان الإسلامية ذاتها ـ خاضعة لنفوذ الجاليات اليهودية من بلاد فارس إلى الأندلس[١].

اختير بعد موت النبيّ ﷺ أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه خليفة له بين المسلمين، ولم تظهر في عهده ألاعيب اليهود. ثم وليه في الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وانتشر الإسلام في عهده، وسُلِّم بيت المقدس، قبلة الإسلام الأولى. ثم وليه الخلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ودامت خلافته اثنتي عشرة سنة، ومضى النصف الأول من عهد خلافته في رفاهية وهدوء. واتسعت حدود دولة الإسلام في عهده في قارة إفريقية إلى مصر، وليبيا، والمغرب، واتسع الفتح في قارة آسيا إلى حدود فارس وأفغانستان، وأصبح المسلمون في عهده يسيطرون على البحار.

واليهود بعد أن هزموا أمام رسول الله ﷺ، بيّتوا نية الأخذ بالثأر من الإسلام والمسلمين. لقد ظلوا في مخابئهم حتى النصف الآخر من عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وسنحت الفرصة لهم لنشر الفساد والقضاء على سطوة الإسلام وشوكته. لقد استغلّ أعداء الإسلام من اليهود الخلاف الناشئ عن الاجتهاد وتباين الآراء الاجتهادية الخاصة بإسناد منصب الخلافة بعد وفاة رسول الله ﷺ، حيث سعوا إلى بذر بذور الفتنة والشقاق والتحزُّب إلى مذاهب شتى لإحداث الفرقة بين الصفوف الإسلامية. وكان أسلوبهم في المرحلة الأولى إذكاء نار الخلافات المذهبية والآراء الاجتهادية. وأما أسلوبهم في المرحلة الثانية فتمثل في إذكاء الخلافات السياسية والموضعية، وهكذا دواليك. وهم في هذا يتظاهرون بالتقرب والتملق وتأييد الحق.

وأول ثغرة دخل منها اليهود كانت حول حكم الخليفة عثمان بن عفان

(١) الإسلام وبنو إسرائيل، الجنرال آتلخان ص١٨٤ ـ ١٩٠.

رضي الله عنه، وشخصيته لم تكن تقر عمل القوة واستعمال الشدة. إن طبيعته وخلقه قد حملتا الكثير من ضعاف النفوس على سوء استعمال سلطته، وكنتيجة لما قام به مثل هؤلاء الناس ضعف نفوذ الحكومة وقوتها، فمهدت السبيل لانتشار الفتنة اليهودية. وأخذوا ينفثون سموم فتنتهم مدّعين ظلماً بأن الخليفة قد أهمل الفقراء، وأخذ يصرف استحقاقهم في بيت المال على أقاربه. وهكذا تعرض الخليفة عثمان بن عفان للدعاية السيئة الواسعة التي أحاطت به. وسببت هذه الدعاية استرخاء في رباط الأمة، وبدأ التيار السياسي يجري ضد الخليفة. فهذه الأحوال التي ظهرت تعتبر نقطة التحول في التاريخ الإسلامي التي بدأت منها الفتن(١).

لقد ظهر شخص يهودي لعب في تاريخ الإسلام أقذر الأدوار هو «عبدالله بن سبأ» اليهودي الرافضي اليمني الذي اعتنق الإسلام. وعمل جاهداً على قلب نظام الإسلام بإنشاء المذاهب، وتعدد الطرق، وإثارة الفتن. فإنه مهما ادعى اعتناقه الإسلام، ومهما حمل من الأسماء غير اليهودية فروحه ظلت وستظل يهودية. وقد جال في البلاد الإسلامية، ودرس نفسية المستوطنين بها باحثاً عن نواحي الضعف فيها حتى وصل إلى مصر فوجدها ملائمة لبذر بذور فتنته وفساده، فبدأ يعمل فيها على حسب خطته الموضوعة.

بعدما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة أوحى الله إليه بشرى عودته إلى مكة ظافراً، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: ٢٧]. لقد فسر هذا اليهودي هذه الآية الكريمة «بأن محمداً سوف يرجع إلى عالم الدنيا»، وكان يدعم ادعاءه بالاستدلال بنزول عيسى عليه السلام، فيخلص من ذلك ليقول: «أليست رجعة نبيّ الإسلام أولى منه؟»، لقد ظهر خلاف بين الطوائف الإسلامية، فالمسلمون الأولون غضبوا من نشر هذا التفسير الخاطئ ونفوا

(١) المرجع السابق ص١٩٠ ـ ١٩١، ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

صحته، بينما اعتبر بعض الناس تفسيره هذا مقبولاً. واتسعت شقة الخلاف بين نافٍ ومثبت. وتشجع ابن سبأ اليهودي ورمى بسهم ثان صالح لإذكاء الخلاف والشقاق. فقد ادعى «أن لكل نبيّ وصياً، ووصي محمد علي» وأصرّ ابن سبأ على فكرته الثانية إصراراً، ونشرها على العالم الإسلامي بواسطة دعاة سيطروا على البلاد. وعمل ما في وسعه في سبيل إقناع المسلمين السذج بما جاء به ممعناً في إضلالهم. وبدأ المسلمون يتجادلون ويتنازعون حول آرائهم الاجتهادية. وكانت غاية ابن سبأ اليهودي تحطيم قوة الإسلام، وتطعيمه بعقائد يهودية، والقضاء على وحدة الفكر والإيمان بدفع المسلمين إلى مناقشات لا طائل تحتها. لقد نجحت دسيسة اليهود الذين توارثوها من قرون وأتقنوا طريقة نشرها بواسطة اليهودي الرافضي عبدالله بن سبأ، والذي أحدث في تاريخ الإسلام أعظم تفرقة وأكبر فتنة وأفجع ملاحم.

لقد تمكن اليهودي الرافضي ومنظمته من بث بذور التفرقة إذ دقّ في قلب الإسلام عقيدتين فاسدتين من شأنهما إثارة الفتن، مع إلباسهما ثوب الحق. أولاهما: عقيدة «الرجعة»، وثانيتهما: «الوصية»، وكل منهما يكفي لتكدير صفو الأذهان، إلا أن الثانية كانت أكثر أثراً حتى لقد امتدت آثارها إلى يومنا هذا. كما تمكن اليهود في شخص ابن سبأ وأعوانه من التأثير على نفوذ الصحابة رضوان الله عليهم الذين نالوا احترام المسلمين وذلك بالطعن فيهم. وقد ظهرت آثار توصيات برامج بني إسرائيل التي انكشفت أسرارها أخيراً حيث تقول لليهود: «أثيروا سخط الأمم على مَن نالوا احترام الشعب، وذلك باختلاق حوادث تطعن في شرفهم وشخصياتهم» إذ ليس ما يقوم به اليهود من إيقاع الخلاف والعداوة بين الناس بشيء جديد عليهم في وقتنا الحاضر. فإن صفتهم هذه تمتد جذورها في القِدَم إلى السنة الخامسة والثلاثين من الهجرة، بل تبعد عن ذلك بكثير[1].

❋ ❋ ❋ ❋

(١) تاريخ اليهود، أحمد عثمان ج٢ ص١٣٧ ـ ١٣٨.

الفتوحات الإسلامية وتحرر اليهود من العبودية

من الحقائق التاريخية المؤكدة أن الدولة الإسلامية هي التي حفظت الكيان اليهودي في العالم من الاندثار. عندما ساوت بين الأقليات اليهودية في البلاد التي فتحتها، وبين الغالبية المسيحية من أهل هذه البلدان. فقد اعتبر الحكام المسلمون اليهود والنصارى أهل الكتاب في مكانة واحدة. وعاملوهم على أنهم ذميون تترك لهم الحرية الدينية والاجتماعية طالما هم يحترمون النظم الإسلامية ويدفعون الجزية. فلولا ظهور الدولة الإسلامية وامتداد رقعتها لتشمل جزءاً كبيراً من الأراضي التي كانت تخضع لحكم الرومان سابقاً في شرق وجنوب وغرب البحر الأبيض المتوسط، لكانت بقايا الجماعات اليهودية المهاجرة قد أصبحت الآن في الوضع الذي تعيشه قبائل الغجر المتناثرة في الغابات وعلى حدود المدن الأوروبية. فمنذ منتصف القرن الثاني، عندما تبعثر اليهود من فلسطين وبلاد الشام ومصر في أنحاء الدولة الرومانية، أصبحت غالبيتهم تعيش مثل العبيد في البلاد التي سكنوها، وكان اليهود محاصرين في مناطق سكناهم. وليست لهم المساواة في أي من الحقوق السياسية أو الدينية أو الاجتماعية، ولا يسمح لهم بممارسة العديد من المهن والوظائف، وتفرض عليهم ضريبة أعلى من أي فئة أخرى في مجتمعاتهم. وكان النظام المفروض على اليهود يهدف إلى إرغامهم إما على اعتناق المسيحية وهو ما فعله قليل منهم، أو قبول حياة عبودية الفقر والتعاسة وممارسة طقوسهم في الخفاء.

وباستثناء الجزيرة العربية والمناطق الواقعة تحت الحكم الفارسي، والتي كانت تتضمن بلاد ما بين النهرين. فإن حالة البؤس هذه كانت تسود وضع اليهود في جميع أنحاء العالم في نهاية القرن السادس للميلاد، وعندما ظهر رسول الله ﷺ في مكة المكرمة. وعلى الرغم من فقدان القبائل اليهودية بالحجاز لمكانتها في أيام الرسول لخيانتهم العهود والمواثيق، إلا أن اليهود في جميع البلدان التي فتحها المسلمون بعد ذلك أصبحوا من أهل الذمة، متساوين في جميع الحقوق والواجبات مع أهل البلد. بل إنهم كانوا

في بعض الأحيان يحتلون موقعاً أكثر من الحكام العرب الجدد من باقي المواطنين. وإذا كان هذا ما حدث بشكل عام في جميع بلدان الدولة الإسلامية بل وفي ظل كل الأنظمة المتعاقبة على الحكم فيها، إلا أنهم في الأندلس تجاوزوا هذه الحدود وارتفعوا إلى أعلى المراحل التي وصلوها في تاريخهم من الثروة والرخاء[١].

لقد استغلّ اليهودي الأصل «عبدالله بن سبأ» اختلاف الرأي بين الإمام علي كرّم الله وجهه ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، وخلق منه فتنة جارفة عوَّقت المسلمين وأضرّت بهم. فقد تشيّع ابن سبأ لعلي رضي الله عنه، وقام له بدعاية واسعة النطاق شعارها: أن انتقال النبيّ إلى الرفيق الأعلى نقل شخصيته إلى علي، كما انتقلت شخصية موسى عليه السلام إلى يوشع. وقد حدثتنا الروايات اليهودية أن مجموعة وفدوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه تحت زعامة مدير جامعة «سورا» واسمه «مار إسحاق» وقدموا له فروض الولاء والطاعة، فكرّم الإمام علي مدير الجامعة. ومنذ ذلك الحين يدخل اليهودي في طور جديد يعرف في المصادر بالعصر الجاوني نسبة إلى اللفظ العبري «جاون»، أي: «المعالي»، وهو اللقب الذي منحه أمير المؤمنين لمدير جامعة سورا. ويمتاز العصر الجاوني بتعاون السلطتين السياسية والتشريعية، فالحاكم الإداري كان يمثل المجتمع الإسرائيلي أمام الخليفة والولاة، وكان يقوم على جباية الأموال وتسليمها لبيت المال. أما السلطة الدينية فقد كانت في يد رجال الجامعة وأساتذتها بالتلمود وشرحه. أما السلطة القضائية فقد كانت قسمة بين الحاكم الإداري والجاون. كما أصبح دستور المجتمع الإسرائيلي العراقي الفارسي تحت راية الإسلام دستور اليهود قاطبة. أما يهود فلسطين فقد كان موقفهم منفرداً، وذلك لأن الإسلام لما فتح بلادهم قضى على استبداد المسيحية واضطهادها لليهود، وما كاد المسلمون يتسلمون مقاليد الأمور في البلاد حتى عادت الحياة العلمية إلى سيرتها الأولى.

(١) المجتمع الإسرائيلي، د. فؤاد حسنين علي ص٢٧ ـ ٣١.

إلا أن المجتمع الإسرائيلي العربي تعرض بظهور الإسلام لحركة إصلاح كبيرة، وذلك بسبب الأوطان الجديدة التي نزل فيها اليهود في العراق والشام وفلسطين. فهم يخضعون لنظام تلمودي شديد يقيد من حريتهم الدينية وتقاليدهم القبلية التي مارسوها في قلب الجزيرة. فهم بين أمرين: إما أن يغيروا من أنفسهم وعاداتهم ويروضونها على حياة جديدة تتفق والمجتمع الإسرائيلي. وإما أن تتغير أحكام التلمود وبخاصة ما تعارض منها مع الحياة الاجتماعية للمجتمع الإسلامي. وقديماً كانت يهودية ووثنية واليوم يهودية وإسلام، فتعرض المجتمع الإسرائيلي عامة لهزة عنيفة زعزعت من ثقة اليهود في التلمود فظهرت طائفة القرائين، واحتدم النزاع بينها وبين الربانيين. فالمذهب القرائي هو ولا شك وليد الإسلام، فتحت راية الإسلام، تثقف الشباب الإسرائيلي ثقافة عربية إسلامية استطاع بفضلها المحافظة على الإسرائيلية والارتقاء بها في العصور الوسطى. فالأساتذة العرب هذّبوا الإسرائيليين وجعلوا منهم أساتذة[1].

ففي عهد خلافة هارون الرشيد وابنه المأمون كانت الحياة العلمية قد بلغت شأناً عظيماً، وازدهرت معاهد العلم في بغداد، والقاهرة والقيروان في شمال أفريقيا، ومرو في بلاد التركمان. وقد أصبحت جميعها مراكز الإشباع العلمي لا في العالم الإسلامي فحسب بل في مختلف أنحاء العالم أيضاً. ولم تبلغ أوروبا مكانتها الحالية إلا بعد عدة قرون، وبفضل اتصالها بالعالم الإسلامي، والذي فرض نفسه، ومزّق الشرق العربي الستار المضروب على أوروبا، وأدخل إليها العلم والنور.

ولم يقف المجتمع الإسرائيلي، تؤمنه السماحة العربية موقف المتفرج بل ساهم في إحياء البعث العلمي وازدهاره. فحفظ لنا التاريخ عدداً من مشاهير الإسرائيليين أمثال «ما شاء الله» الفلكي والطبيب الرياضي، و«سهل الطبري». ولا عجب في هذا فقد أخذ اليهود عن العرب علاوة على الصيدلة والفلك والرياضيات والطب «علم الكلام» الذي اشتهرت فيه فرقة

(١) المرجع السابق ص٣١ ـ ٣٢.

المعتزلة بفكرة الله الذي له صفات، ووجود، وحرية إرادة الفرد، كما فسرت هذه الفرقة القرآن الكريم تفسيراً رمزياً، لذلك نعتها علماء المسلمون بالاعتزال. وقد أثرت المعتزلة في المجتمع الإسرائيلي، ودفعت هذه الفلسفة العلماء الإسرائيليين إلى إيجاد تعليل فلسفي للدين اليهودي وأحكامه، ووسع الاعتزال شقة الخلاف بين القرائين والربانيين اليهود(١).

كانت الجماعات اليهودية قد وصلت إلى إسبانيا عن طريق الإمبراطورية الرومانية وجاءت قبائل القوط واستولت على حكم البلاد بعد أن اعتنقت المسيحية. وأصبح لرجال الدين المسيحي نفوذ سياسي كبير في الحكم القوطي، فأعلن مجلس الأساقفة بأن على جميع الأقوام التي تعيش في البلاد، إما اعتناق المسيحية أو مغادرة البلاد.

فكان اليهود هم الذين أضرّ بهم هذا القرار، وقبل بعضهم العمادة ولو ظاهرياً، كما اضطر آخرون إلى مغادرة البلاد. وكان العرب قد ظهروا في شمال أفريقيا كقوة سياسية وعسكرية، يعاملون رعاياهم من غير المسلمين في تسامح. فحاول بعض اليهود وبعض الطوائف الإسبانية المسيحية المضطهدة الاتصال بالمسلمين في أفريقيا وإغرائهم بغزو البلاد الإسبانية. ولهذا فعندما عبر طارق بن زياد عام ٧١١ ميلادية المضيق الذي سمي باسمه وانهارت أمامه معاقل القوط، لم يكن اليهود يمثلون طائفة دينية شرعية في البلاد، وإنما كانوا عبيداً عند أمراء المقاطعات يمثلون شعائرهم سراً. وخرج اليهود يرحبون بجيش المسلمين، وينتقمون من سادتهم، فاستولوا على أراضي القوط الهاربين، وكان المسلمون يوكلون إليهم حراسة المدن التي تقع في أيديهم. وهكذا تغير مركز اليهود في «الأندلس» فجأة مع وصول المسلمين من عبيد مضطهدين إلى ذميين أحراراً، مقربين من الحكام الجدد. وسمح العرب لليهود بمزاولة التجارة وأعطوهم حرية كاملة في تملك المنقولات والعقارات بشرط دفع الجزية.

(١) تاريخ اليهود، أحمد عثمان ج٢ ص١٣٨ ـ ١٤٤.

فعندما سقطت الدولة الأموية أمام العباسيين في منتصف القرن الثامن الميلادي، تمكن عبدالرحمٰن بن معاوية بن هشام من الهرب إلى بلاد الأندلس، وأعلن نفسه أميراً عليها. وازداد عدد اليهود الذين هاجروا من اضطهاد بلدان أوروبا المسيحية إلى إسبانيا أيام الأمويين بسبب حسن معاملتهم. ثم قام المسلمون بحركة نهمة على منابع المعرفة، فتمت ترجمة أمهات الكتب من اليونانية أو القبطية والفارسية إلى اللغة العربية. وكان عصر هارون الرشيد ثم المأمون ما بين القرن الثامن ومنتصف القرن التاسع من أزهى ثمرات النمو الفكري والثقافي في الدولة الإسلامية. وكما تفوّق المسلمون في إسبانيا في هذه العلوم الجديدة، تعلّمها اليهود كذلك. وفي البداية كان تعليمهم ينحصر في المسائل التلمودية، ولكن سرعان ما انفتحت شهية اليهود في ظل سماحة فكرية إلى الدراسات العلمية والفلسفية. فدرس اليهود الطب والفلسفة والهندسة وكافة العلوم التي كانت محرّمة عليهم، كما تعلّم اليهود اللغة العربية ونبغوا فيها. ونبغ الطلاب اليهود في الدراسات العلمية، وأصبح رئيس الجالية اليهودية في قرطبة «حداي بن شبروت» هو الطبيب الخاص للأمير عبدالرحمٰن، كما صار مسؤولاً عن العلاقات الخارجية للخليفة. وفي الأندلس بلغ اليهود أقصى درجات الفن والعلم والثقافة. لأول مرة في تاريخهم الطويل. وفي الأندلس ولدت مدارس الأدب والفلسفة اليهودية لأول مرة، وتحت تأثير الفكر الإسلامي ظهرت المدرسة الجديدة التي أدت إلى القضاء على يهودية الأحبار التلمودية. ولا شك أن المسلمين الذين حرروا اليهودية من العبودية التي فرضتها عليهم الكنيسة الكاثوليكية، أعطوهم فرصة للتحصيل العلمي والمعرفة، إلى جانب المال والثراء[١].

لقد انطلق الازدهار الثقافي في إسبانيا الإسلامية جنباً إلى جنب مع التسامح السياسي، وحظي عدد من اليهود بمراكز إدارية كبيرة. وقد لبث الازدهار الثقافي والاقتصادي في قرطبة زهاء قرن كامل. حيث قضت سلسلة

(١) من العهد القديم إلى قيام دولة إسرائيل، د. حسين شريف ج١ ص١٤٤.

من حروب صحبها غزو قبائل البربر التي نجحت آخر الأمر في تدمير المدينة، وإجبار الكثير من اليهود على طلب الملجأ في أنحاء أخرى من البلاد. وكان بعد تحلل الخلافة في إسبانيا أن تفتتت إلى إمارات صغيرة، ومن ثم عاش اليهود في بعض هذه الإمارات حيث عانوا في العهود التالية الكثير من الويلات.

لقد شهدت أقاليم الدول العربية نهضة بلغت في عمقها واتساعها، فضلاً عن مقدار منجزاتها، ما يعادل إن لم يتفوق على غيرها في عصر مشابه آخر من تاريخ الإنسان، ولم يكن دور اليهود في تلك النهضة صغيراً، فقد كان جسراً ثقافياً دولياً حيث تناثروا بين الناس شرقاً وغرباً. وكان هناك تعاون ملحوظ بين العرب واليهود في الدراسات العلمية والفلسفية، وذلك بترجمة أمهات الكتب العربية إلى العبرية. كما كان هذا العصر الذهبي للأدب العبري، وكان من أشهر أدباء العبرية وشعرائها «سلمون بن جابيرول، ويهوذا هاليفي، وصمويل بن ناجريلا، ومسي بن عزراء» الذين أورثوا من خلفهم من الأجيال تراثاً له جماله الفني الرائع.

و«موسى بن ميمون» ولد في قرطبة وتركت عائلته إسبانيا إلى فارس، ونصل بشخصية الحاخام «موسى بن ميمون» إلى ذروة الفكر اليهودي في العصر الإسلامي. على أن شهرته لم تكن لذكائه بل لتأثيره في الفلسفة الأوروبية. كان لموسى بن ميمون شأن كبير بين يهود عصره فيزيائياً، وطبيباً. وقد كتب كثيراً من كتب الطب المعروفة التي تكشف عن دراية كبيرة بالعلوم الطبيعية. وقد كان على الرغم من اعتلال صحته، صاحب دور في شؤون اليهود، وقد كرم بعد موته بالقول: «بين موسى وموسى لم يظهر مثل موسى».

و«يهودا هاليفي» الشاعر والفيلسوف عاش في الأندلس، وأخذ عن أهازيج الغزل العربية ما طوّعه إلى العبرية. وكان أهم ما قدم للأدب اليهودي أغاني المنفى، وقصيدة لصهيون التي حفظتها وروتها الأجيال اليهودية. وكان شعره يشمل أعماله الفلسفية، وقد حرص على بيان سمو الديانة اليهودية على المسيحية والإسلام، وذلك على نمط الحوار

«الأفلاطوني» حيث بسط في فكره أن الفلسفة وإن أدت إلى إثبات فهي تؤدي وحدها إلى تأكيد العلاقة بين العبد وربه. تلك العلاقة المستمدّة من نورانية النفس التي اختصت بها إسرائيل حيث وقع الاختيار على أهل الوحي والنبوة. فتمتعوا بالموهبة التي غرست في آدم، ثم توارثها يعقوب وبنوه ومنهم إلى الناس جميعاً. وهو يضع إسرائيل من العالم بمنزلة القلب من الجسم. ولم يكن له كذلك أن يترك قضية مثل الشتات في كتابه حيث قال: هل لنا في الشرق مكان تستقر فيه آمالنا، وما كان أمله إلا في أرض إسرائيل. ولقد دفعه حبه صهيون إلى هجرة وطنه وأهله إلى القدس، وإن روي في أسطورة مؤثرة أنه قتل تحت سنابك أحد فرسان العرب، وهو قائم يبكي أمام حائط المبكى عند الحائط الغربي.

ففي نهاية التجربة الذهبية فإن العالم العربي لن يعيد ملك الوحدة السياسية المثالية والجمعية الدينية التي كانت في إسبانيا وشمال أفريقيا. وقد حاول بعض حكام العرب فيما بعد أن يضعوا مسؤولية ما حدث للدولة الإسلامية على أكتاف اليهود. ولم يشهد اليهود فترة ذهبية في حياتهم مثل تلك التي شهدوها في هذه الفترة. وإن المؤلفات الصهيونية لها مع التحفظ الشديد بعض القيمة التاريخية. ولكنها إنما تكشف عن نوع من الفكر اليهودي الجديد، بما يعتمد عليه من تزييف الحقائق التاريخية. وإن محاولة تزييف التاريخ مفضوحة، ولا يفضح تزييفها إلا حقائق التاريخ نفسه[١].

لقد تبدلت الأوضاع في الشرق العربي قبل الإسلام إلى الأسوأ وذلك في ظل السيطرة الهمجية للحكم الأجنبي الذي نجم عن حركة اليهود ومسيحهم «تدرش» بالإجهاز على الدولة البابلية في العراق، وأبادوا الشعوب حرقاً بالنار. فاستطاع الفرس أن يقضوا على كل أثر حضاري للشعوب العربية المتحضرة في العراق والخليج العربي والشام ومصر. فرزحت منطقة الشرق العربي قروناً طويلة للأمم الدخيلة التي مهّد لها اليهود فأقحلت الأذهان وانطمست الشرائع، وغيّبت كل أسرار الإبداع الحضاري، فاليهود

(١) حقيقة اليهود، سعد العفنان ص٩٣ ـ ١١١.

ليسوا محرومين من روح الإبداع الحضاري فحسب، بل هم أعداء للإبداع مخربون لكل إنجاز حضاري معادون لكل موهبة يمكن أن تساهم في تطوير الجهد الإنساني لخدمة الجنس البشري. فاليهود أعداء لكل فضيلة، ونفوسهم مريضة يحكمها الحقد والأنانية، وهم يفعلون الشر ويقاومون الخير، ويرون الجمال قبحاً، ويرون القبح جمالاً.

وبتتبعنا لسير الأفذاذ من اليهود وقفنا على حقيقة لا تقبل النقض. وهي أن اليهود الذين أعطوا للإنسانية وآثروا الحضارة البشرية كانوا منفصلين تماماً عن المخطط التخريبي وغير ملتزمين بالعقيدة اليهودية، وأن انتماء أي منهم لليهودية هو أنه ولد لأبوين يهوديين فقط. ونجد أن هؤلاء الأفذاذ الذين ولدوا يهوداً قد انفصلوا عن اليهود وارتبطوا بمجتمعاتهم التي وجدوا فيها. والتي تلقوا معارفهم عنها، والتي من خلالها قدّموا للعلم عطاءهم الحضاري والإنساني.

فالعلامة اليهودي «موسى بن ميمون» ولد في مجتمع عربي، وتلقى علومه في الطب والفلسفة على أيدي العلماء العرب في الأندلس ومن خلال الثقافة العربية والحركة الحضارية العربية قدم علماءه الإنساني والحضاري. ومع أن ابن ميمون من الصف الثاني أو الثالث بالنسبة للعلماء في زمنه، إلا أنه نال سمعة أكبر من عطائه بكثير، وذلك لأن الباحثين والمؤرخين أعطوه دوراً أكبر من دوره الحقيقي. وكذلك يفعلون مع أضرابه من العلماء الذين لهم أصول غير عربية للتقليل من شأن العرب ومن شأن الحضارة العربية[١].

إن المجتمع الإسرائيلي تحت راية العرب والإسلام كان يتقدم ويرقى بعد أن رفع عنه الظلم والحرمان، وظهر فيه علماء ساهموا في نشر التراث العربي الإسلامي. ففي مصر ظهر أمثال «سعد الفيومي»، وفي شمال أفريقيا «مناحم بن سروق، ودنش بن لبرت»، وفي الأندلس «أبا زكريا يحيى بن داود حيوج، وأبا الوليد مروان بن جناح»، ثم طلع علينا الرئيس «أبو عمران

(١) المجتمع الإسرائيلي، د. فؤاد حسنين ص٣٣ ـ ٣٤.

موسى بن ميمون عبيدالله القرطبي»، وقد نجح بمؤلفاته في جمع الشعب اليهودي وبعث عقيدته بعثاً جديداً لذلك يعتبرونه ثاني الموسيين[١].

❋ ❋ ❋ ❋

معاناة اليهود من الحروب الصليبية

كان لسماحة المسلمين في معاملتهم لأهل الكتاب في البلدان التي خضعت لهم، وفي مساواتهم في المعاملة بين طوائف اليهود والنصارى، أثر مهم في عدم القضاء على الطوائف اليهودية خلال القرون الوسطى. فطالما كان أهل الذمة يقومون بدفع الجزية المفروضة عليهم لم يكن أحد يتعرض لهم بسوء، سواء في ممارستهم الدينية أو في نشاطاتهم الاجتماعية والاقتصادية. وكانت فترة الحروب الصليبية التي شنّتها دول أوروبا المسيحية على الدول الإسلامية، عند محاولتها الاستيلاء على الأراضي المقدسة الفلسطينية، كانت نقطة تحول هام في تاريخ اليهود. والحروب الصليبية مجموعة من الحملات أرسلتها دول أوروبا بتحريض من الكنيسة للاستيلاء على الأرض الفلسطينية. وصاحب هذه الحروب ضد المسلمين في المشرق اندلاع حركات غوغائية من العداء للجاليات اليهودية الموجودة في الدول الأوروبية راح ضحيتها الآلاف منهم. فكان كل تجمع صليبي في أوروبا يبدأ مسيرته بمهاجمة اليهود والمقيمين حوله وهو في طريقه إلى بلدان الشرق.

كان العالم الإسلامي في تلك الحقبة مقسماً تحت سيطرة عدد من الكيانات السياسية، فبينما استمرت الخلافة العباسية في العراق، كانت الخلافة الفاطمية في مصر، والخلافة الأموية في الأندلس. وبسبب ضعف هذه الدول بدأ نجم الأتراك في الصعود وتمكن السلاجقة من الاستيلاء على مدينة القدس من الفاطميين. وكانت هذه الحروب قد بدأت في عام **١٠٩٥**م إثر اجتماع المجمع المسيحي بتحريض البابا «أوريان الثاني» الذي أصدر

(١) تاريخ اليهود، أحمد عثمان ج٢ ص١٥٧ ـ ١٦٠.

وعداً بالغفران لكل من ينضم إلى الحملة التي تهدف إلى تحرير القدس من المسلمين. وقد نجحت هذه الدعوة، ويرجع السبب في تسمية هذه الهجمات بالحروب الصليبية إلى أن هذه الجيوش قد جعلت الصليب علامة لهم.

وفي عام ١٠٩٦ ميلادية بدأت مسيرة الصليبيين، وكانوا قد قرروا قتل كل يهودي يرفض العمادة المسيحية. ثم امتدت الاعتداءات إلى مناطق أخرى على نهر الراين في وسط أوروبا حيث قتل ثمانمائة من اليهود في «ويرمز» ولقي ألف حتفهم في «ماينز». وفي «كولون» حدث الأمر نفسه، وفي «ديجينز بيرج» ألقوهم في نهر الدانوب للعمادة الجبرية. واستمرت المذابح في «ميتز» و«براغ» وفي مناطق «بوهيميا» حيث لقي حوالى خمسة آلاف مصرعهم[١]. لقد سارت الحملة الصليبية من القسطنطينية وعبروا مضيق البوسفور، وبسقوط إنطاكية في شمال سورية أصبح الطريق مفتوحاً أمام الصليبيين للزحف على القدس. وقد دخل الصليبيون مدينة القدس في عام ١٠٩٩ ميلادية، وأقاموا مذبحة كبيرة فيها وغطت دماء القتلى شوارع مدينة السلام. وأصبح «جودمزي» ملكاً على بيت المقدس. كما استولى الصليبيون على الجالية اليهودية التي كانت عادت إلى القدس في ظل الحكم الإسلامي، واتخذت لنفسها مركزاً في القدس برئاسة «يوسف بن نوح» فقام الصليبيون بإحراق اليهود أحياء داخل معبدهم. كما هربت الجاليات اليهودية التي كانت قد استقرت في الأراضي الفلسطينية الأخرى.

وكان المسلمون متفرقين في مواجهة هذه الهزائم إلى أن ظهر زعيم جمع شتاتهم وهو «عماد الدين زنكي» عامل العباسيين على الموصل الذي وجّه همّته نحو إخراج الصليبيين من بلاد المسلمين. وكانت هذه الصحوة هي السبب الذي أدى إلى انزعاج الصليبيين من احتمال فقدان سيطرتهم على المناطق التي احتلوها. فأعدُّوا لحرب صليبية ثانية شارك فيها بولس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا إلا أنهم اضطروا إلى العودة إلى

(١) المرجع السابق ج٢ ص١٦٠ ـ ١٦٥.

بلادهم بعد محاولة فاشلة للاستيلاء على دمشق عام ١١٠٨ ميلادية. ومات عماد الدين الزنكي قائد المقاومة الإسلامية عام ١١٤٦ ميلادية، وخلفه ابنه «نور الدين» الذي تمكن من تدعيم مركزه عندما دخلت قواته إلى دمشق وحلب. إلا أن ساحة القتال سرعان ما انتقلت بعد ذلك من بلاد الشام إلى الأراضي المصرية حيث كانت الخلافة قد سمحت لنور الدين بأن يلعب دوراً مهماً في مقاومة الصليبيين في هجومهم على مصر. فعندما أغار الصليبيون على «بلبيس» استنجد الخليفة الفاطمي «العاضد» بنور الدين في حلب، فأرسل إليه «أسد الدين شيركوه» على رأس جيش إلا أنه مات، وخلفه ابن أخيه «صلاح الدين الأيوبي».

وكان ظهور صلاح الدين الأيوبي على رأس القوة الإسلامية نقطة تحول حاسمة في الصراع بين الصليبيين والمسلمين. وسرعان ما انفرد بالحكم عندما قضى على الخلافة الفاطمية، ثم امتد سلطانه بعد موت نور الدين ليشمل حلب شمال سوريا. وتمكن من استعادة الكثير من القلاع والحصون، وتوّج انتصاره باستعادة القدس عام ١١٨٧ ميلادية. وكان لسقوط القدس في أيدي المسلمين أثر في نفوس الصليبيين مما جعلهم يرسلون حملتهم الثالثة بقيادة «فيليب الثاني» ملك فرنسا، و«ريتشارد قلب الأسد» ملك بريطانيا. ولكن حملتهم لم تفلح في استرجاع سيطرتهم على القدس بل انتهت بعقد صلح بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد عام ١١٩٢ ميلادية، تم بمقتضاه الاعتراف بسيطرة المسلمين على أرض فلسطين.

ولما انتهت الحروب الصليبية بطرد الصليبيين من المشرق، كان الصليبيون يشفون غليلهم عن طريق تذبيح اليهود المقيمين بينهم في أوروبا. ففي عام ١٢١١ ميلادية اضطر ثلاثمائة من الأحبار إلى ترك البلدان الأوروبية والهجرة إلى البلدان الإسلامية، خوفاً من الاضطهاد. وواجهت الجالية اليهودية في فرنسا خطراً من جراء هياجات شعبية صليبية عام ١٣٢٠ ميلادية، عندما تجمع أربعون ألفاً وساروا خلال المقاطعات الفرنسية يبحثون عن اليهود لقتلهم. وهكذا نرى العداء الصليبي للمسلمين في الشرق صاحب

عداء لليهود في أوروبا حيث توعد الصليبيون بالانتقام منهم لقتلهم المسيح، ومحاولة تنصيرهم بالقوة. بينما لم يتعرض يهود إنجلترا إلى أي مشاكل، حيث إن الإنجليز لم يشتركوا في الحملة الصليبية الأولى ولا في الثانية. وعلى أثر اشتراك قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة، بدأت حملة اضطهاد اليهود في إنجلترا ولقي عدد كبير منهم مصرعهم في هذه الحملة.

كما أن نبلاء يورك الذين كانوا مدينين لليهود انتهزوا هذه الفرصة ورفضوا دفع الديون. لقد أدرك يهود أوروبا من هذه الأحداث عدم قدرة الكنيسة المسيحية على حمايتهم، فقاموا برشوة الأمراء الحكام للقيام بهذا الدور. ومنذ هذه الفترة نشأت مصلحة اقتصادية مشتركة بين النبلاء واليهود، وازداد مركز اليهود أهمية في القيام بالأعمال البنكية وعمليات التسليف المالي. وتطور دور اليهود ليصبح قوة اقتصادية وعمليات التسليف المالي. وتطور دور اليهود ليصبح قوة اقتصادية جبارة ووسيلة فعالة للوصول إلى مركز القوة في المجتمع الأوروبي الجديد خصوصاً في عصر النهضة ونمو الاقتصاد الرأسمالي[١].

❋ ❋ ❋ ❋

حركة الانتشار والهجرة اليهودية

إن حقائق التاريخ تقرر أن مسيرة الجماعات بعيداً عن أرض الدعوى «فلسطين» كانت كبيرة ومنتشرة. فمنذ أن تمكنت الجماعات اليهودية من أن تستغل العلاقة التاريخية في عهد سليمان عليه السلام بين جماعات إسرائيل وبين شعب اليمن انتشرت اليهودية من اليمن إلى الحبشة لوجود علاقات تجارية بين اليمن والحبشة في ذلك الوقت. وبعد هذه المرحلة لجأت الجماعات اليهودية وأيضاً الجماعات المتهودة التي أضيفت للقوى اليهودية إلى أساليب كثيرة في نشر الدين اليهودي. وساقتها حركة الاستغلال التي تلوكها

(١) تاريخ اليهود العام، صابر طعيمة ج٢ ص١٧٧ ص١٨٣.

الجماعات اليهودية على أساس من دعوى الامتياز، وكانت الطرق التي سلكتها في حركة انتشارها تتلخص في:

أولاً: طريق يمتد من فلسطين إلى العراق وغرباً مصر وبلاد المغرب وإسبانيا والبرتغال. ويهود هذه المجموعة لا يزال منهم من يعيش فيها، ولم تفضل الانتقال إلى دولة إسرائيل عندما صنعت. ولقد أصبح اليهود مساوين للعرب المسلمين، قادرين مثلهم على تقلد مناصب الدولة في إسبانيا، وتمتعوا بحماية الدولة ورعايتها فزاد عدد اليهود كثيراً.

ثانياً: الطريق التي سلكتها الجماعات اليهودية في عملية انتشارها إلى خارج الأرض العربية على مراحل متفاوتة من التاريخ هو طريق القوقاز. وفي بلدان القوقاز استقرت الجماعات اليهودية والمتهودة في روسيا. وكان وجود اليهود في بلدان القوقاز من بين الأسباب المؤثرة في أقطار أوروبا الشرقية، وخاصة في القرن السابع الميلادي عندما تم التأثير على جماعات الخرز التركية كي تعتنق الديانة اليهودية.

ثالثاً: الطريق التي سلكتها الجماعات اليهودية التي كان لها كبير أثر في توسيع عملية الانتشار والهجرة، وهي منطقة حوض نهر الراين وبولندا وروسيا الغربية. وقد ازدادت هذه المجموعات في العدد برغم ما تعرضت له من الاضطهاد الشديد حتى بلغ عددها تسعة أعشار اليهود في العالم.

وهذه المجموعة الثالثة الكبرى التي يطلق عليها اسم «يهود الإشكناز» تتكلم لغة «بدش» وهي تطابق لغة الشمال الغربي من ألمانيا. وبالرغم من أنها لغة ألمانية فإنها تكتب بالحروف العبرية، ولكن الاقتباس لم يغير شيئاً من طبيعة اللغة. وأخيراً فإن زيف الدعوى التي تقول: إن الجماعات اليهودية تقيم دائماً ديناً مغلقاً ومجتمعاً مستقلاً حتى تظل محتفظة بخصائص الاختبار والاصطفاء. فهي مرفوضة من واقع هذا التاريخ الذي يرفض الأوهام اليهودية وزيف ما تصنع. وبما قرره العلم وسجله التاريخ فإنه لا يسيغ لوثة الارتباط بالدعاوي التعصبية أن يدّعي أحد القول بنقاء الجنس وأفضلية الشعب المختار. فلقد أصبح من المقررات العلمية بأن اليهود وخاصة الأوروبيين هم أدنى إلى الجنس الآري منهم إلى الجنس السامي.

غير أن الارتباط بزيف ما يؤمن به الغلاة من اليهود بنقاء الجنس، وارتباط السلالة اليهودية بعضها بالبعض عبر مراحل التاريخ هي الذي كان وراء تجنيد الجماعات اليهودية، وتعبئتها في حركة عنصرية. هذه الحركة التي قادت أعنف ما يعتقد المتعصبون من اليهود للشعوب الذي يعيش بلا أرض وبلا لغة تعامل، وبلا آداب دين، وبلا مستقبل. وكانت هذه العقيدة من أجل الأرض واللغة والمستقبل مضمون الفكرة اليهودية التي عبّر عنها المتعصبون جيلاً منذ مراحل الذوبان والانتشار، فعبّرت عن نفسها بدعوى التعصب العنصري مرتباً بحركة الاستعمار العالمي ضد مستقبل الشعوب ومقدراتها في الصهيونية العالمية مرحلة من مراحل التاريخ اليهودي[١]. وفي شرق العالم الإسلامي نجد القرن السادس عشر الميلادي يفاجئنا بأحداث جسام أثرت في المجتمع الإسرائيلي. ففي عام **١٥١٧** ميلادية ارتبط مصير سكانً مصر مسلمين ومسيحيين ويهود بمصير سائر مواطني الإمبراطورية العثمانية. وأن العثمانيين قد تحلُّوا بالتعاليم الإسلامية السمحاء، فقد أحسنوا معاملة أهل الذمة وفتحت لهم أبواب الوظائف الحكومية والمهن الحرة، فأطباء الكثرة من سلاطين آل عثمان كانوا يهوداً. كما رغب اليهود أنفسهم في استيطان حي خاص بهم، فكان لهم ما أرادوا، كذلك الحال في مختلف أصقاع الدولة العثمانية، فقد كان اليهود أحراراً في امتلاك الأراضي سواء الزراعية أو السكنية أو التجارية أو الصناعية. وفي عام **١٣٦٠** ميلادية استولت تركيا على جزء كبير من الأملاك البلقانية، فيسرت لليهود الاتصال بيهود تركيا الآسيوية. وهكذا أخذ المجتمع الإسرائيلي يجتمع في البلقان، ويزحف تدريجياً إلى قلب أوروبا. وبعد أن انتهت دولة العرب في إسبانيا، وتوقف الفتح التركي الذي بلغ حدود «ڤيينا»، ولم يبقَ أمام المجتمع الإسرائيلي الذي أخذ تحت راية العرب والترك يجمع شمله ويوحد صفوفه إلا أن يسقط تحت نير عدوه الوثنية والمسيحية. وانفرط عقد هذا المجتمع وأصبح اليهود قسمة بين شعوب متعددة الأجناس واللغات، فاختفت عناصر

(١) المجتمع الإسرائيلي، د. فؤاد حسنين ص٣٤ ـ ٣٥.

الوحدة وتلاشت فكرة المجتمع الإسرائيلي[١]. إن الشعب التركي جريء ونبيل مدّ يد الإنسانية والعون لنجدة المغلوبين، والجميل الذي قمنا به نحو اليهود المضطهدين كان عظيماً عظمة حمايتنا التي شملتهم، بينما هم لم ينكروه فحسب، بل خانوا خيانة عظمى. إن السلطان «مراد الثاني» قد وافق على قبول اليهود البؤساء المطرودين من إسبانيا والبرتغال وغيرها من البلاد الأوروبية، وعلى إسكانهم في تركيا في الدولة العثمانية الكبرى. قد تكون لنا المعاذير وأسباب حملتنا حين ساعدنا اليهود، وهي عدم توقعنا منهم أي شر، وهم بؤساء وجياع لجأوا إلى أعتاب دولة إسلامية كان لها سلطانها على العالم. ولكن ما عذر علماء الدين في ذلك العهد في عدم القيام بمعارضة تسامح الدولة تجاه اليهود، وهم يعرفون أنهم ألد أعداء الإسلام منذ البداية، وكيف بثّت بذور الفتنة والتفرقة بإنشاء مذاهب واختلافها. وقد استغل اليهود كرم هذا الشعب إلى أبعد حدود الاستغلال، وقد انكشف دورهم في جميع الأزمات التي نكبت بها الأمة التركية. وهم الذين حاولوا تسميم السلطان «محمد الفاتح».

وقد زادت الخصومة اليهودية عندما ضعفت قدرة الأتراك الذين كانوا يسودون على ثلاث من قارات العالم. لقد نشروا الفوضى ونظموا القوة المناهضة بقصد تحطيم الإمبراطورية العثمانية. وسلّموا أعضاء «تركيا الفتاة» في الخارج، وأمدُّوهم بالأموال. كما نظموا العصابات في البلقان، كان كل هذا النكران لجميل تركيا نحو اليهود يتلخص في أن: «تحطيم الإمبراطورية العثمانية هو شرط أساسي لإقامة حكومة يهودية صهيونية في فلسطين». ولم تبقَ هناك حيلة ولا دسيسة ولا وسيلة إلا لجأ إليها اليهود. إلا أن السلطان العثماني «عبدالحميد الثاني» كان الشخصية التي تعترض تحقيق آمالهم، وتمانعهم في الوصول إلى غايتهم بالاستيلاء على الأرض المقدسة التي يقيمون فيها حكومتهم. ولم يستطع اليهود بأموالهم التي قدِّرت بملايين من جنيهات الذهب، ولا بمحاولتهم التي أثاروها في جميع أنحاء العالم أن يثنوا

(١) الإسلام وبنو إسرائيل، الجنرال آتلخان ص٢٣٥ ـ ٢٣٨.

السلطان عبدالحميد الثاني عما تمسك به. لقد طرد من مجلسه «تيودور هرتزل» والحاخام «موشى ليفي» اللذين طلبا منه تحقيق رغباتهم في إقامة حكومة يهودية في فلسطين. فأجابهم: «إني أحب العدالة لجميع المواطنين وتطبيق المساواة عليهم، وأما إقامة دولة يهودية في فلسطين فلا»(١).

ويرجع تاريخ استيطان اليهود البلاد الهندية إلى ما قبل ألفي عام، ويقيم أكثرهم في شواطئ الهند الجنوبية. وفي الأزمان القديمة كانت جميع الموانئ الهندية عامرة باليهود. وكانت مدينة «كوتشين» مركزاً مهماً لليهود، وبها كنيسة يهودية من القرن الرابع الميلادي. وعندما ظهرت دولة إسرائيل إلى عالم الوجود بادر اليهود الهنود بالهجرة إليها. إن جميع اليهود الذين يقطنون كوتشين وضواحيها من ولاية «كارالا» قد هاجروا جميعاً إلى إسرائيل. ويقدر مجموع عدد اليهود الهنود الذين هاجروا إلى إسرائيل حتى عام **١٩٧٦** ميلادية بثلاثة عشر ألف شخص. ويعمل هؤلاء الهنود في إسرائيل في مزارع جماعية «كوبتز»، ويكسبون عيشهم من تربية الدواجن وزراعة الخضار. وهذه المزارع أنشئت على الحدود لكي تكون حزاماً واقياً للمستوطنات، ومواقعها صالحة للدفاع بغض النظر عن قابليتها الزراعية(٢).

ويكشف المؤرخون في معرض سردهم لتطور المجتمعات اليهودية في أوروبا، عن تصور صهيوني متعصب. يستند أساساً إلى تميز اليهود عن غيرهم وضرورة حفاظهم على كيانهم الاجتماعي والثقافي والديني، بل والسياسي داخل المجتمعات التي يقميون وسطها. وكان اليهود يحتفظون بوضعهم المستقل المنعزل، ومن ثم لم يكن الاضطهاد وسيلة للانتقام فرضت على اليهود. وإنما كان ترتيباً تمسك به اليهود أنفسهم مقاومة للاندماج والذوبان. وكان ذلك سبباً لنمو الإحساس العام بالنفور تجاههم، وحيث كانوا يمثلون دولة داخل الدولة لها قوانينها وأسلوب حياتها. ويكشف تحليل المؤرخين عن هذه الحقيقة، وهي التي تكذب مزاعم اليهود عن أنهم

(١) الصهيونية والهندوكية، أبي الحارث محمد حامد ص١١٧ ـ ١١٨.

(٢) من العهد القديم إلى قيام دولة إسرائيل، د. حسين شريف ج١ ص٢٢٤، ٣٣٣ ـ ٣٣٥.

اضطروا للانعزال في مواجهة الاضطهاد الديني والعنصري، والتفكير في جعل وطن قومي لهم.

كما أشار المؤرخون الغربيون واليهود إلى جوانب صراع اليهود مع غيرهم، وأن هذا الصراع قد بلغ حدّته مع نمو الحركات القومية الأوروبية، ففي أثناء الحركة القومية الألمانية التي تزعّمها «بسمارك» شبّ الصراع مع اليهود. إذ كانوا لا يعتبرون أنفسهم في إطار القومية الألمانية مع حملهم الجنسية الألمانية. وإنما كانوا يتصورون أنهم قومية منفصلة، ومن ثم لم يكن مناص من الصدام بين الطرفين. وكانت هذه هي نفس مشكلة اليهود في البرتغال وإسبانيا، حيث انتهى الأمر إلى طردهم من البلدين خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر. ويرجع تاريخ قدوم اليهود إلى الولايات المتحدة الأمريكية إلى تاريخ اكتشاف أمريكا نفسها[١].

وتوضح إحصائيات عدد اليهود في العالم وأماكن توزيعهم في العالم نقلاً عن الكتاب السنوي اليهودي، عام **١٩٧٣** ميلادية كالتالي: الولايات المتحدة الأمريكية «٦,١١٥,٠٠٠»، الاتحاد السوفييتي «٢,٦٤٨,٠٠٠»، فرنسا «٥٥٠,٠٠٠»، الأرجنتين «٥٠٠,٠٠٠»، بريطانيا «٤١٠,٠٠٠»، كندا «٣٠٥,٠٠٠»، البرازيل»، «١٤٠,٠٠٠»، جنوب أفريقيا «١١٧,٩٠٠»، رومانيا «٩٠,٠٠٠»، إيران «٨٠,٠٠٠»، المجر «٨٠,٠٠٠»، أستراليا «٧٠,٠٠٠»، أورجواي «٥٠,٠٠٠»، بلجيكا «٤٠,٥٠٠»، يوغسلافيا «٣٧,٠٠٠»، إيطاليا «٣٥,٠٠٠»، ألمانيا «٣٢,٠٠٠»، تركيا «٣٠,٠٠٠»، شيلي «٣٠,٠٠٠»، هولندا «٢٢,٠٠٠»، سويسرا «٢٠,٠٠٠»، السويد «١٥,٠٠٠»، فنزويلا «١٥,٠٠٠»، الهند «١٤,٠٠٠»، تشيكوسلوفاكيا «١٤,٠٠٠»، كولومبيا «١٣,٠٠٠»، الحبشة «١٢,٠٠٠»، إسبانيا «٩,٠٠٠»، تونس «٨,٠٠٠»، بلغاريا «٧,٠٠٠»، اليونان «٦,٥,٠٠»، بيرو «٥,٣٠٠»، روديسيا «٥,٢٠٠»، إسرائيل «٢,٧٦٣,٠٠٠»[٢].

---

(١) الإسرائيليون مَنْ هم، د. قدري حفني ص٩٦.

(٢) الإسلام وبنو إسرائيل، الجنرال آتلخان ص٢٣٥ ـ ٢٣٨.

لغات اليهود

كان الإسرائيلي يتحدث العربية أو التركية العربية، ثم تغير حاله وأصبحنا نجد اليهودي الألماني والإسباني والفرنسي وهلمّ جراً. لذلك شعر اليهودي بالحاجة الملحّة إلى إيجاد لغة تفاهم خاصة بهم فقط لا يفهمها «الجوييم»، لقد كان يهود العصور الوسطى يحيون في المعازل، ولا شك في أن حياة المعزل تساعد على تكوين الشخصية وتقويتها. وأصبحت لغة المعزل مستقلة لا سامية شرقية ولا أوروبية غربية، وأخذت هذه اللغة الجديدة تستكمل وجودها في القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادي، وتعرف هذه اللغة باسم «بيديش»، وكانت حتى نهاية القرن الرابع عشر عبارة عن ألمانية دارجة مشحونة بالأخطاء وتضحك سامعيها. وحدث أن اشتدت وطأة الاضطهاد على يهود اللورين فلجأوا إلى الراين فأثّروا في البيديش لغة مواطنيهم، كما تسربت عن طريق يهود آخرين اللغة الإيطالية، وعن طريق الآرامية التي استعارت بعض الألفاظ اليونانية واللاتينية وجدت هذه المقررات طريقها إلى «البيديش». ثم جاء الصليبيون وانتقموا من اليهود فهاموا على وجوههم إلى شرق أوروبا حيث اللغات «الصقلبية» التي وجدت طريقها أيضاً إلى «البيديش». وهكذا أصبحنا أمام لغة كالنهر تمده مختلف النهيرات بالمياه التي تكفل له الجريان، وحرص اليهود على الوفاء لها والعناية بها وذلك لأسباب منها:

١ ـ كلما تقدم اليهود نحو شرق أوروبا انخفض المستوى الثقافي العام للسكان الأصليين، لذلك نجد ملوك البلاد التي لجأ إليها اليهود يقربونهم إليهم رغبة في تكوين الطبقة المتوسطة المثقفة التي يفتقدها مجتمعهم وأغلبهم من الفلاحين. لكن اليهود يفضلون الحياة في المعزل بعيدين عن السكان الأصليين إلا عند الإتجار معهم. واليهود في جميع الظروف يحتفظون بالبيديش، وإن كانوا قد دأبوا على تعلُّم لغات الشعوب المضيفة لهم مثل البولندية والروسية والأوكرانية.

٢ ـ وبالرغم من الاضطهادات التي حلّت بهم في ألمانيا حرص اليهود

الهاربون على الاتصال بإخوانهم الباقين، لذلك دأبوا على استخدام «البيديش» كلغة للمراسلات بينهم وأطلقوا عليها اسم «ممت لشون»، أي: لغة الأم[١].

وغير «البيديش» يرطن اليهود لغات أخرى ليست سامية أو آرية بل خليط، فإذا استثنينا اللغة السامية الآرامية، فقد نجد اليهودية الفارسية واللادينو أو الأسبنيولية أو الدذوديزمو.

إن العبرية ليست هي لغة الآباء الإسرائيليين، فقد كانوا يتكلمون الآرامية القريبة جداً من العربية الشمالية، ومن ثم باختلاطهم بالكنعانيين أوجدوا العبرية في ثنايا العهد القديم.

أما اللغة المستحدثة في المجتمع الإسرائيلي «الأسبنيولي» فهي اللادينو «اللاتيني»، وهي عبارة عن لهجة دخلتها بعض الألفاظ العبرية والعربية والتركية. وقد انتشر هؤلاء اليهود الإسبان المعروفون باسم «سفرديم» في شمال أفريقيا ومصر وفلسطين والشرق عامة، ومن ثم إلى جنوب أوروبا وهولندة. وتستخدم (اللادينو) مثل (البيديش) الحروف العبرية في الطباعة. وفي القرن الثاني عشر الميلادي هاجر كثيرون من «السفرديم» إلى أوروبا وأمريكا. ولم يمضِ زمن طويل حتى أصبحت (اللادينو) اللغة الرسمية لـ«السفرديم» في كثيرٍ من دول العالم. إلا أن العوامل التي أدت إلى تدهور (البيديش) لعبت نفس الدور مع (اللادينو)، ومكنت اللغة الإنجليزية من الانتشار بين اليهود فدخلت المعبد وأصبحت لغة الصلوات والعبادات، وبخاصة في أمريكا الشمالية والهند[٢].

ومن هذا العرض المقتضب للمجتمع الإسرائيلي المشرّد في مختلف بلاد العالم نتبين نوع الخليط المقيم اليوم في فلسطين، فلا وحدة في

(١) المجتمع الإسرائيلي منذ تشريده حتى اليوم، د. فؤاد حسين علي ص٣٦ ـ ٤٧.
(٢) المرجع السابق ص٤٧ ـ ٤٩.

الجنس أو الثقافة أو اللغة. إن الوحدة في إسرائيل أو بتعبير أدق في المجتمع الإسرائيلي في فلسطين معدومة، ففيها اليهودي الألماني والروسي والبولوني والإيطالي والأسباني والصيني والهندي... إلخ، ولكن لم نجد في هذا المجتمع «يهودياً يهودياً». ولا شك في أن لكل جنس من هذه طباعه وتقاليده كما أن نظرته إلى الدين نظرة تغاير نظرة «اليهودي اليهودي». كما أن اليهودي الغربي غير الشرقي، فكيف تستطيع حكومة مهما أوتيت من قوة أن توفق بين هذا الخليط؟

وإذا تركنا الجنس إلى اللغة العبرية التي جعلتها الحكومة الإسرائيلية اللغة الرسمية وجدنا مزيجاً يداني الخليط الجنسي. فاللغة العبرية الحديثة لغة على التجاوز في مجموعة من اللغات وفيها من السامية والقليل من الألفاظ العبرية، ولا تستطيع الكثرة المطلقة من سكان إسرائيل النطق بها نطقاً صحيحاً. إضافة على هذا كتابة الكلمة الواحدة، فكل يكتبها حسب النطق بها، وكذا فإن تركيب الجملة وإعرابها يعتبر مشكلة المشاكل. وليس هذا بمستغرب، فاللغة العبرية الأصلية قد ماتت كلغة حية حوالى القرن الثاني قبل الميلاد، وأصبحت قابعة بين جدران المعبد. واليوم يريد قوم بعثها وترويضها لخدمة أبناء القرن العشرين الميلادي. فسائر اللغات الحية عاجزة عن مسايرة النهضة العلمية الحديثة، فكيف الحال بالعبرية الإسرائيلية؟ وهذه نقيضة للمجتمع الإسرائيلي في فلسطين.

❋ ❋ ❋ ❋

أعياد اليهود

وأعياد اليهود التي نطقت بها توراتهم خمسة هي كالتالي:

أولاً: عيد رأس السنة. يسمُّونه: «رأس هيث»، أي: عيد رأس الشهر، وهو أول يوم من تشرين. ينزل عندهم منزلة عيد الأضحى عندنا،

ويقولون: إن الله عزَّ وجلَّ أمر إبراهيم بذبح إسحاق ابنه عليه السلام فيه، وفداه بذبح عظيم.

ثانياً: عيد صوماريا. ويسمى «الكيبور»، وهو عندهم الصوم العظيم الذي فرض عليهم، ويقتل مَن لم يصمه. ومدة الصوم «خمسة وعشرون ساعة»، يبدأ فيها قبل غروب الشمس في اليوم التاسع من شهر تشرين، ويختم بمضيّ ساعة بعد غروبها من اليوم العاشر، ويشترطون رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار. وهي عندهم تمام الأربعين الثالثة التي صام فيها موسى عليه السلام. ولا يجوز أن يقع عندهم في يوم الأحد، ولا يوم الثلاثاء، ولا في يوم الجمعة. ويزعمون أن الله تعالى يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم إلا الزنا بالمحصنات، وظلم الرجل أخاه، وجحد ربوبية الله تعالى.

ثالثاً: عيد المظلة. وهو ثمانية أيام، أولها الخامس عشر من تشرين، وكلها أعياد، واليوم الأخير منها يسمى «عراباً»، وتفسيره شجر الخلاف، وهو حج لهم. وهم يجلسون في هذه الأيام تحت ظلال سعف النخل الأخضر، وأغصان الزيتون، وسائر الشجر الذي لا ينشر ورقه على الأرض. ويزعمون أن ذلك تذكار منهم لإظلال الله تعالى إياهم في التيه بالغمام[1].
إن المتفق على يهوديتهم: «القرّاؤون، والربّانيون»، وهم وإن كانوا فرقتين، فإنهم كالفرقة الواحدة، إذ توراتهم واحدة ولا خلاف في أصل اليهودية بينهم. وهم مختلفون في أمرين:

أحدهما: القول بالظاهرة والجنوح إلى التأول. فالقرّاؤون يقفون مع ظواهر نصوص التوراة، فيحملون ما وقع فيها منسوباً إلى الله تعالى: من ذكر الصورة، والتكلم والاستواء على العرش، والنزول على طور سيناء. والربانيون يذهبون إلى تأويل ما وقع في التوراة من ذلك كله.

والثاني: هو القول بالقدر. فالقرّاؤون يقولون بسابق القدر، والربّانيون يقولون بأن لا قدر سابق. وهم يستعظمون الوقوع في أمور: منها القول

(١) نهاية الأرب، النويري ج١ ص٩٥.

بإنكار خطاب الله تعالى لموسى عليه السلام. ومنها الشرب من النهر الذي ابتلى به قوم طالوت ملك بني إسرائيل، والميل إلى جالوت ملك الكنعانيين الذي قتله داود عليه السلام. ومنها إنكار الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى إليهم. ومنها إنكار عيد المظلة وهو «سبعة أيام أولها الخامس عشر من البياض وهو من أعظم أعيادهم»(١).

رابعاً: عيد الفطير. ويسمونه الفصح. ويكون في الخامس عشر من نيسان، وهو سبعة أيام يأكلون فيها الفطير، وينظفون فيها بيوتهم من خبز الخمير. لأنها عندهم الأيام التي خلّص الله تعالى فيها بني إسرائيل من فرعون وأغرقه. فخرجوا إلى التيه، وجعلوا يأكلون اللحم والخبز الفطير وهم بذلك فرحون.

خامساً: عيد الأسابيع. وهي الأسابيع التي فرضت عليهم فيها الفرائض، وكمل فيها الدين، ويسمى عيد العنصرة، وعيد الخطاب، ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع. يقولون: إنه اليوم الذي خاطب الله تعالى فيه بني إسرائيل من طور سيناء. وأن من جملة ما خوطبوا به العشر كلمات، وهي وصايا تتضمن أمراً ونهياً. وهو من حجوجهم، وحجوجهم ثلاثة: «الأسابيع، والفطير، والمظلة»، وهم يعظمونه ويأكلون فيه القطائف ويجعلونها بدلاً عن المن الذي أنزل عليهم في هذا اليوم، على ما يزعمون.

سادساً: عيد الفوز. وهو عيد أحدثوه، ويسمونه «الفوريم». وذكروا في سبب اتخاذهم له أن «بختنصر» لما أجلى مَن كان في بيت المقدس من اليهود إلى عراق العجم، وأسكنهم مدينة «جي» وهي إحدى مدينتي أصفهان. فلما ملك «أردشير بن بابك» سمّاه اليهود بالعبرانية «أجشادوس». وكان له وزير يسمونه بلغتهم «هيمون». ولليهود حبر يسمى بلغتهم «مردوخاي». فبلغ أردشير أن له ابنة عم جميلة الصورة من أحسن أهل زمانها. فطلب تزويجها منه، فأجابه إلى ذلك، فتزوجها وحظيت عنده، وصار مردوخاي قريباً منه. فأراد هيمون الوزير إصغاره حسداً له، وعزم

(١) صبح الأعشى، للقلقشندي ج١٣ ص٢٥٦.

على إهلاك طائفة اليهود التي في جميع مملكة أردشير. فرتب مع نواب الملك في سائر الأعمال أن يقتل كل واحد منهم من يعلمه من اليهود، وعين لهم يوماً وهو النصف من آذار. وإنما خص هذا اليوم، لأن اليهود يزعمون أن موسى عليه السلام ولد فيه، وتوفي فيه. وأراد بذلك المبالغة في نكايتهم ليضاعف الحزن عليهم بهلاكهم وبموت موسى عليه السلام. فبلغ مردوخاي ذلك، فأرسل إلى ابنة عمه يعلمها بما بلغه، لتعمل الحيلة في خلاصهم. فأعلمت الملك بالحال، وذكرت له أن الوزير إنما حمله على ذلك الحسد، لقرب مردوخاي منه. فأمر بقتل هيمون الوزير، وأن يكتب أماناً لليهود. فاتخذوه عيداً، واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام.

سابعاً: عيد الحنكة. وهو أيضاً مما أحدثوه. وهو ثمانية أيام. أولها: ليلة الخامس والعشرين من كسلا. وهم يوقدون في الليلة الأولى على كل باب من أبوابهم سراجاً، وفي الثانية سراجين، ويضاعفون ذلك في كل ليلة إلى ثماني ليال، فيكون في الثامنة ثمانية سروج. وسبب اتخاذهم لهذا العيد أن بعض الجبابرة تغلَّب على بيت المقدس وقتل من كان فيه من بني إسرائيل، وافتضّ أبكارهم. فوثب عليه أولاد كاهنهم، وكانوا ثمانية، فقتله أصغرهم. فطلب اليهود زيتاً لوقود الهيكل فلم يجدوا إلا يسيراً، وزّعوه على عدد ما يوقدونه من السرج على أبوابهم في كل ليلة إلى ثماني ليال. فاتخذوا هذه الأيام عيداً وسمُّوه الحنكة، وهو مشتق من التنظيف، لأنهم نظفوا فيها الهيكل من أقذار شيعة الجبار[1].

❋ ❋ ❋ ❋

الصهيونية واليهودية

تنسب الصهيونية إلى جبل صهيون الذي يقع في الجنوب من بيت المقدس. وقد اقتحمه داود عليه السلام إبان ملكه، واستولى عليه من

(١) نهاية الأرب للنويري ج١ ص١٩٥ ـ ١٩٧.

اليبوسيين الذي كانوا يقطنونه. وأخذ حصن صهيون وأقام فيه وسمّاه مدينة داود، وأصبح صهيون مكاناً مقدساً لاعتقاد اليهود بأن الرب يسكن فيه. وعلى هذا فالصهيونية في أبسط تعاريفها هي استقرار بني إسرائيل في فلسطين، أي: في جبل صهيون وما حوله. فالصهيوني هو اليهودي الذي يؤثر أن يعيش في فلسطين، وهو كذلك من يساعد اليهود مادياً وأدبياً ليستوطنوا فلسطين. ويرى اليهود أن موسى عليه السلام كان أول قائد للصهيونية، وأول من شيّد صرحها، فهو الذي قاد بني إسرائيل ليدخل بهم فلسطين عقب خروجهم من مصر، ولم يدخل أرض الميعاد ولكن حلفاءه دخلوها. وهبّت أعاصير ضدهم، وأخرجوا منها عدة مرات، وفي كل مرة كان فريق منهم يتطلع للعودة لأرض الهيكل وللحياة في صهيون، وهؤلاء هم «الصهيونيون».

وقد خرجوا منها سنة **١٣٥** ميلادية اجتثاثاً لدابرهم وتدميراً لجذورهم حتى إن الفتح العربي عندما جاء بعد ذلك بخمسة قرون لم يكن ببيت المقدس يهود. لقد ارتضى اليهود الحياة في البلاد الإسلامية حيث تمتعوا بما يكفله الإسلام لغير أتباعه من حقوق، وتوقفت بذلك حركة الصهيونية. ومع مرور الزمن لم يبدِ اليهود أي لون من ألوان الولاء للبلاد التي عاشوا بها، واشتركوا في مؤامرة ضدها، فتعرضوا لحركة اضطهاد في أكثر البلاد التي نزلوا بها. وكان أشدها قسوة المذبحة التي نزلت بهم في روسيا سنة **١٨٨٢** ميلادية، وعلى إثرها بدأت الصهيونية من جديد.

وكان باعث الحركة الصهيونية الجديدة يهودياً يدعى «سمحا بينكر» الذي أخذ يدعو في روسيا لهذه الحركة، ولقد تألفت على أثر دعوته جمعية سميت «عشاق صهيون». ويقول «وايزمان»: إن الحركة الصهيونية في حقيقتها وجوهرها نشأت في روسيا، وإن يهود روسيا كانوا العمود الفقري للكيان اليهودي في فلسطين منذ قيام الحركة. وأخذ اليهود يتسللون من روسيا واتجه بعضهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وأراد بعضهم الاتجاه إلى فلسطين ولكن الحكومة التركية أصدرت قانوناً يحرّم على اليهود دخول فلسطين. ثم جاء «هرتزل» الصحفي النمساوي الذي

يعتبر أباً للصهيونية الحديثة الذي تنسب له خطوتان مهمتان تتلخصان في:

الخطوة الأولى: تتمثل في كتابه «الدولة اليهودية» الذي نشر عام **١٨٩٥** ميلادية يدعو فيه إلى تجميع اليهود في مكان ما في العالم. وعن ذلك يقول: «يكفي أن يعطونا أية قطعة من الأرض تتناسب وحاجات شعبنا، لنا السيادة عليها، فإن هدفنا ليس هو الأرض المقدسة بل أية قطعة من الأرض تخصص لنا».

الخطوة الثانية: فهي الدعوة لمؤتمر يهودي عام يعقد لبحث نظرية «الدولة الجديدة»، وقد عقد هذا المؤتمر في مدينة بازل بسويسرا سنة **١٨٩٧** ميلادية حيث تبنى هذه النظرية على أن تكون الدولة الجديدة في فلسطين.

ومن هنا سميت هذه الحركة التي تعمل على جمع اليهود في فلسطين، حول جبل صهيون، بالحركة الصهيونية، فأصبحت تجديداً للفكر الصهيوني الذي بدأ في روسيا[١].

ولد «تيودور هرتزل» عام **١٨٦٠** ميلادية بمدينة «بودابست»، ومات سنة **١٩٠٤** ميلادية في «أدلاخ». والعامل الذي دفعه إلى الاهتمام بقضيته هو حرصه الوراثي في شخصيته. كان منذ صغره يتمنى لنفسه أن يعيش حياة الأغنياء، وكان مراسل صحيفة «نيوفراي باريس»، وكانت موضوعات مقالاته نبلاء يكرههم اليهود، ولما كان «هرتزل» ينفر من القوميين والنبلاء كان دائماً يحرّف أخبارهم. وظهرت أزمة مالية في حياته فألقى بقنبلة أعلن فيها رغبته في إنشاء الحكومة اليهودية. وفتح له هذا الموضوع عهداً جديداً، وبدأ يوجه أنظار أمته إلى ضرورة إيجاد وطن قومي، وجمع أفكاره وآراءه وأصدرها في كتاب سماه «الدولة اليهودية». وكانت أكبر خدمة قدّمها «هرتزل» لشعبه هي التعريف بقضية اليهود في العالم مع ضمان مناقشتها عالمياً. وتميز بصفات الزعيم، إذ منذ انتشر اليهود في العالم لم يظهر فيهم زعيم غير «هرتزل»

(١) مقارنة الأديان اليهودية، د. أحمد شلبي ج١ ص١١٧ ـ ١٢٠.

الذي بجهوده أُنشئت جماعات وأتباع جنوداً للقضية اليهودية، وجعلوا أكبر هدف لهم مبدأ إقامة الدولة اليهودية.

أما فكرة «هرتزل» في إقامة الدولة اليهودية فيقول: «نحن شعب»، وفي هذه الجملة إشارة بأن هذه القضية قومية. ثم يستطرد قائلاً: لذلك يجب حلها بوسائل سياسية، ولتحقيق آمالنا علينا أن نتّحد، وأن نوجِد منظمات تؤسس لنا حكومة قوية. ولتحقيق إقامة دولة يهودية يجب الحصول على ضمانات الدول الكبرى. وأوصى بهجرة اليهود، وبالحياة على الأرض التي ستقطع وطناً لهم، وبحرية الدفاع عن أنفسهم ضد الأعداء، وبتنظيم حياتهم تنظيماً مطابقاً للتقاليد اليهودية، يقول: «نحن لن نبالي في سبيل إقامة مجتمع يهودي بتلك الأمم التي تحيط بنا، ونفكر في حقنا تفكيراً معادياً. وسيجتمع إخواننا الذين حافظوا على خصائصهم اليهودية وسط الأمم حول النجمة الزرقاء» وكان يطالب بوجوب بناء النهضة القومية على أُسس اجتماعية جديدة. وكان يقول: «إن الدولة اليهودية سوف تقام دولة ملهمة، ومبادؤها ستصلح مثالاً لغيرها من الدول. وسيكون موقف غير اليهود هو خدمتنا بحجة الانقلابات الاجتماعية. وفي سبيل الوصول إلى هدفنا لن ننظر للوسائل قطعاً، لا في السياسة، ولا في الدول المستقرة، أي: في الدولة العثمانية التي تسيطر على فلسطين. وللحصول على المال علينا أن نرجع إلى الممولين الكبار من اليهود، وفي حالة امتناعهم نرجع إلى الممولين الصغار منهم، وفي حالة امتناعهم نحصر الأمل في الحصول على المال على طبقة الشعب. وإذا أراد اليهود تحقيق غايتنا الكبرى، فلن يظل ما قلته لكم رواية، ولن تكون اجتماعات الشعب اليهودي وتنظيماته لمجرد إيجاد حركة سياسية».

عقد المؤتمر الصهيوني الأول في «بازل» لإقامة دولة يهودية بجهود «هرتزل» وبرئاسته سنة **١٨٩٧** ميلادية، وحضره أكثر من مائتي مندوب قدموا من أنحاء العالم. وكانت الفكرة الأساسية أن تتخذ فلسطين وطناً قومياً للجماعات اليهودية، وتضمن لها فيها حقوق المواطنين. وكان اليهود قد رجحوا في هذا الوقت هذا الشكل كي لا يستعملوا اسم الدولة اليهودية.

لأن ممثلي الصهيونيين كانوا يحاولون بوسائل شتى إقناع السلطات العثمانية لإعطائهم وطناً قومياً لليهود. ولكي يتم الاستيلاء على فلسطين أسس «هرتزل» الصهيونية كما أسست الجامعات العبرية لتربية شباب اليهود. ولقد تأسست الدولة اليهودية في بازل، وختم هرتزل المؤتمر بخطبته التي جاء فيها: «على كل يهودي حيثما يكون أن يتظاهر بالاختلاط مع المحليين للوصول إلى هذه الغاية. ونرى انتشار المبادئ الإنسانية المتطرفة بين الأمم؛ لأن الحرية المتولدة من هذه المبادئ ولا سيما الاشتراكية الدولية تخدم غايتنا دائماً».

كان «هرتزل» يعرض المشكلة الصهيونية على الدول الكبرى وطلب مساعدتهم في إنشاء وطن قومي لليهود. وكانت هذه المسألة تهم الدولة العثمانية أكثر من غيرها باعتبارها دولة تقع في إمبراطوريتها أرض الوطن المطلوب إنشاؤه، ومما قاله: «منع السلطان عبدالحميد الثاني اليهود عام ١٨٨٢ ميلادية من الهجرة إلى فلسطين، ورغم هذا كان اليهود يتظاهرون بأنهم من غير اليهود، وينقلون معلومات عن تحركات الجيش العثماني في أثناء الحرب العالمية الأولى، وأثبتوا بذلك صدق وطنيتهم اليهودية». وكان الصهيونيون على الرغم من كل الصعوبات يتقدمون في طريق القضية اليهودية، فكانوا يحاولون إقناع الإنجليز بوجهة نظرهم وتوصياتهم الآتية: «لو وضعتم أيديكم على فلسطين التي في طريق إمبراطوريتكم، فلا شك أنكم حاصلون على منافع الشرق. وإذا اعترفتم باستقلالنا الذاتي فإننا نعدكم بتقديم أعظم مساعدة لدولتكم التي تستطيعون بها الاستيلاء على فلسطين»[(١)].

كانت ميزة «هرتزل» على الآخرين في زمانه أنه استطاع استيعاب مجمل الظروف الاستراتيجية. ورأى أن اللحظة مناسبة لكي يتخلى العمل اليهودي عن سواتره، وأن يدخل مباشرة وبقوة إلى عالم الحقائق السياسية. وافتتح «هرتزل» دوره الخطير بنشر كتابه بعنوان «الدولة اليهودية» وتحول فيما

(١) الإسلام وبنو إسرائيل، الجنرال جواد آتلخان ص٢٤٦ ـ ٢٥٠.

بعد إلى دستور للحركة الصهيونية. لقد أحدث نشره أصداء كبيرة بين اليهود، وإن كان كثيرون منهم قد اعتبروا أفكاره وقتها نوعاً من الخيال السياسي. وكان منطق «هرتزل» في كتابه بسيطاً يتلخص في:

١ ـ أن اليهود لن يندمجوا في المجتمعات الأوروبية.

٢ ـ الذين سوف يندمجون هم أغنياء اليهود فقط، فهؤلاء وحدهم هم الذين تقبل المجتمعات الأوروبية اندماجهم فيها، وهؤلاء لن يهاجروا.

٣ ـ إن أغنياء اليهود في أوروبا الغربية هم الذين يجب أن يدفعوا تكلفة هجرة فقرائهم خارج أوروبا.

٤ ـ إن فلسطين هي المكان الوحيد الذي يستطيع اليهود أن يذهبوا إليه. فمجرد ذكر اسمها يثير عند الشعب اليهودي ذكريات تاريخية تقدر على إلهامه وتحريكه.

كان ذلك منطق «هرتزل» الفكري، وكانت ثناياه تحمل رسائل مبطّنة هدفها طمأنة أغنياء اليهود، وزاد عليه خطة عمل تقوم على ثلاثة محاور:

المحور الأول: يتجه إلى السلطان صاحب الولاية على فلسطين، وكانت خطته أن يشتري فلسطين من السلطان العثماني. وتلك خطة تكشفها يوميات «هرتزل» وتشرح مقاصده فيها بوضوح لا تشوبه ظلال قائلاً: سوف نقدم للسلطان عشرين مليون جنيه إسترليني لإصلاح الأوضاع المالية المتدهورة في تركيا ومنها مليونان بدل فلسطين، والباقي وقدره ثمانية عشر مليوناً يمكن استخدامه في تحرير تركيا من الحماية الأوروبية، وشراء سندات ديونها. وأثناء زيارته بعد شهرين لإستانبول يقول: التقيت مع جاويد ـ وهو ابن الصدر الأعظم ـ ورتبنا الأمور معه، وأخبرنا أنه مستعد لتفهُّم مشروعنا والمساعدة منه. لكن اعتراضه الوحيد هو مصير الأماكن المقدسة، فالقدس يجب أن تظل تحت الإدارة التركية. ووعدته أن تبقى القدس خارج حدود الدولة اليهودية إذا قامت، لأن الأماكن المقدسة تخص العالم المتدين كله ويجب أن تظل للجميع. وسألني عن شكل العلاقة بين دولة يهودية إذا

قامت وبين دولة الخلافة. وقلت له: إننا لا نطالب الاستقلال، ولكننا نريد نوعاً من العلاقة مثل تلك التي كانت بينكم وبين مصر.

ويغادر «هرتزل» إستانبول، ويكتب في يومياته قائلاً: «أبلغوني أن السلطان يعارض فكرة بيع فلسطين لليهود. وفهمت من حاشيته أنه يمكن عقد صفقة إذا وجدنا صيغة مناسبة لإنقاذ ماء الوجه». وقد بعثت إلى إستانبول برسالة قلت فيها: إن جماعتنا تعرض على صاحب الجلالة قرضاً بعشرين مليون جنيه إسترليني، وفي مقابل ذلك فإن جلالته يمنح اليهود الامتيازات التالية:

١ ـ يصدر جلالته دعوة كريمة لليهود بأن يعودوا إلى أرض آبائهم. والدعوة من السلطان سوف تكون لها قوة القانون خصوصاً إذا جرى إخطار الدول الكبرى المعنية بأمرها مسبقاً.

٢ ـ يمنح المهاجرون اليهود الاستقلال الذاتي، ويكون لهم الحق في إدارة شؤونهم التنفيذية، بما في ذلك العدل والأمن والنظام.

٣ ـ تجري في إستانبول مفاوضات حول الشكل الذي به يتحقق حماية السلطان لفلسطين اليهودية.

ثم كتب «هرتزل» إلى سكرتير السلطان عن تكريس جهود الصحافة اليهودية لخدمة الخلافة، خصوصاً إذا قام صاحب الجلالة بتشجيعنا وأمَّن لنا الظروف الضرورية لإسكان الشعب اليهودي في فلسطين. إننا سوف نضع كل قوتنا في خدمة الاقتصاد التركي. إن أعداءنا هم أنفسهم أعداء السلطان الراغبين في إضعاف الدولة العثمانية وتفتيتها، وهم الذين يريدون امتصاص دماء تركيا بقروضهم الشرهة. وسوف يصبح المهاجرون اليهود إلى فلسطين رعايا مخلصين لجلالة السلطان على شرط حصولهم لحماية أنفسهم بأنفسهم، وأن يكون لهم حق شراء الأراضي دون قيد. إن صاحب الجلالة يجب أن يدرك أن نشاط اليهود وأهميتهم مالياً وتجارياً مسألة معروفة جداً، فهم نهر من الذهب والتقدم والحيوية جاهز لخدمة تركيا. وكان السلطان متردداً يخشى من ضغوط إسلامية وعربية يحس تأثيرها ويهمه تفاديها.

المحور الثاني: يتجه إلى بريطانيا التي تقدمت نشيطة وقوية وسابقة للآخرين نحو إرث ممتلكات الخلافة في الشرق. كتب «هرتزل» إلى وزير خارجية بريطانيا خطاباً يقول فيه: «هناك موجات هجرة متدفقة من شرق أوروبا، وإذا لم تفتحوا لها الباب بسرعة لتذهب إلى فلسطين فسوف تجدونها أمامكم في لندن. ولذلك فإن من الخير أن تسارع إنجلترا على الفور إلى حل هذا الإشكال، والحل في يدها. فهي تملك في جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط أقاليم خالية من السكان، وبالذات في المنطقة الساحلية الموجودة بين العريش وشبه جزيرة سيناء. إن السلطان ليس مستعداً حتى الآن لإعطائنا فلسطين أو جزءاً منها، وقد تأخذ المفاوضات مع تركيا وقتاً طويلاً. فإننا نتمنى أن تأذن الحكومة البريطانية بإنشاء مستعمرات يتجمع فيها المهاجرون اليهود في شبه جزيرة سيناء حتى يتاح لهم الذهاب إلى فلسطين. إن هناك عشرة ملايين يهودي في العالم سيدينون لها بالولاء في جميع أرجاء العالم إذا هي سهّلت الحصول على فلسطين». ولم تكن الحكومة البريطانية في حاجة إلى جهد لكي تقتنع وتتفهم رغبة الحركة الصهيونية في تسريع الأمور عن طريق إعطاء اليهود موطن قدم ولو مؤقتاً في سيناء.

المحور الثالث: يتجه إلى مصر لاعتبارات إستراتيجية. جاء «هرتزل» إلى مصر، وبدا من تصرفاته أنه مستعد لأن يؤجل مؤقتاً مشروع الهجرة المكثفة إلى فلسطين، وأن يكتفي في اللحظة الراهنة بمشروع استيطان كبير في سيناء يرتكز على العريش ويتسع منها. والتقى بالخديوي عباس حلمي الثاني وتحدث إليه في مشروعه. وكان مشروعه يهدف إلى تأجير مساحة أرض قدرها ستمائة وثلاثون ميلاً مربعاً حول العريش اعتبرها «هرتزل» منطقة تجمع ووثوب. وكان اقتراحه أن تؤجرها المنظمة الصهيونية لمدة تسعاً وتسعين سنة، وأن تكون بشكل مباشر تحت حماية الحكومة البريطانية. ولا يظهر أنه كان لدى الخديوي اعتراض بسبب ما يعود عليه من أرباح المشروع الزراعي والاستيطاني. وكان الذي تصدّى للمشروع هو اللورد «كرومر» المعتمد البريطاني في مصر، وكان اعتراضه أنه من الصعب توفير كمية الماء

المطلوبة من مياه النيل، لأن ذلك يؤثر على الزراعة في مصر، وبالتالي يؤثر على إنتاج المحصول الحيوي لمصانع إنجلترا «القطن المصري».

ويمكن ملاحظة أن الحركة الصهيونية لم تكن تفاوض أصحاب الحق الشرعي وهم شعب فلسطين. لقد حاولت أن تقنع بريطانيا بحق اليهود في فلسطين، وحاولت أن تشتري من السلطان وطناً بأكمله، وحاولت أن ترتب لنفسها موطن قدم في مصر، لكنها لم تكن تفاوض مع الطرف الآخر الذي يملك الوطن الفلسطيني. وكان منطلق الإنكار ضرورياً، فأي تفاوض مع الشعب الفلسطيني معناه الاعتراف بوجوده الشرعي. وإذا وقع هذا الاعتراف، فهو النفي المباشر للدعوة الصهيونية في فلسطين. لقد علّق الزعيم الصهيوني «ناحوم جولدمان» على أفكار «هرتزل» فقال: رفض أن ينظر إلى كافة وجوه قضية الاستيطان اليهودي في أرض فلسطين، وصمّم على أنها قضية أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»[١].

إن الحركة الصهيونية التي تواجهنا منذ تسعين عاماً وتفرض علينا هذا الصراع المصيري، هي في وجهها التاريخي غربية بمعنى أنها انبثقت عن المجتمعات الأوروبية وعن تياراتها قبل أن تنقسم هذه المجتمعات إلى معسكرين رأسمالي وشيوعي، وتحالفها معه. فهي مولودة في الحضارة الصناعية الأوروبية، ومنطلقة من تيارين رئيسيين من تياراتها في القرن التاسع عشر حوّرته بما يلائم مصالحها: تيار اليقظات القومية الأوروبية الذي أقحم فيه الصهيونيون «اليقظة القومية اليهودية»، وتيار الاستعمار المتجه إلى الشرق وإلى سواه، والذي أقحم فيه الصهيونيون مخطط اغتصاب فلسطين، فما الحركة الصهيونية في هذين البُعدين إلا شكلاً من أشكال الاحتلال التاريخي بين سقوط الإمبراطورية العثمانية، وقيام السيطرة الغربية على الشرق الأوسط.

فالحركة الصهيونية المنبعثة عن المجتمعات الأوروبية حركة متناقضات

(١) المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، محمد حسنين هيكل، الكتاب الأول ص٦٧ ـ ٧٥.

لهذه المجتمعات تحمل في داخلها الحذر. لكن عرفت كيف تحول هذا التناقض وهذا الحذر لصالحها، موهمة المجتمعات الغربية دائماً أنها تخدم مصالحها، بينما كانت في كل مرة تستغلها لتخدم مصلحتها هي. ولا شك أن أعداء اليهود في أوروبا اللاسامية والنازية كانوا هم الأكثر التقاء مع المخطط الصهيوني. فالطرفان هدفهما واحد: «إخراج اليهود من أوروبا». الصهيونية تريد إخراجهم لتبني «الوطن اليهودي» بهم، واللاسامية تريد إخراجهم لتستريح منهم.

يقول «هرتزل» في مذكراته: «كم يعبر عن فرحه بالخلافات المستحكمة بين الدول، مما يتيح له اللعب على التناقضات وإيهام كل طرف على حدة أنه يحقق له مصالحه، واستغلال كل طرف لتحقيق المآرب الصهيونية وحدها»، ففي عام **١٩٠٠** ميلادية يلوح «هرتزل» لبريطانيا بخدمة مصالحها عند قناة السويس إلى الهند إذا ساعدته على إرساء القاعدة الأولى للكيان اليهودي في الشرق. في الوقت نفسه كان يلوح لألمانيا باستعداده لتنفيذ مصالحها ضد بريطانيا، ويدغدغ لها حلمها في سكة الحديد التي يمكن أن تربط برلين ببغداد عبر إستانبول. ثم يجهد في إقناع الألمان بأن الصهيونية تخدم مصالحهم، ليس ضد بريطانيا فقط، بل ضد فرنسا وروسيا، وضد الحركة الاشتراكية في ألمانيا. ومع الروس عند لقائه القيصر يجهد «هرتزل» في إقناع محدثيه بأنه يخدم مصالحهم ضد سائر أوروبا وضد الحركة الاشتراكية في روسيا. ولقد بذل كل وسعه للقاء السلطان عبدالحميد لإقناعه ببيع فلسطين لكن السلطان لم يتجاوب معه في شيء.

ثم كانت العودة إلى بريطانيا خصوصاً بعد وفاة «تيودور هرتزل» عام **١٩٠٤** ميلادية، وتسلم «حاييم وايزمان» قيادة الحركة الصهيونية وهو على علاقة وثيقة بالبريطانيين. وكان العالم يتجه إلى الحرب العالمية الأولى التي عرفت الحركة الصهيونية، وكانت في مستهل نشأتها، كيف تستفيد من تناقضاتها. كما عرفت أيضاً كيف تستغل الصراعات بين بريطانيا وفرنسا وروسيا على تقاسم تركة الإمبراطورية العثمانية عندما لاحت في الأفق هزيمة الألمان وحليفتهم في الشرق تركيا. ولم يكن للحركة الصهيونية أن تطأ

أرض فلسطين، ولا أن تطلق مخطط الهجرة اليهودية إليها والتملك اليهودي فيها[١]. ويسعى الصهاينة بلا هوادة إلى تميع الحدود بين الإسرائيلي والصهيوني واليهودي. حتى إن المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين الذي انعقد عام **١٩٦٨** ميلادية يقرر بوضوح أن محاولة التفريق بين الصهيونية وبين الشعب اليهودي محاولة إجرامية لتضليل الرأي العام. وورد في مقدمة قراراته ما نصه: «أهداف الصهيونية هي وحدة الشعب اليهودي في وطنه التاريخي أرض إسرائيل بالهجرة من جميع البلاد. وتدعيم أرض إسرائيل القائمة على نبوة الأنبياء في العدل والسلام. والمحافظة على خاصية الشعب بتطوير التربية اليهودية العبرية، وبعث القيم الروحية اليهودية، والدفاع عن حقوق اليهود في جميع الأماكن التي يقيمون بها. وهو ما يسعى إليه الصهاينة، ويمكن أن نوجز ما نراه من تمايز بين اليهودية والإسرائيلية والصهيونية في الحقائق العلمية التالية:

الحقيقة الأولى: ليس كل صهيوني إسرائيلياً ولا العكس.

على الرغم من أن الصهيونية تقوم فكراً وممارسة على دعوة اليهود لاستيطان فلسطين كوطن قومي، إلا أن المجتمع الإسرائيلي حتى اليوم لا يضم صهاينة العالم جميعاً. وأن عدد أعضاء المنظمة الصهيونية العالمية في عام **١٩٧١** ميلادية قد بلغ في مختلف بلدان العالم التي شملها الإحصاء «٨٩٨,١٤٦» صهيونياً عاملاً يوجدون خارج التجمُّع الإسرائيلي الراهن. وتثير هذه الحقيقة جدلاً لا ينقطع بين صهاينة «الداخل» وصهاينة «الخارج». وبذلك الفكر الصهيوني رغم شراسة الدعاية له لم يكن ليقنع أتباعه مهما غلوا في تعصبهم بالهجرة من بلاد الرخاء إلى التجمُّع الإسرائيلي بفلسطين. وخلاصة القول أن الصهيونية تيار فكري يسري عليه ما يسري على غيره من التيارات الفكرية. وأن الإسرائيلية جنسية يسري عليها ما يسري على سواها من مفاهيم تتصل بالتشريع والقانون.

---

(١) تاريخ المسألة الفلسطينية، الأزمة والحل، فيصل أبو خضرا ص٢٣ ـ ٢٦.

الحقيقة الثانية: ليس كل يهودي صهيونياً ولا العكس.

إن مجموع الذين تمّ تسجيلهم في عضوية المنظمة الصهيونية العالمية بلغ «٨٩٨,١٤٦» عضواً، في حين بلغ عدد اليهود في البلدان التي شملها الإحصاء في عام ١٩٧١ ميلادية «٨٩٨,١٤٦» عضواً. في حين يبلغ عدد اليهود في البلدان التي شملها الإحصاء المذكور «٨,٢٨٩,٤٥٠» يهودياً. وأن ثمة معاداة يهودية للصهيونية بدأت مع بداية الصهيونية ذاتها. ويكفي أن نشير إلى البيان الصادر عن هيئة الحاخامات الألمان احتجاجاً على دعوة «هرتزل» لعقد المؤتمر الصهيوني الأول، يقول هذا البيان: إن الدعوة إلى عقد مؤتمر صهيوني، وإذاعة جدول أعمال هذا المؤتمر أدت إلى بث تصورات خاطئة ومضللة عن مضمون التعاليم اليهودية، وحول الأماني والتطلعات التي تجيش في نفوس معتنقيها، وهذا ما يرغم الهيئة على إصدار البيان التوضيحي التالي:

أولاً: إن مساعي الذين يسمون أنفسهم بالصهيونيين، وهي المساعي الرامية إلى تأسيس دولة قومية يهودية في فلسطين، تتنافى مع العقائد المتعلقة بانتظار مجيء المسيح في اليهودية. وكما توجد هذه العقائد والتعاليم في الكتاب المقدس، وفي المصادر المتأخرة للديانات اليهودية.

ثانياً: إن اليهودية تلزم معتنقيها بالعمل في خدمة الوطن الذي ينتمون إليه بكل إخلاص، والدفاع عن مصالحه القومية.

ومن ذلك الحين وحتى الآن ظلّ ثمة رفض يهودي للصهيونية لا يستطيع معه غلاة الصهيونية إنكار وجوده، وفي إطار المعاداة اليهودية للصهيونية توجد أربعة تيارات تتلخص في:

١ ـ الرفض «الأرثوذكسي»: ويرى أصحاب هذا التيار أن عودة اليهود من الشتات إلى أرض الميعاد لا يمكن أن تتم إلا بمعجزة إلٰهية. وبالتالي فإن الحركة الصهيونية بمحاولتها اتخاذ خطوات لإقامة وطن قومي يهودي إنما تدخل في أخص خصوصيات الإرادة الإلٰهية.

٢ ـ الرفض «العلماني الاندماجي»: ويرى أصحاب هذا التيار أن

اليهودية ليست قومية، وبالتالي فإن حل المسألة اليهودية كأقليات قومية لن يأتي إلا عن طريق دمج أو اندماج تلك الأقليات اليهودية في مجتمعاتها الأصلية. ويتمثل هذا الاتجاه في «المجلس الأمريكي لليهودية»، وقد هاجم اتجاه إقامة الدولة الصهيونية، واعتبره اتجاهاً عنصرياً مناد بمصالح اليهود، واعتبر أن فلسطين بلد مَن يعيشون فيها وليست بلد كل يهودي في العالم.

٣ ـ الرفض «الاشتراكي»: ويرى أصحاب هذا التيار أن حل المسألة اليهودية لا يتحقق إلا بحل طبقي شامل.

٤ ـ الرفض القومي «الدياسبوري»: ويرى أصحاب هذا التيار أن اليهود يشكلون أقلية قومية. ولكنها أقلية تكونت من الدياسبورا «أي: الهجرة». ولذلك فإن حل المسألة اليهودية يكون من خلال تقبُّل هذه الحقيقة والتعايش معها.

الحقيقة الثالثة: ليس كل يهودي إسرائيلياً ولا العكس.

اليهودية ديانة لا تبشير إلا أنها بحكم الواقع الاجتماعي التاريخي قد تعرضت لما تتعرض له الديانات من موجات اعتناق وارتداد على حد سواء. فثمة جاليات يهودية كاملة تركت اليهودية كالجاليات اليهودية الصينية. كما أن ثمة مجموعات بشرية كاملة اعتنقت اليهودية كـ«الخرز»، ثم لم تلبث أن أصبحت اليهودية هي الديانة الرسمية للخرز.

تلك هي حقائق التاريخ. أما لو نظرنا إلى حاضر التجمع الإسرائيلي فإنه يتضح لنا الآتي:

أولاً: أن الكيان الصهيوني بحدوده التي اغتصبها عام **١٩٤٨** ميلادية كان يضم **١٦٩** ألفاً من العرب الفلسطينيين من غير اليهود، الذين وصل عددهم إلى ما يجاوز نصف المليون تقريباً، أي: أنهم يمثلون حوالى «١٨٪» من يهود التجمع الإسرائيلي. وذلك يعني أن التجمع الإسرائيلي ليس بقاصر على اليهود وحدهم.

ثانياً: من الحقائق المعروفة أن التجمع الإسرائيلي لا يضم يهود

العالم، وأن اليهود كانوا وما زالوا أقليات متفرقة متناثرة. فيهود العالم يبلغون حوالى «١٤,٣٧٠,٦٥٠» ولا يضم التجمع الإسرائيلي إلا «٢,٧٦٣,٠٠٠» يهودياً، أي: «١٩٪» من يهود العالم.

وخلاصة ذلك، أن المنطق العلمي يؤدي إلى التفرقة بين اليهود والصهاينة والإسرائيليين. وأن الحق العربي إنما يتدعم ويقوى بإبراز هذه النتيجة العلمية(١).

بعد المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في مدينة «بازل» في سويسرا ظهرت الصهيونية علناً إلى العالم، حركة سياسية تدعو إلى تجميع اليهود في وطن خاص بهم. وظهر «هرتزل» كزعيم لهذه الحركة، وحدد أهداف المؤتمر بثلاثة أهداف رئيسية، هي:

١ ـ استعمار يهودي منظم لفلسطين واسع النطاق.

٢ ـ الحصول على حق شرعي معترف به دولياً.

٣ ـ إنشاء منظمة توحد جهود جميع اليهود في العالم من أجل تحقيق هذا الغرض.

وانبثق من هذا المؤتمر المنظمة الصهيونية العالمية، وفيه وضع ميثاق هذه المنظمة. لقد قامت الصهيونية، باعتبارها حركة من حركات اليهود، على الروابط التالية:

١ ـ الروابط الدينية والتاريخية التي تربط اليهود بفلسطين، باعتبارها أرض الميعاد.

٢ ـ الروابط العنصرية: باعتبار جميع يهود العالم ينتمون إلى أصل واحد، وأنهم جميعاً إسرائيليو الجنسية، حتى ولو لم يهاجروا إلى فلسطين.

٣ ـ أن فلسطين وما حولها من أرض هي الحدود الدولية لإسرائيل.

---

(١) الإسرائيليون مَن هم، د. قدري حفني ص٨٠ ـ ٩٤.

كانت لليهود ثم اغتصبت منهم، ولذلك فعليهم تحريرها واستردادها من مغتصبيها بكافة الوسائل والطرق.

٤ ـ الرب تعهد لإبراهيم ولأبنائه وأحفاده من بعده، بأنه سوف يرقى بذريتهم إلى سيادة العالم في النهاية. كما تعهد لهم بأن تكون فلسطين وكل ما تطأه بطون أقدامهم حلالاً لهم.

لقد عرف «هرتزل» الصهيونية في المؤتمر بأنها «حركة الشعب اليهودي في طريقه إلى فلسطين، واستيطانه فيها». وأعلن في نهاية المؤتمر عن قيام الدولة اليهودية بقوله: «الآن تأسست الدولة اليهودية، لو قلت ذلك لضحك الجميع مني، ولربما في خمس سنوات، ولكن بالتأكيد في خمسين سنة» فهل كانت نبوءة، أم أن «هرتزل» كان مطلعاً على مخططات أبناء يهوذا فكشفها قبل أن يراها العالم بنصف قرن. وعقدت في حياة «هرتزل» ستة مؤتمرات صهيونية كان آخرها مؤتمر عام **١٩٠٣**م، وتوفي في عام **١٩٠٤**م. وفي عام **١٩٤٩** ميلادية نقلت رفاته إلى فلسطين حيث دفن على جبل في القدس سمي باسمه (جبل هرتزل).

وتوفي «هرتزل» وحمل الراية بعده «حاييم وايزمان»، وكان أكثر وضوحاً ودقة من هرتزل حيث يقول: نحن لا نبني حركتنا على آلام شعبنا. إن القضية الأساسية للصهيونية كانت وما تزال نضالات اليهود المريرة في سبيل أن يكون لهم وطن خاص بهم، وطن يهودي. إن الدول يجب أن تبنى ببطء، وفقاً لبرنامج مُعد تدريجياً مع الصبر، وعلى هذا نقول: إن إنشاء دولة يهودية في فلسطين هو هدفنا النهائي. وممن حمل رايات الصهيونية بعده: دافيد بن غوريون، وجولدا مائير، وموسى شرتوك، وإلياهو ساسون، وليفي أشكول، وإسحٰق بن رفي، وزلمان شازار، وغيرهم من كبار دهاقنة الصهيونية[١].

❋ ❋ ❋ ❋

(١) اليهود في الوطن العربي، داود سنقراط ج٥ ص٢١ ـ ٢٤، ٦٣.

بروتوكولات حكماء صهيون

بروتوكولات حكماء صهيون ليس لها حتى اليوم مفهوم واضح في أذهان العرب، وعمرها في العالم منذ انكشافها ٤٧ سنة، إذ كان ظهورها بعد الحرب العالمية الأولى، وحتى الذين يحيطون بمعناها ومقاصدها الجهنمية هم قلة ضئيلة يتفاوت مقدار وقوفها الصحيح على البروتوكولات. ومنذ عام ١٩٤٨ ميلادية والعرب يرددون ما اقترفه اليهود من فظائع دموية كـ«مذبحة دير ياسين، وطبريا، وناصر الدين، وقبية، وغزة، ونحالين» وغيرها مما يتكرر ارتكابه، ويختلف نطاقه. لكنه يمثل روحاً واحدة من الهمجية الخلقية الكامنة في النفسية اليهودية الصهيونية، والباعث على ذلك السر الموروث في بروتوكولات حكماء صهيون. فالصهيونية قفاز خارجي لليهودية العالمية، والصهيونية والماسونية اليهودية العالمية سواء، اليهودية العالمية حركة سرية نبتت من التلمود الرهيب، والتلمود مستودع شرور اليهود، ومنه استمدوا البروتوكولات في العقد الأخير من القرن الماضي. روح سفك الدماء بأساليب بربرية تطبيقاً لدستوره.

والبروتوكولات هي المخطط الذي وضعه رجال المال والاقتصاد اليهود لتخريب المسيحية والإسلام. وبعد هذا التخريب الذي قرر أصحاب البروتوكولات أن يتم في خلال مائة سنة، يعتقد اليهود أنهم سيستولون على العالم ويقيمون ملكاً يهودياً داودياً، له من الحيلة والوسيلة ما يمكنهم وهم أقلية من حكم العالم بأسره.

وأما المعنى المقصود ببروتوكولات فهو يعني مقررات، ولفظة «حكماء» ما هي إلا بمعنى الشيوخ أصحاب المقادة من الناحية الدينية اليهودية. وتشمل ما هو أوسع من المعنى الديني المجرد لاختلاط الأمور بين ظاهر وخفي، وتشمل في معناها اليوم عند اليهود، أصحاب النفوذ في السياسة والاقتصاد والصناعة، والأحزاب الخفية، والحركات الهدّامة، ونسف العهود، والقتل، والمؤامرة. وهي منحدرة عن كلمة «الحاخام أو المربى». ولكن في بروتوكولات حكماء صهيون، معناها عصابة كبراء اليهود السرية،

التي تجدد كيانها الخفي في أثناء الثورة الفرنسية، ووالت سيرها في منتصف القرن الماضي في أيام «كارل ماركس». ثم عقدت مؤتمرها الصهيوني العالمي الأول في العقد الأخير من القرن الماضي برئاسة «هرتزل» في بازل بسويسرا. وفي هذا المؤتمر وضعت البروتوكولات ، بل كانت معدّة من قبل أحد كبرائهم «أشرغنزبراغ» الذي جاء إلى فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى وأقام ومات فيها بعد عمل استمر نحو ٦٠ سنة في سبيل الصهيونية[١].

ويعتبر «أشرغنزبراغ» أستاذ «وايزمان» الروحي، ولم يكن متفقاً مع «هرتزل» في أساليب العمل نحو الغاية، ويقول: «إن بعث اليهود في هذا العصر يجب أن يستند إلى بعث الروح اليهودية العنيفة، كالروح التي نمت في التيه على يد موسى ويشوع. وإنما بهؤلاء الذين كانوا يمثلون الجيل الثاني بعد الخروج من مصر، استطاع يشوع دخول فلسطين من جهة أريحا بعد عبور الأردن من جهة الشرق. ولولا ما تشبّع به بنو إسرائيل من روح الاقتحام والفتك، لما استطاعوا دخول فلسطين من شرق ولا من غرب، وربما بقوا في التيه وأكلتهم الصحراء وفنوا» فعنده أنه يجب خلق روح الاقتحام أولاً، وهذا يعقبه العمل للوصول إلى أرض يجتمع فيها اليهود. أما «هرتزل» فمخططه الأرض أولاً، ولو في شرق أفريقيا، ثم التدرج إلى فلسطين. ثم عاد فوضع فلسطين نصب عينيه أولاً.

ومع أن «هرتزل» مضى بعد مؤتمر «بال» بمخططه حتى مات، فقد بقي «أشرغنزبراغ» يعمل على طريقته من خلق روح الاقتحام، هذا معناه: الدم والسيف والتدمير والهيئات السرية وما إلى ذلك. أما «وايزمان» فأخذ من الاثنين: الروح والاقتحامية من «أشرغنزبراغ»، والهجرة الواسعة وامتلاك الأرض من «هرتزل». وأول مَن زرع هذه العقائد في فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى «جابوتنسكي» اليهودي أستاذ «مناحم بيغن، وشترون» وسائر العاملين في صناعة الإرهاب والدم والتدمير.

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون، عجاج نويهض ص١ ـ ٥.

وكان الإرهاب الذي قام به اليهود في فلسطين في خلال الحرب العالمية الثانية من عام **١٩٤٢** ميلادية فصاعداً، ثم ظهور عصابة المنظمة القومية العسكرية «أرغون رفاي ليومي» التي كان يرأسها «مناحم بيغن» السفّاح المشهور. ثم من هذه العصابة اشتقت وظهرت عصابة فرعية يرأسها السفّاح المشهور «شترن»، كل هذا ينطبق كل الانطباق على مخطط «أشرغنزبراغ»، ثم كانت مذابح **١٩٤٨**م الوحشية التي قام بها هؤلاء المناكيد، فكانت تحمل الروح نفسها. وكذلك جميع المذابح الأخرى بعد مذبحة دير ياسين وطبريا وناصر الدين. ثم جاءت مذابح وادي عربة عام **١٩٥٠**م، ومذبحة شرفات عام **١٩٥١**م، ومذابح عيد الميلاد في منطقة بيت لحم عام **١٩٥٢**م، ومذبحة قبية عام **١٩٥٣**م، ومحاولة تدمير نحالين عام **١٩٥٤**م، ومذبحة الأطفال في وادي فوكين ودير أيوب عام **١٩٥٤**م، والهجوم على خان يونس عام **١٩٥٥**م، ثم المذبحة الرهيبة في كفر قاسم آخر عام **١٩٥٦**م، ليلة الهجوم الثلاثي على سيناء. فهذه الروح سارية في المنظمات الصهيونية ولما انقلبت تلك المنظمات إلى إسرائيل، صارت عقائد الوحشية تسلك إلى غاياتها مؤيدة في ذلك من المنظمة الكبرى أو ما يسمى إسرائيل[١].

كانت بروتوكولات حكماء صهيون مودعة في مخابئ سرية ولا يعرف محتوياتها إلا الخاصة من اليهود والذين يعملون على تنفيذ ما جاء فيها بهدوء وحسب تخطيط منظم. لقد تمّ اختلاسها وتمّ نشرها في كتاب عام **١٩٠٥**م، ونفذت هذه الطبعة بوسائل خفية، لأن اليهود جمعوا نسخها من الأسواق، ثم طبعت سنة **١٩١١**م، فنفذت على هذا النحو. فعدد البروتوكولات أربعة وعشرون، وبها كثير من التكرار حتى يخيل أنها خلاصة محاضر جلسات، وليست نص تقرير لهذه الجلسات. وهدف هذه البروتوكولات إقامة وحدة تخضع لسلطان اليهود وتديرها حكومة يهودية، من أجل ذلك يمكن أن تقسم إلى قسمين كبيرين. يبحث القسم الأول في

(١) المرجع السابق ص٣٩ ـ ٤١.

موقف اليهود من العالم قبل تحقيق هدفهم، ويبحث القسم الثاني في موقف اليهود من العالم بعد أن يصبحوا أصحاب السلطان عليه. والبروتوكولات العشرة الأولى تتبع القسم الأول، أما باقي البروتوكولات فتتبع القسم الثاني، وأهم الملاحم لكل من هذين القسمين تتلخص في:

❑ القسم الأول: «قبل تكوين الحكومة اليهودية العالمية»:

من أهم ما يعنى به اليهود قبل تكوين هذه الحكومة إعداد الشعب اليهودي للسلطان، وتثبيت الاعتقاد بأن اليهود شعب الله المختار. فالناس عند اليهود قسمان: يهود، وهم أبناء الله وأحباؤه لا يتقبل العبادة إلا منهم، وجوييم أو أميون، أي: كفرة وثنيون خلقوا من طينة شيطانية، والهدف من خلقهم هو خدمة اليهود. وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله على لسانهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]. وترسم البروتوكولات لليهود في هذه المرحلة بنشر المذاهب المختلفة، وأن يختلف اتجاههم في مكان عن اتجاههم في مكان آخر. وكذلك فيما يتعلق بالزمان، فهم يعملون على نشر الشيوعية أحياناً والرأسمالية أحياناً، ويوقفون بذلك الكتل العالمية متصارعة. وهم يقولون أحياناً بالحرية والمساواة فيثيرون المظلومين في وجه الظالمين، ولكن سرعان ما يحاربون الحرية والمساواة مؤكدين أنها تحول الغوغاء إلى حيوانات ضارية. وهم في هذه المرحلة ينشرون الإباحية والفوضوية، ويعملون على تقويض الأسر، ويدفعون الناس للشهوات والانحلال، والبُعد عن كل القيم الإنسانية. وترسم البروتوكولات لليهود أن يستعملوا ما في النفس الإنسانية من ضعف، فالمال والنساء وسائل يمكن استعمالها مع «الجوييم» ليكونوا أداة في يد اليهود ينفذون بسببها ما يطلب منهم. وأن يضع اليهود في المراكز الكبيرة شخصيات لا يعرفها إلا اليهود، وفي ظل الخوف من إشاعة هذه الأخطاء تنفذ هذه الشخصيات لليهود ما يشيرون به، وفي هذه المرحلة يجب أن يسيطر اليهود على الصحافة ودور النشر وجميع وسائل الإعلام حتى لا يتسرب للرأي العام العالمي إلا ما يريده اليهود. وكذا يستعمل اليهود المال وسيلة ليس بالرشوة به فحسب، بل

لإثارة الثورات الداخلية عن طريقه، فهم يغرون الحاكم بجمع المال لنفسه، ثم يدفعون الفقير ليثور ضد الحاكم. وأيضاً في المؤسسات والمصانع يعمل اليهود على إفسادها بإشاعة الخلل في إدارتها والتخريب في أجهزتها. ويتشتت اليهود في كل أقطار العالم خلال هذه المرحلة ليختفوا عن المسرح العالمي حتى لا يتتبع الناس نشاطهم الهدّام. فاليهود في فُرقتهم متحدون، وفي تشتتهم مجتمعون.

القسم الثاني: «بعد تكوين الحكومة اليهودية العالمية»:

إذا تحقق انتصار اليهود فإن اليهود يقيمون مملكة تحكم العالم كله ويكون مقرها «أورشليم»، ويتعاقب على العرش حكام من ذرية داود عليه السلام. فالسياسة صناعة سرية لا يُحسنها إلا نخبة من اليهود دُرِّبوا عليها، وكشفت لهم أسرارها التي استنبطها حكام صهيون من تجارب التاريخ، وهم يتناقلونها في الخفاء. ويسوس اليهود الناس بالرشوة حيناً وبالعنف والإرهاب حيناً، فمن خضع للمال والنساء والمناصب قدم له هذا الدواء، ومن لم يخضع لذلك استعمل معه العنف. فالجوييم كقطعان البهائم يخضعهم الإرهاب والإذلال فيصبحون كقطع الشطرنج تتصرف فيها أصابع اليهود حسبما تشاء هذه الأصابع[1].

وتتكون بروتوكولات حكماء صهيون من أربعة وعشرين بروتوكولات تتلخص في:

البروتوكول الأول: ويشتمل على: الحق للقوة، الحرية، الليبرالية، الذهب، الإيمان، الحكومة الذاتية، رأس المال وسلطته المطلقة، العدو الداخلي، الدهماء، الفوضى، التضادّ بين السياسة والأخلاق، حق القويّ، السلطة اليهودية الماسونية لا تغلب، الغاية تبرر الواسطة، الدهماء كالرجل الأعمى، الانشقاق الحزبي، أفضل أنواع الحكم السلطة المطلقة، المسكرات، التمسك بالقديم، الفساد، المبادئ والقواعد للحكومة اليهودية

(١) مقارنة الأديان اليهودية، د. أحمد شلبي ص٢٢٣ ـ ٢٧٨.

الماسونية، الإرهاب، الحرية والعدالة والإخاء، مبادئ حكم السلالات الوراثية، نسف الامتيازات التي للطبقة الأرستقراطية من «الجوييم»، الأرستقراطية الجديدة اليهودية، الحالات النفسانية، السلطة الخفية التي تقصي ممثلي الشعب.

البروتوكول الثاني: ويشتمل على: الحروب الاقتصادية، أسس التفوق اليهودي، الحكومات الصورية والمستشارون السريون، نجاح التعاليم المدمرة، المرونة في السياسة، الدور الذي تمثله الصحف، ثمن الذهب وقيمة الضحايا اليهودية.

البروتوكول الثالث: ويشتمل على: الأفعى الرمزية ومغزاها، الاختلال في الموازين الدستورية، الإرهاب في القصور، وسائل القوة والمطمح، المجالس النيابية والثرثارون من خطباء وكتّاب، سوء استعمال السلطة، العبودية الاقتصادية، أسطورة حقوق الشعب، نظام الاحتكار والأرستقراطية، جيش اليهودية الماسونية، تناقض الجوييم، المجاعات وحقوق رأس المال، الدهماء وتتويج الملك على العالم كله، القاعدة الأساسية للتعليم في المدارس الأهلية، الماسونية في المستقبل، السر العالمي في حقيقة هيكل المجتمع وتركيبه، الأزمة الاقتصادية العالمية، ضمان الأمان لشعبنا، السلطة المطلقة في الماسونية وقيام المملكة التي يسودها العقل، الملك المتسلط المستبد من نسل صهيون، الأسباب التي تولي الماسونية المناعة فلا تقهر، الدور الذي يمثله علماء الماسونية السريون.

البروتوكول الرابع: ويشتمل على: الأدوار التي تجتازها الجمهورية، الماسونية الأممية عند الجوييم، الحرية والإيمان، المنافسة الدولية الاقتصادية، دور المضاربات، عبادة الذهب.

البروتوكول الخامس: ويشتمل على: إنشاء حكومة مركزية ضخمة، وسائل القبض على أزِمَّة السلطة بواسطة الماسونية، الأسباب التي من أجلها يستحيل وقوع الاتفاق بين الدول، دول اليهود التي تقوم عن سابق اختيار من الله، الذهب بالنسبة للدول كالمحرك من الأجهزة الآلية، ما للانتقاد

والتجريح من بالغ التأثير في التهديم والتقويض، ما لصناعة غزل الكلام من تأثير في التفتيت، كيف يقبض على أعنّة الرأي العام، أهمية نشاط العالم.

البروتوكول السادس: ويشتمل على: الاحتكارات وعليها تتوقف ثروات الجوييم، انتزاع الثروة العقارية من بين أيدي الطبقة الأرستقراطية، التجارة والصناعة والمضاربات، الترف والبذخ، رفع مستوى الأجور العمالية وزيادة مستوى أسعار الحاجيات الضرورية، نشر أسباب الفوضوية وإدمان الخمر، المعنى السري للدعاية تبثها نظريتنا الاقتصادية[1].

البروتوكول السابع: ويشتمل على: الغاية من توسيع باب التسليح، الهزّات العنيفة والانشقاق والأحقاد في جميع أنحاء العالم، كبح جماح (الجوييم) في المعارضة التي تقوم بها، الكتمان سبب نجاح السياسة.

البروتوكول الثامن: ويشتمل على: استعمال الحقوق القانونية استعمالاً غامضاً للتضليل، الأعوان الذين يختارون من المركز الصهيوني من ذوي المستوى العلمي الفائق، مجازاة عملائنا من (الجوييم) إذا خالفوا تعاليمنا.

البروتوكول التاسع: ويشتمل على: تطبيق المبادئ الماسونية في مادة التعليم الذي تعلمه للشعوب، الشعارات والدكتاتورية الماسونية، الإرهاب والرعب، مَن هم خدم الماسونية، معنى القوة المبصرة والقوة العمياء في دول الجوييم، الاتصال المباشر بين السلطة والدهماء، إباحات الليبرالية، القبض على زمام التعليم والتدريب، النظريات الكاذبة، تفسير القوانين، الحركات السرية والأوكار الخفية.

البروتوكول العاشر: ويشتمل على: المظهر الخارجي للمسرح السياسي، العباقرة الذين هم قادة الماسونية، سموم الليبرالية، الدستور مدرسة الانشقاقات الحزبية، رؤساء الجمهوريات مطايا الماسونية، دور الانتقال إلى الماسونية في سلطتها المستبدة، حول اليوم الذي يعلن فيه ملك العالم، نشر الجرائم وغير ذلك من قبائح الماسونية.

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون، عجاج نويهض ص١٧٩ ـ ٢١٢.

البروتوكول الحادي عشر: ويشتمل على: برنامج الدستور الجديد، بعض التفاصيل المتعلقة بالثورة الجديدة، الجوييم قطيع من الغنم، الماسونية السرية ومحافلها.

البروتوكول الثاني عشر: ويشتمل على: مستقبل الصحافة في المملكة الماسونية، التضامن الصهيوني في صحف العصر، إثارة مطالب الرأي العام في الأرياف.

البروتوكول الثالث عشر: ويشتمل على: الحاجة اليومية إلى الرغيف، مسائل السياسة، المسائل الصناعية، فتن الملهيات والمسليات.

البروتوكول الرابع عشر: ويشتمل على: دين المستقبل، العبودية في أحوالها المستقبلة، دين المستقبل مكتوم لا تصل إليه المعرفة، الأدب الإباحي، والأدب النشري العام في المستقبل.

البروتوكول الخامس عشر: ويشتمل على: الانقلاب أو الثورة يعم العالم في وقت واحد، الإعدام وأسرار السلطة، الإكثار من المحافل الماسونية، الهيئة المركزية الحاكمة من حكماء الماسونية، الماسونية وقيادتها جميع الجمعيات السرية، استحسان ما يقوله المغرورون، إعدام حتى مَن هم ماسونية، سقوط هيبة القوانين والسلطة، احتشاد أموال العالم، السلطة المستبدة الماسونية، مظهر الأبوة في حكم المستقل، حق القوي هو الحق الوحيد ولا غيره، ملك إسرائيل هو الأبوة للعالم بأسره.

البروتوكول السادس عشر: ويشتمل على: تعقيم برامج التعليم في الجامعات، التبشير بسلطة الحكم الذاتي في المدارس، إلغاء حرية التعليم.

البروتوكول السابع عشر: ويشتمل على: المحاماة القضائية، نفوذ رجال الدين عند الجوييم، ملك اليهود محل الأب البابوي، منظمة البوليس، البوليس المتطوع، التجسس.

البروتوكول الثامن عشر: ويشتمل على: تدابير الدفاع السرية، مراقبة المؤامرات من الداخل، تدابير الدفاع العلنية المؤدية إلى الاستيلاء على

السلطة، الحرس السري المحيط بملك اليهود، زوال الصبغة الدينية عن السلطة، إلقاء القبض والاعتقال على أقل شبه.

البروتوكول التاسع عشر: ويشتمل على: حق الشعب في رفع العرائض والمقترحات، الشغب السياسي، التجريم في المسائل السياسية، الإعلان عن الجرائم السياسية.

البروتوكول العشرون: ويشتمل على: البرنامج المالي، الضريبة التصاعدية، الخزانة العامة وسندات الدَيْن بفائدة، طريقة المحاسبات، ركود رأس المال، قاعدة الذهب، قروض الدولة، إصدار سندات بفائدة، البطانة والمحسوبية والعملاء الماسونيون.

البروتوكول الواحد والعشرون: ويشتمل على: القروض الداخلية، الديون والضرائب، تحويل الديون إلى أن تصبح ما يقال له: الديون الموحدة، الإفلاس، بنوك التوفير والدخل، إلغاء الأسواق المالية، تنظيم القِيم الصناعية.

البروتوكول الثاني والعشرون: ويشتمل على: أسرار ما سيأتي به الغد، شرور القرون العديدة الماضية أساس المستقبل الخَيِّر، شعار القدرة والخشوع.

البروتوكول الثالث والعشرون: ويشتمل على: التقليل من الإدارات الكمالية، منع الخمر، محو المجتمعات السابقة وبعثها في أشكال جديدة.

البروتوكول الرابع والعشرون: ويشتمل على: تثبيت نسل الملك داود، تخريج الملك وإعداده للعرش، تنحية الوارث ولو كان من النسل الداودي إذا كان لا يصلح للملك، ملك اليهود في أخلاقه نحو الناس هو فوق العيب[١].

إن الجراثيم الخبيثة في مخطط البروتوكولات ومحتواه وعوامله وأبعاده

(١) المرجع السابق ص٢١٣ ـ ٢٩٧.

وغايته، يبين مَن هم اليهود من الجنس البشري على صعيد هذا المخطط الرامي إلى إفساد البشر جميعاً، ومحو الحضارة والأديان السماوية. واليهود كتلة بشرية ضئيلة من أول أمرها في الوجود. وأجمع المؤرخون المتجردون على أن اليهود حفنة قابلة لأن تذروها الرياح بين الإمبراطوريات في وادي النيل ووادي الفرات. ثم إنهم بعد انقضاء عصر سليمان عليه السلام، لم يأخذوا من صفحات التاريخ شيئاً يذكر إلا نِتَفاً في زوايا الحواشي، ولم يتركوا في فلسطين أثراً يدل على حضارة كانت لهم، إلا التوراة. ثم راحوا في أثناء السبي وبعده يتعلقون بالأساطير والملاحم، والإكثار من نسج الأخيلة فوق التوراة حتى ابتنوا إلى جانبها التلمود، وعندهم مناط الرجاء. لقد اضمحل بنو إسرائيل سبياً وتشتيتاً، لكن اعتصموا منذ عشرين قرناً بالتوراة والتلمود، وأسطورة لا محل لها في معقول البشر من أنهم شعب مختار. وانفردوا بهذا، وجعلوا يحوكون حوله الخيال ويمجدون ماضيهم تمجيداً لا يقره تاريخ ولا حقيقة. وإذا كان اليهود حقيقة عرقية سامية في زمنهم القديم، فهذه الحقيقة فقدوها شيئاً فشيئاً، لا بحكم السبي وحده، بل أيضاً بحكم اختلاطهم المكره بالأمم، وتفرقهم في الشعوب. فتاريخ اليهود انتهى في فلسطين بظهور المسيحية، وخير أيامهم بعد أن شتتهم الرومان كان في المملكة العربية الإسلامية في العراق ومصر الأندلس والمغرب. ففي مخطط البروتوكولات نجد أن السبي البابلي تحول إلى نعمة نقلتهم إلى انعزاليين ليلاحقوا عقيدة الشعب المختار. وفسّروا هذه العقيدة بأن لهم أن يمحوا الحضارة والأديان ليكونوا سادة العالم، ويقيموا على أنقاضه ملكاً داودياً.

إن رؤوس الحراب في مخطط البروتوكولات هو غاية الغايات، ويتلخص في: «القضاء على روسيا القيصرية، والقضاء على العروش الأوروبية، والقضاء على الخلافة العثمانية، والقضاء على البابوية، واتخاذ أوروبا وأمريكا قاعدة ملكهم مؤقتاً، اعتبار الشعوب والأمم حيوانات ما خلقت إلا ليسودها الشعب المختار، إبادة الحضارة وتفكيك الأمم والشعوب وتخريب المجتمع قبل إقامة الملك الداودي». بعد محو الأديان والحضارة وإقامة المملكة الداودية، يصبح دين موسى عليه السلام الدين الوحيد في

العالم، وملك اليهود يغدو باب العالم أجمع. وبإقامة الملك الداودي الصهيوني يدخل العالم في عهد بركات الدولة اليهودية، ويستريح البشر في ظلها. وأن وسائل التنفيذ لهذا المخطط يكون بواسطة الماسونية اليهودية بقسميها اليهودي السري المقصور على اليهود، وماسونية الجوييم غير اليهود، وهؤلاء مسخَّرون للماسونية السرية والقتل الخفي لكل مَن يخالف أمراً من أوامر الماسونية العليا[1].

❋ ❋ ❋ ❋

الماسونية

قضى السبي الروماني على آخر كيان سياسي شبه مستقل لليهود، ولكنه لم يقضِ على إصرارهم في العمل الدائب المستمر للرجوع إلى أرض الميعاد. لقد استطاع اليهود بالحيلة والمكر والخداع بالرغم من ضعفهم وجبنهم وشتاتهم من تكوين الجمعيات والتكتلات السرية التي مكنتهم من أن يضربوا في الظلام، فيرون ولا يرون. لقد أنشأ اليهود لتنفيذ أغراضهم ومخططاتهم هذه المنظمات السرية، واتخذت لها عبر تاريخهم أسماءً وأشكالاً مختلفة لتلائم الزمان والمكان والناس، وهي اليوم تعرف بـ«الماسونية». والماسونية منذ أن عرفت بشكلها الحالي، إنما هي الأم الرؤوم لكل تنظيم أو جمعية يهودية، والصهيونية تعتبر أكبر بناتها.

وقد غالى دعاة الماسونية في أصل نشأتها. فزعم بعضهم أن الله قد أسسها عند بدء الخليقة، وأن ميخائيل رئيس الملائكة كان أول أستاذ أعظم لها. وتطامن آخرون فأنزلوها من السماء إلى الأرض، وزعموا أن آدم هو الذي أنشأها بعد طرده من الجنة مباشرة. كما نسبها بعضهم إلى خيمة موسى عليه السلام، حيث كانت المحفل الماسوني الأول، فسمُّوه المجد الطاهر، ولذلك عدُّوا موسى أول أستاذ أعظم للماسونية. كما ذهبوا إلى أن

(١) المرجع السابق ص٢٩٢ ـ ٢٩٩.

هيكل سليمان عليه السلام كان المحفل الماسوني الثاني، فسمُّوه لذلك المحفل المقدس، وبذلك كان سليمان الأستاذ الأعظم الثاني. وهناك من يقول بأن الماسونية تأسست باسم «القوة الخفية» سنة ٣٧ ميلادية، وأسسها الملك «هيرودوس»، و«حيرام أبيود» مبتكر الفكرة. لقد كان حيرام يتيماً، ولذلك كان يكنيه هيرودوس «ابن الأرملة»، وبها يعرف ماسون الأمس واليوم، كل ذلك لإخفاء الماسونية عن أعين الناس.

إن جذور الماسونية إنما هي جذور توراتية تلمودية، وجميع درجاتها مأخوذة منها، وعليه فإن الأعضاء يقسمون بها على العمل لبناء الهيكل وقيام إسرائيل وحمايتها. لقد ظهرت الماسونية بشكلها الذي تعرف به اليوم في أسكتلندا سنة ١٧١٧ ميلادية، ولذلك فإن الماسونيون يحتفلون بهذه الذكرى كل عام. وقد عاشت الماسونية منذ تأسيسها حتى اليوم بجناحين هما: السرية التامة، وشعار إنساني ذو ثلاث شعب هي: «حرية، إخاء، مساواة» ولا ندري سبباً لمثل هذه السرية، إذا كانت الماسونية قد أنشئت لخدمة الإنسانية كما تزعم دهاقنتها. لقد تحلفت الماسونية بالأقسام المغلظة، والتهديد لمن يفشي أسرارها من الأعضاء، أو فضح جرائم المرتدين عنها. كما بادرت في الجهة المقابلة لخدمة الأعضاء الذين يبقون سائرين في ركابها، كما أحيطت أيضاً بالدعاية المتقنة.

ويوجد في العالم ما يقرب من ثلاثمائة عضو، من كبار الرؤوس اليهودية، منبثين في تنظيمات سرية يحركها اليهود من وراء ستار. ويعرف هؤلاء بعضهم تنظيمياً، وهم الذين يضعون المخططات السرية لجميع يهود العالم وأنصارهم وعملائهم ليتحركوا بها ضمن أهداف مرحلية وأهداف بعيدة المدى. ويشكل هؤلاء بمجموعهم ما يشبه حكومة سرية عالمية لها عاصمة ترى ولا ترى. وتتلاعب بمقدرات العالم ومصيره بشكل سري مخطط ومدروس. أهدافها القريبة «قيام دولة إسرائيل» وجعل العالم في حالة فوضى تمهيداً لاستغلاله. وأهدافها البعيدة قيام «مملكة يهوذا» عليها ملك من نسل داود. تقوم على أنقاض عالم ضائع تفسخت فيه الأديان والأقوام والأسر، وتلاشت فيه الأخلاق والقيم. ومن ثم حكمه حكماً إرهابياً دكتاتورياً لا

صوت فيه يعلو على صوت يهوذا. وليس على اليهود سوى أن يقدموا لهذا العالم الضائع الجائع علفاً يومياً مقيتاً، وسخافات تلمودية لا تخاطب عقلاً ولا تحيي ضميراً.

الماسونية تعبير حديث مأخوذ من لفظ «فرماسون» كلمتين أصلها لاتيني هما: فرنك وتعني الصريح، وميسون وتعني البناء، وبهذا يكون معناها البناء الصريح. أما قديماً فكانت تعرف باسم «القوة الخفية»، وهذه القوة هي التي حاكمت المسيح عليه السلام وحكمت عليه بالموت، وهي التي حاولت قتل رسول الله ﷺ عدة مرات، فلما أعياها ذلك لجأت إلى الدسّ على الحديث، وتشويه القرآن، بما عرف بالإسرائيليات. وهذه القوة هي الأساس التي قامت عليها الحركات الباطنية في التاريخ الإسلامي[1].

والجمعيات السرية كانت ولا تزال من أهم المؤسسات التي اعتمد عليها اليهود لتنفيذ أغراضهم والوصول إلى هدفهم. ولا تكاد توجد جمعية ذات أسرار وأخطار إلا كان اليهود يعيشون فيها خلف الستار. والمراجع العديدة توحي بأن اليهود كانوا خلف الحركات التي هبّت في وجه الإسلام. فقد كانوا خلف القرامطة وغلاة الشيعة، وغيرهما من الجمعيات التي ناصبت المسلمين العداء رغبة في النيل من الإسلام. وأن هناك شيئاً خطيراً يصطنعه أعداء الإسلام للنيل منه، ذلك أنهم أدركوا أن من العسير جداً أن يرتد المسلم عن الإسلام إلى سواه من الأديان. ومن هنا اكتفى هؤلاء من المسلم بتضليله، ودفعه إلى الانحراف والبُعد عن الإسلام وإن لم يعتنق ديناً سواه. ومن وسائلهم لذلك أن يكلموه عن الإنسانية والعمل لخيرها مع الإيمان بالله وتوحيده. ومن وسائلهم أن يصوروا له أن الأديان «أفيون» الرعاع، فينحدرون به إلى اللادينية. ومنها أن يزجوا به إلى مذهب منحرف من المذاهب التي تربط نفسها بالإسلام مثل: الأحمدية، والإسماعيلية. واليهود خلفها بطريق مباشر بأن ينضموا إليها، أو بطريق غير مباشر بأن يدفعوا الاستعمار بتأييدها. وفي الوقت الحاضر نجد اليهود خلف كثير من

(١) القوة الخفية لليهودية العالمية الماسونية، داود سنقراط ج٢ ص٨ ـ ١٤.

الجمعيات السرية الخطرة، يوجهونها للنيل من الإسلام في أرض الإسلام، مثل: الماسونية.

والماسونية نشأتها ليست محددة التاريخ، وكذا فإن أهدافها في الظاهر تختلف اختلافاً كبيراً عن أهدافها في الباطن. فهي في الباطن مؤسسة يهودية وليس تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها وشروحها إلا أفكار يهودية من البداية إلى النهاية. وأما في الظاهر فهي جمعية أدبية تخدم الإنسانية، وتنور الأذهان، وتنشر الرخاء، وتوطد الحب بين الأعضاء، وتحثهم على فعل الخير، والإحسان لإخوتهم المحتاجين. لقد حاول اليهود الانتفاع من هذه المُثُل والشعارات وبخاصة في أوروبا، فكانوا يقصدون حث الناس على أن يمنحوهم الحرية، وأن يعاملوهم بدون تفرقة.

ولا تفتح الماسونية أبوابها لكل الناس، إنما تختار صفوتهم، وتشترط لمن يريد الدخول فيها أن يكون رشيداً، له مهمة شريفة، وثقافة لا بأس بها، مستقيم الخلق، لم يعرف بالطيش أو الخلاعة. وتضع الماسونية لها دستوراً توصي فيه بالعمل الصالح، وبحب الناس، وتطهير النفس والتعاون مع الزملاء الأعضاء، وإكرام الغريب، وتجنُّب المشاجرات. وعندما يقرر قبول العضوية، يتقدم ليقسم قسم الجمعية الذي يصبح بمقتضاه عضواً عاملاً، ونص القسم كالآتي: «أقسم بمهندس الكون الأعظم أنني لا أفشي أسرار الماسونية ولا علاماتها وأقوالها، ولا تعاليمها وعاداتها، وأن أصونها مكتومة في صدري إلى الأبد». وهناك وعيد صارم بالقتل إن أفشى هذه الأسرار، وأن هذا الوعيد نفذ أحياناً بأن قتل من أفشى السر كأنه مات منتحراً أو موتاً طبيعياً.

ومراتب الماسونية ثلاث هي:

١ ـ **الماسونية الرمزية**: ويدخل بها أتباع الديانات المختلفة، ويجدون العون من الأعضاء الآخرين بدفعهم إلى مكان الصدارة في أعمالهم، أو يكسب العضو وظيفة ممتازة أو ثراءً عريضاً، مما يجعله يزيد ارتباطه بالماسونية. وفي داخلها توجد ثلاث وثلاثون درجة، يترقى فيها العضو

درجة بعد درجة بمقدار إخلاصه وكفاءته، وينال أسمى الدرجات إذا تمّ انحرافه عن دينه وعن وطنه.

٢ ـ **الماسونية الملوكية**: وأكثر أعضائها من اليهود، ولا يسمح لغير اليهود بالدخول فيها إلا لمن وصل إلى أرقى درجات الماسونية الرمزية.

٣ ـ **الماسونية الكونية**: وهي أرقاها، وأعضاؤها من اليهود الخلص، ويطلق عليهم الحكماء. ورئيس هذا الفريق يلقب بالحكيم الأعظم، وهو مصدر السلطات لجميع محافل الماسونية[١].

والماسونية ساقطة إنسانياً، لأنها تسعى إلى تحطيم الأديان والقوميات والثقافات الخاصة بكل الشعوب، حيث لا دين فيها ولا تراث. ولأن النور الماسوني والطقوس والرموز الماسونية النابعة من التوراة والعقائد والأدبيات اليهودية هي الأصل. فالماسونية مخطط فكري اجتماعي واقتصادي، صهيوني الفكر عميق الأهداف، كبير الأثر، متغير المظهر. قادته هم أساطين الفكر اليهودي العالمي، يعملون في عالم حالم لا يدري ما يحاك ضده وفي خفاء وغموض ومظاهر خلابة. تحمل أسماء مختلفة، وتعمل بسمات متعددة لتخدم أهدافاً صهيونية واحدة. وظهرت في يوم الأيام بأهداف إنسانية في ظاهرها، حاقدة حقداً أسود على البشرية كلها في أعماقها. وقد انغمس في حمايتها رجال فكر، وعلماء عظام لهم دورهم الكبير في تاريخ الأمم عن قصد أو غير قصد، وذلك من خلال شعاراتها البرّاقة الزائفة.

وظنّ بعضهم بدخولهم في الماسونية، أنهم قادرون على الإصلاح من خلالها. ولكنهم أحيط بهم ضمن منهج فكري، ومخطط سري مدروس، كان حائلاً وسداً منيعاً أمام من أراد الانسحاب بعد الدخول فيما لو كشف مخططاتهم، وعرف أهدافهم السرية الحقيقية في خدمة الصهيونية العالمية. ومنها التكريس، والعهد، والأساليب، والأشكال التي تتم لكل عضو منتسب بحيث يصبح عضواً مجبراً على المضي في تحقيق أهدافهم السرية لخوفه من

(١) مقارنة الأديان اليهودية، د. أحمد شلبي ص٣٢٢ ـ ٣٢٧.

تهديداتهم، أو لقناعته بقدرتهم على تحطيمه اجتماعياً واقتصادياً وأخلاقياً بإسناد بعض التهم الكبيرة المزيفة دون أن يملك ما يثبت كذبهم[١].

يقول مؤلف كتاب (الماسونية في العراء): إن الجهر بالحق يدفعني للاعتراف بأن في أوساط الماسونيون قوماً عثروا ولو بعد جهد على كوارث الماسونية، وتحققوها آلة صيد بيد اليهود. وهؤلاء ساعدوني على كشف أقنعة الماسونية، واستطعت بالتعاون مع هؤلاء أن نتداول في ما أصبح النظر فيه واجباً، عسى أن نعدل وجه الماسونية بما ينسجم مع تراثنا. إلا أن بعض المخلصين يتخذون وسيلة للتحرر من الاستغلال، وكذا الذين لم يستطيعوا التحرر من أغلال الأقسام. وهذا لم يحل دون سعي المعلومين والمجهولين ليحولوا دون الاحتكار اليهودي الذي يحاول الفوز بالغنم وحده، ووضع الغرم على عاتق جميع الأمم. ويقول عن الماسونية: لقد كبر سنها وتقوس ظهرها، وانكشفت مساوئها وافتضح تآمرها، وبهت أنصارها، وانتهى زمن رواج نقودها. ومع هذا فإنه علينا أن نتيقظ لمناهضة ومجابهة الحركة الماسونية وأدواتها من الليونزية، والروتارية، والبهائية، وشهود يهوه، وما يسمى بالجيش المريمي[٢].

وفيما يلي نص التوصية رقم ٤ المتخذة في المؤتمر الحادي والأربعين لضباط اتصال المكاتب الإقليمية لمقاطعة «إسرائيل» بسبب موضوع الماسونية. وقد استعرض المؤتمر الدراسات والمعلومات التي تلقاها المكتب الرئيسي من السلطات الرسمية في بعض الدول العربية، والآراء التي أبداها بعض الأعضاء أثناء انعقاد المؤتمر والتي تضمنت جميعها ما يلي:

١ ـ إن لهذه الحركة علاقة وثيقة بـ«إسرائيل» والصهيونية العالمية ومؤسسيها من الصهاينة المعروفين. وهذه العلاقة ثابتة منذ التقاء مؤسسيها هذه الحركة من حكماء صهيون في المؤتمر الصهيوني بمدينة «بازل» السويسرية برئاسة «هرتزل» سنة ١٨٩٧ ميلادية الذي انبثقت عنه خطة إنشاء دولة إسرائيل.

---

(١) شهادات ماسونية، حسين عمر حمادة ص٦ ـ ٧.
(٢) الماسونية في العراء، محمد علي الزعبي ص١٨.

٢ ـ إن اسم الحركة الماسونية «البنّاؤون» يشير إلى محاولة بناء هيكل سليمان، وهو هدف الصهيونية العالمية.

٣ ـ إن المحافل الماسونية في جميع أنحاء العالم تضع على واجهاتها في غالبية مراكزها «نجمة داود» وهي شعار «إسرائيل». كما أن اللون الأزرق الذي تطلى به المحافل هو لون علم «إسرائيل». والمطرقة والفرجار وآلات النجارة والبناء التي تستعملها هذه المحافل في شعاراتها هي رمز هدم هيكل سليمان، والعمل على إعادة بنائه.

٤ ـ قصر هذه الحركة على عقد مؤتمراتها السنوية في «إسرائيل» وذلك بغية جذب عدد كبير من الأعضاء الماسونيين من أنحاء العالم لزيارة «إسرائيل» والعمل على دعم اقتصادها، وتضمن نشراتها دعاية «لحق إسرائيل» في فلسطين المحتلة.

وبعد مداولة الأمر في ضوء ما سبق، والرجوع إلى أحكام قانون ومبادئ المقاطعة المقررة، وقرار مجلس جامعة الدول العربية رقم «**٣٣٠٩**» المتخذ بشأن الأشخاص ذوي الميول الصهيونية، أوصى المؤتمر بما يلي:

أولاً: اعتبار حركة الماسونية حركة صهيونية لأنها تعمل بإيحاء منها لتدعيم أباطيل الصهيونية وأهدافها. كما أنها تساعد على تدفق الأموال لتدعيم إسرائيل من أعضائها، الأمر الذي يدعم اقتصادها ومجهودها الحربي ضد الدول العربية.

ثانياً: خطر إقامة مراكز أو محافل لنشاط الحركة الماسونية في الدول العربية، وإغلاق أي أماكن لها تكون قائمة الآن في تلك الدول.

ثالثاً: لا يجوز التعامل أيًّا كان نوعه وطبيعته مع مراكز هذه الجماعة أو محافلها في مختلف أنحاء الماسونية[١].

❋ ❋ ❋ ❋

(١) شهادات ماسونية، حسين عمر حماد ص١٦٢ ـ ١٦٤.

حكم الشرع في الانتماء للماسونية

اتخذ المجمع الفقهي في مكة المكرمة في دورته المنعقدة بتاريخ العاشر من شعبان عام **١٣٩٨** هجرية، برئاسة سماحة الشيخ عبدالله بن حميد رئيس مجلس القضاء الأعلى، ورئيس المجمع الفقهي قراراً شرعياً هاماً حول الماسونية والانتماء إليها، وحول علاقتها بالصهيونية العالمية. ونظراً لأهميته نقدمه فيما يلي:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومَن اهتدى بهداه. أما بعد: فقد نظر المجمع الفقهي في دروته الأولى في قضية الماسونية والمنتسبين إليها وحكم الشريعة الإسلامية في ذلك. وقد قام أعضاء المجمع بدراسة وافية عن هذه المنظمة الخطيرة، وطالع ما كتب عنها من قديم وجديد، وما نشر من وثائقها نفسها فيما كتبه ونشره أعضاؤها وبعض أقطابها من مؤلفات، ومقالات في المجلات التي تنطق باسمها. وقد تبين للمجمع بصورة لا تقبل الريب من مجموع ما اطلع عليه من كتابات ونصوص ما يلي:

١ ـ أن الماسونية منظمة سرية تخفي تنظيمها تارة وتعلنه تارة حسب ظروف الزمان والمكان. ولكن مبادئها الحقيقية التي تقوم عليها هي سرية في جميع الأحوال، محجوب علمها حتى على أعضائها إلا خواص الخواص الذين يصلون بالتجارب العديدة إلى مراتب عليا فيها.

٢ ـ أنها تبني صلة أعضائها بعضهم ببعض في جميع بقاع الأرض على أساس ظاهري للتمويه على المغفلين، هو الإخاء الإنساني المزعوم بين جميع الداخلين في تنظيمها دون تمييز بين مختلف العقائد والنِّحَل والمذاهب.

٣ ـ أنها تجتذب الأشخاص إليها ممن يهمها ضمهم إلى تنظيمها بطرق الإغراء بالمنفعة الشخصية. على أساس أن كل أخ ماسوني مجنّد في عون كل أخ ماسوني آخر في أي بقعة من بقاع الأرض. يعينه في حاجاته وأهدافه ومشكلاته، ويؤيده في الأهداف إذا كان من ذوي الطموح السياسي.

ويعينه إذا وقع في مأزق من المآزق أياً كان ذلك ظاهرياً معونته في الحق والباطل ظالماً أو مظلوماً. وإن كانت تستر ذلك ظاهرياً بأنها تعينه على الحق والباطل، وهذا أعظم إغراء تصطاد به الناس من مختلف المراكز الاجتماعية، وتأخذ منهم اشتراكات مالية ذات بال.

٤ ـ أن الدخول فيها يقوم على أساس احتفال بانتساب عضو جديد تحت مراسم وأشكال رمزية إرهابية لإرهاب العضو إذا خالف تعليماتها، والأوامر التي تصدر إليها بطريق التسلسل في الرتبة.

٥ ـ الأعضاء المغفلون يتركون أحراراً في ممارسة عباداتهم الدينية، وتستفيد من توجيههم وتكليفهم في الحدود التي يصلحون لها، ويبقون في مراتب دنيا. أما الملاحدة أو المستعدون للإلحاد فترتقي مراتبهم تدريجياً في ضوء التجارب والامتحانات المتكررة للعضو على حسب استعدادهم لخدمة مخططاتها ومبادئها الخطيرة.

٦ ـ أنها ذات أهداف سياسية، ولها في معظم الانقلابات السياسية والعسكرية والتغيرات الخطيرة ضلع وأصابع ظاهرة أو خفية.

٧ ـ أنها في أصلها وأساس تنظيمها يهودية الجذور، ويهودية الإدارة العليا العالمية السرية، وصهيونية النشاط.

٨ ـ أنها في أهدافها الحقيقية السرية ضد الأديان جميعاً لهدمها بصورة عامة، وهدم الإسلام في نفوس أبنائه بصورة خاصة.

٩ ـ أنها تحرص على اختيار المنتسبين إليها من ذوي المكانة المالية أو السياسية أو الاجتماعية العلمية أو أية مكانة يمكن أن تستغل نفوذاً لأصحابها في مجتمعاتهم. ولا يهمها انتساب مَن ليس لهم مكانة يمكن استغلالها، ولذلك تحرص كل الحرص على ضم الملوك والرؤساء والوزراء وكبار موظفي الدولة ونحوهم.

١٠ ـ أنها ذات فروع تأخذ أسماء أخرى تمويهاً وتحويلاً للأنظار لكي تستطيع ممارسة نشاطاتها تحت مختلف الأسماء إذا لقيت مقاومة لاسم

الماسونية في محيط ما. وتلك الفروع المستورة بأسماء مختلفة من أبرزها منظمة الأسود «الليونز» والروتاري، إلى غير ذلك من المبادئ والنشاطات الخبيثة التي تتنافى كلياً مع قواعد الإسلام وتناقضه مناقضة كلية.

وقد تبيَّن للجميع بصورة واضحة العلاقة الوثيقة للماسونية باليهودية الصهيونية العالمية. وبذلك استطاعت أن تسيطر على نشاطات كثيرة من المسؤولين في البلاد العربية وغيرها في موضوع قضية فلسطين. وتحول بينهم وبين كثير من واجباتهم في هذه القضية المصيرية العظمى لمصلحة اليهود والصهيونية العالمية. لذلك ولكثير من المعلومات الأخرى التفصيلية عن نشاط الماسونية وخطورتها، وتلبيساتها الخبيثة وأهدافها الماكرة يقرر المجمع الفقهي: «اعتبار الماسونية من أخطر المنظمات الهدّامة على الإسلام والمسلمين، وأن مَن ينتسب إليها على علم بحقيقتها أو أهدافها فهو كافر بالإسلام مجانب لأهله، والله ولي التوفيق»[١].

❋ ❋ ❋ ❋

المحافل الماسونية

الماسونية المتلونة أفعى قائمة تسعى بيننا، وهي ذات وجود متعدد الأشكال والصور، وعليه فإنه يجب أن نتنبه لمراميها ونتائجها، لنقف على أصل الداء والعلة. إن الهجمة التي تتعرض لها الأمة العربية والإسلامية عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وعلمياً وثقافياً كبيرة جداً. إن أخطر الجمعيات السرية التي تسعى لخدمة أغراض اليهود هي الجمعيات الماسونية المدعمة بالأموال، والعاملة بكل الخبرة والمهارة وفق الأسلوب الحديث. ولكن المحافل الماسونية قد غيّرت اسم بعضها إلى جمعيات بعد أن عرفت أسرار الماسونية وأهدافها السرية. بعد أن شاه وجهها، وانكشف سترها، أخذت

(١) المرجع السابق ص١٦٤ ـ ١٦٨، صحيفة أخبار العالم الإسلامي في عددها بتاريخ ١١ جمادى الثانية ١٣٩٩.

في إنشاء جميع النوادي التي تحتمي بها في تنفيذ أغراضها ومخططاتها بأسلوب عصري مخادع. فبعد دولة إسرائيل، صار لزاماً على رجال القوة الخفية أن يعملوا لحماية إسرائيل، بعد أن قامت دولة إسرائيل بتاريخ **١٩٤٨/٥/١٥** ميلادية، بتخطيط أقل حذراً وأكثر ذكاءً من السابق. تأسست لذلك أندية وجمعيات تختار أعضاء من عِلْية القوم، ممن بيدهم الحل والعقد واتخاذ القرار: رؤساء دول، وزراء، كبار موظفين، رؤساء أحزاب، نوّاب.

وبعد أن كشفت الماسونية عن وجهها البشع وبعد أن بانت سوءاتها للناس بما حاكته من مؤامرات، وما أشاعته فيهم من ضلال وتضليل. أطلقت الماسونية بناتها بالدور الذي لا تستطيع القيام به بسبب فضيحتها وتغيُّر روح العصر. إلا أنها أطلقت عليهن أسماء محبّبة، وعلّمتهن المخادعة والمراوغة، حتى يسهل عليهن تنفيذ أغراض أمهن. ولو بحثنا عن أب شرعي لهؤلاء البنات لما وجدنا، لأن اليهودي ينسب إلى أمه، بحسب الشريعة الموسوية المزعومة، وبنات الماسونية التي تأتمر بأمرها وتنفذ مخططاتها تأخذ الأسماء التالية:

١ ـ **البهائية**: وقد ظهرت بذورها في إيران على يد الشيخ الأحسائي، الذي دعا إلى مذهب اجتهادي سمي الشيخي نسبة إليه، وأخذ يهيئ الناس بقرب ظهور المهدي الغائب المنتظر. وبعد موته حمل الدعوة تلميذه الرشتي وتوفي سنة **١٨٤٣** ميلادية. فهام جماعته يبحثون عن المهدي الغائب المنتظر، وأسفرت نتيجة البحث عن لقاء تم في شيراز بين «البشروني» وبين رجل يدعى «علي محمد» صفاته مطابقة لما يزعم البشروني أنها صفات المهدي المنتظر، ولقب بالباب، ودخلت الدعوة الشيخية في منعطف جديد، فسميت: الدعوة البابية.

لقد اجتمع زعماء «البابيين» لإقرار موقف الدعوة البابية من الشريعة الإسلامية: هل تنسخها، أم تقوم بدور الإصلاح لها. إلا أن بعض الأتباع أرادوا أن ينتزعوا زمان المبادرة، وأن يستولوا على قيادة الدعوة والسير بها في طريق مغايرة لروح الإسلام وتعاليمه. وهكذا ظهرت «البهائية» بصفتها

فرقة دينية قائمة بذاتها، ناسخة لما قبلها من أديان، وعلى رأسها الدين الإسلامي الذي زعمت أنها انطلقت منه. وحمل الدعوة من بعد «الباب» البهاء «ميرزا حسين»، والبهائيون يرون كما ترى الحركات الباطنية في العبادة من: صلاة، وصوم، وحج، وزكاة، كما يرون في الجهاد، والبعث، والثواب والعقاب، وغيرها، معاني خفيت على الرسول ﷺ وصحابته والأئمة والتابعين، لأن دلالات هذه المعاني عند البهاء. فهي إذاً دعوة باطنية تُعد امتداداً لدعوة عبدالله بن سبأ وغيره، الذين ضربوا الإسلام بعصا الباطنية واختلاق الأحاديث.

إن أسلوب العمل لـ«البهائيين» هو أسلوب القوة الخفية، وإن أهدافهم هي أهداف الماسونية، وهي تعتبر رأس بنات الماسونية. فهي تلتقي معها في أمور عدة: فكلتاهما تنكر جميع الأديان وتتنكر لها، وكلتاهما تؤمن بأن فرعاً من نسل داود يجيء سيرفع العلم الإلٰهي على جميع الأمم، وكلتاهما قد نسخت فكرة الجهاد، وكلتاهما تقول بالتقية والباطنية، وكلتاهما تذهب إلى أن سنة **١٨٤٤** ميلادية هي سنة انتهاء أزمنة الأمم وبدء دور سيادة اليهود على العالم، والبهائيون يؤرخون بهذا التاريخ. وهم ـ أي: البهائيين ـ يتصرفون في إسرائيل تصرف اليهود تماماً، ويعاملون على هذا الأساس. وهل من دليل أقوى من اعتراف عصبة الأمم، التي سيطر اليهود والماسونية على قراراتها بالبهائية مذهباً عالمياً[١].

٢ ـ الدونمة: كلمة تركية معناها «قذر أو خسيس» وقد أطلقها الأتراك على اليهود الذين رحلوا من إسبانيا إلى تركيا في القرن الخامس عشر الميلادي. لقد تزين هؤلاء بزي الأتراك والإسلام، وذلك كي يسهل عليهم القضاء على الدولة العثمانية، وتحويلها إلى مجتمع علماني، ومن ثم مساعدة يهود العالم على المسيرة لاستيطان فلسطين.

وقد تظاهر اليهود حين حلُّوا في تركيا بالإسلام، فأخذوا يؤيدون

(١) القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية، داود سنقراط ص١٢١ ـ ١٢٨.

الفرائض في الظاهر، أما في الباطن فإنهم كانوا يهوداً. واستغلوا الطريقة الصوفية فاندسُّوا في زواياها، يرددون أذكارها بعيداً عن أعين الرقباء، يدسُّون الدسائس، ويحيكون المؤامرات. وقد أسس جماعة الدونمة في تركيا يهودي يدعى «شبتاي ليڤي» في وقت كان فيه اليهود في أوروبا يعانون أشد أنواع الملاحقة والاضطهاد، مما ساعده على إعلان نفسه «المسيح المنتظر» الذي بعث لخلاصهم. ولما استفحل أمره، ألقى السلطان الرابع القبض عليه، وخيَّره بين إثبات دعواه، أو الموت، أو التوبة والإسلام. فلم يجد بدًّا من التوبة واعتناق الإسلام تحت اسم محمد البوّاب، لأن السلطان عيّنه بعد إعلان إسلامه رئيساً لبوّابي القصر. وتحت الجبة والعمامة طلب من السلطان أن يسمح لليهود بدخول الإسلام ففعل، وهكذا نشأت جماعة الدونمة، وتعني العائد إلى الإسلام، وحين تفاقم خطرهم فإنها صارت تعني القذر.

وقد بدأ رجال الدونمة بعد أن تغلغلوا في جسم الدولة، كما يبدأ اليهود عادةً، بدأوا بإرباك الدولة مادياً، وإيقاعها تحت طائلة الديون. وحين عجزت الدولة عن السداد، أخذوا يفرضون عليها تدريجياً ما يشاؤون، بحسب خطة مدروسة. وبلغ أوج تحكمهم يوم أن فرضوا على السلطان عبدالحميد الدستور، ونفيه إلى سلانك سنة **١٩٠٩** ميلادية ومن ثم قتله بأيديهم. لقد كانت لعبة تركيا الفتاة. والعربية الفتاة، لعبة تتريك الأتراك، وتعريب العرب لعبة يهودية ماسونية تولت الدونمة والمخدوعون بها من العرب والأتراك تمثيلها. لقد وقع الأتراك والعرب في شرك كبير، فسلّم الأتراك لـ«مصطفى كمال»، وسلّم العرب للاستعمار والصهيونية ليمزقوا أوصالهم. لقد وضع العرب تحت وصايا الاستعمار، وسار اليهود إلى فلسطين، يقيمون فيها دولة إسرائيل. كما آلت تركيا في النهاية إلى «مصطفى كمال» ابن محفل قيدنا الماسوني حتى ألغى الخلافة العثمانية سنة **١٩٢٤** ميلادية، وأعلن علمانية تركيا، وعادى العرب والمسلمين، ووجَّه وجهه جهة الغرب. لقد تمادى «أتاتورك» في تهجُّمه على الإسلام والمسلمين عندما أعلن يوم افتتاح مجلس الشعب: «نحن الآن في القرن العشرين، لا نستطيع أن نسير وراء كتاب تشريع، يبحث في التين والزيتون». فصفّق له صبيان

الدونمة مؤيدين، وهتفوا: «سلّمنا البلاد لأتاتورك، وتركنا الكعبة للعرب»[١].

٣ ـ أندية الروتاري والليونزية: تسألهم عن الروتارية والليونزية فيقولون لك: هم بعض كبار الموظفين والصناعيين والفنيين والتجار، ومَن لفّ لفّهم، يتصل بعضهم ببعض في اجتماعات عادية ولقاءات شخصية على الغداء أو العشاء، يتم خلالها التعارف بين الإخوان القدامى والجدد الذين يتفاهمون ويحلون قضاياهم ومشاكلهم.

ولو سألتهم: ما دامت الروتارية والليونزية تعمل لقضاء مصالحكم وحوائجكم وطموحاتكم الشخصية. فما لكم تصرون على الاتصال برجالات الدول من حكام ووزراء ونواب، ليكون نشاطكم تحت رعايتهم؟ فيقولون لك: نحن نسعى إلى السلام العالمي والتفاهم بين الشعوب. وتسألهم: أليس في هذا الكون من يحتاج إلى السلام والتفاهم إلا العرب واليهود؟ هناك عشرات القضايا والمشاكل الوطنية والإقليمية والإنسانية التي تنتظر من يسعى لحلها، فما لسلامكم يريد تثبيت كيان اليهود على أرض فلسطين؟ أوَليست هناك حقوق للعرب الذين طُردوا من بلادهم، واضُطهدوا في بلادهم لأنهم يسعون لتحرير فلسطين؟ ومن هذه المناظرة نفهم أن أندية الروتاري والليونز تتدخل في السياسة والاقتصاد والثقافة وفي كل شيء، ولأن نشاطهم يهدم الأخلاق والانتماء الوطني. فقد صدر في **٢٠** ديسمبر **١٩٥٠** ميلادية مرسوم بابوي من المجلس الأعلى المقدس للڤاتيكان يدين أندية الروتاري ونصّ المرسوم على أنه: دفاعاً عن العقيدة والفضيلة، تقرر عدم السماح لرجال الدين بالانتساب إلى الهيئة المسماة بالروتاري، وعدم الاشتراك في اجتماعاتها. وأن غير رجال الدين مطالَبون بمراعاة المرسوم رقم «٦٨٤» الخاص بالجمعيات السرية والمشتبه فيها[٢].

٤ ـ محفل الشرق الأكبر الماسوني: في سنة **٧٥٠** ميلادية، حلّ في مدينة «فرانكفورت» بألمانيا صانع يهودي يدعى «آمشل موشي باور»، بعد أن

(١) المرجع السابق ص١٢٨ ـ ١٤٦.

(٢) شهادات ماسونية، حسين عمر حمادة ص١٢٢ ـ ١٢٣.

أنهكه التجوال في بلدان أوروبا الشرقية. ولقد علّق على باب متجره درعاً أحمر رمزاً لمهنته، وبه عرف بلقب «روتشليد». وجمع مالاً وفيراً استطاع أن يضع الأساس المتين لأسرته ليصبحوا جهابذة الذهب والمال في أوروبا كلها. وفي سنة ١٧٧٠ ميلادية أمدّت هذه الأسرة أستاذاً للقانون في جامعة أنفولد شتات بألمانيا يدعى «وايزهاوبت» بالمال. وذلك ليضع مخططاً، على أسس حديثة، يحقق أهداف القوة الخفية، وتطوير محافلها. ونظم جماعة يبلغ عددهم نحواً من ألفي شخص في محافل ماسونية سمّاها محافل «النورانيين» نسبة إلى لوسفير «إبليس» رمز النور عند اليهود. واختار «وايزهاوبث» أنصاره من علية القوم، زاعماً أن الهدف من ذلك هو إنشاء حكومة عالمية واحدة من ذوي الكفاية والذكاء، لحكم العالم حكماً رشيداً، ووضع حد للحرب والعصبية والويلات. وبذلك وضع «وايزهاوبث» نظرياً وعملياً، اللبنة الأولى في محفل الشرق الماسوني، الوجه الجديد للقوة الخفية. حثّ المخطط رجاله على اصطياد ورعاية وتدريب النابغين من بين طلابهم، وبخاصة أبناء العائلات الكبيرة منهم، وضمّهم إلى المحافل النورانية، تمهيداً لاستخدامهم. وركّز على حقن هؤلاء بحقن الغرور والخيلاء، بحيث أصبحوا يعتقدون، بحكم نبوغهم وكفايتهم وكرم منبتهم، بأنهم مبعوثو العناية الإلٰهية لحكم العالم، والتحكم في مصيره.

لقد اكتشفت حكومة بافاريا مخطط «وايزهاوبث» فأمرت بإغلاق محافله النورانية، واعتبرته وجماعته خارجين على القانون. وهاجر وجماعته إلى سويسرا وفرنسا، وانخرط في محافلها الماسونية الحرة. وبالتقاء ماسونية الشرق النورانية مع الماسونية الغربية، جرت منذ ذلك التاريخ حتى اليوم الأحداث الكبرى في أوروبا وأمريكا. وفي سنة ١٧٧٣ ميلادية دعا «ماير روتشليد» اثني عشر مالياً يهودياً إلى اجتماع عقده لهم في فرانكفورت، ودعاهم فيه إلى تجميع ثرواتهم، وتأسيس مجموعة مالية واحدة ليتمكنوا بذلك من تمويل ثورة عالمية واستخدامها وسيلة للسيطرة على ثورات العالم ومقدراته. وبذلك وضع اللغم الأول في طريق الثورة الفرنسية، وقال: «لعلكم تظنون أن الجوييم لن يسكتوا بعد هذا، وأنهم سيهبُّون للانقضاض

علينا، لكن هذا لن يحدث، لأن في الغرب منظمة على درجة عظيمة من القوة والإرهاب تجعل أكثر القلوب شجاعة ترتجف أمامها. وسنعمل على تأسيس منظمات من هذا النوع في كل مكان نتوقع صدور الخطر منه.

لقد تحركت أموال اليهود صوب فرنسا، تشتري الضمائر وتحضّر للثورة الفرنسية. وبعد أن افتضح أمر «وايزهاوبث» في باڤاريا، حذّرت الحكومة الباڤارية حكومات فرنسا وإنجلترا وبولندا وروسيا من الخطر الداهم المحدق بهم. إلا أن المسؤولين فيها تجاهلوا تلك التحذيرات، فلم يتخذوا الاحتياطات اللازمة، لأن المخططين كانوا من الدهماء، والخبث، بحيث انطلقت نواياهم البعيدة حتى على أقرب المقربين إليهم، فكيف بالأبعدين. ولم يأتِ عام **١٧٨٩** ميلادية عام اندلاع الثورة حتى كان هناك أكثر من ألفي محفل ماسوني، تضم أكثر من مائة ألف عضو بارز. وهكذا قامت القاعدة الصلبة للثورة الفرنسية، من هذه التشكيلات التابعة لهذه المحافل.

ويمكننا أن نقدر أثر هذه المحافل على خط سير «نابليون بونابرت» منذ أن ظهر على مسرح الأحداث في فرنسا حتى سبق إلى جزيرة «سنت هيلانة» ليقضي نحبه فيها. لقد كان «تاليران» يلازم نابليون ملازمته ظله، بتوجيه من «وايزهاوبث» الذي كلف «بول بادرس» أحد علماء النورانيين أن يقدم تقريراً إلى نابليون، وخلاصته: أن اليهود مستعدون أن يضعوا أموالهم وخبرتهم تحت تصرفه مقابل أن يمنحهم فلسطين، عند احتلالها. وفيه أيضاً وعد منهم بأنهم سيكونون معاول هدم في جسم الدولة العثمانية، وجسور حضارة للثورة الفرنسية ومبادئها. لقد وافق نابليون عليه، واستعان بالبروفسور اليهودي «فنثور» لكي يوجه نداء إلى جميع يهود العالم باسمه، يعلمهم فيه أنه ـ أي: نابليون ـ سيعمل على إعادة اليهود إلى أرض آبائهم وأجدادهم في فلسطين.

وبتخطيط وتحريض من «النورانيين» أخذت الثورة تأكل أولادها الواحد تلو الآخر، وكانت الشخصيات الرئيسية التي تحرك الثورة الفرنسية من وراء ستار جلها يهودية من خارج فرنسا. وبعد أن أنهكت الثورة الفرنسية شعب

فرنسا، وبعد أن أطاحت بخيرة رؤوس فرنسا، مهّدت الطريق لدكتاتورية نابليون لأن تغتال مبادئها «الحرية، والإخاء، والمساواة» وأن تنهك أوروبا من أقصاها إلى أقصاها بحروب طاحنة مدمّرة لتصبح الطريق ممهدة لـ«النورانيين» وعملائهم لاستغلال أوروبا ومستعمراتها. ففي الوقت الذي توج نابليون نفسه إمبراطوراً على أوروبا سنة ١٨٠٤ ميلادية، توج «ناثان روتشيلد» نفسه إمبراطوراً للمال على أوروبا كلها. وهكذا تصبح السياسة في خدمة المال، والبندقية عبداً للذهب. فلا عجب أن سبق وعد نابليون وعد بلفور، وأن سار نابليون قبل اللنبي لاحتلال فلسطين، قبل ذلك بما يزيد على قرن من الزمن. وقد سيق نابليون بعد أن استنفذ منه النورانيون أغراضهم إلى جزيرة سنت هيلانة، يجتر الفراغ والمرارة والألم حتى مات بغيظه. وعادت فرنسا إلى الملكية، وخرجت من الحروب النابليونية وهي خاوية الوفاض، لأن مخططيها شاؤوا لها أن تولد ميتة[١].

٥ ـ **مخطط بايك**: في عام ١٨٣٤م اختار النورانيون الزعيم النوري الإيطالي «مازيني» ليكون مدير برنامجهم الثوري، الذي وضع «وايزهاوبث» قواعده الأساسية، بتحريض من «روتشيلد»، وذلك لإثارة القلق والاضطرابات في العالم. وفي عام ١٨٤٠م جيء لمازيني بالجنرال الأمريكي «بايك» ليتدرب على يديه، إلا أن هذا فاق أستاذه دهاءً ومكراً. فقد وضع في عام ١٨٧١م مخططاً لإثارة ثورات وحروب عالمية، قدر أنها ستؤتي أكلها في القرن العشرين. ولهذا فقد أسس بايك ثلاثة مجالس عليا: في مدينة تشارلتون في ولاية كارولينا الجنوبية، وفي مدينة روما، وفي مدينة برلين. كما أسس ثلاثة وعشرين مركزاً ثانوياً تابعاً للمجالس العليا في مناطق مختلفة من العالم.

وأفرز مخطط «بايك» على المدى الطويل، الحركات العالمية الكبرى الثلاث: الشيوعية، والنازية، والصهيونية، كما أفرز: الحرب العالمية الأولى والثانية. وقد يبدو غريباً جمع الحركات العالمية في حظيرة واحدة، والقوة

(١) اليهود في المعسكر الغربي، داود سنقراط ج٢ ص١٤ ـ ٣٠.

الخفية مهما بلغت قوتها قادرة على إثارة ثورات وحروب عالمية. إلا أن الغرابة سرعان ما تزول إذا علمنا أن اليهود يخططون ويدفعون، ولا يشتركون اشتراكاً مباشراً في التنفيذ. فهم أقلية لا يستطيعون أن ينفذوا عملياً ما يخططون له. وهم كذلك لا يستفيدون من عالم يسوده السلام، فمضارباتهم وتجارتهم لا تجد سوقاً إلا في عالم مضطرب. والثورات والحروب لا تشتعل إلا إذا كانت هناك عداوة وخصومات. وهل هناك عداوات وخصومات أشد من زرع المبادئ هنا وزرع مبادئ مغايرة لها هناك. فهناك «كارل» يعقد للنازية، وهناك «ماركس» يعقد للشيوعية، والنازية والشيوعية متناقضتان، فيتناقض بذلك معتنقو كل منهما، وتحدث لذلك ثورات وحروب.

فعمل اليهود التاريخي ضرب الرؤوس بالرؤوس تمهيداً لتحطيمها، وبالتالي الاستيلاء على غنائمها، والتحكم بمقدراتها. فاليهودي في سوق المبادئ والحركات يطرحها ولا يعتنقها، وهو إن فعل ذلك فإنما يتظاهر ليغري الغير بذلك. وبهذا تحوصل اليهود تاريخياً ولم يذوبوا في غيرهم برغم قلّتهم. واليهود لا يعترفون بالمشاركة، ولا بالحل الوسط. لقد اختلف معهم «نابليون» في أواخر عهده، عندما شعر بأنهم يحاولون ابتزازه. واختلف معهم «ستالين» عندما حاولوا عن طريق «تروتسكي» احتواء عهد ستالين، وإزاحته وقتله، ودبّروا مؤامرة تنحية «خروشوف» حين حاول أن يقلّم بعض أظافرهم. وبعد تنحيته فتحوا باب الهجرة من روسيا والدول الشيوعية على مصرعيه لهجرة يهودها إلى فلسطين.

لقد كان «هتلر» عند ظهوره، يعطف على قضيتهم إلا أنه كان لهم رأي آخر في سير الأحداث، فألجأوه إلى معاداتهم. وهتلر كما هو معلوم العدو اللدود لليهود، بعد تجربته معهم، وما لمسه من أفعالهم بألمانيا سابقاً ولاحقاً وبخاصة في هزيمتها في الحرب العالمية الأولى وتدميرها. لقد نكل ببضعة آلاف منهم، لا بضعة ملايين كما يزعمون ممن قاوموه وعملوا على هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية، كما فعلوا في الحرب العالمية

الأولى. أما قتل ملايين الأطفال والنساء والشيوخ، فينفيه وجود مخيمات الاعتقال اليهودية. أما حرقهم في أفران الصهر، فقد حصل فعلاً، ولكن ليس حرق الأحياء بل حرق الجثث الميتة التي لو بقيت في العراء لأفسدت الجو، ونشرت الأمراض والأوبئة. إن من مات من المدنيين في أوروبا بسبب الحرب كان أضعاف أضعاف من مات من اليهود مع مراعاة النسبة. فقد قتل في روسيا وحدها ما يقرب من عشرين مليوناً من المدنيين، فلماذا كان دم شعب الله المختار هو الدم الحرام والدم الغالي. لقد كان اليهود متسلطين قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها على معظم المراكز الحساسة في الدولة الألمانية. كما تجسسوا عليها وعلى حليفتها الدولة العثمانية لصالح دول الحلفاء، فتسببوا بذلك في هزيمتها. وهم الذين فرضوا شروط الصلح الباهظة عليها في معاهدة ڤرساي، إلا أن هتلر رفض أن يفي بالتزامات شروط الصلح، وأصدر عملة ألمانية خاصة لا تستند على قروض الممولين الدوليين، وإنما تستند على الدخول القومي. وذلك بهدف حرمان المرابين اليهود من بسط نفوذهم وسيطرتهم عن طريق زيادة القروض والأرباح للقضاء على سيطرة الصهيونية.

لقد ثبت أن كبار الصهاينة اليهود كانوا يسهلون عمليات اضطهاد اليهود وإبادتهم، تمهيداً لإجبار الباقين على الرحيل إلى فلسطين. وأن جميع اليهود الموجودين في معسكرات الاعتقال هم رهائن، وأن الفدية التي يجب عليهم دفعها لفك أسرهم، هي السفر الفوري إلى فلسطين. كما ثبت أن المذابح التي تعرض لها اليهود، وبخاصة في القدس والخليل ويافا وصفد، إبان ثورة **١٩٢٩**م الفلسطينية كانت الصهيونية على علم بها. وهي التي اتفقت مع حكومة الانتداب على فلسطين لأن تأخذ المذابح مجراها الذي سارت فيه. وذلك لكي يحركوا ضمائر اليهود في الخارج للهجرة إلى فلسطين.

إن الفكر اليهودي قديماً وحديثاً، إنما هو فكر «تلمودي» مهما اختلفت أشكاله وصوره. فنظرية شعب الله المختار، ومفاهيم الدين أفيون الشعب، والعامل لا وطن له، والصراع الطبقي، إنما هي مفاهيم تلمودية هدفها: هدم

الأديان، وتفسيخ الأقوام، وانحلال الأسر، وإلغاء الحكومات، تمهيداً لقيام مملكة يهوذا[١].

❋ ❋ ❋ ❋

فلسطين

تاريخ موغل في القدم، فهو لا يقف في مداه عند أوائل الألف الثالث قبل الميلاد، بل يتجاوز ذلك إلى عصور ما قبل التاريخ. وهذا التاريخ هو ثمرة تفاعل الإنسان في فلسطين مع بُعد الزمان والمكان. وإذا تعرّفنا على بُعد المكان المتمثل في رقعة الأرض المباركة التي تحمل اسم «فلسطين»، نجد أن هذه الرقعة تقع في الغرب من قارة آسيا بين خطَّي عرض «**٣٠، ٢٩ و١٥، ٣٣**» شمالاً، وبين خطَّي طول «**١٥ و٣٤ و٤٠، ٣٥**» شرقاً. وهي القسم الجنوبي من بلاد الشام الذي يصلها بمصر، وفي موقع القلب من الوطن العربي. وتبلغ مساحتها «**٢٧,٠٠٩**كم مربعاً»، وهي تشمل منطقة ساحلية تطل على البحر الأبيض المتوسط، ومنطقة جبلية، وغور، ومنطقة صحراوية، وقد تفاعلت في هذه الرقعة عوامل عدة:

أولها: الموقع الاستراتيجي الذي تحتله فلسطين بين القارات الثلاث «آسيا، وأفريقيا، وأوروبا» والذي يجعل منها حلقة اتصال ومركزاً لتفاعل الثقافات والحضارات.

ثانيها: الوضع الجغرافي لفلسطين، حيث يتقطع سطح الأرض فتضيق البيئة ولا تتسع اتساعاً كافياً لنشوء سلطة قوية وحيث تتناوب الأراضي المرتفعة وتحاذي بعضها بعضاً من الشمال إلى الجنوب، ويتجاوز السهل مع الجبل ومع الصحراء، وتتتالى الفصول الأربعة.

ثالثها: احتواء فلسطين على نمطي البداوة والحضارة، مما جعلها

(١) المرجع السابق ص٣٥ ـ ٧٠.

مسرح تفاعل متواصل بين البدو الرحَّل والمستقرين. الأمر الذي ربط تاريخها بموجات تحول البدو إلى سكنى القرى والمدن.

رابعها: مجاورة فلسطين لأقدم مركزين حضاريين عرفهما الإنسان وهما الحضارة السومرية في بلاد الرافدين شرقاً، والحضارة المصرية في وادي النيل في الجنوب الغربي. وهكذا دخلت فلسطين ضمن المجال الحضاري لحضارات المنطقة. وتعرضت في الوقت نفسه لتأثيرات من جهة البحر حيث كريت واليونان وإيطاليا، ومن جهة البر حيث فارس والهند شرقاً. وقد أصبحت بفعل ذلك جزءاً من طريق دولي قديم، مبدؤه دلتا النيل ونهايته شط العرب، وله عدة تفرعات تنتهي على البحر المتوسط.

وننظر في بُعد الزمان فنجد أن تاريخ فلسطين هو تاريخ متصل على مدى العصور حافل متصل بأحداث كبيرة. ويمكننا أن نقسم هذا التاريخ إلى قسمين رئيسيين تصل بينهما الانطلاقة العربية بالإسلام في القرن الهجري الأول ـ القرن السابع الميلادي ـ واختيار هذا الحدث ناتج ممن كان له تأثير على فلسطين والمنطقة العربية عموماً، فحيث يمكن أن نميز بين ما قبله وما بعده. وقد مرّ تاريخ شعب فلسطين في كل مكان من هذين القسمين بعدة أدوار، وكان بصفة عامة تاريخاً متنوعاً، محافظاً على وحدته[1].

❋ ❋ ❋ ❋

الحقائق الخاصة بشعب فلسطين

١ ـ أصوله وملامحه:

بدت ملامح شعب فلسطين في عصور ما قبل التاريخ مع ظهور الإنسان القديم «المدرك» على أرض فلسطين الذي استمر نحو ثمانية آلاف عام قبل الميلاد، وشهد ازدهار مدينة «أريحا» أقدم مدن العالم. واتضحت

(١) وثيقة القدس، منظمة المؤتمر الإسلامي ص٢٠ ـ ٢١.

ملامح شعب فلسطين أكثر فأكثر بعد الهجرات الرئيسية التي جاءت إلى فلسطين، والمنطقة من قلب الجزيرة العربية ومن أطرافها، وحملت معها العموريين والكنعانيين والآراميين. وكانت فلسطين والهلال الخصيب عموماً منطقة جذب سكاني مرتبطة بجزيرة العرب التي هي مركز طرد سكاني. وقد كان للهجرة الكنعانية أثر كبير في طبع البلاد بطابعها الذي حافظت عليه منذ الألف الرابعة قبل الميلاد. وعرفت فلسطين باسم أرض كنعان مع أجزاء من سوريا ولبنان، وكان هذا هو أول اسم لفلسطين. وبقي الكنعانيون في فلسطين منذ دخولهم إليها، واندمجت فيهم موجات الهجرة. وانصهرت في بوتقة شعب فلسطين جماعات من شعوب أخرى مرّت بالبلاد مثل الحيثيين والحوريين، أو استقرت بها مثل الفلسطينيين الذين أعطوا أرض كنعان اسمهم. وجميع هذه الجماعات هندية أوروبية في الأصل، كما انصهرت في بوتقة شعب فلسطين جماعات الشعوب التي حكمت البلاد من فُرس ويونان ورومان، والتي آثرت البقاء في فلسطين واتخاذها وطناً.

واستكمل شعب فلسطين صورته، وتحددت هويته في أعقاب الفتح العربي الإسلامي لفلسطين في القرن الهجري الأول «السابع الميلادي».

ودخلت فلسطين والمنطقة العربية عموماً مرحلة جديدة من تاريخها لم تكن مقطوعة عن المراحل التي سبقتها. وحمل الفتح العربي الإسلامي معه إليها موجة جديدة من عرب الجزيرة العربية، وغدت اللغة العربية لغة شعب فلسطين، واعتنق عدد كبير من الشعب الدين الإسلامي. وكان اسم العرب قد تردد في تاريخ فلسطين عبر مراحله المتتالية من الهجرات التي جاءت من الجزيرة العربية. واستمرت فلسطين عربية طيلة حقب التاريخ التالية مع تعرضها أكثر من مرة للغزو التوطيني.

٢ ـ عطاؤه الحضاري على مدى هذه المرحلة عبر العصور:

بنى شعب فلسطين حضارته التي هي جزء من حضارة المنطقة وأسهم في إغناء التراث الإنساني، وتدرج في سلّم الحضارة وخاض عملية التفاعل

الحضاري مع حضارات أخرى. وشيّد شعب فلسطين الكنعاني منذ أقدم العصور التاريخية حضارة متقدمة ازدهرت فيها الزراعة حتى عرفت بلادهم بخيراتها وثمراتها، واشتهرت بأنها تفيض لبناً وعسلاً. وقامت فيها الصناعة على نطاق واسع. وانتعشت التجارة بينها وبين الشعوب المجاورة في وادي النيل وبلاد الرافدين. كما تابع شعب فلسطين العيش في ظل حضارته إبان الحكم الفارسي الذي دام أكثر من قرنين، وخاض تجربة التفاعل الحضاري مع الحضارة الفارسية. ونجحت الحضارة الكنعانية خلال عملية التفاعل الحضاري مع الحضارة الإغريقية في المحافظة على مكانتها، فأعطت وأخذت. ولقد بقي الوضع على حاله إبان الحكم الروماني لفلسطين عام ٦٤ قبل الميلاد الذي تبنّى الثقافة الهيلينية. وعاش شعب فلسطين الحدث الكبير الذي تمثّل في ظهور المسيح عيسى عليه السلام، الذي دعا إلى محبة الله ومحبة الإنسان. ولم يُعرف عن شعب فلسطين والسوريين عامة أنهم فقدوا طابعهم القومي أو أضاعوا لغتهم، أو سلكوا المنهج اليوناني أو المنهج الروماني في الحياة. كما شارك شعب فلسطين بعد الفتح العربي الإسلامي سنة ٦٣٨ في بناء الحضارة العربية الإسلامية التي أصبحت حضارة زاهرة على مدى القرون التالية، وكانت اللغة العربية هي أداة التعبير في هذه الحضارة وقد حكم الإسلام نظرتها إلى الحياة.

٣ ـ ملامحه وانتماؤه:

لقد كان تاريخ شعب فلسطين متصلاً منذ أقدم العصور، وهو جزء من تاريخ سوريا والمنطقة التي أصبحت تعرف بالوطن العربي بصورة عامة. وظهرت ملامح شعب فلسطين بوضوح في العصور التاريخية، شعباً كنعاني الطابع، عربي الأصل، يعيش في أرض فلسطين التي عرفت باسم أرض كنعان. وكان بين شعب فلسطين منذ أقدم العصور قبائل عربية وثيقة الصلة بجزيرة العرب، فضلاً عن الكنعانيين والعموريين والآراميين الذين جاؤوا من هنالك، والعبرانيين الذين جاؤوا من جنوب العراق. واكتملت عروبة فلسطين منذ القرن الهجري الأول كاستمرار لكنعانيتها في القسم الأول من تاريخ

فلسطين. وانتمى لهذه العروبة شعب فلسطين بمسلميه ومسيحييه ويهوده. وساهم شعب فلسطين بكل طوائفه في الحضارة العربية الإسلامية[١].

❋ ❋ ❋ ❋

مكانة اليهود من فلسطين

أرادت إسرائيل أن ترتبط بفلسطين فذهبت في العهد القديم مختلف المذاهب، وأخيراً خرجت ببدعة «الوعد المقدس». ثم جاءت اليهودية والمسيحية فارتبطت أيضاً بها ونسي أصحاب العهد القديم وأصحاب العهد الحديث أن تاريخ فلسطين أقدم بآلاف السنين من ظهور الإسرائيليين إلى الوجود. علماً بأن تاريخ فلسطين الحقيقي يبدأ فعلاً منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد عندما كانت تتجول فيها القبائل العربية التي خلعت عليها رداء حضارتها وثقافتها. ونظراً لموقعها على الطريق الذي يربط مصر بأرض الرافدين ظلت عصوراً طويلة مرمى الثقافتين. فقد استولت عليها مصر في عهد الأسرة السادسة «الألف الثالث» قبل الميلاد، ومنذ «القرن الثامن» قبل الميلاد أصبحت ولاية آشورية، ولما ورثت بابل آشور آلت فلسطين إلى بابل في «القرن السادس» قبل الميلاد. ثم ورثت فارس بابل في «القرن السادس» قبل الميلاد، وفي «القرن الرابع» قبل الميلاد جاء الإسكندر وظلت تحت حكم اليونان «ثلاثة قرون» حتى جاءت روما واستولت عليها في «القرن الأول» قبل الميلاد. ونجد أثر معظم هذه الأحداث في «العهد القديم»[٢].

إن التساؤل عن مكان العبرانيين وبني إسرائيل واليهود اللذين عاشوا في أرض فلسطين من شعب فلسطين: «فالعبرانيون» هم أولاد إبراهيم عليه السلام، وكان هذا الاسم يتضمن مدلول البداوة ويشمل قبائل عربية مختلفة منها قبيلة إبراهيم عليه السلام. و«الإسرائيليون» هم أولاد يعقوب بن إسحاق بن

(١) المرجع السابق ص٢١ ـ ٢٦.

(٢) المجتمع الإسرائيلي منذ تشريده حتى اليوم، د. فؤاد حسنين ص٤٩.

إبراهيم عليه السلام الذي لقب بإسرائيل، وهم قبائل هاجرت إلى أرض كنعان أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد من مصر بقيادة موسى عليه السلام، وأسست مملكتين: إسرائيل في الشمال ويهوذا في الجنوب. ودمرت المملكتان ثم أعيد تأسيس يهوذا لفترة محدودة وإليها ينسب «اليهود». وقد حمل اسم «يهودي» كل فرد من شعب يهوذا رجع من السبي، وجملة الذين تهوّدوا واعتنقوا الديانة اليهودية من أقوام آخرين.

لقد أسّس هؤلاء الإسرائيليون مملكة على جزء من فلسطين بعد أن اقتبسوا فكرة الملكية من الكنعانيين، وانقسمت المملكة إلى مملكتين لم تعمرا طويلاً. وأخذ بنو إسرائيل حضارة الكنعانيين فتعلموا لغتهم وعاداتهم وأساليب حياتهم. وأسهموا في هذه الحضارة في المجال الروحي من خلال كتابة «العهد القديم». ويهود فلسطين هم جزء من شعب فلسطين، وتاريخهم يقع في دائرة تاريخ شعب فلسطين، وهم غير اليهود الأوروبيين الذين ظهرت الحركة الصهيونية في أوساطهم الذين هم من أصل خزري في غالبيتهم. فالتراث اليهودي في فلسطين هو جزء من تراث شعب فلسطين تماماً كالتراث المسيحي والتراث الإسلامي فيها، وأيضاً الكنعاني قبل ذلك. وإن العقيدة الدينية إسلاماً كانت أو مسيحية تنسجم مع الالتصاق بهذا التراث، لأنها تعتقد أن أنبياء إسرائيل هم من الذين أسلموا لله سبحانه وهم من بين أنبياء الله ورسوله عليه السلام[1].

❋ ❋ ❋ ❋

التاريخ السياسي لفلسطين

عرفت فلسطين خلال التاريخ سلسلة طويلة متباينة من الفتوح والغزوات التي شنّتها عليها شعوب أجنبية، وذلك كونها مفرق طرق العالم القديم. ففي تلك الأزمان البعيدة، كانت الصورة المحيطة لفلسطين تتغير

(١) وثيقة القدس، منظمة المؤتمر الإسلامي ص٢٦ ـ ٢٩.

كلما سقطت دولة أو دول ونهضت غيرها بدلاً منها خلال التاريخ القديم كله. فمصر الفراعنة تقوم إلى الجنوب، وكانت الحدود الشرقية تتصل بالدول الصغيرة المجاورة: «مؤاب، وعمون، وجلعاد». بينما كانت الصحراء العربية الضخمة القائمة وراءها ملأى بآلاف لا تحصى من رجال القبائل الرحل. وأبعد إلى الشرق ازدهرت دولتا آشور وبابل على ضفاف دجلة والفرات، وفي بعض الفترات كان الأموريون أقوياء في شمال فلسطين. وطوال عدة قرون كان الحيثيون يسيطرون على الأقاليم الغربية في آسيا الصغرى. أما إلى الغرب فكانت «كريت»، عبر مضيق «الدردنيل» على البر الأوروبي والتي عرفت ببلاد الإغريق بجزرها البحرية المتاخمة، والقادرة على غزو فلسطين عن طريق البحر الأبيض المتوسط.

وكانت فلسطين أرض كنعان القديمة في الوسط بين هذه الدول كلها. كانت الممر ومفرق الطرق الذي كانت جميع الدول المجاورة تثب عبره مهاجمة بعضها بعضاً. وكان في استطاعة أي من الدول إذا ما استولت على مفرق الطرق أن تصد سائر الدول عن هذه المنطقة الإستراتيجية الخطيرة. ومن أجل الاستيلاء على أرض كنعان مفرق الطرق الرئيسي ذي الاتجاهات الأربعة، قامت الدول المجاورة بغزوها وفتحها. وكانت هذه الدول تتقدم حيناً وتتراجع حيناً، ولكنها كانت تجري في تتابع غير منقطع منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر. ولقد حاولت كل دولة أن تفوز بموطئ قدم، ثم بالسيطرة الكاملة على فلسطين، وحاولت أن تكسب لنفسها حقاً سياسياً في تلك الديار، وأن تجعل هذا الحق سرمدياً. وفي غمرة من الفتوح الأجنبية، كان سكان أرض كنعان المستقرون ـ أي: الكنعانيون ـ يقيمون حكومة مستقلة، إلا أن إحدى الدول المجاروة كانت تسيطر عليهم بسبب أنهم كانوا يعيشون في مفرق الطرق، وطوال تاريخ تلك البلاد العريق كان الحكم بأيدي الفاتحين الأجانب الطارئين على البلاد من الخارج. ومن بني جميع هؤلاء الفاتحين من يزعم لنفسه أقوى حق سياسي في فلسطين[١].

(١) أزيلوا إسرائيل، إيلين بيتي ص٣٥ ـ ٣٨.

فملكية فلسطين يوضحها هذا السجل التاريخي الموجز منذ أقدم العصور وحتى الوقت الحاضر والذي يتلخص في:

١ ـ الكنعانيون:

فبلاد فلسطين كما يعرفها التاريخ كانت أرض كنعان. ويجب أن نفخر بالكنعانيين منشئي الحضارة للآخرين الذين جاوروهم، إذ أنهم اكتشفوا النحاس اللين في حوالى العام ٤٠٠٠ قبل الميلاد. وتعلّموا خلال الألف السنة التالية كيف يجمعون ما بين النحاس والصفيح لينتجوا «البرونز». فشعب كنعان أدخل علم التعدين، وأعطى الشعوب البدائية أدوات وأسلحة قاسية حادة لا تكاد تبلى.

٢ ـ مصر الفرعونية في فلسطين:

إن أهمية مفرق الطرق كانت شيئاً ملحوظاً، وكانت التجارة ناشطة بين مصر وبابل عبر مفرق الطريق الكنعاني. وبسط الفراعنة الأقوياء المنتسبون إلى الأسرتين الأولى والثانية سلطانهم حتى شمل أرض كنعان، والتي أصبحت مستعمرة لهم. وقد حدث ذلك حوالى عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد.

٣ ـ الهكسوس:

على الرغم من أن أرض مصر تعتبر أرض كنعان جزءاً من إمبراطوريتها، فإن بعض البدو الرحّل الوافدين من الشمال، والذين يدعون الهكسوس، اندفعوا نحو الجنوب ليدخلوا أرض كنعان. واستمرت إمبراطوريتهم في أرض كنعان من حوالى عام ١٧١٠ قبل الميلاد، إلى ١٤٨٠ قبل الميلاد.

٤ ـ الفراعنة بعد الهكسوس:

وفي عام ١٤٨٠ قبل الميلاد أقبل المصريون من الجنوب فطردوا الهكسوس من أرض كنعان، وبسطوا سلطانهم من جديد على مفرق الطرق

العالمي، فدامت سيطرتهم عليه مئة وثلاثين عاماً. ثم إن فرعون مصر «إخناتون» آمن بإلٰه واحد ليس غير، وهو إيمان كان في نظر المصريين ضرباً من الهرطقة. وتفسخت الإمبراطورية وتجزأت. وفي غمرة من هذه الفوضى العامة استطاعت أرض كنعان أن تنتزع حريتها. ولكن ملوك المدن الكنعانيين، الذين كان كلٌّ منهم أضعف من أن يحتفظ باستقلاله، كان فريسة سهلة للغزاة القادمين من ناحية أخرى.

٥ ـ الحيثيون:

في الشمال الغربي في آسيا الصغرى، كان الحيثيون ذوو الرؤوس المستدقة والأجسام البرميلية، قد انطلقوا نحو الجنوب، بعد أن استولوا على معظم الأراضي التي كان جيرانهم «الميتانيون» يحتلونها، واستولوا على «سوريا» وعلى أرض كنعان. فحوالى عام **١٢٩٠** قبل الميلاد تقدم أشهر فراعنة مصر «رمسيس الكبير» من الجنوب لينازل الحيثيين، وتمكن من استرجاع الجزء الجنوبي من أرض كنعان.

٦ ـ أطماع الدول القوية في أرض كنعان:

عندما بدأت حركات الشعوب الأكثر بُعداً تؤثر في حياة كنعان زحفت شعوب البلقان إلى بلاد الإغريق، وهاجموا الفريجيين في طروادة، وذلك ابتغاء الهجوم على مصر. وفي حوالى عام **١٢٠٠** قبل الميلاد، كانت الإمبراطورية الحيثية قد أزيلت من أرض كنعان، وصدّت مصر ذلك الغزو. وفي ذلك الوقت استطاع «العبرانيون» المستعبدون في مصر الفرار إلى صحراء سيناء. فيما كان العبرانيون يهيمون على وجوههم باحثين عن المرعى، مقتربين من مراعي أرض كنعان كلما وجدوا سبيلاً إلى ذلك. وهكذا شهدت أرض كنعان استمرار محاولات مصر للإبقاء على سيطرتها عليها. بينما أطبق عليها أهل القبائل الصحراوية ومن جملتهم «العبرانيون» من الشرق، وكثيراً ما كان الكنعانيون يحصرون في الوسط.

٧ ـ الفلسطينيون يوطدون حكمهم:

كان المحاربون الفلسطينيون هم الذين أطبقوا على أرض كنعان، وأطبق العبرانيون عليها من الصحراء الشرقية عن طريق الهجوم المتفرق والتسلل. فبعد خروج الإسرائيليين من مصر حوالى عام **١٢٢٤** قبل الميلاد، هاموا على وجوههم في الصحراء طوال أربعين سنة مدة غزو أرض كنعان حوالى عام **١١٨٤** قبل الميلاد. ولكن الفلسطينيين كانوا أقوى من منافسيهم الإسرائيليين وأشد بأساً، وذلك أنهم هزموهم، بل لقد كادوا يفرضون عليهم العبودية. وترك الفلسطينيون أثراً باقياً، هو اسمهم على مفرق الطرق الدولي. إن ذلك المفرق لم يعد يدعى أرض كنعان، لقد أمسى يعرف باسم فلسطين. وبعد ثلاثة آلاف سنة، وبعد تغيرات عدة من الانقياد والسيادة، لا تزال تلك الديار تعرف بفلسطين. وعلى أية حال، فلا الفلسطينيون ولا الإسرائيليون استطاعوا أن يفرضوا سلطانهم على السكان في مدنهم المسوّرة.

٨ ـ ملك داود وسليمان عليهما السلام:

ظلت كنعان موضع شد وجذب من قِبَل الفريقين الفلسطينيين والإسرائيليين حتى عام **١٠٠٠** قبل الميلاد. وهذا هو التاريخ الذي يعينونه لاستيلاء الملك الإسرائيلي داود عليه السلام على بيت المقدس. لقد هزم الفلسطينيين، وفتح أرض كنعان، وتقدم بالتالي للاستيلاء على الدويلات الصغيرة المجاورة الواقعة إلى الشرق من فلسطين: «أدوم، مؤاب، عموم، وجلعاد». وبلغ حكم داود وسليمان عليهما السلام ثلاثاً وسبعين سنة. ثم زالت تلك المملكة بعد وفاة سليمان، حوالى عام **٩٢٧** قبل الميلاد، وتفسخت المملكة وانقسمت على نفسها. لقد تحررت الدويلات الصغيرة المجاورة القائمة إلى الشرق، وانقسمت فلسطين نفسها إلى بلدين معاد أحدهما للآخر. لقد شكلت قبائل يهوذا وبنيامين مملكة يهوذا في الجنوب. أما القبائل العشر الباقية فشكلت مملكة إسرائيل في الشمال.

٩ ـ الآشوريون:

وكان كل من هاتين الدولتين أضعف من أن تقف على قدميها وحدها، وهنا برزت مصر، وغزت مملكة يهوذا، وخربت الهيكل في بيت المقدس. ومن جهة الشمال انتزعت سوريا جزءاً من الأراضي من مملكة إسرائيل، ثم إنه عقدت حلفاً مع مملكة إسرائيل ضد مملكة يهوذا، واستنجدت مملكة يهوذا بمملكة آشور. ولم يكن الآشوريون في حاجة إلى دعوة، فقدموا من الشمال الشرقي، فخربوا إسرائيل بكاملها وفتحوها في عام **٧٢١** قبل الميلاد، وحملوا «القبائل العشر» إلى بلادهم أسرى، هكذا زال القسم المعروف باسم إسرائيل.

١٠ ـ البابليون:

حاولت مملكة يهوذا أن تتشبث بالبقاء، إلا أن «نبوخذ نصر» الكلداني أقبل من الشرق، ففرّ أهل مملكة يهوذا في عام **٥٨٦** قبل الميلاد. فدمّر بيت المقدس، وأسر يهود مملكة يهوذا.

١١ ـ الفرس:

في عام **٥٣٨** قبل الميلاد زحف الفرس على الإمبراطورية البابلية واستولوا عليها، وقد شمل هذا الغزو الاستيلاء على فلسطين أيضاً. وقد أعادوا الأسرى اليهود من بابل إلى بيت المقدس ليبنوها من جديد.

١٢ ـ الإسكندر المقدوني:

تقدّم الغازي الإسكندر المقدوني على جيش كبير من الإغريق أراد أن يفتح به الشرق الأوسط حتى بلاد الفرس، وفلسطين في جملة ما يطمح إليه، فاستولى عليها في عام **٣٣٠** قبل الميلاد. وكان الإغريق أكثر شعوب العالم تقدماً ومدنية، ومن هؤلاء القادمين الجدد تعلم شباب الشرق الأوسط كيف يفكرون. وبالتالي كيف ينفلتون من التقاليد البالية، وهو انقلاب أثار نقمة الشيوخ من اليهود.

١٣ ـ الرومانيون:

في سنة ٦٣ قبل الميلاد، استولى الجنرال الروماني «بومبي» على القدس. وقد نصبت روما ملكاً هو «هيرودوس» لكي يحكم فلسطين، التي أصبحت في الوقت نفسه ولاية يهوذا الرومانية. وجبى «هيرودوس» المكروه ضرائب اغتصابية، وفرض العمل بالسخرية. فبنى أبنية ضخمة في جملتها إنشاء أسوار جديدة لمدينة القدس، وبناء هيكل لليهود فيها. وفي هذا العام ولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام. وكنتيجة لذلك، خاضت ولايات يهوذا غمار ثورتين ولكنهما غير ناجحتين الأولى في عام ٧٠ قبل الميلاد، والثانية في عام ١٣٥ بعد الميلاد. وكان العقاب الذي أنزله الرومان باليهود أنهم دمّروا القدس تدميراً كاملاً ووزعوا السكان اليهود بكاملهم على الأجزاء النائية من الإمبراطورية الرومانية. وأعادت روما بناء بيت المقدس وخلعت على مدينة القدس اسماً جديداً هو إيلياء، ولم يكن في مقدور أي يهودي أن يدخل المدينة. وهكذا فإن صلة اليهود الرسمية بفلسطين انتهت في عام ١٣٥ بعد الميلاد. ودام الحكم الروماني طوال قرون أولاً من «روما» من ٦٣ قبل الميلاد إلى ٣٩٥ بعد الميلاد. ثم من «القسطنطينية» من ٣٩٥ بعد الميلاد إلى ٦١٤ بعد الميلاد. عندها هاجم الفرس بيت المقدس واحتلوها، ولم يدم هذا الفتح الفارسي إلا أربع عشرة سنة، عندما اضطر الفرس إلى التخلي عن فلسطين لروما[١].

فبعد أن قضى «هادريان» على تمرد «باركوخيا» في فلسطين عام ١٣٥ بعد الميلاد، لم يشهد التاريخ اليهودي أي حدث ذي أهمية لمدة خمسة قرون بعد ذلك. وفي هذه الفترة قلّ عدد اليهود المقيمين في بلدان الشرق الأوسط، بينما زادت الجاليات اليهودية في مناطق آسيا الصغرى وأوروبا، واستمرت الحال على هذا المنوال إلى أن جاءت الفتوحات الإسلامية في النصف الأول من القرن السابع. وكانت بمثابة عودة الحياة للكيان اليهودي على الساحة العالمية[٢].

---

(١) المرجع السابق ص٣٨ ـ ٤٩.
(٢) تاريخ اليهود، أحمد عثمان ج٢ ص١١٧.

١٤ ـ فلسطين إسلامية عربية:

وفي عام ٦٣٨ بعد الميلاد استطاع أصحاب محمد رسول الله ﷺ أن يستولوا على كامل الإمبراطورية الرومانية في الشرق الأوسط وفي جملتها فلسطين. وبالآلاف سكن عرب الصحراء فلسطين واستقروا فيها. ولقد وُفِّقوا إلى إدخال الكنعانيين إلى الإسلام الذين كانوا برغم تعاقب الدول عليهم يؤلفون العمود الفقري لسكان فلسطين المسلمين. لقد أصبحت لغتهم عربية وكذا عاداتهم، ومنذ ذلك الحين خضعت فلسطين للسيادة الإسلامية المبسوطة عليها من هذه الناحية حيناً، ومن تلك الناحية حيناً آخر، تبعاً للبلد الذي يعيش فيه الخليفة.

١٥ ـ الحملات الصليبية:

نظّم مسيحيو أوروبا جيشاً لتحرير الأراضي المقدسة من السيطرة الإسلامية، ودعيت الحركة باسم الحملة الصليبية، واستولوا على القدس في عام ١٠٩٩ ميلادية. ومن طريق الإمدادات المتواصلة المتخذة شكل حملات صليبية تالية استطاع الأوروبيون أن يحتفظوا باحتلال محدد قلق طوال مائتي سنة تقريباً.

١٦ ـ صلاح الدين الأيوبي:

سطع نجم وجه من أكثر وجوه التاريخ فتنة وسحراً، هو وجه صلاح الدين الأيوبي القائد الشجاع الشهم للجيوش الإسلامية. وتمكن من هزيمة الصليبيين في معركة «حطين» التي نشبت في يوليو عام ١١٨٧ ميلادية.

١٧ ـ التتار:

لم يُقْضَ على الصليبيين نهائياً إلا عندما انحدرت جموع التتار إلى فلسطين قادمين من بحر «آرال»، واستولوا على بيت المقدس، مزهقين آلافاً من الأرواح.

١٨ ـ المغول:

بعد التتار تبعهم على الأثر جحافل المغول القادمين من الشرق الأبعد بقيادة «هولاكو» الذي زرع النار والرعب والموت والخراب في الشرق الأوسط.

١٩ ـ المماليك:

وهنا وجد المماليك أن من الخير لهم أن يتعاونوا مع الصليبيين من أجل سحق المغول. فأقبلوا من الجنوب من مصر، وهزموا هؤلاء المغول في عام **١٢٦٠** ميلادية. ولكن المماليك ما لبثوا أن ارتدُّوا على حلفائهم السابقين الصليبيين، وتمكنوا في عام **١٢٩١** ميلادية من طردهم من الشرق الأوسط. فانسحبت آخر بقايا الجيوش الصليبية المشتتة الشمل إلى أوروبا.

٢٠ ـ العثمانيون:

ومن الشمال الغربي أقبل الفرع العثماني من الأتراك فهزموا مماليك مصر، واستولوا على فلسطين. ثم بسطوا سلطانهم على طول جانبي البحر الأبيض المتوسط جميعاً. وتولى «سليمان القانوني» السلطة على فلسطين، وأعاد بناء بيت المقدس، وكان الحكم التركي العثماني قد امتد من عام **١٥١٧** إلى **١٩١٨** ميلادية. وهو امتداد للحكم الإسلامي، وظلت لغة البلاد هي اللغة العربية كما كانت منذ عام **٦٣٨** للميلاد[١].

لقد أضيف عنصر آخر إلى صورة فلسطين، فاليهود لم يلعبوا أي دور في تاريخ فلسطين السياسي منذ تشتيتهم النهائي في عام **١٣٥** للميلاد. ويقدر المؤرخون أن عددهم الأقصى في فلسطين كلها كان في مطلع القرن التاسع عشر أقل من عشرة آلاف. وعلى الرغم من ذلك فقد نظمت الصهيونية في أوروبا الشرقية الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وأقيمت أكبر مستعمرة من مستعمرات اليهود في قرية تدعى «تل أبيب».

---

(١) أزيلوا إسرائيل، الكاتبة الأمريكية إيلين بيتي ص٤٩ ـ ٥٣.

٢١ ـ الانتداب البريطاني:

في عام **١٩١٤** ميلادية نشبت الحرب العالمية الأولى، فاستغلّت بريطانيا انتصارها على تركيا وحلفائها عام **١٩١٨** ميلادية، وورثت معظم أجزاء دولة الخلافة في الشرق. وحكمت بريطانيا فلسطين حكماً عسكرياً حتى عام **١٩٢٠** ميلادية، ثم تحولت إلى بلد تحت الانتداب، وتحت إدارة مصلحة المستعمرات البريطانية. أما تعداد فلسطين في عهد الاحتلال البريطاني فكان نحو «٧٠٠,٠٠٠» نسمة، وعشر السكان كانوا يهوداً، وأقل من العشر كانوا عرباً مسيحيين، وأكثر من أربعة أخماس السكان كانوا مسلمين.

وكان اليهود يقيمون في القدس وطبريا وصفد وحيرون، إلا أنهم كانوا يكونون أغلبية السكان في طبرية. لكن في غير هذه الأماكن نجد يهوداً آخرين نزلوا في قرى مختلفة، وقد وفدوا عليها منذ عام ١٨٨٠م، ومعظم هؤلاء جاؤوا إلى البلاد من روسيا وشرق أوروبا. واستغلت بريطانيا خمول الوعي السياسي في البلاد ورحّبت بهؤلاء اللاجئين اليهود مدّعية أنهم سيعمرونها[١].

وكان التخطيط البريطاني يتركز على فلسطين، وبالتحديد للعمل على إقامة وطن لليهود. وقد قام بهذا الدور الرجل الذي تولى اتفاقية «سايكس بيكو» السير «مارك سايكس»، حيث حاولت هذه الاتفاقية أن تأخذ جميع الأطراف العربية على غرة، فخريطة «سايكس بيكو» التزمت بالتقسيم بين الساحل والداخل، وفقاً للنوايا والخطط البريطانية التي تتلخص في:

١ ـ أن بريطانيا يجب أن تحتفظ بسيطرة فعالة على الساحل السوري بدءاً بفلسطين وانتهاءً بالإسكندرونة على الحدود التركية، فتلك ضرورة لتكملة سيطرتها على الساحل المصري في شمال أفريقيا. وأقصى ما يمكن أن تسمح به بريطانيا هو أن تترك لفرنسا جزءاً من ساحل سوريا الشمالي.

---

(١) المجتمع الإسرائيلي منذ تشريده حتى اليوم، د. فؤاد حسنين ص٥٠.

٢ ـ أن بريطانيا لا بد أن تضمن سيطرتها على ما بين النهرين حتى العراق لمنع روسيا من الوصول إلى المحيط الهندي.

كانت هذه هي الخطوط الإستراتيجية، وأما أساليب تنفيذها فتتلخص في: «أن الوقت قد أزف لكي يقوم العرب بدورهم في مساعدة المجهود الحربي البريطاني في المشرق، ويجب أن نحاذر في هذه المرحلة بشأن إعطاء أي تعهدات بشأن المطالب الخاصة باستقلال العرب، ولا بد من ملاحظة أنه في هذه المنطقة فإن مواقف معينة يمكن شراؤها بالمال بدلاً من إضاعة الوقت والجهد في عمليات عسكرية، إن الحكومة البريطانية قد أعطت نفسها حق العمل بانفراد في كل منطقة، وحاولت التفرقة بين العناصر التقليدية: «السلطنات، والقبائل، والمشايخ، والأعيان، والمفكرين»، ومن خلال هذه التفرقة يحدث تنافر بين الأطراف ويكون الممثلون البريطانيون هم المرجع فيه والحكم. إن الحكومة البريطانية يمكن أن تمارس مناورات تتكفل بالتفرقة داخل معسكر العرب التقليديين، وكذلك الذين يمثلون التيار الجديد المطالب بالحرية».

إن الرجل الذي تولى اتفاقية «سايكس بيكو» قام بتقسيم العالم العربي، وأوله التمهيد لإنشاء الوطن الموعود في فلسطين. وهو أن توضع فلسطين تحت الحماية البريطانية لإتاحة الفرصة دون متاعب لإمكانية تغير التوازن السكاني في الأرض الموعودة. فقد كان عدد المستوطنين اليهود في فلسطين لا يزيد عن خمسين ألفاً. ولتوفير مناخ هادئ تجرى عملية استبدال بشري على نطاق واسع يفسح مجالاً أكثر أماناً لعشرات ألوف من اليهود يتوجهون فور انتهاء الحرب إلى الوطن الموعود.

لقد تنبّه عرب فلسطين إلى خطورة المستعمرات اليهودية التي تظهر كل يوم في أنحاء مختلفة من وطنهم، وكانت مواقع إنشاء هذه المستعمرات تشي بخطة أوسع، فهي أولاً أخصب الأراضي في فلسطين التي تمّ شراؤها، ثم هي ثانياً أهم المواقع الحاكمة على مفارق الطرق، مما يشير إلى استعداد للعمل العسكري إذا اقتضى الأمر. وبالفعل فإن الفترة ما بين ١٩٠٦ إلى

١٩١٤ «وهي فترة قيام الحرب العالمية الأولى» قد شهدت معارك دامية بين عرب ويهود سقط فيها قتلى وجرحى بالمئات في معارك وقع أخطرها في منطقة الناصرة. وكان من نتيجة وصول الأمر إلى درجة الاحتكام للسلاح أن المندوبين العرب في المجلس النيابي العثماني، تقدموا في عام ١٩١١ بمشروع يطلب وقف الهجرة الصهيونية الجماعية إلى فلسطين. وخلال السنة الأولى من الحرب العالمية الأولى، فإن اللجنة التنفيذية للمؤتمر الصهيوني اعتبرت أن أمامها مهمتين، الأولى: «إنشاء معسكر مؤقت لليهود النازحين من الشرق ومن البلقان وأوروبا الغربية، وترتيب أمورهم حتى يمكن نقلهم بعد أن تخف المعارك إلى فلسطين. والثانية: أن على اللجنة التنفيذية أن تنتهز فرصة الحرب لإعادة رسم خريطة المنطقة بمقتضى اتفاقية «سايكس بيكو» لكي تطالب مما تعتبره حقها في فلسطين.

فقبل الحرب وأثنائها وبعدها، كانت السياسة البريطانية تعرف ما تريد، وتناقش احتمالاته، وتتردّد مرة ثم تحزم أمرها وتتصرف. لقد أوصى رئيس الوزراء البريطاني «كامبل بافرمان» في الفترة السابقة على الحرب مباشرة، وجاء فيه بالنص: إن إقامة حاجز بشري قوي، وغريب على الجسر الذي يربط أوروبا بالعالم القديم، ويربطها معاً بالبحر الأبيض والبحر الأحمر هو مطلب. ويتعين علينا أن نضع في هذه المنطقة قوة معادية لأهل البلاد وصديقة للدول الأوروبية وتكون عارفة لمصالحها، ويعني إنشاء دولة يهودية في فلسطين. وأثناء الحرب طلبت الحكومة البريطانية سنة ١٩١٥ من السير «هربرت صمويل» أن يضع تصوراً لما ينبغي أن يكون عليه أمر فلسطين بعد النصر. وكتب بوصفه عضواً في وزارة الحرب إلى جانب كونه يهودياً اقتراحاً توصل فيه إلى أن الحل الذي يوفر أكبر فرصة لضمان المصالح البريطانية، هو إقامة اتحاد يهودي تحت السيادة البريطانية في فلسطين، ويجب أن توضع فلسطين بعد الحرب تحت السيطرة البريطانية، ويستطيع الحكم البريطاني فيها أن يعطي تسهيلات للمنظمات اليهودية في شراء الأراضي وإقامة المستعمرات وتنظيم الهجرة، بحيث يتمكن اليهود من أن يصبحوا أكثرية في البلاد. وأن هناك عطفاً في العالم البروتستانتي لفكرة

إعادة الشعب العبراني إلى الأرض التي أعطتها له النبوءات القديمة[١].

لقد كان «هرتزل» يؤمن في بداية حياته بضرورة ذوبان اليهود في المجتمعات التي يعيشون بها، إلا أنه تراجع عن هذا الرأي وأصبح يعتقد بضرورة تكوين وطن قومي يعيش فيه اليهود وحدهم. ومع ذلك لم يطالب بتكوين الوطن القومي في فلسطين، وكان يبحث عن أرض بكر لا يسكنها أحد مثل الأرجنتين في ذلك الوقت. إلا أنه بعد قيام الحرب العالمية الأولى حصل على أهم اعتراف من الحكومة البريطانية لصالح الحركة الصهيونية. وتمكن من إقامة علاقات صداقة مع بعض رجال السياسة البريطانيين لفكرة إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، والتي كانت ما تزال تحت السيطرة العثمانية. وكللت محاولاته بالنجاح عندما أصبح اللورد «بلفور» وزيراً للخارجية البريطانية، في وقت كانت تركيا قد انضمت للحرب العالمية الأولى إلى جانب دول المحور، وكانت بريطانيا تستعد لغزو فلسطين. وصدر «وعد بلفور» على شكل رسالة وجهها إلى لورد «تشايلد» لتبليغها للمنظمة الصهيونية، جاء فيها: «تنظر حكومة صاحب الجلالة بعطف على تكوين وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وسوف تبذل جهدها لتحقيق هذا الهدف». صدر في لندن عام **١٩١٧**م عندما كانت الحرب العالمية الأولى ما تزال في أوجها، وبالرغم من هذا الالتزام على إقامة الوطن اليهودي في فلسطين، إلا أن الفضل الأكبر يعود إلى يهود روسيا في تحويل هذا الحلم إلى حقيقة[٢].

ونشبت الحرب العالمية الأولى في عام **١٩١٤**م. فاستغلت إنجلترا انتصارها على تركيا وحلفائها عام **١٩١٨**م، وورثت معظم أجزاء دولة الخلافة في الشرق. وحكمت بريطانيا فلسطين حكماً عسكرياً حتى **١٩٢٠**م، ثم تحولت إلى بلد تحت الانتداب وتمت إدارة مصلحة المستعمرات البريطانية. أما تعداد فلسطين في عهد الاحتلال البريطاني وفي عام **١٩١٨**م،

(١) المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، محمد حسنين هيكل ص٩٧ ـ ١١١.
(٢) تاريخ اليهود، أحمد عثمان ج٣ ص١٥٣ ـ ١٥٤.

فكان نحو «٧٠٠» ألف نسمة، وعُشْر السكان كانوا يهوداً، وأقل من العُشْر كانوا عرباً مسيحيين، وأكثر من أربعة أخماس السكان كانوا مسلمين، وكان اليهود يقيمون في القدس وطبريا وحبرون. ولكن في غير هذه الأماكن نجد يهوداً آخرين نزلوا في قرى مختلفة، ومعظم هؤلاء جاؤوا إلى البلاد من روسيا وشرق أوروبا. واستغلت إنجلترا خمول الوعي السياسي في البلاد ورحبت بهؤلاء اللاجئين اليهود مدّعية أنهم سيعمرونها.

وإلى جانب «وعد بلفور»، وحكم الانتداب الذي قررته جمعية الأمم عام **١٩٢٢**م، كان الحكم البريطاني شبيهاً بالحكم السائد في مستعمراتها، فالحاكم يلقب بالمندوب السامي وله سلطات واسعة. أما المشاكل الدولية حول فلسطين فكانت تعرض على محكمة العدل الدولية في لاهاي. ونظراً لتفاقم الخلاف بين العرب واليهود لم ينتخب مستشارون، أما المجلس الاستشاري ففيه أغلبية من الفلسطينيين. وبالرغم من النضج السياسي الذي بلغه سكان فلسطين إبان الانتداب البريطاني إلا أن بريطانيا لم تمنح فلسطين الاستقلال كما لم يعين فلسطيني في وظيفة رئيسية بسبب الخلافات الجنسية، فجميع الوظائف الرئيسية طيلة مدة الانتداب **٢٨** عاماً، كانت في يد الإنجليز. واحتجت بريطانيا على العرب لعدم استسلامهم لمطالب اليهود الذين كانوا يحاولون السيطرة عليهم سياسياً.

لقد أنشأ اليهود هيئة تعرف باسم «وعداؤمي»، أي: المجلس القومي، إلى جانب الوكالة اليهودية لشؤون فلسطين. فهذه الوكالة أصبحت حكومة داخل حكومة الانتداب. وأخذت هذه الوكالة تتطور حتى أصبحت رأس الحربة للصهيونية العالمية. وأخذت تعمل لتقسيم فلسطين وأصبحت النواة لقيام دولة إسرائيل. وقابل العرب هذه الحركة الخطيرة على كيانهم بخلق حركة عربية وطنية إلا أن تعدد التيارات السياسية بين المسلمين والمسيحيين من ناحية، وبين بعض الأُسَر الإسلامية من ناحية أخرى قد عوّق نضج الحركة الوطنية العربية في فلسطين. أما نشاط اليهود فقد كان أول الأمر وئيداً وبخاصة في أوائل عصر الانتداب، وذلك بسبب قلة الأموال المرصودة له. إلا أن التوسع في اختصاصات الوكالة اليهودية والقصور الذي بلغته عام

١٩٢٩م، كان خطراً هدّد الكيان الفلسطيني، فثار عرب فلسطين وأريق كثير من الدماء البريئة.

ثم ساد الهدوء حتى عام **١٩٣٦**م، فظهر الخطر النازي وأخذ اليهود يهاجرون إلى فلسطين وثار العرب، ولولا أن تدخلت القوات البريطانية لنجح العرب في تحطيم الخطر الصهيوني المحدق بهم. أما سبب تدخل بريطانيا وانضمامها للصهيونيين فيرجع إلى أهمية موقع فلسطين الإستراتيجي بالنسبة لبريطانيا للدفاع عن مصالحها في الشرق الأوسط. وينحصر الاستعمار اليهودي لفلسطين بين الحربين العالميتين في ازدياد عدد اليهود في فلسطين. وعلى ذلك أصبحت نسبة السكان العرب إلى اليهود واحد يهودي إلى اثنين عرب كما ازدادت القرى اليهودية، فبعد أن كانت «**٥٠**» قرية بلغت «**٢٥٠**» قرية، وتضاعفت الأموال الصهيونية المستغلة في البلاد. إلا أن صدور الكتاب الأبيض عام **١٩٣٩**م لوقف الهجرة والتوسع في امتلاك الأراضي قد أوجد حركة عدائية بين اليهود وإنجلترا. ونشط اليهود في تهريب الأسلحة والمهاجرين غير الشرعيين إلى فلسطين[١].

كانت بريطانيا تتجاهل في بعض الأحيان تصريح «بلفور»، ومع ذلك عوّل زعماء الصهيونية على استمرار روابطهم مع بريطانيا باعتبار أن ذلك أفضل ضمان لتطور الوطن القومي اليهودي. إلا أن العلاقات قد استمرت في التدهور في عام **١٩٣٩**م بصدور الكتاب الأبيض الذي وضع قيوداً شديدة على الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين. ومع ذلك قبلت المنظمة الصهيونية الكتاب الأبيض وتفهمت الدوافع وراء إصداره في سعي بريطانيا لتهدئة العرب. وقد قدّر الصهاينة أنه ما دام في طوع اليهود شراء الأراضي واستقبال اليهود فإن ذلك يخلق واقعاً قوياً على الأرض. وكانت الهجرة قد تزايدت في العشرينيات والثلاثينيات، فوصل فلسطين عام **١٩٢٥**م زهاء «**٣٤**» ألف يهودي. وفي عام **١٩٣٥**م، مع تزايد اضطهاد اليهود في ألمانيا قدم إلى فلسطين «**٦٢**» ألفاً من اليهود، وكان ذلك أكبر عدد من اليهود في

(١) المجتمع الإسرائيلي منذ تشريده حتى اليوم، د. فؤاد حسنين ص**٥٠ ـ ٥٣**.

عام واحد. وقام العرب باضطرابات ضد اليهود، وكانت أخطرها تلك التي بدأت في عام **١٩٣٦**م، حيث وصلت إلى نطاق واسع وكانت ثورة عربية شاملة في فلسطين. وشكلت لجنة عربية عليا نظمت إضراباً عاماً وطالبت بالوقف الفوري للهجرة اليهودية إلى فلسطين، وإقامة حكومة في فلسطين. واتبعت بريطانيا أسلوب التهدئة ثم اتخذت إجراءات قمع شديدة، واستعانت بتعزيزات عسكرية، وسلّمت السلاح لليهود للدفاع عن أنفسهم. وساءت الأحوال بدرجة دفعت بريطانيا إلى توجيه إنذار إلى اللجنة العربية العليا باتخاذ إجراءات عسكرية ما لم تتوقف الاضطرابات.

شكلت لجنة برئاسة اللورد «بيل» بحثت الأوضاع على الطبيعة وصدر تقريرها في عام **١٩٣٧**م، وأوصى بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية، ودولة يهودية في مساحة أقل لا تزيد على خمس مجمل مساحة فلسطين. وقامت الوكالة اليهودية بالتفاوض مع بريطانيا لتحسين شروط التقسيم، بينما اتخذ العرب موقف المعارضة الشديدة لتقرير اللجنة والتقسيم. وتجددت الاضطرابات عام **١٩٣٨**م، ومع تدهور الوضع الدولي وخطر نشوب الحرب العالمية الثانية، وتزايد حرص بريطانيا على تهدئة الأوضاع بإصدار الكتاب الأبيض الذي كاد أن يقضي على فكرة الوطن القومي اليهودي بالحد من الهجرة، اهتم اليهود بتطوير قوات الدفاع الصهيوني واتسع نطاقها، وقامت بحماية عمليات الاستيطان والهجرة والدفاع. ووصل عدد اليهود في فلسطين عام **١٩٣٩** إلى «**٤٥٠**» ألفاً، ووصل الكيان القومي اليهودي إلى درجة عالية من التطور الاقتصادي والتقني بمعايير المنطقة[١].

لم يكن للحركة الصهيونية أن تطأ أرض فلسطين ولا أن تطلق مخطط الهجرة اليهودية إليها، والتملك اليهودي فيها، لو لم تراهن على بريطانيا التي أصبحت فيما بعد هي الدولة المنتدبة على فلسطين. وقد وضح ذلك من الرسالة التي وجهها وزير خارجية بريطانيا، والتي عرفت بوعد «بلفور» عام **١٩١٧**م إلى «الكتاب الأبيض» عام **١٩٣٩**م، حيث اعترف بالخطأ بعد

(١) من العهد القديم إلى قيام دولة إسرائيل، د. حسين شريف ج١ ص٣٥٧ ـ ٣٦١.

فوات الأوان بربع قرن استغلت فيه الحركة الصهيونية الانتداب البريطاني لتؤسس الوجود الصهيوني في أرض فلسطين.

وقد برزت بريطانيا أكثر من سواها في تلك المرحلة، لكنها لم تكن وحدها. ففرنسا أيضاً كانت مسؤولة معها عن الاتفاقية السرية الموقعة عام **١٩١٦**م بين البريطاني «سايكس» والفرنسي «بيكو». هذه الاتفاقيات التي أقرت تقسيم المنطقة، ضاربة عرض الحائط بالوعود البريطانية المعطاة للحركة العربية. وهذه الاتفاقيات التي انضمت إليها في ما بعد روسيا وإيطاليا، والتي تمّ تنفيذها في مؤتمر «سان ريمو» والتي قررت مصير المنطقة العربية بمعزل عن العرب، الذين لم يكن لهم أن يقولوا كلمتهم فيها.

أما القيادة الصهيونية، فقد كانت موضوعة منذ البداية إلى النهاية في جو تقسيم المنطقة ورسم جغرافيتها. وكانت بحكم علاقتها داخل الدوائر البريطانية تشارك في الخفاء في دفع الأمور في اتجاه مشروعها وفقاً للمقايضة التالية: «أن تعطيهم بريطانيا فرصة إنشاء كيان وطني وليس وطناً داخل فلسطين. فيؤمنون لها حماية قناة السويس فيما يلائم مصالحها، ويضعون الأموال اليهودية تحت تصرف مخططاتها الاقتصادية في الشرق، ويحاولون دفع الولايات المتحدة الأمريكية إلى المشاركة في الحرب»، لكن كل تلك الوعود الممكنة قد أعطت ثمارها.

وعندما قامت ثورة «**١٩٣٦**» الفلسطينية أدركت بريطانيا بعد **١٩** عاماً من وعد «بلفور» خطورة ما أقدمت عليه، وهول ما حدث في هذه البلاد. فسارعت في «الكتاب الأبيض» إلى محاولة الحد من الهجرة والتملك لليهود، علها تهدئ الثورة العربية التي استفحل أمرها. لكن الحرب العالمية الثانية كانت على الأبواب. واستغلت الحركة الصهيونية الاضطهاد النازي لكسر القرار البريطاني، وفتح باب الهجرة اليهودية إلى فلسطين. واستخدمت الاضطهاد لمد نفوذها داخل الولايات المتحدة الأمريكية. فقد أدرك الصهيونيون أن المستقبل لم يعد لبريطانيا ولأوروبا بل لأمريكا. وخلال ثلاثين عاماً استطاعت الحركة الصهيونية تحت غطاء الانتداب رفع عدد

اليهود في فلسطين من «٥٦» ألف نسمة إلى «٦٢٥» ألف نسمة، أي: تضاعف العدد أكثر من عشر مرات. ولكن بالرغم من كل ذلك لم يكن اليهود يشكلون عام ١٩٤٨ إلا «٣٠» بالمئة من سكان فلسطين. وكان هناك «١٣٠٠٠٠٠» عربي مقابل «٦٢٥٠٠٠» يهودي أتوا في أكثريتهم العظمى من القارة الأوروبية. وخلال الفترة نفسها استطاعت الحركة الصهيونية توسيع مساحة الأرض التي يملكها اليهود، فتضاعفت ثلاث مرات مع توجيه خاص نحو الأراضي الخصبة. وبلغت نسبة الأراضي التي يملكها اليهود في فلسطين عام ١٩٤٨ «٥,٦» بالمئة فقط من أرض فلسطين[١].

❋ ❋ ❋ ❋

تقسيم فلسطين

لقد وضع مستقبل العرب في مهب الريح حينما تقرر رفع القضية أمام الجمعية العامة التابعة للأمم المتحدة. ذلك لأنه بدل أن يطبق مبدأ تقرير المصير على أهل البلاد، وهو الحل المنطقي لإنهاء الانتداب البريطاني، ترك هذا الحل لأهواء مندوبي الدول الذين لا يعرفون عن حقيقة القضية شيئاً يذكر. هذا ومن المعروف أن العرب لم يصلوا إلى درجة اليهود في التغلغل بأجهزة الدعاية في مختلف أنحاء العالم، بل وفي الأجهزة التابعة لهيئة الأمم المتحدة ذاتها. أما حجة بريطانيا فهي أن الكتاب الأبيض وثيقة دولية ولا يمكن إلغاؤه إلا بواسطة هيئة دولية. وأنها عجزت عن التوفيق بين السماح لليهود بغزو فلسطين، وبين مراعاة صك الانتداب في عدم الإضرار بمصالح سكانها الآخرين. كما أنها لا تستطيع أن تفرض حلاً نهائياً بالقوة لأنها دولة منتدبة، وأن من واجبها أن ترفع الأمر إلى الأمم المتحدة، لتقرر وتفرض بريطانيا الحل الذي تراه.

وقد دعيت الجمعية العامة بناء طلب الحكومة البريطانية سنة ١٩٤٧م،

(١) تاريخ المسألة الفلسطينية، فيصل أبو خضرا ص٢٦ ـ ٢٧.

وظهر منذ البداية عطف الدولتين الكبريين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي على فكرة التقسيم. وقررت الجمعية تكوين لجنة خاصة من أحد عشر عضواً لإجراء تحقيق في الموضوع من دول مختلفة، وكان عدد من مؤيدي الصهيونية بين ممثلي الدول. وانتقلت اللجنة إلى الشرق العربي، وأمضت بفلسطين أكثر من شهر ثم قابلت رؤساء الحكومات العربية، أما الهيئة العربية العليا فاستمرت على موقف المقاطعة. ثم عادت اللجنة ورفعت تقريرها إلى الجمعية العامة، ولم تستطع أن تضع تقريراً جماعياً إذ انقسم الأعضاء إلى فريقين:

❑ الفريق الأول:

ويضم ممثلي «كندا، وأستراليا، وبيرو، وتشيكوسلوفاكيا، وجواتيمالا، والسويد، وأورجواي»، وقدّم مشروعاً سمي بمشروع «الأكثرية». ويدعو إلى تقسيم فلسطين إلى دولتين؛ إحداهما: عربية، والأخرى: يهودية، وقد أقرّت الجمعية العامة مشروعها، ويتضمن أربعة أقسام:

١ ـ **القسم الأول**: ويشمل على: الدستور المقبل وشكل الحكومة في كل من الدولتين العربية واليهودية، والخطوات التمهيدية لإنهاء الانتداب، والأماكن المقدسة، والحقوق الدينية، وحقوق الأقليات، والمواثيق الدولية، والالتزامات الدولية.

٢ ـ **القسم الثاني**: تناول الحدود، وقد نصّ على أن تشمل المنطقة العربية: الجليل الغربي، ولواء نابلس، والسهل الساحلي الممتد من قرية أسدود حتى حدود مصر، ولواء الخليل، وجبل القدس، وغور الأردن الجنوبي. وتبلغ مساحة هذه المنطقة «١٢» ألف كيلو متر مربع، يسكنها «٦٦١» ألف نسمة منهم «١١» ألف يهودي. وتشمل المنطقة اليهودية: الجليل الشرقي، ومرج بن عامر، والقسم الأوسط من السهل الساحلي، ومنطقة النقب. وتبلغ مساحة هذه المنطقة «١٤,٢٠٠» كيلو متر مربع يسكنها «٩٩١» ألف نسمة منهم «٤٩٦» ألفاً من اليهود و«٤٩٥» ألفاً من العرب، ويملك العرب ثلثي مجموعة مساحة أراضي هذه المنطقة.

٣ ـ **القسم الثالث**: مدينة القدس، وقد نصّ على إقامة نظام دولي خاص بها تتولى الأمم المتحدة الإشراف عليه عن طريق مجلس وصيانتها. وعلى أن تمتد المنطقة من شمال قرية شعفاط شمالاً إلى بيت لحم وبيت ساحور جنوباً، ومن الشرق العزيزية شرقاً إلى غرب عين كارم ودير ياسين غرباً. وتناول هذا القسم طريقة الحكم في المنطقة وأهدافه وإجراءات الأمن وحرية النقل والزيارة والرعوية وحماية الأماكن المقدسة، على أن يستمر هذا النظام بصورة أولية مدة عشر سنوات تعود بعدها الأمم المتحدة إلى إعادة النظر فيه.

٤ ـ **القسم الرابع**، تناول قضية الامتيازات والحصانات وما شابهها.

❑ الفريق الثاني:

ويضم ممثلي «الهند، وإيران، ويوغوسلافيا» وقدّم مشروعاً سمي بمشروع «الأقلية». ويدعو إلى إنشاء دولة اتحادية فلسطينية تشمل البلاد كلها. ويقترح قيام حكومتين؛ إحداهما: عربية، والأخرى: يهودية، تتمتعان بالاستقلال الذاتي على أن تتألف من كلتيهما دولة اتحادية باسم دولة فلسطين. ويتولى إدارة الشؤون السياسية والعسكرية والاقتصادية فيها مجلس اتحادي يتولى انتخاب رئيس الدولة الاتحادية، ويضع الدستور الواحد، ويقرر الرعوية الفلسطينية الواحدة، ويعالج شؤون الهجرة[١].

وبمقارنة المشروعين نلاحظ: أن مشروع الأقلية ينص على إقامة دولة فيدرالية يكون لسكانها جنسية واحدة، وهيئة مشتركة للدفاع والخارجية وشؤون الهجرة والنقد وتوزيع المياه والمواصلات، مع التسليم بالاستقلال الذاتي لليهود والعرب فيما عدا ذلك. وترى أن تكون المرحلة الانتقالية ثلاث سنوات، تمارس أثناءها الأمم المتحدة السلطة، وأن تحدد الهجرة أثناء المرحلة الانتقالية حسب قدرة البلاد الاقتصادية وتخضع للرقابة الدولية، ثم تنتقل إلى الحكومة الفيدرالية التي سيكون للعرب فيها مركز راجح. وبالنسبة

(١) قضية فلسطين، د. صلاح العقاد ص٣٧ ـ ٤٢.

للحدود وضعت معظم «النقب ويافا» ضمن القسم العربي وأن تكون القدس عاصمة الدولة الفيدرالية، وأن يوضع نظام للتحكيم في حالة خلاف بين الإقليمين العربي واليهودي بإنشاء محكمة دستورية تتكون من أربعة من العرب وثلاثة من اليهود. أما مشروع «الأغلبية» فيرى أن تكون المرحلة الانتقالية مدة سنتين تتحمل فيها بريطانيا مسؤولية الإدارة بمساعدة عضو من الأمم المتحدة، وأن يفتح باب الهجرة، وكذا أدخلت «النقب ويافا» في الدولة اليهودية، وأن تدول القدس كجزء قائم بذاته.

وقد رفض العرب كلا المشروعين، واقترحوا على الجمعية العامة مشروعاً آخر لم يحز القبول. ويتلخص في: إقامة حكومة انتقالية مركزية مع بقاء الانتداب البريطاني سنة واحدة ريثما تنتخب جمعية تأسيسية على أسس ديمقراطية تصنع دستوراً للبلاد. والمقصود بالأسس الديمقراطية هو أنه سيباح لجميع السكان عرباً كانوا أو يهوداً التصويت. وستؤدي هذه الانتخابات إلى حصول العرب على أغلبية كبيرة في الجمعية التأسيسية مما يتيح في النهاية إقامة حكومة عربية مع التسليم ببعض حقوق الاستقلال المحلي لليهود. أما اليهود فقد وافقوا على مشروع الأغلبية باعتباره الحد الأدنى لمطالبهم. أما بريطانيا ـ باعتبارها صاحبة السلطة الفعلية ـ فقد أعلنت حيادها إزاء المشكلة التي أوجدتها. وقالت: إنها لن تشترك في تنفيذ أي مشروع لا يقبله الطرفان، وبذا تكون قد ساعدت بطريق غير مباشر على التقسيم.

نوقش المشروعان، وأظهرت بعض الدول ميلاً شديداً نحو اليهود، وانحرفت المناقشات عن موضوع مستقبل فلسطين العربية إلى مسألة تشريد اليهود. ثم جرت مساومات مع العرب الذين رفضوا التقسيم، فحاولت بعض الدول إرضاءهم بتوسيع المنطقة العربية لضم «النقب» أملاً في أن يقبل العرب مبدأ التقسيم. وفي الحال أوفدت الوكالة اليهودية «حاييم وايزمان» لمقابلة الرئيس الأمريكي «ترومان» حتى يثني الأعضاء عن فكرة المساومة على المنطقة المخصصة لليهود. لقد اقتنع الرئيس الأمريكي فأبلغ ممثله في الأمم المتحدة بالضغط على الوفود لعدم إثارة موضوع إعادة النظر في حدود التقسيم. وبالضغط الأمريكي سحب الاقتراح ثم انتقلت المناقشة إلى الجمعية

العامة ودار جدال حول المرحلة الانتقالية بين الدولتين الكبيرتين اللتين أيدتا مشروع التقسيم، وأن يتم إنشاء الدولتين في أول عام **١٩٤٨**م. وتمّ الاتفاق بين الدولتين الكبيرتين على إنهاء الانتداب على أن تبرز الدولتان ـ العربية واليهودية ـ في **١** يوليو. ورغم اتفاق الدولتين الكبيرتين فإنه عندما طرح مشروع التقسيم للتصويت أمام الجمعية العامة لم ينل أغلبية الثلثين المطلوبة. حينئذ تحركت الدبلوماسية الأمريكية بكل ثقلها للضغط على الدول التي يمكن أن تحولها عن موقفها سواء إلى التأييد أو الامتناع على أقل تقدير.

وكمحاولة أخيرة أثار العرب إشكالاً قانونياً، وهو أنه ليس من حق الجمعية العامة اتخاذ القرارات، وأنها بالبت في مصير فلسطين تناقض مبدأً هاماً من مبادئ الميثاق على حق الشعوب في تقرير مصيرها. ولذلك لا بد من رفع الموضوع أمام محكمة العدل الدولية لتفصل فيما إذا كان من اختصاصات الجمعية العامة اتخاذ مثل هذا القرار. ولم يلتفت لهذا الإشكال، فبوشر بالتصويت، وكانت النتيجة هي موافقة «**٣٣**» صوتاً ضد «**١٣**»، وامتناع «**١٠**» عن التصويت. ولم تكن الدول الآسيوية والإفريقية تحتل المقاعد العديدة التي لها الآن في الجمعية العامة، وتمّ اتخاذ القرار نتيجة اتفاق الدول الأوروبية الغربية والشرقية معاً على مبدأ التقسيم، بالإضافة إلى «**١١**» صوتاً من أمريكا اللاتينية.

صدر قرار التقسيم في **٢٩** نوفمبر من الجمعية العامة مطابقاً لمشروع الأغلبية، ووكل مجلس الأمن سلطة تنفيذ القرار. وخصّ القرار الدولة اليهودية بمساحة قدرها «**٥٥٪**» من أرض فلسطين، في حين أن اليهود ما كانوا يمتلكون في هذه المنطقة أكثر من «**١١٪**» من الأراضي. وخريطة التقسيم تعطي كل دولة ثلاث قطع متداخلة غير متصلة، وقد استبعد المشروع «يافا» من المنطقة العربية بالرغم من أن الغالبية العظمى من سكانها هم من العرب. وقد راعى مشروع التقسيم عدم وجود أقلية يهودية في المنطقة العربية، بينما ترك عدد هائل من العرب في المنطقة اليهودية يبلغ عددهم نحو «**٥٠٪**» من مجموع السكان معولاً على أن الهجرة المستمرة ستحول الميزان فيما بعد.

ومراعاة لهذا المبدأ تركت كثير من المستعمرات المتطرفة كجيوب بارزة في المنطقة العربية، مما يجعل خط الحدود بين البلدين كثير التعاريج، بالإضافة إلى ذلك خصّ اليهود بالمنطقة الأكثر خصباً، بينما كانت المنطقة التي تركت للعرب فقيرة المواد. كما بادر مجلس الأمن إلى تشكيل لجنة من الدول التي وافقت على التقسيم، وذلك لمتابعة تنفيذ المشروع. ورفعت تقريرها إلى مجلس الأمن في مارس عام **١٩٤٨**م، وتلقي المسؤولية على بريطانيا لعدم تعاونها. كما أنحت باللوم على الدول العربية خارج فلسطين التي ترسل الأسلحة والمساعدات، وانتهت إلى القول بأنه في حالة عدم وجود قوات من الأمم المتحدة كافية لتنفيذ قرار التقسيم، فإن نهاية الانتداب البريطاني ستعترف بالاضطرابات والفوضى. أما بريطانيا فقد أعلنت موعد إنهاء الانتداب في أغسطس سنة **١٩٤٨**م موعداً لانسحاب قواتها. وقالت: إنها لن تقبل تدخل أي سلطة طالما أن الانتداب قائم. ولذلك انتظر كل من العرب واليهود يوم نهاية الانتداب لكي ينفذ كل فريق ما أزمع عليه[١].

الوكالة اليهودية لشؤون فلسطين كوّنتها المنظمة الصهيونية العالمية حتى أصبحت حكومة داخل حكومة الانتداب، وأخذت تعمل لتقسيم فلسطين، وأصبحت النواة لقيام دولة إسرائيل. ولما نشبت الحرب العالمية الثانية تطوع العرب واليهود مع الإنجليز في سبيل الدفاع عن فلسطين. لقد عجزت لجنة الأمم المتحدة لفلسطين عن إيجاد حل تقبله بريطانيا والعرب واليهود. إلا أن النتيجة التي انتهت إليها الحرب العالمية الثانية قلّلت من القيمة الاستراتيجية لفلسطين بالنسبة لبريطانيا لذلك قررت الانسحاب، ونشبت الحرب الأهلية.

عارض العرب التقسيم والتحدي الصهيوني الذي يريد أن يقيم دولة إسرائيل، وأدى هذا الموقف إلى وقوع الاصطدام المسلّح قبل نهاية الانتداب. وبادر العرب اليهود بحرب الفدائيين وانتصروا على اليهود في

(١) المرجع السابق ص٤٢ ـ ٥٤.

بعض المواقع بالرغم من كثرة القوات البريطانية المرابطة في فلسطين. أما القوة اليهودية فكانت تتمثل في الهاجاناة وتكونت غيرها جمعيات إرهابية لا تقل خطراً عن الهاجاناه منها: «أرجون، بلماخ، جابواتنسكس»، وكانت تتولى الإنفاق على هذه العصابات الوكالة اليهودية واتحاد العمال. ولقد قامت هذه الجماعات الإرهابية اليهودية بتدمير فندق الملك داود بالقدس، وكذلك مذبحة «دير ياسين» بالقرب من القدس. وأثارت غضب الكثير من البريطانيين والعرب، وفي هذه المذبحة لم يتخذ الجيش البريطاني إجراء ما ضد المعتدين. واضطر كثير من الفلسطينيين العرب إلى ترك البلاد، كما تركت الأقلية العربية طبرية، وانتهت مقاومة العرب في حيفا وتمّ طردها من يافا، وخلت قرى عربية كثيرة من سكانها قبل إنهاء الانتداب. وقاموا بنسف القرى العربية المهجورة حتى لا يعود العرب إليها ثانية. فقد لجأ نحو «٨٠٠,٠٠٠» عربي إلى لبنان وسوريا وفلسطين العربية، وإلى نابلس وتلال حبرون ووادي الأردن التابع للمملكة الأردنية، وقطاع غزة الواقع تحت سيطرة مصر.

لقد تمّ هذا الخروج بتشجيع من الزعماء العرب الذين كانوا يأملون في إلحاق الهزيمة سريعاً باليهود، إلا أن عدم تحقيق النصر الموعود خلق مشكلة اللاجئين. فالدول العربية تصر على عودتهم إلى وطنهم وإسرائيل ترفض وتعرض تعويضهم عن ممتلكاتهم، واستغلال هذه الأموال في استيطانهم خارج إسرائيل، وقد رفض العرب هذا كما رفضوا عرضاً من الأمم المتحدة. وفي داخل إسرائيل يعيش نحو «١٠٪» من سكانها من العرب، وتبذل إسرائيل جهدها في سبيل تهويدهم، أما فشل جامعة الدول العربية عام **١٩٤٨**م، فقد كان مرجعه عدم جمع كلمة العرب وتناصرهم فيما بينهم، واستحالة قيام قيادة عربية موحدة يكون في استطاعتها القضاء على إسرائيل[١].

لقد أقرّت الأمم المتحدة تقسيم فلسطين دون أخذ رأي سكانها،

(١) المجتمع الإسرائيلي منذ تشريده حتى اليوم، د .فؤاد حسنين ص٥٤ ـ ٥٦.

ضاربة عرض الحائط بحق تقرير المصير وبحق الاستقلال بعد الانتداب، وأقرت زرع دولة يهودية مصطفّة في أرض فلسطين وفي قلب الشرق العربي. فأولت الأقلية اليهودية في فلسطين التي لم تكن تملك أكثر من «٥,٦» بالمئة من مجموع أرض البلاد، ولا أكثر من «١٢» بالمئة من أراضيها الزراعية لتقيم عليها دولة.

وكان معظم الشاطئ الفلسطيني من عكا إلى مشارف منطقة غزة، إضافة إلى منطقة صفد وطبريا وبيسان على طول الحدود مع سوريا، وإلى صحراء النقب حتى خليج العقبة. وهكذا أصبح هناك نصف مليون فلسطيني داخل الدولة اليهودية غرباء في بلادهم وفوق أرضهم. أما الجزء المخصص لـ«الدولة العربية» فيضم فلسطين الوسطى والشمالية حتى الحدود اللبنانية، بالإضافة إلى منطقة غزة وشاطئها. وقد أصدرت الأمم المتحدة قرار التقسيم على شكل توصية موجهة إلى بريطانيا بصفتها الدولة المنتدبة على فلسطين. إلا أن بريطانيا أعلنت نفض يدها نهائياً، وأبلغت «الأمم المتحدة» أنها ستنسحب من فلسطين وتسحب كل قواتها في مايو ١٩٤٧م، مقدمة بذلك موعد رحيلها المقرر عدة أشهر، وتاركة البلاد أمام الانفجار الكبير.

إن كل ما حدث منذ عام ١٩١٧م لم يكن إلا مقدمة طويلة لما سوف يحدث عام ١٩٤٨م، فهذا هو الفصل الأخطر في تاريخ فلسطين. ومثلما جهد الإعلام الصهيوني في تزوير الحقائق وتضليل الرأي العام في أوروبا وأمريكا حول المراحل المهمة من تطوير المسألة الفلسطينية، جهد أيضاً في التزوير والتضليل حول عام ١٩٤٨م. فقد نشر الصهيونيون وعمّموا على نطاق واسع فكرة المجتمع اليهودي الصغير المهدّد في وجوده، إلا أن الحقيقة هي فقد شعب فلسطين لأرضه ووطنه[١].

❋ ❋ ❋ ❋

(١) تاريخ المسألة الفلسطينية، فيصل أبو خضرا ص١٧٦ ـ ١٧٧.

استعداد العرب للمواجهة العسكرية

حينما صرّح العرب بتحدّيهم لقرار التقسيم كان ذلك يعني ضمناً أنهم سيستخدمون القوة لمنع تنفيذه. كان أول اجتماع يبحث استخدام القوة في قضية فلسطين قد عقدته الجامعة العربية في عاليه بلبنان عام **١٩٤٧**م، أي: بعد أن تأكد لدى الدول العربية أن الجمعية العامة توشك على إصدار قرار التقسيم. واتجه الرأي في ذلك الاجتماع إلى الاعتماد على عرب فلسطين أساساً والمتطوعين من الدول العربية الأخرى دون اشتراك الجيوش النظامية مباشرة في مواجهة اليهود. وذلك لأن عرب فلسطين أعرف بمسالك بلادهم وأكثر تحمساً للدفاع عنها. وانبنت الخطة على اتباع نفس أساليب اليهود من حيث تنظيم الدفاع على أساس إقامة لجان في كل مدينة أو قرية تتولى الدفاع عنها. أما الجيوش العربية فترابط على الحدود لتمديد المساعدة إلى المجاهدين الفلسطينيين.

ثم انعقد اجتماع آخر على مستوى رؤساء الحكومات إثر صدور قرار التقسيم، وقرّر إنشاء لجنة عسكرية لتنسيق الخطط في توزيع القوات المسلحة في تنظيمين يتكون كل منهما من:

١ ـ جيش المجاهدين الفلسطينيين:

الذي يعمل في الداخل، وتشرف عليه الهيئة العربية العليا. وبالفعل تشكلت «**٢٧٠**» وحدة دفاعية في القرى والمدن العربية، حاولت أن تقلد أساليب اليهود في أن تجعل كل مدينة وقرية معدّة للدفاع عن نفسها ذاتياً. وأن تخلط بين العناصر المدنية والعسكرية بحيث يصعب التميز بينهما، شأنها في ذلك شأن المستعمرات اليهودية التي استفادت كثيراً من هذا الإدماج، وللأسف تدخلت بعض العوامل والتنافس الشخصي لإفساد كثير من هذه الخطط. وقد عيّن محمد أمين الحسيني كزعيم لعرب فلسطين لحرصه في منع وقوع النكبة، ولكنه كان من طراز زعماء العشرينيات، فلم يتطور ليكون قادراً على مواجهة المسؤولية الكبرى. فقد كان يعتقد أن حرب العصابات

على طراز الثورات العربية ضد الحكم البريطاني هي المناسبة لمواجهة اليهود.

٢ ـ جيش الإنقاذ العربي:

الذي يتكون من ضباط وجنود متطوعين معظمهم من سوريا ولبنان والأردن، وعليه أن يدخل إلى فلسطين في الوقت المناسب، وتشرف عليه الجامعة العربية. واتخذ مقره في قطنة حيث أعدّ معسكرات التدريب، واختير «فوزي القاوقجي» قائداً له.

٣ ـ جيش الجهاد المقدّس:

وتولى قيادته عبدالقادر الحسيني الذي أحرز نصراً مرموقاً باستيلائه على مستعمرة «كفار عصيون» قرب القدس. وخشيت الوكالة اليهودية من أن يؤثر هذا الحادث في معنويات اليهود، لذلك جرّت الحسيني إلى معركة غير متكافئة في «القسطل» على بُعد خمسة أميال من القدس قتل فيها القائد العربي. ولم تكتفِ بذلك بل لجأت إلى أسلوب الإرهاب، فعلى مقربة من القسطل تقع قرية صغيرة خلّد التاريخ ذكرها وهي قرية «دير ياسين» الذي قتل من أهلها «٣٠٠» دون تمييز. وقصد بهذا الحادث التأثير النفسي، وحققت الوكالة اليهودية هدفها، وذلك أن الصحف العربية نشرت أخبار هذه المذبحة على أمل أن تحرك الرأي العام العالمي ضد اليهود. ولكن هذا الأسلوب أتى بعكس ما كان يرجوه العرب، وكانت نتيجته هي مبادرة جميع سكان المدن والقرى التي استولى عليها اليهود إلى مغادرة ديارهم. مما أتاح لإسرائيل فرحة لم تكن تتوقعها، وهي وجود مناطق خالية لسكن المهاجرين الجدد، وبذا تغلبت إسرائيل على مشكلة لم يكن مشروع التقسيم قد حلّها.

ومما هو جدير بالملاحظة أن ممثلي الحكومات العربية حينما كان يلتئم شملهم في إطار الجامعة العربية كانوا يتظاهرون بالاتفاق على الخطط الموضوعة. ولذلك كانت تلك الخطط تبدو فعالة ومناسبة حينما توضع على الورق، ولكن عندما تنتقل إلى التنفيذ تعود كل دولة إلى اتخاذ الموقف

الذي تمليه عليها ظروفها. وقد عرف اليهود جانب الضعف عند العرب فلم يأخذوا تصريحاتهم مأخذ الجد. وقالوا: إنها من نوع إرضاء عواطف الجماهير. ولذلك يفسر البعض تدخل العرب بالفعل بأنه كان نتيجة هذه التصريحات المتوالية التي جعلت الحكام أسرى لها. وهناك فرق كبير بين خوض الحرب عن تدبير واقتناع مسبق وبين خوضها لمجرد تغطية مواقف اتخذت من قبل لإرضاء الجماهير. ويرى الكُتّاب اليهود أن الدول العربية انتظرت لترى مدى استعداد الأمم المتحدة لتنفيذ التقسيم، فلما لاحظت عدم وجود قوة دولية تسانده قررت إرسال جيوشها. والواقع أن قرار إرسال الجيوش النظامية لم يُتخذ إلا بعد أن ثبت عجز جيش الإنقاذ والجهاد عن مواجهة اليهود(١).

قبل بداية الحرب مع اليهود كانت الدول العربية مقسّمة سياسياً واقتصادياً ومنقسمة على نفسها بشأن فلسطين. ورغم اختلاف دوافعها فقد اتفقت الدول العربية أن تتخذ إجراءات عسكرية على حدودها مع فلسطين، وأن تساعد عرب فلسطين في نضالهم. وكان أهم ما تقرر في اجتماع الجامعة العربية أن تقوم الدول العربية باستيعاب العرب الذين قد ينزحون من فلسطين نتيجة لتدخل الدول العربية فيها. أما اليهود فقد تركزت قواتهم العسكرية في تنظيم الهاجاناة، وكانت مهمتها دفاعية، ويضم جهازها «٢١٠٠٠» مقاتل وألف احتياطي، وكان تسليحها أقل بكثير من العرب. واستمرت المناوشات بين العرب واليهود فيما بين ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨م، وتمكن العرب في فلسطين من تدمير عدة قوافل إسرائيلية، وهدّدوا الاتصال مع المستوطنات اليهودية المنعزلة.

وبذلك حقق العرب نجاحاً كبيراً في أول مرحلة من المواجهة رغم فشلهم في الاستيلاء على أية مستوطنة إسرائيلية، على أنهم أوضحوا للجميع أن قرار التقسيم لن يمكن فرضه بدون اللجوء للقوة. ومن ثم سحبت الأمم المتحدة فجأة تأييدها لمشروع التقسيم وبدا أن العرب أوشكوا على تحقيق

(١) قضية فلسطين المرحلة الحرجة، د. صلاح العقاد ص٥٥ ـ ٥٩.

هدفهم، وبدأت مجموعات عربية مقاتلة تصر عبر الحدود من الدول المجاورة في صورة متطوعين لمهاجمة المستوطنات الإسرائيلية في الشمال.

لقد استعدّت الهاجاناة، رغم ما واجهته من هزائم، لليوم الذي يمكنها فيه الأخذ بزمام المبادرة وتحويل الموقف لصالحها. وأسرعت في شراء السلاح، وأعدّت خطة للسيطرة على المناطق المخصصة للدولة اليهودية في مشروع التقسيم وحمايتها. وقد حققت عدة انتصارات في الأسابيع الأولى مما أحدث الاضطراب في صفوف العرب. ورغم ذلك كان موقف العرب السياسي أفضل بسبب تدفق المتطوعين من الدول العربية المجاورة دعماً لثورة عرب فلسطين ضد قرار التقسيم الصادر من الأمم المتحدة. وما صحبه من مطالبة الخارجية الأمريكية في مجلس الأمن بوقف كل محاولات فرض قرار التقسيم، وبحث خطة لفرض وصاية مؤقتة على فلسطين. وقررت جامعة الدول العربية المضي في غزو فلسطين فور انتهاء الانتداب[١].

لقد توقع العرب نصراً في قطاع القدس لأنه يقع داخل المنطقة المخصصة لهم، وتسابق كل من جيش الإنقاذ والجهاد للحصول على مكاسب في هذا القطاع، إلا أنهم وقفوا عاجزين مما ترك لليهود فرصة لتكتيل جهودهم في منطقة القدس. وكانت الدول المسيحية تقترح توقيع هدنة في المدينة المقدسة. غير أن الهيئة العربية العليا رفضت الفكرة على أساس أن المعركة ستنتهي لصالح العرب. وبمضي الوقت أخذت الحقيقة تنكشف، فقد استولى اليهود على حي جديد في القدس هو حي «القطمون»، وتحرج مركز العرب في المدينة القديمة. حينئذ أبدت الهيئة العربية العليا استعدادها لقبول الهدنة. وكانت شروط الهدنة الجزئية في القدس تنص على خطر دخول الأسلحة إلى المدينة، وإقامة هيئة محايدة للرقابة، والتعهد بفتح طرق التموين وحرية تنقُّل اليهود حتى في المدينة القديمة تحت رقابة اللجنة الثلاثية التي شكلها مجلس الأمن لإقامة هدنة عامة في فلسطين، وتتكون من قناصل بلجيكا وفرنسا والولايات المتحدة.

(١) من العهد القديم إلى قيام دولة إسرائيل، د. حسين شريف ج١ ص٦٤٩ ـ ٦٥١.

وبمقتضى الهدنة الجزئية يخلي اليهود حي «القطمون» الذي احتلوه. ويبدو أن اللجنة اصطدمت بالمندوب السامي الذي كان يمسك حتى آخر لحظة بسلطة بريطانيا الشرعية. وأدى ذلك إلى تحيُّز اللجنة إلى جانب اليهود. حتى إنها أوعزت إليهم بعدم قبول الهدنة، وكان ذلك مناقضاً للمهمة التي شكلت من أجلها. ويمكن إجمال الأسباب التي حولت الدفّة ضد العرب قبيل الحرب النظامية فيما يلي:

١ ـ بذل مساعي حثيثة من الصهيونية حتى تمكنت من رفع الحظر الذي فرضته الولايات المتحدة على إرسال الأسلحة إلى الشرق الأوسط.

٢ ـ الانقسامات العنيفة بين القواد العرب «جيش الإنقاذ العربي، وجيش المجاهدين الفلسطينيين، وجيش الجهاد المقدس»، فضلاً عن الساسة.

٣ ـ افتقاد عرب فلسطين لأساليب التجنيد المنظّم التي عرفها اليهود. فالمقاتلون متطوعون وينتمون إلى طبقات متفاوتة اجتماعياً وثقافياً، وقادتهم من قواد الثورات القديمة في الثلاثينيات الذين يصلحون للأعمال الفدائية، وليس للحرب النظامية والمعارك المكشوفة التي تطلبتها المرحلة الجديدة. وكانت الحشود تتجمع مع النصر ثم تتفرق عند مواجهة الصعاب.

٤ ـ استخدام اليهود أحدث الأساليب للتأثير النفسي، فكانوا يتجولون بمكبرات الصوت في المدن لتحطيم المعنوية. وتعمّدوا أحياناً إطلاق الأسرى لنشر الأخبار الكاذبة عن قوة اليهود، وذلك في الأماكن المحصّنة التي يلحظون أن العرب ينوون الصمود فيها.

٥ ـ قوة المخابرات وتمرُّس اليهود بأعمال التجسس، فقد كانوا يعرفون شحنات الأسلحة إلى البلاد العربية ومواعيد وصولها، وتمكنوا من إغراق بعض السفن التي كان من المفروض أن تنزل حمولتها على شاطئ فلسطين للجيوش العربية. وفضلاً عن ذلك القدرة على الاتصال والتأثير في العواصم الأوروبية، وإفساد النشاط الدبلوماسي العربي والنتائج التي سيتوصل إليها الدبلوماسيون العرب أحياناً.

لقد أخفقت اللجنة الخماسية المكلفة من مجلس الأمن في تنفيذ التقسيم، لأن جميع الأطراف المعنية رفضت التعاون معها. إلا أن اليهود كانوا قد أعدُّوا الأجهزة الإدارية للحلول محل الإدارة البريطانية، بينما لم تكن هناك خطة عربية موحّدة لاستلام السلطة في أعقاب الإنجليز. لذلك أنهت اللجنة الخماسية في تقريرها إلى مجلس الأمن المطالبة بإنشاء قوة دولية إذا ما أريد وضع مشروع التقسيم موضع التنفيذ. ولكن عندما قدّمت اللجنة هذا الاقتراح كان تطور هام قد طرأ على القضية الفلسطينية في الأروقة الدولية. فقد تراجعت الولايات المتحدة عن مساندة مبدأ التقسيم، وأبدت استعداداً لإعادة النظر في قضية فلسطين. وتبعت بعض الدول الأخرى الولايات المتحدة سياسة التراجع، فأعلنت كل من كندا وبلجيكا إمكان إعادة النظر في موضوع التقسيم. وقدّم المندوب الأمريكي مقترحات محددة للتصويت عليها في مجلس الأمن وهي تدعو إلى وضع فلسطين تحت وصاية الأمم المتحدة فترة أخرى إلى أن يتم التوصل إلى قرار يقبله الطرفان. وفي خلال هذه المدة تفرض هدنة سياسية وعسكرية في فلسطين، ويتوقف دخول مساعدات عسكرية من خارجها. وقد وافق المجلس على الاقتراح بأغلبية الأصوات.

لقد فسّر العرب هذا التحول الأمريكي بأنه مناورة سياسية قصد بها تخدير العرب حتى يتوقفوا عن الجهود العسكرية التي أخذت تؤتي ثمارها في ذلك الحين. وأن بريطانيا تآمرت في هذه الخديعة الكبرى، وبذا فوّتت على العرب فرصة النصر العسكري. ثم عادت الولايات المتحدة إلى موقفها السابق المؤيد للصهيونية دون حدود[١].

من الخطأ الشائع أن يظل هناك من يقول بأن الأمم المتحدة هي التي درست مشكلة فلسطين منذ أحالتها إليها دولة الانتداب. لقد شكلت عشرات اللجان ثم انتهى الأمر بأن قسمت فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية. وهذه الدعوى، دعوى أن تقسيم فلسطين كان قبل الإعلان الرسمي عن مولد

(١) قضية فلسطين، د. صلاح العقاد ص٧١ ـ ٧٦.

الدولة اليهودية على الجزء المخصص لها في التقسيم قد تمّ بإدارة الأمم المتحدة، وبأنها حسماً لمشكلة الصراع على أرض فلسطين إنما تريد أن تصنع شرعية دولية على الأرض المتصارع عليها، وهذه الشرعية مصدرها منظمة عالمية هي أمل الإنسان المعاصر بمبادئها وقراراتها. فالواقع الذي تسجله نصوص وقرارات مكتوبة ترفض هذه الدعوى التي تساق لتضليل الرأي العام العالمي لصرف أنظار العالم عن حق شعب فلسطين في كامل أرضه ووحدة الشعب العربي في كل تراب وطنه. وهكذا تحقق لدول الاستعمار ـ أيًّا كان نوعه ـ أن يصنع له وجوداً متقدماً في الأرض العربية، يثب مَن عليه إلى مصالحه وأطماعه.

لقد صدر القرار اللعين بتقسيم أرض فلسطين، ولم تكن هناك قوة داخل الأمم المتحدة أو خارجها قادرة على أن توقف من الاندفاعة المحمومة التي انطلق بها التأييد الأمريكي لتقسيم الأرض العربية الفلسطينية. وقسمت الأرض الفلسطينية بهذا القرار في ١٩٤٧/١١/٢٦م. ويأتي الاستعمار البريطاني ليكمل باقي حلقات التآمر ويعلن إنهاء الانتداب البريطاني من على أرض فلسطين في ١٤ مايو عام ١٩٤٨، واضعاً كل إمكانات دولة الانتداب في خدمة دولة صهيون المرتقبة، كي يكون المجال ميسراً بإنهاء الانتداب بعد قرار التقسيم ليأتي الذي يهمه أمر التقسيم «الحركة الصهيونية»، ويعلن عن قيام دولة إسرائيل في أرض فلسطين يوم ١٥ مايو عام ١٩٤٨[١].

عندما اتخذت الأمم المتحدة قرار التقسيم وبدأ الوضع يتجه نحو الانفجار كان واضحاً مدى إهمال العرب للجانب العسكري، ومدى ما أولاه الصهيونيون من اهتمام به منذ سنين في انتظار يوم الحسم. ويفاجأ المرء بتوقف العرب طوال كل تلك السنين عند الجانب السياسي دون سواه. فالدول العربية كانت تظن بأن الغرب لن يقف في نهاية المطاف مع المشروع الصهيوني ضد الأمة العربية. وكانت الدول العربية تنظر بكثير من الجدية إلى العلاقات الدبلوماسية مع الدول الغربية، واحترمت حتى النهاية التوقيت الذي

(١) تاريخ اليهود العام، صابر طعيمة ج٢ ص٢٦٠ ـ ٢٦٢.

اختارته بريطانيا للانسحاب من فلسطين، أي: ١٥ مايو ١٩٤٨، فلم تحاول الحسم العسكري في فلسطين قبل ذلك التاريخ. بينما كانت التنظيمات الصهيونية قد أطلقت قواتها على القرى والمدن العربية وما إن حلّ يوم انتهاء الانتداب حتى كانت إسرائيل قد أعلنت دولتها وفرضت أمرها العسكري على الجزء الأكبر من البلاد.

وبينما كان العرب يراهنون على الجانب السياسي فقط، كانت الصهيونية ترى في الجانب السياسي عنصراً من العناصر ليس أكثر كما كانت تواصل تحركها السياسي، وتعد تحت هذا الغطاء عدة الحرب في الداخل. فَتُكَوِّنُ جهازها العسكري وتُطَوِّرُ عتادها وتضع خططها، وهي عالمة أن «الحل الحربي» هو الحل الوحيد لإقامة «الدولة اليهودية». وكان الصهيونيون مدركين كيف أن ثلث قرن من الهجرة والاستيطان وتملك الأراضي بكل الوسائل الاستعمارية لم يتح لهم إلا السيطرة على «٥,٦» بالمئة من أرض فلسطين. وأنه لم يعد أمامهم لتنفيذ مشروعهم اللامعقول إلا ضربة عسكرية قادرة على تهجير الشعب الفلسطيني بالقوة تهجيراً جماعياً من أرضه. وقد بلغت القوات الصهيونية أكثر من «٥٦» ألف مسلّح كامل التجهيز والتنظيم بقيادتها المركزية وقيادتها الفرعية القائمة على أساس المناطق، وهي تضم ثلاث فرق تعمل فيها النساء أيضاً، وتحمل اسم «الهاجاناة». كما توجد قوة ثابتة من «٤٠» ألف مسلّح من سكان المدن ورجال المستعمرات، وجيش ميداني متخصص في العمليات السريعة الحركة يضم حوالى «١٦» ألف مسلّحاً، وقوة عسكرية دائمة تضم «٦» آلاف مسلّح.

وما إن صدر قرار التقسيم من الأمم المتحدة حتى بدأ العنف يهز فلسطين، وسقط من الجانبين العربي واليهودي «٨٦٩» قتيلاً. ومع اقتراب موعد الانسحاب البريطاني صعدت المنظمات الصهيونية عملها العسكري، وبدأت تنفذ خطتها الهادفة إلى السيطرة الحربية على كل المنطقة المعدّة لإقامة الدولة اليهودية. وكذا احتلال أكبر قدر ممكن من المدن والقرى العربية، وإلى إثارة الرعب والتهجير الجماعي على نطاق واسع. وخلال الستة أسابيع الأخيرة من الانتداب البريطاني، وبينما كانت الدول العربية

تنتظر انتهاء الانتداب للتدخل، مزقت القوات الصهيونية فلسطين على النحو التالي: الهجوم على القرى الفلسطينية على امتداد طرق يافا ـ القدس، بهدف تجزئة المنطقة المخصصة للدولة الفلسطينية وضربها في عمقها. وبدأت موجات اللجوء الفلسطيني إلى شرق الأردن وسوريا، ولم يلبث البريطانيون أن انسحبوا فجأة من حيفا فسقطت في أيدي القوات الصهيونية وطرد الآلاف من أهلها إلى لبنان ومصر. واحتلّ الصهيونيون أحياء القدس الغربية والشرقية خارج المدينة القديمة وطردوا سكانها العرب نحو رام الله وبيت لحم وشرق الأردن. كما سقطت صفد ومنطقتها في الجليل وطرد أهلها إلى سوريا ولبنان. ثم سقطت بيسان، ولقي المصير نفسه ما تبقى من القرى العربية في السهل الأوسط بين الرملة واللطرون. كما أدّى الهجوم الصهيوني في الجنوب إلى احتلال القرى الموصلة إلى النقب وتشريد أهلها. وتتويجاً لذلك، وفي مايو **١٩٤٨** عشية جلاء البريطانيين عن فلسطين، أعلنت الحركة الصهيونية قيام دولة إسرائيل. وبعد عشر دقائق كانت الولايات المتحدة قد اعترفت بالدولة اليهودية[١].

❋ ❋ ❋ ❋

الحرب النظامية الأولى بين العرب وإسرائيل

كان الاتجاه السائد عند الحكومات العربية حتى شهر إبريل سنة **١٩٤٧**م هو أن يترك للعرب الفلسطينيين مواجهة التقسيم. وقد تبين خلال الأشهر القليلة التي تلت التقسيم استحالة تنفيذ هذه الخطة. وأكد إسماعيل صفوت، عضو اللجنة العسكرية التابعة للجامعة العربية أن الأمر لا يحتاج إلى تدخل الجيوش العربية النظامية فحسب. بل لا بد من وضع جميع ثقل هذه الجيوش في معركة فلسطين، وإلا فمن الأفضل مفاوضة اليهود. ولم تلتفت الحكومات العربية إلى هذا التقرير، بل أخذت تتصرف كل في نطاق

(١) تاريخ المسألة الفلسطينية، فيصل أبو خضرا ص١٧٨ ـ ١٨٠.

مصلحتها الخاصة. واعتبرت حرب فلسطين مظاهرة أمام الجماهير، ولم يتبين لا للحكام ولا للرأي العام العربي خارج فلسطين أن المسألة مصيرية تتعلق بمصير الأمة العربية بأسرها. فمثلاً كان ملك مصر يعتبر الجيش من الأعمدة التي يستند إليها، لذلك لم يكن مستعداً للمغامرة بإرسال معظم القوات المصرية إلى الجبهة فاكتفى بإرسال عشرة آلاف جندي. أما الملك عبدالله بن الحسين فكان يحاول حتى آخر لحظة تجنُّب الحرب.

وفي العراق كانت قضية فلسطين تشغل الرأي العام، وكانت المشاركة في الحرب حتمية، لكن العراق الذي ليس له حدود مشتركة مع فلسطين اعتمد على الجبهة الأردنية. أما الجيش السوري واللبناني فقد تحمّلا قطاعاً صعباً من الجبهة، ويزيده صعوبة أن الطرق المارّة بفلسطين تتجه من الشرق إلى الغرب، وليس من الشمال إلى الجنوب، أي: أن اتجاه الطرق لا يتناسب مع القوة الآتية من سوريا أو لبنان لدخول فلسطين.

وقد اتفقت الدول العربية على إقامة قيادة موحدة، ثم دار الجدل حول شخصية القائد، إلا أن بعض القيادات لم تلتزم أثناء سير المعركة بأوامر هذه القيادة. وكانت الخطة الحربية أن تتجه الكتائب العراقية والأردنية نحو الوسط، وفي اتجاه العفولة لفصل الشمال عن الجنوب بين حيفا ويافا، وتصفي الشمال بالتعاون مع الكتائب السورية واللبنانية القادمة من الشمال. وأن تتجه الكتائب المصرية نحو غزة فيافا من جهة، وبير السبع والخليل من جهة أخرى، لتعزل مستعمرات اليهود في الجنوب. وأن تتجه بعض الكتائب الأردنية من أريحا فالقدس فيافا وتتضامن مع الكتائب المصرية في تصفية الجنوب. على أن يساعد مجاهدو فلسطين الكتائب العربية كل من مناطقه.

أما الإمكانات التي استخدمت لتحقيق هذه الخطة فتتكون من «عشرة آلاف جندي من الجيش المصري»، وفي عام **١٩٤٨** لم يكن الجيش السوري العامل يزيد عن «**١٥**» ألف جندي، واللبناني «**٣٥٠٠**» جندي. أما الجيش الأردني فقد وضع بأكمله في المعركة إلا أن فاعليته شلّت إلى حد

كبير، فهو يخضع لقيادة أجنبية. ويمكن القول بأن مجموع الجيوش العربية التي دخلت فلسطين يقدر بنحو «٥٠» ألف جندي، وقد ازداد بمضي الوقت. ومن الصعب الحصول على أرقام دقيقة لحجم القوات العربية في ذلك الحين، ولكن صحيفة إسرائيلية قدرتها بحوالى «١٣٠» ألف جندي. وفي هذه الحالة يكون مجموع الذين خصصوا لحرب فلسطين لا يتجاوز «٣٨٪» من القوات العاملة فهل ضنّت الحكومات العربية بقواتها لأنها كانت تقلل من قدرة العدو؟

أما موقف اليهود فمن الراجح أن بريطانيا حينما قررت إنهاء الانتداب كانت قد وثقت من أن اليهود قد صاروا قادرين على الدفاع عن أنفسهم. وقد بلغ عدد الجيش الإسرائيلي المحترف «٧٥» ألفاً، وأن جميع المواطنين اليهود كانوا يشتركون بشكل أو بآخر في الأعمال الحربية. وقد يكون الكُتّاب اليهود خفضوا من الرقم الحقيقي حتى يؤكدوا تفوق القوات الإسرائيلية بالكفاءة. وقد يصل عدد المتطوعين في هذه المرحلة الحاسمة من الجنود والضباط الأمريكيين الذين التحقوا بالجيش الإسرائيلي أثناء الحرب ضد العرب «٥٠٠٠» وحتى ولو أدّى الأمر إلى سقوط الجنسية الأمريكية عن هؤلاء المتطوعين. إضافة إلى توزيع اليهود البشري بفلسطين على النحو التالي: «١٥٠» ألفاً في تل أبيب، «٨٠٠» ألف في حيفا، «٥٠» ألفاً بالسهل الساحلي، «٤٠» ألفاً بالمرتفعات، «٣٥» ألفاً في وادي أسدرلون، «١٧» ألفاً في النقب. وقد كان من الصعب الدفاع عن هذه المستعمرات النائية لولا أنها دربت على الدفاع الذاتي، واعتمدت إسرائيل أساساً على الحرس الوطني. وفي وسط المنطقة العربية كوَّن اليهود جالية كبيرة في القدس تقدر بنحو «١٠٠» ألف[١].

لقد تمّت الجولة الأولى في خلال الأسبوعين الأولين من القتال، وتقدمت الجيوش العربية بسرعة، وخاصة في جبهتَيْ الأردن ومصر. حيث تقدّم المصريون في قطاعين؛ الأول: الموازي للساحل ووصلوا إلى «أسدود»

(١) للمؤلف.

على نحو «٢٠» كيلو متراً جنوب تل أبيب. وفي القطاع الجنوبي أقاموا اتصالاً مع القوات الأردنية التي تقدمت إلى القدس، واحتلوا مستعمرة نيت سانيم، مما سمح بإيجاد حلقة اتصال بين القطاعين. غير أن هذا الزحف السريع ترك وراءه نحو عشرين مستعمرة دون أن يحاول الالتحام بها: واقتحم المصريون ثلاثة حصون فقط في القطاع الشمالي هي: «أسدود، ودير ياسين، وبيت سالم». وبالرغم من أن المصريين احتلوا بير سبع وقطعوا الاتصال بين مستعمرات النقب وبين قلب الدولة في الشمال. فإن معظم هذه المستعمرات اليهودية ظلت صامدة، وتلقت تمويناتها والمساعدات العسكرية الأخرى من الجو.

وفي الجبهة الأردنية كانت القدس هي ميدان القتال العنيف إلا أن القوات الأردنية احتلت الضفة الغربية دون صدام تقريباً. أما الجيش العراقي الذي كان يعمل في نفس الجبهة مع الأردن، فقد توقع الوصول إلى «ناتانيا» على البحر، وبذا يفصل حيفا عن تل أبيب. ومع ذلك فقد عمل مع الجيش الأردني للمحافظة على مثلث «جنين، طولكرم، نابلس» الذي حصر إسرائيل في بعض المناطق الساحلية في شريط ضيق لا يتجاوز عشرة كيلو مترات. وفي الجبهة السورية تقدمت القوات السورية واحتلت (سمنح) ثم توقف زحفها في اتجاه طبريا عند جسر بنات يعقوب.

لقد كان صدى هذه الحرب كبيراً في الأمم المتحدة بعد أن كانت الوكالة اليهودية قد بادرت إلى رفع شكوى أمام مجلس الأمن ضد تسلل القوات العربية الآتية من خارج فلسطين. وبادرت الولايات المتحدة إلى طرح القضية على مجلس الأمن على أساس أن تدخل الجيوش العربية يعد عملاً عدوانياً أمام إسرائيل. وأن إسرائيل ليست مسؤولة عن الحرب في نظر الولايات المتحدة لأنها أعلنت قيامها ضمن حدود التقسيم. وتقدمت بريطانيا بمشروع حل وسط بين موقف اليهود الذي يصطنع الموافقة على التقسيم وعدم اللجوء إلى القوة، وبين موقف العرب الذي يعتبر قيام إسرائيل عملاً غير شرعي ويرفض بالتالي إيقاف القتال. فاقترحت هدنة مؤقتة لمدة أربعة أسابيع يمتنع خلالها الطرفان عن إرسال تعزيزات إلى

مواقعهم أو الحصول على أية ميزة عسكرية. ولما كان الموقف العسكري ما يزال في صالح العرب حتى تقديم الاقتراح فمن المؤكد أن هذا الإجراء يصبح ضارًّا بالمصالح العربية. ومع ذلك نال تأييد الأغلبية وصدر قرار بهذا المعنى.

لقد اجتمع الزعماء العرب وتناقشوا حول موضوع قبول الهدنة، وكانت هناك خلافات بينهم، ولكنهم حاولوا أن يحافظوا على شكل الوحدة ظاهرياً. وانتهت الأسابيع الأربعة وخاض العرب جولة قصيرة كانت أشد جولاتهم مع اليهود إضراراً بمستقبلهم. ففي خلال عشرة أيام من ١٨/٩ يوليو استولى اليهود على ألف كيلومتر مربع يقع جزء منه داخل القسم المخصص لهم والباقي داخل القسم العربي. فسقطت نحو «١٤» مدينة و«٢٠١» قرية في القسم اليهودي من مجموع القرى البالغة «٣١٢»، وأضافوا إلى ذلك «١١٢» قرية في القسم العربي، فضلاً عن الظروف التي أحاطت بإخلاء «اللد، والرملة»، وكانت المدينتان تغصان بالسكان لاحتماء اللاجئين فيهما. وكانت معظم المكاسب التي حققها اليهود هي على حساب الجبهة الأردنية والجبهة السورية، وكسبوا في خلال أسبوع ثلاث أضعاف ما نالوه في الجولة الأولى. وصدر قرار مجلس الأمن بوقف القتال لأجل غير مسمى، وقبل العرب القرار، وقال اليهود: إنهم قبلوه رغم تحول القتال لصالحهم. وكان وضع الحدود مائعاً بالنسبة لقرار التقسيم، فاليهود انتهكوا وقف إطلاق النار أكثر من مرة ليحتلوا مواقع كثيرة ضمن المنطقة العربية.

كانت بعض القيادات في الدول العربية تبرر الهزيمة بأن ألقوا التبعية على الاستعمار البريطاني وعلى بعضهم. إلا أن الكارثة كانت لها أسباب أخرى، ولو اهتمّ العرب بالتفحص فيها ما تكررت المأساة. لقد كان العرب يعتمدون على مصدر واحد في السلاح، أما اليهود فقد اعتمدوا على مصادر متعددة. كذلك العوامل المعنوية التي أثرت على مصير المعركة، فالأمر بالنسبة لليهود مسألة حياة أو موت. أما العرب سكان فلسطين فقد قيل لهم أن يتركوا بلادهم حتى يتيحوا للجيوش العربية أن تعمل بحرية، وحينما يتم

النصر سيعودون في أعقاب تلك الجيوش. مما ترك فراغاً أمام اليهود وحلّ لهم مشكلة الوجود العربي الكثيف في فلسطين[١].

عندما اجتازت القوات العربية حدود فلسطين بعد رحيل بريطانيا في ١٥ مايو عام ١٩٤٨ كان ما تمّ قد تم، وما انتهى قد انتهى. ولم يكن الاحتلال العسكري بين العرب والصهيونيين كبيراً على المستوى التقني والتنظيمي فقط، بل على المستوى العددي أيضاً. فمجموع الوحدات العراقية والمصرية والسورية واللبنانية التي دخلت فلسطين لم يتجاوز «٣٠» ألف رجل، بينما كانت القوات الصهيونية «٦٠» ألفاً. وهذه الحقيقة الرقمية حول حرب «١٩٤٨» تحرص الصهيونية على إخفائها تماماً. إضافة إلى تناقضات السياسة العربية التي تنعكس مباشرة على الوحدات العربية وتعيق تحركها. ومن معركة إلى معركة، ومن هدنة إلى أخرى، لم تؤدِّ حرب ١٩٤٨ العربية الإسرائيلية إلا إلى توسيع رقعة الاحتلال الصهيوني في فلسطين. فبدلاً من الـ«٥٦,٥» بالمئة من الأرض التي قررها مشروع التقسيم للدولة اليهودية، مدّ الصهيونيون دولتهم فوق «٨٠» بالمئة من أرض فلسطين. وعندها أرسلت الأمم المتحدة الكونت «فولك برنادوت» كوسيط دولي في النزاع الدائر بين العرب واليهود[٢].

وخلال تلك المرحلة لم يكن الرأي العام الدولي قد استبان بعد استحالة التعايش بين مجتمعين مختلفين في منطقة واحدة، والأصح أنه أبى أن يحمل عبء الاستيضاح. وكانت الجمعية العامة بمتابعة قضية فلسطين قد اختارت الكونت «فولك برنادوت» لمهمة الوساطة في النزاع العربي الإسرائيلي. وقد وضع مشروعه الذي يتلخص في هذه المقترحات فيما يلي:

١ ـ تأليف اتحاد فلسطين ليضم دولتين مستقلتين؛ إحداهما: عربية تشمل شرق الأردن وتدخل فيها منطقة النقب، والثانية: يهودية وتدخل فيها منطقة الخليل الغربي.

---

(١) المرجع السابق ص٨٨ ـ ٩٨.

(٢) تاريخ المسألة الفلسطينية، فيصل أبو خضرا ص١٨٠.

٢ ـ تضم مدينة القدس إلى الأرض العربية على أن تمنح الطائفة اليهودية فيها استقلالاً ذاتياً.

٣ ـ يبحث مركز يافا ليصبح ميناءً حراً ليستخدمه الفريقان، وكذلك يحتفظ مطار اللد بصفة دولية.

٤ ـ تكون الهجرة إلى إقليم دولتَيْ الاتحاد من اختصاص كل دولة حسب قدرتها.

وفي هذه المذكرة يعلن «برنادوت» بأن إسرائيل أصبحت حقيقة واقعة، ولذلك يدعو الطرفين لحل خلافاتهما بالتفاوض المباشر أو غير المباشر. وفي تلك الحالة لا بد من إقامة لجنة توفيق، وعليها أن ترشد الجمعية العامة إلى تعديلات الحدود التي يجب إدخالها لتصبح أكثر عملية. غير أن «برنادوت» كان ما زال مقتنعاً بأن النقب يجب أن تبقى عربية. ولكن من الصعب تنفيذ هذه المقترحات بعد تغير الأوضاع العسكرية، فقد كان الخليل بيد العرب، اقترح تركه لليهود مقابل النقب. كما عدل من اقتراحه بتدويل القدس مع حق الطوائف المختلفة في إدارة شؤونها المحلية. وبما أن مشكلة اللاجئين قد أخذت تبرز، فقد أضاف بنداً يدعو إلى عودتهم إلى بلادهم إذا شاؤوا. ولم تلقَ مقترحاته ترحيباً من العرب أو اليهود، غير أن اليهود كانوا أشد سخطاً على الوسيط الدولي، فعمدوا إلى اغتياله بعد رفعه بمقترحاته المعدلة إلى الأمم المتحدة.

وفي الشرق العربي من فلسطين صار من المستحيل تنفيذ المقترحات بعد حلول الهزيمة بالعرب في الجولة الثانية. فمدينة اللد والرملة اكتظت بالعرب الوافدين من الجهات الأخرى، وقد كان لهاتين المدينتين أهمية خاصة بالنسبة لسير الحرب. فهما تقعان على «١٥» كم من تل أبيب، وخلالهما يمكن توسيع الطريق بين القدس وتل أبيب. وما كاد يستأنف القتال حتى يستولي اليهود على اللد والرملة، وقرر بعض العرب إيقاف القتال بدون انتظار قرار مجلس الأمن. وفضلاً عن هذه الانقسامات الناشئة عن الأوضاع العسكرية، فقد جاءت قضية تمثيل

عرب فلسطين لتزيد من الخلافات العربية اتساعاً. وذلك بعد أن كانت الجامعة العربية قد اتخذت قراراً بعدم ضم أي جزء من فلسطين للدولة من الدول العربية، وإنما يختار الفلسطينيون بعد تحريرهم الحكومة التي تمثلهم. وعقد اجتماع سريع لمجلس تأسيسي قيل: إنه يمثل الفلسطينيين، واختير الحسيني رئيساً للمجلس. وما كاد قيام الحكومة يعلن حتى اتخذت الإجراءات بضم الضفة الغربية لفلسطين إلى الأردن[1].

❋ ❋ ❋ ❋

اتفاقيات الهدنة

منذ يوليو عام **١٩٤٩** توقف القتال بين العرب وإسرائيل طبقاً لقرار مجلس الأمن، إلا أن هذا الوضع لم يكن ذا صفة دائمة. وكان باستطاعة الحكومات العربية أن تتظاهر بأنها تستعد لجولة أخرى، إلا أنها أجبرت على توقيع اتفاقيات الهدنة الدائمة بين فبراير ويوليو سنة **١٩٤٩**. ولا شك أن توقيع هذه الاتفاقيات إنما كان نتيجة الهزائم العسكرية التي مني بها العرب. ولم تتوصل إسرائيل إلى تحقيق ما تهدف إليه، وذلك بضغطها على الجبهة المصرية لإجبارها إلى الصلح معها أو الاعتراف بها، كون أن موقف مصر يمكن أن يعم على الدول العربية الأخرى. كما أن اتفاقيات الهدنة الدائمة لا تتمشى مع السياسة الرسمية التي كانت تعلنها الحكومات العربية، وهي التصميم على تحرير فلسطين من الغزو الصهيوني.

وتعد اتفاقيات الهدنة مثلاً على سيادة الأمر الواقع، فإن إسرائيل استطاعت بواسطتها أن تفرض التقسيم. وأن تضيف إليه أراضٍ أخرى عن طريق الاعتداءات المتكررة، حتى استولت على «٧٧٪» من مساحة فلسطين. بينما كان القسم المخصص لها حسب قرار التقسيم لا يتجاوز

(١) قضية فلسطين، المرحلة الحرجة، د. صلاح العقاد ص١٠٢ ـ ١٠٥.

«٥٥٪» وهذه الإضافة الإقليمية التي تم الاستيلاء عليها بقوة السلاح تناستها الأمم المتحدة صاحبة قرار التقسيم، وألف العالم خطوط الهدنة كحدود نهائية لإسرائيل. كما أن توقيع الهدنة الدائمة قد أفاد إسرائيل من الناحية الدولية، وشجّع كثيراً من الدول على الاعتراف بها، كما فتح أمامها باب العضوية في الأمم المتحدة. وأن هذا الوضع الدولي الجديد أضاع الفرصة التي كانت موجودة سنة ١٩٤٨ للقضاء على الدولة الدخيلة في مهدها[١].

وعلى الصعيد السياسي اجتمع مجلس الأمن وطالب أمريكا بوقف إطلاق النار، ووعد العرب بوقف الحرب إذا ألغي إعلان استقلال إسرائيل، وهو ما رفضته إسرائيل. إلا أنها وافقت على قبولها لوقف إطلاق النار، ولم يوافق العرب إلا بعد ١٣ يوماً عندما أنهكت جيوشهم. ولم تتمكن الجيوش العربية من تحقيق أهدافها غير أن وضع إسرائيل كان مقلقاً وحرجاً حيث ظلت القوات العربية تسيطر على أكثر من ثلث المناطق المخصصة للدولة اليهودية في قرار التقسيم. ونشبت الحرب من جديد، غير أن الهدنة القصيرة غيّرت الموقف العسكري، فتمكنت إسرائيل خلالها من زيادة قواتها المسلحة وحصلت على أسلحة ثقيلة مكّنتها من القتال قبل إقرار هدنة ثانية. فاستولت على «٢٠١» من مجمل «٢١٩» قرية عربية تقع في نطاق الدولة اليهودية، فضلاً عن «١٤» مدينة عربية. وفشل قرار وقف إطلاق النار الثاني بسبب إصرار القوات المصرية على منع وصول الإمدادات للمستوطنات المنعزلة في النقب ونشبت الحرب ثانية حيث حققت القوات الإسرائيلية نجاحاً في الجنوب، وسيطرت على غرب الجليل في الشمال، وقامت بآخر عملية في النقب حيث تخطت خط الحدود الدولي مع مصر. ووجهت بريطانيا إنذاراً للقوات الإسرائيلية بالانسحاب من الأراضي المصرية فانسحبت، وأعلنت مصر استعدادها للدخول في مفاوضات مع إسرائيل. وفي ٧ يناير عام ١٩٤٩ عقدت المفاوضات في «رودوس» في ٣١ يناير عام ١٩٤٩، وقد

(١) المرجع السابق ص١٠٦ ـ ١٢٩.

أدهش انتصار إسرائيل العالم، بل وأدهش الإسرائيليين أنفسهم، وقد كلفهم ذلك أربعة آلاف قتيل وألفي مدني ولكن لم يكن هناك خيار أمامهم(١).

❋ ❋ ❋ ❋

قضية اللاجئين الفلسطينيين

كانت الفكرة السائدة عند العرب أن مشكلة اللاجئين أفضل رمز على حيوية القضية. وما زال القرار «١٩٤» قائماً من الناحية النظرية، وبوسع العرب أن يتهموا إسرائيل في أي وقت بامتناعها عن تنفيذ هذا القرار الخاص بحق اللاجئين في العودة والتعويض عن الذين لا يرغبون فيها، لو أنه كان بنية العرب استخدام هذه القضية التي يحرزون فيها كسباً دبلوماسياً للتمهيد لتنفيذ القرار بالقوة طالما أن الأمم المتحدة عاجزة عن ذلك. أما الاكتفاء بهذا الكسب الدبلوماسي فإنه يهبط بالمشكلة إلى مجرد مناورة سياسية على حساب الجانب الإنساني. وحينما طرحت الوفود العربية قضية اللاجئين في مجلس الأمن كان ذلك بمناسبة تدخل الجيوش العربية. فذكر الممثلون العرب أن هناك ربع مليون من الفلسطينيين شردوا من ديارهم، وأن هدف هذا التدخل العربي هو إعادتهم إلى أوطانهم. وبعد زيادة عدد اللاجئين تأكدت الحاجة الملحّة للمعنوية الدولية، وأبدت هيئات مختلفة استعدادها لتقديم المعونات العينية للاجئين. غير أن الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٤٨م شهدت اعتداءات إسرائيلية جديدة، وتدفق أفواج أخرى من اللاجئين على البلدان العربية المجاورة. وتعين على الأمم المتحدة تخصيص ميزانية مجددة، وتعيين هيئة خاصة للإشراف على إغاثة اللاجئين. وجمعت التبرعات من الدول الأعضاء، ولم تسهم الحكومات العربية في النفقات؛ لأن نظريتها هي أن العرب كانوا ضحية العدوان، وعلى دول العالم التي سمحت به والدول الكبرى التي تعد مسؤولة عنه أن تتكفل بهذه النفقات.

(١) من العهد القديم إلى قيام دولة إسرائيل، د. حسين شريف ج١ ص٦٥٣ ـ ٦٥٥.

وأثناء بحث إنشاء الوكالة توقع معظم الأعضاء أن هذا الحل مؤقت، فأعلن بعض الأعضاء أن العالم عطف على قضية اليهود لأنهم شردوا بواسطة النازيين، فلا يعقل أن تتسبب إسرائيل في تشريد شعب آخر. وفي الدورة السادسة عام **١٩٥٢**م وجهت الجمعية العامة بتقريرين:

الأول: يشير إلى ازدياد حالة الكراهية بين العرب وإسرائيل، وخاصة في بيئات اللاجئين. وهذا التقرير متأثر بوجهة النظر الإسرائيلية. فهي تعلل سحب إسرائيل لعرضها السابق بعودة «١٠٠» ألف لاجئ بازدياد حالة الكره ضدها، وبمجيء مزيد من المهاجرين اليهود من البلاد العربية.

ثانياً: يسلم بصعوبة تنفيذ العودة، ويتحدث عن إمكان توطين اللاجئين في مناطق أخرى. واحتجت الدول العربية على هذا التقرير بأنه يتنافى مع العدل والقرارات السابقة. وحاولت الجمعية أن تتوصل إلى توصيات على أساس الحل الوسط. فأيدت طلب الوكالة برفع ميزانيتها إلى «٥٠» مليون دولار لأعمال الإغاثة، وتخصيص «٢٠٠» مليون دولار أخرى لإعادة التوطين، على أن لا يتعارض ذلك مع قرارات الجمعية السابقة. ولم تحدد تاريخاً معيناً لإنهاء أعمال الوكالة، مما يدل على استمرار مشكلة اللاجئين دون حل.

ففي الضفة الغربية يعيش «٤٧٠» ألفاً مسجلون كلاجئين فلسطينيين، وفي قطاع غزة يعيش «١٦٥» ألفاً كلاجئين، إضافة إلى ما هو موجود منهم في كل من «مصر، وسوريا، والأردن، ولبنان»[١].

وعند رحيل البريطانيين من فلسطين، وبتصاعد أعمال العنف العدائية، هرب حوالى «١٥٠» ألفاً من العرب الفلسطينيين من البلاد. وبعد هجوم الجيوش العربية المنظم فرّ أهالي فلسطين من العرب بأعداد كبيرة خوفاً على أنفسهم من قذائف النار. وبانتهاء الحرب في يناير عام **١٩٤٩** كان قد رحل حوالى «٦٥٠» ألف فرد تقريباً، وأكثر من ثلثي كل السكان العرب في

(١) قضية فلسطين، د. صلاح العقاد ص١٦٠ ـ ١٦٨.

البلاد. ولم يكن كل الذين غادروا ديارهم غادروا فلسطين نفسها، بل حوالى «٢٤٠» ألفاً عبروا من الجزء الشرقي المحتل، وحوالى «٦٠» ألفاً آخرين عبروا نهر الأردن إلى الأردن. بالإضافة إلى «١٨٠» ألفاً فروا تجاه غزة داخل الأراضي الفلسطينية، والباقي وجد ملاذاً في الدول العربية المجاورة. وفي البداية ساعد رحيل العرب على أمن وأهداف إسرائيل، وإتاحة المساكن والأراضي الزراعية للمهاجرين اليهود الجدد، وبمرور السنين عاش اللاجئون حياة منعزلة في خيام[١].

لم يأبه الصهيونيون للقرار رقم «١٩٤» الصادر عن الأمم المتحدة في ديسمبر عام ١٩٤٨ الذي يطالبهم بالانسحاب إلى الحدود التي رسمتها الأمم المتحدة لدولتهم، وبإعادة اللاجئين الفلسطينيين إلى أراضيهم. وكان قد وصل عدد النازحين من فلسطين إلى حوالى «٧٢٦» ألفاً بنهاية عام ١٩٤٨م، وأصبح هناك «٩٢٥» ألف لاجئ فلسطيني على سجلات وكالة «أونروا» في عام ١٩٥٠[٢].

ويتصل موضوع التعويضات بمشكلة اللاجئين، وكانت إسرائيل تبدي الاستعداد في بداية قيامها لدفع التعويضات لتكسب التأييد الدولي. واتخذ قرار في الجمعية العامة عام ١٩٥٠ بتكوين لجنة التسوية في القدس لتقدير الممتلكات. وكانت حجة إسرائيل التي راوغت بها اللجنة هي عدم توفر سجلات منظمة، وبالتالي يصعب تقييم الأملاك. كما جحدت إسرائيل الأموال العربية المودعة في بنوك فلسطين، وتقدر بخمسة ملايين جنيه. ولم يفكر العرب في تخريب ممتلكاتهم قبل مغادرتها على الأقل لأنهم كانوا يأملون في العودة بعد انتصار الجيوش العربية. وفي سنة ١٩٤٩ أبدت إسرائيل شيئاً من التساهل أو المراوغة أثناء النظر في قبول عضويتها في الأمم المتحدة، من أنها مستعدة لدفع التعويضات شريطة أن تستخدم لتوطين اللاجئين في أماكن جديدة. إلا أن الأحزاب الإسرائيلية المتطرفة طالبت

(١) من العهد القديم إلى قيام دولة إسرائيل، د. حسين شريف ص٦٦٣.
(٢) تاريخ المسألة الفلسطينية، فيصل أبو خضرا ص١٨١.

بحساب تعويضات أخرى، ادعت أنها تستحق على البلاد العربية التي تدخلت عسكرياً في فلسطين، وسمُّوها تعويضات حرب. وبالتالي يسقط حق العرب الفلسطينيين في التعويضات كما يسقط حقهم في العودة حسب آراء هؤلاء المتطرفين[١].

❋ ❋ ❋ ❋

دولة إسرائيل

في عام **١٩٤٨**م وفي اليوم السابق لنهاية الانتداب البريطاني يوم **١٥** مايو، تكونت في «تل أبيب» حكومة مؤقتة وكان رئيسها «بن جوريون»، وهو الرئيس السابق للوكالة اليهودية في القدس. وأول خطوة خطتها الوزارة الإسرائيلية هي دعوة «حاييم وايزمان» ليعين كأول رئيس للدولة. ولقد تكونت الحكومة المؤقتة من بين أعضاء الهيئة التنفيذية للوكالة اليهودية، ووزعت الأعمال بين الوكالة والحكومة بمقتضى قانون صدر عام **١٩٥٢**. فأعمال الوكالة تشمل: مواصلة تحقيق الأهداف اليهودية، وتنظيم الهجرة إلى إسرائيل، ونقل المهاجرين واستيعابهم في إسرائيل، والمساهمة في التكاليف، وإنشاء المؤسسات الزراعية، ومساعدة الاستثمار المحلي، ومضاعفة القروض لتمويل المشروعات كلها. وإن أهم مصدر من مصادر الوكالة هو القرض القومي، ويموله سنوياً يهود أمريكا ويساهم فيه يهود آخرون. وتقوم الوكالة بنصيب وافر في تطوير الاقتصاد الإسرائيلي، وفي عام **١٩٥٩**م بلغت قيمة هذه الاستثمارات «٨٦» مليون جنيه إسرائيلي. وقد اتخذت الخطوات التشريعية والتنظيمية لوضع الأسس التي تقوم عليها الدولة وتتلخص في:

١ ـ الدستور:

لا تملك جمهورية إسرائيل دستوراً مكتوباً، فعند صدور قرار الأمم

(١) قضية فلسطين، د. صلاح العقاد ص١٦٨ ـ ١٧٠.

المتحدة بقيامها تكونت لجنة بواسطة الوكالة اليهودية والجمعية القومية «وعدلاومي». وتولت اللجنة إدارة الدولة وتسلمها من حكومة الانتداب، وفي عام **١٩٥٠**م صوّت الكنيست بقبول دستور سيتكون تدريجياً. كما أقرّت عدداً من القوانين ذات الصبغة الدستورية ومنها: «قانون العودة، وقانون الجنسية، وقانون الرئاسة، وقانون التعليم، وقانون الحالة الاجتماعية، وقانون الإدارة، وقانون انتخاب الكنيست، وقانون مساواة المرأة، وقانون القضاة، وقانون الخدمة القومية وتأمين الدولة». وقد صدرت هذه القوانين في الفترة ما بين عام **١٩٥٠** إلى عام **١٩٥٣**م، واعتبر الكنيست أن هذه القوانين من صلب الدستور.

٢ ـ الكنيست:

عبارة عن مجلس النواب، وعضو الكنيست يسمى «حبيرهكنست»، وقرار الكنيست التشريعي يسمى «قانون». وكل قانون يصدق عليه رئيس مجلس الوزراء والوزراء الذين يعنيهم تنفيذه. ورئيس الدولة يوقع جميع القوانين ما عدا تلك التي تتصل بحقوق الرئاسة.

٣ ـ رئيس الدولة:

يختار الكنيست رئيس الدولة لمدة خمس سنوات، ويختار الرئيس الجديد قبل ثلاثين يوماً من انتهاء مدة الرئيس السابق. ويحدد رئيس الكنيست يوم انتخاب الرئيس الجديد، ويرشح عشرة أو أكثر من أعضاء الكنيست رئيساً جديداً، وذلك بتقديم اقتراح مكتوب إلى رئيس الكنيست، ويجري التصويت سرياً. ويحلف الرئيس يمين الولاء، ويباشر عمله بعد انتهاء مدة الرئيس السابق، وتسقط عضويته في الكنيست بعد اختياره للرئاسة. كما لا يجوز للرئيس المثول أمام المحكمة فيما يتعلق بوظيفته وكذا بعد انتهاء مدة رئاسته. وليس للرئيس الحق في مغادرة البلاد دون موافقة الحكومة، ورئيس الكنيست ينوب عنه في حالة مغادرته البلاد أو مرضه. وللكنيست الحق بأغلبية ثلثي الأعضاء إعلان عجز الرئيس بسبب مرضه أو بسبب سوء سلوكه.

٤ ـ الحكومة:

تقدم الحكومة استقالتها للرئيس بمجرد اختياره وتستمر في عملها حتى تشكل الحكومة الجديدة. وبعد المداولة بين ممثلي الأحزاب المختلفة في الكنيست يكلف الرئيس أحد الأعضاء بتشكيل الوزارة. وبعد اختيار الوزارة تتقدم إلى الكنيست فإذا حازت على ثقة المجلس تعتبر قائمة، وفي غضون سبعة أيام من حصولها على ثقة الكنيست يتلو رئيس الوزراء والوزراء القسَم التالي: «أقسم بالولاء لدولة إسرائيل وقوانينها، وأتعهد بأن أنفذ قرارات الكنيست».

٥ ـ الأحزاب السياسية:

تتكون من: حزب العمال «وهو أقوى حزب في إسرائيل وله أثر بعيد في العمال اليهود من زراعيين وصناعيين»، ويستمد «حزب العمال الموحد» قوته من المؤسسات الزراعية والعمال وأصحاب المهن ويطلق عليه حزب «المباي»، وهناك الحزب الديني القومي، وحزب «حيروت» وهو الحزب المتطرف الذي يطالب بإعادة حدود إسرائيل إلى وضعها التاريخي القديم، و«الحزب الصهيوني العمومي» ويمثل رجال الصناعة والتجارة والملاك وأصحاب الوظائف، ومن مبادئه حرية التجارة والمنافسة الصناعية، كما ينادي بحرية الاقتصاد، وهناك «الحزب التقدمي» تسانده الحركة الصهيونية العالمية، وهناك «حزب التعاون والأخوة العربي» وهو متحد مع المباي، و«حزب التطور الزراعي» وهو حزب عربي متحد مع المباي، و«الحزب الشيوعي الإسرائيلي» وكان يعرف قديماً بالحزب الشيوعي الفلسطيني وهو يعارض الصهيونية»[١].

٦ ـ النظام القضائي:

يعتمد النظام الحالي في إسرائيل على النظام الذي كان سائداً أمام الانتداب مع إدخال بعض التعديلات. ويستمد القانون السائد روحه غالباً من القانون العثماني والإنجليزي، وقد صدرت قوانين أخرى أقرّها الكنيست.

---

(١) المجتمع الإسرائيلي، د. فؤاد حسنين ص٨٨ ـ ٩٤.

٧ ـ المحكمة العليا:

وهي محكمة أعلى درجة في إسرائيل وهي تنقسم إلى شعبتين: شعبة تفصل في القضايا الإقليمية، أما الشعبة الثانية فهي محكمة القضاء العالي.

٨ ـ المحاكم الشرعية:

وتفصل في الأحوال الشخصية للعقائد المختلفة ومنها المحاكم اليهودية للربانيين، والمحاكم الشرعية الإسلامية.

٩ ـ الدين:

اليهودية دين أغلبية السكان، وينقسم اليهود إلى طائفتين «الإشكينازية» وهي من شرق وقلب شمال أوروبا، وتكوِّن ثلثي اليهود هناك. أما الطائفة «السفردية» فمعظم أفرادها من البلقان وشمال أفريقيا والشرق الأوسط، والنطق السفردي هو النطق الرسمي للعبرية في إسرائيل. وهناك فرقتان أخريان: «القراؤون» ويقطنون الرملة وضواحيها، و«السامريون» ويقيم رئيسهم في نابلس بالقرب من جبل السامريين المقدس «جريزيم». وتوجد وزارة خاصة بالشؤون الدينية، كما يوجد بإسرائيل حوالى «٤٠٠٠» معبد. أما «المسلمون» فيبلغ عددهم «١٥٣٠٠٠» ألف نسمة وهم سنيون على المذاهب الأربعة. أما «المسيحيون» ومنهم الروم الكاثوليك، وهم يقطنون في حيفا وعكا والجليل، وهناك الكنيسة الأرمنية والقبطية والروسية والحبشة وغيرها.

١٠ ـ القبوص:

إن المجتمع الإسرائيلي يحاول أن يربط بين الحياة في المجتمعات الرسمية وبين المظاهر التي يحاول أن يطلع بها. فصورة المجتمع الحقيقية مستمدة من أصوله وتراثه كما يدّعي في كتابه المقدس بعهديه القديم والحديث. فقد جاء في أعمال الرسل: «وجميع الذين آمنوا كانوا معاً وكان عندهم كل شيء مشتركاً، والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع». كما تقرر الشريعة الموسوية أن العام السابع المعروف باسم العام

السبتي كان يحرّم على ملاّك الأرض استغلالها، وتركها هذا العام للفقراء لاستغلالها. كما تسقط جميع الديون ويحرر الرق كل هذا بدافع النظر إلى الأرض على أنها ملك الله، ويجب أن تستغل لصالح الجميع.

لكن حقيقة اليهود غير ذلك، فقد عرفناهم تجاراً في بابل ومن كبار الماليين في العصور الوسطى. وفي القرون الأخيرة وجدنا بيوتاً مالية تسيطر على أرزاق الشعوب مثل «بيت روتشليد، وأوبنهيم» وغيرها من البيوتات التي استولت على سائر ثروات العالم. واليهودي بما جبل عليه طيلة حياته من لؤم وخداع لم يكد يشعر بالطرق تغلق في وجهه في روسيا وغيرها من مختلف الدول الأوروبية حتى نجد أمثال «كارل ماركس» و«لاسال» يسارع إلى المناداة بالشيوعية لتحطيم القومية أولاً والملكية التي حرم منها ثانياً. وفي تلك الفترة فكر نفر من الصهيونيين الروس في الهجرة إلى فلسطين واستيطانها تمهيداً لاستعمارها. ويطلق على هؤلاء الرواد «حلوصيم»، وقد احترفوا الزراعة ونزلوا في إقليم يهوذا والجليل.

أما الموجة الثانية من المهاجرين فمن جماعة «عليا»، وقد جاء أفرادها من شرق أوروبا قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى. وكانوا توّاقين إلى حياة اشتراكية يعمل فيها كل واحد لصالح الجماعة، ووجدوا أن التعاون الزراعي هو خير ما يكفل تحقيق هذه الحياة المنشودة. وكافحت هذه الجماعة ونجحت، واتخذت شعارها «الفرد للجماعة والجماعة للفرد» وكان يمول هذه المستعمرات صندوق الإنشاء القومي «فرن هيود» الذي ارتفع رصيده إلى أربعة ملايين جنيه عام **١٩٤٦**. وكان يقدم هذا الصندوق إلى المهاجرين الأرض والسكن كما كان يعامل العامل اليدوي معاملة المثقف، ويعرف أفراد الجماعة باسم «حبريم». وبعد ذلك بسنوات ظهرت «الهستدروت» وهي الاتحاد العام للعمال اليهود، وقد هدفت إلى توحيد سائر الجماعات العمالية.

ويطلق على كل مجتمع لفظ «قبوص»، والفرق بينه وبين «كولخون» السوفييتي أن القبوص كان اختيارياً بينما السوفييتي إجباري. وهناك

«الموشب» أي: التعاون، ذلك لأن كل خلية تعاونية تتكون من مساهمين يكونون جمعية تعاونية للإنتاج والتسويق والاستهلاك. ثم نشأت عن القبوص جماعات صغيرة تعرف باسم «قبوصا»، وأصبح هذا النظام هو النظام الاجتماعي للوطن القومي. كما ظهرت جماعات تعرف باسم «موشب شنف» أي: الاشتراكية التعاونية، حيث تكون أدوات الإنتاج ملكاً للجماعة، بينما السكن ونفقات المعيشة وتربية الأطفال من اختصاص الفرد.

كما أن تجربة عشرات السنين أثبتت نجاح القبوص لإنقاذ حياة الأطفال والشبان الذين هاموا على وجوههم هرباً من الطغيان النازي. وقد حققت القبوص الولاء للمجتمع مع الحرص على الاحتفاظ بالشخصية والعمل، وشعار القبوص هو: «كل يحصل على حاجياته ويقدم من الخدمات حسب إمكاناته». وليس الهدف من إنشاء القبوص إيجاد مستقر للفرد لكي يعيش الحياة التي يشتهيها بل إنها وسيلة لبناء الأمة وللتقدم بخطى ثابتة إلى استيطان الأراضي المهجورة وإعمارها.

ومن خلال هذا العرض للمجتمع الإسرائيلي المعاصر، والحياة في القبوص، لتحقيق المبادئ الاشتراكية الشيوعية التي نادى بها. نرى أن الصهيوني قد أراد من وراء نشر هذا المذهب البرّاق القضاء على فكرة الوطنية والقومية والملكية، وذلك حتى يستطيع أن يتجنب يقظة الشعوب وينجح في تسخيرها للرأسمالية المستغلة. وأن هذه المبادئ الهدّامة تجرد الشعب من الملكية ووسائل كسب العيش، وذلك حتى يسهل قياده وتعتقله الرأسمالية المستغلة، سواء تسربلت في ثوب الاشتراكية الشيوعية أو الرأسمالية الاحتكارية. فالفرد لا يأكل إلا الفتات المتساقطة من موائد الرؤساء القابضين على وسائل الرزق بمختلف الطرق، سواء كان هؤلاء القابضون على وسائل الرزق بمختلف الطرق حكام مصانع أو مزارع[1].

❋ ❋ ❋ ❋

(١) المرجع السابق ص٩٧ ـ ١١٣.

الاقتصاد الإسرائيلي

بني الاقتصاد الإسرائيلي على بروتوكولات حكماء صهيون منها القديم قبلها ومنها الحديث بعدها، لأنها بقيت أسراراً في أقبية المحفل الماسوني الكوني. ذلك المحفل الذي يصدر دورياً قرارات يوجه بها ماسون العالم ويهوده، ويرسم لهم الخطط التي يسوسون بها العالم. وسنقتطف من البروتوكولات بعض ما جاء فيها عن الاقتصاد وإلى أي حد بلغ لؤم هؤلاء الناس وحقارتهم، وإلى أي مدى ساروا ويسيرون بالعالم إلى هاوية، وسنكتفي بإعداد الحقائق الأساسية عن الاقتصاد ودورهم، وتتلخص في الآتي:

أولاً: لقد طغت سلطة الذهب على الحكام المتحررين، ومضى الزمن الذي كانت فيه الديانة هي الحاكمة.

ثانياً: يجب أن نتعلم كيف نصادر الأملاك بلا أدنى تردد، إذا كان ذلك يمكننا من السيادة والقوة.

ثالثاً: لقد أقمنا الأرستقراطية الجديدة على الثروة التي نتسلط عليها، نحن نستثير مرض ضحايانا من أجل المنافع، وشرهم ونهمهم للحاجات المادية.

رابعاً: إن قوتنا تكمن في أن يبقى العامل في فقر ومرض دائمين، ليبقى عبداً ذليلاً لإرادتنا. الجوع سيحول رأس المال حقوقاً على العامل، أكثر مما تستطيع ذلك سلطة الحاكم الشرعية. ونحن نحكم الطوائف المختلفة باستغلال مشاعر الحس والبغض التي يؤججها الضيق والفقر.

خامساً: يجب علينا أن ننتزع فكرة الألوهية من عقول المؤمنين، وأن نصنع مكانها عمليات حسابية، وضرورات مادية.

سادساً: يجب أن نضع التجارة على أساس المضاربة، وبهذا تصبح خيرات الأرض المستصلحة بالاستثمار في خزائننا. إن الصراع من أجل

التفوق، والمضاربة في عالم الأعمال، ستخلقان مجتمعاً أنانياً غليظاً منحل الأخلاق، وستكون شهوة المتعة والذهب رائده الوحيد.

سابعاً: إن عجلات الدولة كلها تحركها القوة، وهذه القوة في أيدينا، إنها قوة الذهب. وعلم الاقتصاد السياسي، الذي محصه علماؤنا الفطاحل، قد برهن على أن قوة رأس المال أعظم من مكانة التاج.

ثامناً: سنبدأ بتنظيم احتكارات عظيمة، هي صهاريج الثروة الضخمة، كي تبتلع ثروات الأمميين، وتهبط بهبوطها الثقة بحكوماتها.

تاسعاً: لقد انتهت أرستقراطية الأمميين كقوة سياسية، ولكنهم من حيث هم ملاّك أرض ما يزالون خطراً علينا، لأن معيشتهم المستقلة مضمونة لهم بمواردهم. ولذلك يجب علينا أن نجردهم من أراضيهم بأي ثمن.

عاشراً: ولكي نخرب صناعة الأمميين، ونساعد المضاربات، علينا أن نشجع حب الترف المطلق. سنزيد الأجور التي لن تساعد العمال إلى بلوغ كل ما يريدون من هذه الحياة المترفة، لأننا سنرفع في الوقت نفسه أثمان الضروريات الأولية.

الحادي عشر: سننسف أسس الإنتاج، وذلك ببذر الفوضى بين العمال، وتشجيعهم على إدمان المسكرات.

الثاني عشر: إن الإداريين من الأمميين يؤشرون على الأوراق من غير أن يقرأوها، ويعملون حباً في المال والشهرة، لا للمصلحة أو الواجب.

الثالث عشر: لقد اعتاد الرعاع أن يُصغوا إلينا، نحن الذين نعطيهم المال لقاء سمعهم وطاعتهم. وبذا نخلق قوة عمياء بحيث لا تستطيع أن تتخذ قراراً بدون إرشاد وكلائنا الذين نصبناهم قادة لهؤلاء.

الرابع عشر: لا بد أن يستمر في كل البلاد اضطراب العلاقات القائمة بين الشعوب والحكومات، وتستمر العداوات والحروب والكراهية، هذا مع انتشار الجوع والفقر والمرض، حتى لا يجد الأمميون لهم مخرجاً غير

أموالنا وسلطتنا. وعلينا ألاّ نعطي الناس وقتاً يستعيدون فيه أنفاسهم لأن ذلك يفسد خططنا.

الخامس عشر: من الوسائل الخطيرة لإفساد هيئاتهم أن نسخر وكلاء ذوي مراكز عالية، يلوثون غيرهم خلال نشاطهم الهدّام، كالميل إلى إساءة استعمال السلطة، والانطلاق في استخدام الرشوة.

السادس عشر: سياستنا العامة متوقفة على الأرقام، إن فرض الضرائب التصاعدية على الأملاك هو خير الوسائل لمواجهة التكاليف الحكومية. وستكون هناك دفعة تصاعدية على المبيعات والمشتريات والتركات.

السابع عشر: إن الأزمات الاقتصادية التي دبرناها بنجاح باهر في بلاد الأمميين قد أنجزت عن طريق سحب العملة من التداول، فتراكمت لذلك ثروات ضخمة، مما اضطر الحكومة إلى الاستنجاد بملاّك هذه الثروات لإصدار قروض. لقد وضعت هذه القروض على الحكومات أعباء ثقيلة، اضطرتها إلى دفع فوائد، مكبلة بذلك أيديها.

الثامن عشر: العملة الذهبية كانت دماراً للدول التي سارت عليها، لأنها لم تستطع أن تفي بمطالب الناس، ولأننا فوق ذلك سحبناها، وكدسناها وأبعدناها عن التداول.

التاسع عشر: إن القروض الخارجية مثل العلق الذي لا يمكن فصله من جسم الدولة حتى يمتص دماءها، ويقع من تلقاء نفسه. إن حكومات الأمميين تزود العلق بالدم، فتموت من تلقاء نفسها بفقر الدم.

العشرون: لقد اكتفى الأغنياء، في القروض الداخلية، بنقل المال من الفقراء إلى الأغنياء، ولكن بعد أن رشونا أناساً لازمين لاستبدال القروض الخارجية بالقروض الداخلية، تدفقت كل ثروات الأمم إلى خزائننا. ويكفي دليلاً على فراغ عقول الأمميين المطلقة، أنهم حينما اقترضوا المال بفائدة لم يدركوا أن كل مبلغ مقترض من الخارج لا بد وأن تخرج فوائده من موارد البلاد. وكان الأولى بهم أخذ المال من شعبهم مباشرة دونما حاجة إلى دفع

فائدة. إننا نعرض القروض على الأمميين بصورة يظنون منها أنهم قد وجدوا فيها ربحهم أيضاً.

الواحد والعشرون: لقد استغللنا فساد الإداريين، وإهمال الحاكمين الأمميين، لكي نجني أضعاف المال الذي قدّمناه قرضاً لحكوماتهم، مع أنها لم تكن بحاجة إليها قط. وحين يتولى ملكنا العرش على العالم أجمع، ستختفي كل هذه العملات: «القروض الخارجية وإصدار السندات الداخلية، والتلاعب بالأسعار والأوراق المالية، وسندمر سوق سندات الديون الحكومية العامة، وسنستبدل ببورصات الأوراق المالية منظمات حكومية ضخمة سيكون من واجبها فرض ضرائب على المشروعات التجارية بحسب ما تراه الحكومة مناسباً.

فهل هناك دليل أقوى من هذا الكلام لنثبت لكل ذي عقل وحواس، إلى أين يسير بالعالم هؤلاء الذين لهم «طموح لا يُحد، وشره لا يشبع، ونقمة لا ترحم، وبغض لا يُحس». فإذا كانت هذه البروتوكولات كاذبة، فهل كذب ما يراه العالم ويلمسه لمس اليد من تطبيقهم العلمي لها في سائر أرجاء العالم؟ هل كذب بريق الأصفر الرنّان في خزائنهم؟ وهل كذب ذلك الأحمر القاني يقطر من مخالبهم؟ وهل كذب ما أثاروا من ثورات وأشعلوا من حروب؟

إننا نقول لهم: كيف استطعتم أن تتحدوا، وأنتم القلة ضد كل العرب وكل المسلمين، بل وكل العالم في أقدس مقدساته في فلسطين؟ أبغير المال رشوة، وبغير الوكلاء مطايا تمهدون الطريق لأغراضكم. أبغير الخنجر المسموم، والفضائح المخزية، وإلصاق التهم الملفقة، تتخلصون بها ممن يقفون في طريقكم. لقد ألبسكم «نبوخذ نصر» و«الحاكم بأمر الله الفاطمي» وغيرهما ملابس خاصة تعرفون بها، حتى لا تضيعوا بين الناس بجرائمكم. وقذفت بكم الجزيرة العربية في عهد النبيّ ﷺ وخلفائه، تطهراً لها وتزكية من أدرانكم. ولاحقكم أباطرة روسيا وبروسيا بجرائمكم، وتقاذفتكم أرجل التاريخ منذ أن طلعتم على التاريخ بهذه الوجوه الشوهاء. فهل هذا كذب؟

لماذا أنتم بالذات لاحقكم التاريخ بالنفي والاضطهاد المتواصلين[١]؟

إن المتتبع لتاريخ الاقتصاد الإسرائيلي يجده يقوم على ثلاث دعائم جامعة شاملة لا تفلت منها فئة من فئات المجتمع الذي تتكون منه الأسرة البشرية، وتتلخص هذه الدعائم في: «القروض الاستهلاكية، والقروض السياسية، والقروض الاستثمارية».

فالقروض الاستهلاكية استغلها الاقتصاد الإسرائيلي في المواد التموينية، فنجد مصرفاً إسرائيلياً يحتكر تجارة الحبوب وغيرها من السلع التموينية. وقد تكون الدولة التي تعاني نقص مواد التموين في حاجة إلى عملة صعبة للحصول على هذه المواد التموينية، فلا يبقى أمامها إلا الالتجاء إلى هذا المصرف اليهودي، فيمدها بحاجاتها من المواد التموينية مقابل رباً فاحشاً. وهكذا نجد الاقتصاد الإسرائيلي يتحين الفرص لمثل هذه الضائقة المالية أو التموينية لكي يغتني على حساب المحتاجين الجياع.

أما القروض السياسية فهي تلك التي استغلها اليهود منذ العصور الوسطى فتمكنوا بواسطتها من بسط سلطانهم على الأمراء الإقطاعيين، فمنحوهم الامتيازات الكثيرة واحتكار عمليات توريد حاجياتهم. كما احتكر أولئك اليهود تمويل الجيوش وإقامة المصانع، واضطرتهم هذه العملية إلى إنشاء بنوك التمويلات المالية السرية. حيث يستخدم المصرف سعاة سريين لتهريب النقود من بلد إلى آخر، وتعرف هذه البنوك باسم مصارف التحويلات. وكانت تقوم بسائر الالتزامات المالية الأجنبية والصيرفية. واليهودي في جميع هذه الصفقات غير متقيد بضمير ولا حب لبلد يأويه ويستضيفه. فمثلاً: أسرة «روتشليد» جازفت بكل إمكاناتها بهزيمة «نابليون» عندما ضرب الحصار على بريطانيا، فقرر كسر هذا الحصار بتهريب النقود منها وإليها. وهكذا أصبح مصرف «روتشليد» أغنى مصرف في أوروبا يقرض حكوماتها وحتى البابا في الڤاتيكان لجأ إليه واقترض منه. ولم يقف هذا

(١) القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية، داود سنقراط ص١٧٩ ـ ٢٠٤.

الاستغلال عند هذا، بل نجد هذه الأسرة تزحف إلى السياسة الدولية فتوجهها الوجهة التي تتفق ومصالحها الاقتصادية.

وإذا تركنا بيت «روتشليد» إلى البيوت المالية اليهودية وجدنا مثلاً بيت «أوبينهيم» في النمسا الذي تعهد بإمداد الجيش القيصري النمساوي بكل حاجياته من تموين وكساء إلى أسلحة وذخيرة ووسائل نقل. وكان هذا البيت ينفق أحياناً على جيشين في وقت واحد، وبذلك أصبح مهيمناً على خزانة الإمبراطورية النمساوية زمناً طويلاً.

ومن البيتين جاء كذلك «روتشيلد» فتجمعت أخطر بيوت مالية في العالم، واندفعت بجميع إمكانياتها بعد أن امتصت سائر المصارف الأخرى، حيث يلتقي يهود العالم معاً ويكونون ما يعرف باسم «المصرف الإسرائيلي». ويلجأ هذا المصرف لغزو الأسواق العالمية إلى مختلف الوسائل والطرق ليهاجمها أولاً بالمضاربات الدموية، كأن يغرق تلك الأسواق ببضائع بسعر أقل من نفقات إنتاجها، ويعوض الفرق بين سعرَي البيع والإنتاج برفع قيمة هذه السلع في أسواقه الداخلية التي أمّن نفسه فيها من المضاربات الخارجية باحتكار إنتاجها. ورأى سادة المصرف أن فقراء اليهود في الدول المختلفة يسيئون إلى مكانتهم في هذه الأمم، وأن الحركات المعادية لليهودية قد تمتد إليهم، فتطيح بهذه العروش التي شيّدوها على حكام سيادة البلاد ودماء أبنائها. وأدرك اليهود أيضاً أنهم في حاجة إلى ركيزة قوية في الشرق العربي لتصريف بضائعهم أولاً، والحيلولة دون قيام نهضة صناعية قد تكون خطراً على أسواقهم في أفريقيا والشرقين الأدنى والأوسط ثانياً، والاستيلاء على ما قد يكتشف في الشرق العربي من ثروات طبيعية ثالثاً. فقرروا إجلاء هؤلاء الأفّاقين من البلاد والتي للمصرف فيها مصالح وإرسالهم إلى فلسطين. فنجد آل «روتشيلد» يؤسسون أول مستعمرة يهودية في فلسطين، والبارون «هيرش» يغدق الأموال على قادة الحركة الصهيونية تشجيعاً لهجرة اليهود من أوروبا الشرقية، وحذت حذوه مصارف إسرائيلية كثيرة.

ثم اندلعت الحرب العالمية الأولى فنجد المصرف الإسرائيلي يجمع أمواله في نيويورك ليتخذها قاعدة لتنفيذ مخططاته الاستعمارية. ولم يقف عند هذا الحد بل نجده يسارع في الولايات المتحدة الأمريكية بضم كبريات البيوتات المالية الأخرى إليه مثل: مجموعة «مروجان»، ومجموعة «روكفلر». أو مع مجموعة «ليهمان، وكوهين، ولوب»، وهذه المجموعات الثلاث هي المسيطرة على الاقتصاد الفلسطيني. وبذا نجد الرابطة تتم بين شركة الاقتصاد الفلسطيني وبين مختلف الإدارات الأمريكية العامة والمنظمة الصهيونية الأمريكية اليهودية، والوكالة اليهودية ويظللها جميعاً المصرف الإسرائيلي. فإسرائيل تعتبر الدولة الثانية بعد «بنما» لتوظيف الأموال الأمريكية. ومن المعارك التي خاض غمارها المصرف الإسرائيلي معركة النفط ضد احتكار «روكفلر» لتجارة النفط. وفتحت شركة «شل» اليهودية فروعاً لها في أمريكا ومناطق نفوذها. ولم يكتفِ المصرف الإسرائيلي بذلك بل جذب أموال كثيرين من الأمريكيين إلى مشاريعه.

وفي أوائل القرن العشرين حصلت شركة بريطانية على امتياز التنقيب واستخراج البترول الإيراني، وانتهت الحرب العالمية الأولى بانتصار بريطانيا، وفاض النفط عن حاجتها مما اضطر الشركة إلى عقد اتفاقية مع «شل» فزاد إنتاج شل مما اضطر الشركة إلى البحث عن ميدان جديد لتصريفه، فاتجهت إلى فرنسا لتقفل الباب في وجهها، فلا تفكر في البحث عن النفط في أفريقيا لأن في هذا الكشف خسارة فادحة لـ«شل». هذه الشركة الاحتكارية التي تتألف مما يقرب من خمسين شركة بترولية، ومقر هذا الاحتكار مدينة «لاهاي»، أما المركز العصبي ففي «لندن». وشركة «شل» وليدة المصرف الإسرائيلي الذي نجح في استخدام أكثر من نصف أعضاء مجلس النواب كمديري شركات لديه، فـ«تشرشل» مدين بحياته السياسية لليهودي الغني «كاسل»، و«أنطوان إيدن» للمصرف الإسرائيلي.

وكما دبّرت بريطانيا وحلفاؤها الحرب العالمية الأولى لترث الدولة العثمانية بثرواتها الطبيعية ومواقعها الاستراتيجية. كذلك الحال في عام ١٩٤٨ فقد تأمرت الدولة الاستعمارية سواء كانت رأسمالية أو

اشتراكية شيوعية على بلادنا وثرواتنا الآسيوية والأفريقية حرصاً منها على الاستئثار بخامات القنابل الذرية، ومختلف المعادن الأخرى اللازمة للصناعات الحربية، وقد أسندت إسرائيل هذه المهمة إلى المصرف الإسرائيلي[١].

وهناك ركائز يهودية تجاه رأسمالية مستغلة تقوم على أساس أسطورة تزعم أن الذهب هو الثروة الحقيقية في العالم. مع أن الثروة الحقيقية فيه إنما تكمن في الإنتاج الزراعي والصناعي، وفي الثروة البشرية، والركاز في باطن الأرض. وهناك حكومة سرية لا تتحالف مع أي حكومة، ولكنها تتدخل في شؤون كل الحكومات. وهناك جماعات بشرية صغيرة، بعيدة عن البشرية، معزولة عنها، مع ذلك فقد نجحت في فرض سيطرتها على جميع الأجناس والكتل البشرية الكبرى. فاليهود كالطفيليات يعيشون على الناس، لا على الأرض، وعلى المضاربات التجارية والمصرفية، لا على الإنتاج. فليحرث الأرض مَن يحرثها، ولينتج السلعة مَن ينتجها، ما دام اليهودي يصب فيها.

ومعظم ثروات اليهود جمعت بطريق الربا، وبيع المتع الحسية والجنسية المحرّمة، والمضاربات التجارية والمصرفية. لقد تأجل إعلان الحرب العالمية الأولى عدة مرات، بضغط من الممولين اليهود. إذ لو اشتعلت قبل أوانها، لما اشتركت بعض الدول فيها، ولما جنى اليهود ما جنوه من أرباح منها. ومع أن اليهود لا يزجون بأنفسهم في أي حرب، إلا أنهم من أكثر الناس اهتماماً بالحروب، نظراً لما تدره عليهم من فوائد وأرباح، وما ينفذون بها من مخططات، وما يجنونه عن طريقها من فوائد مختلفة. ولهذا فإن اليهود يحتشدون في الأرض في كل مؤتمر صلح أو معاهدة سلام، بل إن هذه وتلك ليست إلا من وصفهم وتدبيرهم. ونظرة إلى عصبة الأمم، وهيئة الأمم المتحدة، تعفينا من الدليل على ذلك. والمالي اليهودي لا يخسر أي حرب، لأنه يراهن على كل الخيول، ويوزع

(١) المجتمع الإسرائيلي منذ تشريده حتى اليوم، د .فؤاد حسنين ص١١٤ ـ ١٢٣.

بيضه في جميع السلال، ويتفق مع جميع الأطراف. وبذلك يكون مع الغالب والمغلوبات معاً، يأخذ من الغالب ما دفعه المغلوب له، لأنه كان قد أصرّ على أن تكون شروط الصلح، بعد كل حرب، كافية لتغطية القروض التي كان قد قدّمها إلى الجانب الخاسر على أقل تقدير. وهذا هو السبب في احتشاد اليهود في بازل وڤرساي في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وفي نورنمبرغ وسان فرانسيسكو في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وهم يدفعون بالساسة لتبنِّي وجهة نظرهم، ولا يظهرون بشكل علني إلا حيث لا يلامون. واليهود لا يهتمون باحتلال المراكز الحكومية، فسلطانهم الحقيقي لا يكمن في السلطة ذاتها، وإنما في تسخيرها واستخدامها. سلطان اليهود يكمن في الذهب، والدعاية، والمؤامرة، وتلفيق التُّهم.

وقد ساعدت فرنسا أمريكا في حرب التحرير، وأهدتها تمثال الحرية، ولم يكن ذلك سوى تخطيط بين ماسونيي فرنسا وماسونيي أمريكا كي يجني اليهود من ذلك في أمريكا خيراً كثيراً، وهكذا كان. فمبدأ الحرية الذي تردد كثيراً في المادة الأولى من الدستور الأمريكي فتح لليهود الباب ليهاجموا الدين والأخلاق باسم الحرية. والمادة الثانية منه رفعت اليهودي إلى مستوى المواطنة فحمى ذلك اليهود من الاضطهاد والملاحقة. لقد استولى اليهود على مقدرات أمريكا، ووجودها لصالحهم، لا بكثرة عددهم وإنما بإظهار كل سخط أو تذمُّر نحوهم. لقد جاء تحذير «ويلسون» بعد أن عبثوا بمبادئه التي وصفوها هم للرياء والتخدير، لا للإصلاح والتنفيذ. وقد كانت كلمات ويلسون التي جاء بها سنة **١٩١٦**م، صدى لكلمات سبعة من الرؤساء الذين اكتشفوا خطر هؤلاء اليهود وحذّروا الشعب منهم. وجاء في كلمات ويلسون: «تسيطر على أمتنا والدول الصناعية الكبرى أنظمة التسليف والقروض، ويرجع ذلك إلى فئة قليلة من الناس تسيطر على إنماء الأمة، وتكون هي الفئة الحاكمة في البلاد. ولهذا فالحكومات لا تعبّر عن رأي الأكثرية التي تنتخبها، بل عن رأي هذه الفئة القليلة المسيطرة على البنوك»، لقد قال ويلسون ذلك وهو في قمة السلطة. واليهود هم الذين قادوا حملته الانتخابية، وأوصلوه إلى سدّة الحكم. إضافة إلى أن القروض التي أثقلوا

بها كاهل الدولة غلّت يد ويلسون، فلم يستطع أن يفعل شيئاً، واكتفى بهذا الكلام ينفث به عن غله[١].

❋ ❋ ❋ ❋

الاقتصاد الفلسطيني

إن أزمة المياه الحالية التي يعانيها الكيان الصهيوني، تمثل أحد الأوجه الرئيسية في التعبير عن الأزمة الاقتصادية العامة التي يعيشها هذا الكيان. إن أزمة المياه ترتبط باقتصاد فلسطين ككل، واقتصاد الأراضي العربية الفلسطيني بالضفة الغربية وقطاع غزة على وجه الخصوص، ومستقبل هذا الاقتصاد الذي يتلخص في التالي:

١ ـ خصائص الاقتصاد الفلسطيني في ظل الاحتلال:

إن المتعارف عليه تاريخياً أن ثمة سمات مشتركة تميز اقتصاد المجتمعات الخاضعة للاحتلال. بيد أن الاقتصاد الفلسطيني في ظل سياسات الاحتلال الإسرائيلي الذي ينمو في ظله. تتشكل ملامحه في تزايد اعتماد الاقتصاد الفلسطيني على المواد الخام الإسرائيلية والمستوردة عبر الموانئ الإسرائيلية، ومن خلال مستوردين إسرائيليين. وهذا يوضح مدى اعتماد الصناعات الوطنية الفلسطينية على المصادر الإسرائيلية. إن هذا الوضع يحمل مخاطر كبيرة على المؤسسات الوطنية الفلسطينية. فمن خلال موقع المؤسسات الإسرائيلية كمزود رئيسي لهذه المؤسسات بالمواد الخام، يمكنها أن تتحكم فيها وتخضعها لمشيئتها متى تشاء. كما تستطيع أن تضعف من قدرتها التنافسية بواسطة التحكم في أسعار المواد الخام.

كما أن ارتفاع نسبة الطاقات المعطلة في مجالات الاقتصاد الفلسطيني أبرزت تعطل الطاقات الإنتاجية في مختلف أفرع الاقتصاد: «زراعة،

(١) اليهود في المعسكر الغربي، داود سنقراط ص١١١ ـ ١٢٠.

وصناعة، وتجارة». وأن الاستخدام الفعلي لا يتجاوز «٥٧,١٪» من حجم الاستخدام الذي تنتجه الطاقة التصميمية للمؤسسات. وبلغت نسبة الاستخدام الفعلي إلى الاستخدام الممكن في الصناعات: «الغذائية، والنسيج، والأثاث، والملبوسات، والأحذية، والورق، والمعدنية، ومواد البناء، والكيماوية، والسياحية» ما بين «٣٧٪ إلى ٧٨٪». وبالنسبة لأيام العمل فقد وصل عمل المؤسسات الصناعية خلال العام ما بين «٢٠١ يوم إلى ٣٠٠ يوم». وفي دراسة الورديات الفعلية إلى الممكنة تبين أن «٨٦,١٪ من المؤسسات تعمل وردية واحدة، و٥,٥٪ تشغل ورديتين، و٢,٢٪ تشغل ثلاث ورديات، و٦,١٪ تشغل أقل من وردية». بينما تسمح الطاقة التصميمية إلى «٢٣,٦٪ من المؤسسات تشغل ثلاث ورديات، و٥٣,٣٪ تشغل ورديتين، و٣٢٪ تشغل وردية واحدة». وفي تشغيل الأيدي العاملة الفعلي إلى التشغيل الممكن في المؤسسنات الصناعية تبين أن أكبر نسبة للطاقة المعطلة كان في المؤسسات الصناعية الصغيرة، بينما كانت نسبة التشغيل المعطل في المؤسسات الكبيرة أقل[١].

لقد اتبعت إسرائيل سياسات مختلفة من أجل تهويد اقتصاد الأراضي الفلسطينية المحتلة. كان من بينها ما سمي بسياسة الجسور المفتوحة مع المملكة الأردنية الهاشمية، ومن خلالها مع باقي الدول العربية. وهي سياسة أتت بنتائج إيجابية رغم القيود الإسرائيلية على حرية الانتقال. وظلت هذه الجسور منفذاً لجزء من المناطق المحتلة الزراعية والصناعية، وأتاحت الفرصة أمام هجرة عشرات الآلاف من الأيدي العاملة والمواطنين الفلسطينيين إلى الدول العربية. كما أتاحت انتقال رؤوس الأموال العربية إلى المناطق المحتلة وبالعكس. لقد كان للجسور المفتوحة أثر كبير في تطور الاقتصاد وفي تخفيف حدة المشكلات الاقتصادية التي تفاقمت بسبب سياسة وممارسة سلطات الاحتلال في المناطق المحتلة. فقد شكلت منفذاً للأيدي العاملة، كما خففت من مشكلة الركود الاقتصادي الناجمة عن زيادة فائض الإنتاج

(١) الصراع المائي بين العرب وإسرائيل، د. رفعت سيد أحمد ص١٣٧ ـ ١٤٢.

النسبي، وبخاصة الإنتاج الزراعي الذي نشأ بسبب إغراق أسواق المناطق المحتلة بالمنتجات الإسرائيلية. وإن الزيادة في الطلب الناجمة عن زيادة التحويلات من الخارج تلبى بواسطة الشركات الإسرائيلية وما يعنيه هذا من زيادة الارتباط والتبعية للسوق الإسرائيلي. كما استخدمت هذه الجسور كقناة تتدفق عبرها المساعدات المقدمة من الدول العربية، وتقود إلى زيادة النشاط الاقتصادي، وتزيد من الطلب الاستهلاكي، وتصب أخيراً في جيوب أرباب العمل الإسرائيليين.

٢ ـ تهويد الاقتصاد الفلسطيني:

استخدمت إسرائيل العديد من الوسائل والسياسات بهدف تهويد الاقتصاد الفلسطيني وإخضاعه. وذلك لهدف السيطرة المطلقة على أسواق الضفة والقطاع والاستئثار بهما ودمجهما في الاقتصاد الإسرائيلي. ونزع الفلاحين عن أراضيهم، وتحويلهم إلى عمال يومية تعمل في إسرائيل حسب حاجتهم وإرادتهم وبالشروط والأجور التي تحددها. هذا فضلاً عن استعمال الأقنية الاقتصادية في الضفة والقطاع كمصارف لفائض الإنتاج الإسرائيلي في الأسواق العربية. أما الوسائل الرئيسية لتحقيق هذه الأهداف فتتلخص في: السيطرة على المياه، وفرض القيود على الواردات من البلاد الأخرى، وسحق الإرادة السياسية المحلية، وتقنين استعمال الأراضي أو مصادرتها، وتغير هيكل الإنتاج وحل المؤسسات المالية القادرة على تحويل مشاريع الإنتاج، وإغلاق الجامعات المحلية، وفرض التداول بالليرة الإسرائيلية، وتعويض الاقتصاد المحلي بالاقتصاد الإسرائيلي بتكاليفه العالية[١].

٣ ـ مردودات التهويد والعوائد المكتسبة:

كانت لسياسات التهويد التي مارستها إسرائيل على الاقتصاد الفلسطيني

(١) المرجع السابق ص١٤٥ ـ ١٦٤.

مردودات إيجابية، وإن كانت المردودات غير طيبة في مجملها. فالانتفاضة الفلسطينية كانت نتيجة لعوامل عديدة من بينها سياسات التهويد الإسرائيلي للاقتصاد. إذ تؤكد الحقائق أنه كان للاحتلال على اقتصاد الضفة الغربية وقطاع غزة نتائج سلبية أبرزها: «ضعف النمو الاقتصادي، وتشويه بنية الاقتصاد، والتبعية الشديدة للاقتصاد الإسرائيلي». وجميع هذه الظواهر تؤكد نجاح الاحتلال في تسخير اقتصاد الضفة والقطاع بما يتلاءم ومصالح اليهود الاقتصادية. لقد أثبتت الانتفاضة المبالغة في نجاحات الاحتلال في الجانب الاقتصادي. فقد توقفت تلك النجاحات مع تفاقم التناقض التناحري بين الاحتلال والشعب الفلسطيني. الأمر الذي أدى لانفجار الانتفاضة بهذا الزخم وذلك الشمول والاتساع وبينت الانتفاضة أن بعض تلك النجاحات تحول تحت تأثيرها ـ أي: الانتفاضة ـ إلى عبء ثقيل على الاحتلال وعلى الاقتصاد الإسرائيلي بدل أن تكون عوائق في طريق كفاح الشعب الفلسطيني[1].

❋ ❋ ❋ ❋

الانتفاضة ودور المسلمين

إنها ليست قضية أهل فلسطين وحدهم، ولا قضية العرب وحدهم، إنها قضية إسلامية تهم الأمة الإسلامية جمعاء. فقد زعم اليهود أنهم مظلومون، وأنهم قد نُكل بهم وأوذوا، وأن هتلر أباد خضراءهم، وقتل أبناءهم. فتحركت الرحمة في قلوب الأقوياء من دول الأرض، فأرادوا أن يجدوا لهم داراً، فلم يجدوا إلا أرضنا، فأجبرونا أن نخرج من مساكننا، وأن نمنحهم خيرات بلادنا. وجاء وزير المتمدنين الذين يلبسون جلود الظباء على أجساد الذئاب، فأعطاهم وعداً «وعد بلفور» بأن يجعل لهم من بلادنا ملجأ يمنحهم ما لا يملك، وهم لا يستحقون ما منح، فكانت فضيحة

(١) المرجع السابق ص١٦٦.

التاريخ البشري التي لم يسمع بمثلها في حاضر ولا غابر، فهيا ندافع عن أرضنا، وهذا الدفاع حق لنا.

وقد صغرت إسرائيل كثيراً لما بدت هذه «الانتفاضة» صبيان يقاتلون بالحجارة جيشاً يملك أعتى وأقسى ما أوحى به الشيطان إلى أوليائه من وسائل القتل والتدمير وحسبوها فورة حماسة تستمر ساعات ثم تخمد، فإذا هي تستمر الشهر والشهر، والشهور والسنوات تتوالى، والانتفاضة لا تزداد إلا قوة، وذلك بأنها ليست حركة وطنية، ولا قومية، ولا مجرد استرداد الأرض، وطرد الدخيل منها. هذه كلها مقاصد قد تشترك في مثلها أمم الأرض، بل لأنها جهاداً بالمعنى الذي عرفه الإسلام.

وقد كتب الله لهذه الانتفاضة الاستمرار، كما كتب ذلك للحرب الجهادية، وما كان لله فهو المتصل. وقد صدق الشاعر والأديب الفلسطيني في تعبيره عن ذلك في قصيدته «وشعار الإسلام يدوي» فقال:

انتفضَ العملاقُ منَ القمقمْ
بُعثَ البحرُ الميّتُ بعد عَدَمْ
أرْغَى ـ أزْبَدَ ـ زَمْجَرْ
أصْبَح بُرْكاناً يَتَفَجَّرْ
غَضِبَتْ يَافَا ـ ثَارَتْ حَيْفَا
شَمِلَتْ غَزَّةَ ريحُ صِرْصَرْ
والحَجَرُ الصّامدُ يَزْأرْ
يَفْتِكُ ـ يَخْرِقُ ـ يَتَحَدَّى ـ يَقْهَرْ

❋ ❋ ❋ ❋

الأرْضُ المُحْتَلَّةُ تَغلي
تتوَهّجُ نَاراً ـ تحرقُ ـ تَلْسَعْ
قامَ يواجهُها المدْفعْ
الابْنُ تَنَاوَلَ حَجَراً أبْرَعْ

رَشَـــق الـــحَـــجَـــرُ الـــمـــدْفَـــعْ
يَـــقْـــســـمَ لاَ بُـــدَّ بِـــأنْ يَـــرْكَـــعْ
وَيَـــجـــنُّ جُـــنُـــونُ الـــصّـــهْـــيُـــونـــي
فَـيُـعَـرْبِـدُ - يَـقْـتُـلُ - يَـطْـغَـى - يـتـجـبَّـرْ
والـــحَـــجَـــرُ الـــصَّـــايـــدُ يَـــزْأرْ
يَـفْـتِـكُ - يَـخْـرِقُ - يَـتَـحَـدَّى - يَـقْـهَـرْ[1]

إن قضية فلسطين لا تُحَل في أروقة مجلس الأمن، بل تُحل على ثرى فلسطين. إن الذين دعوتموهم جنود الحجارة، ما ضعفوا وما استكانوا بل جادوا بأرواحهم وثبتوا هذه الأيام الطوال. ولكن نحن المسلمين الذين فرض الله علينا أخوتهم، وأوجب علينا نصرتهم أندعهم وحدهم يواجهون بالحجارة الدبابات والمدافع والرصاص والغاز الخانق. أيكفينا في شرع الله، في قواعد الشرف، أن نراهم في «الرائي»، وأن نعجب بهم، وأن نصفق لهم. أسباب النصر رجال وسلاح، فما الذي ينقصنا منها؟ هل ينقصنا العدد؟ أم العُدد؟ أم العلم؟ أما العدد فنحن المسلمون أكثر من ألف مليون، فكم عدد اليهود؟ والعُدد، إن ما لدى المسلمين جميعاً منها، أكثر مما لدى اليهود. وفي المسلمين جميعاً من العلماء أكثر من اليهود، أو هم مثلهم. فكيف أخذوا منا قبلتنا الأولى ومسرى نبينا؟ إنهم ما غلبونا بأنفسهم، ولكن بالذين أعانوهم علينا... إن كل أمر مخالف لطبيعة الأشياء التي طبعها الله عليها، لا يمكن أن يدوم، فهل أمراً طبيعياً أن تعيش دولة قائمة على الباطل، ولو صارت ثكنة ممتلئة بالجند، ولو بلغ سكانها بضعة ملايين. هل يمكن أن تعيش وسط بحر يمتد على مدى ثلث محيط الأرض، فيه أكثر من ألف مليون مسلم، كلهم عدو لها. عادوها لظلمها وبغيها، ولو هي عاشت تسعين أو ثمانين عاماً فهل تعيش الدهر كله. لقد غزا ديار الشام مَن هم

(١) مقتطف من قصيدة «وشعار الإسلام يدوي» للشاعر الفلسطيني شعبان جبريل عبدالعال، ملحق جريدة الندوة الأدبي ص١٤.

أكثر من اليهود عدداً، وأقوى جنداً أو عُدداً، وأقاموا فيها دولاً عاشت دهراً، ثم زالت هذه الدول، وعاد إلى الأرض أصحابها. أما بقيت القدس قرابة قرن من الزمان بيد الصليبيين؟ فهل دام في القدس حكم الصليبيين. إن قضية فلسطين لا تموت لأنها عقيدة في قلب كل مسلم. إن الناس يموتون في سبيل العقيدة، وما ماتت عقيدة في سبيل حياة إنسان[١].

يرتبط الحديث عن دور العلماء في حركة الجهاد في فلسطين بأهمية فلسطين في الذاتية المسلمة، وموقعها في البناء الإيماني الكامن في قلوب المسلمين. ولذلك فإن الباحث في تاريخ القضية الفلسطينية يلاحظ ذلك الارتباط الوثيق بين العالم كممثل للثقافة الإسلامية ودور تلك الثقافة «الإسلام» في تحريك وتحريض الجماهير المسلمة. وأن دور العلماء في عمليات الفعل الجهادية ولحظات الغليان الوطني ازدهرت حديثاً باعتبارهم كانوا وما زالوا في مقدمة المسيرة. يواجهون الأخطار ويدفعونها عن الأمة محصنين بثقافتهم الإسلامية، كلما ألمّت بالأمة الأخطار.

وإن دور العلماء في الجهاد في فلسطين في العصر الحديث يتفرع إلى مهمة العالم الفكرية في بعث الوعي والتحريض على الجهاد، ومهمته الجهادية كمقاتل ضد الاستعمار. فجذوة المقاومة التي اشتعلت في فلسطين عشية الاحتلال الصليبي قادها العلماء الذين كانوا يشجعون الناس على مقاومة الصليبيين، ويشجعون الفلاحين على ترك العمل في أراضي الصليبيين. إن دور العلماء في فترة الحروب الصليبية يقدم أنموذجاً فذاً في رد الحملة الصليبية. ذلك أن تلك الحملة هي كمثيلتها الحملة الصليبية الحديثة، من حيث إنها حملة استعمارية استيطانية تبغي بناء حضارة مكان حضارة أخرى، وطرد شعب وإحلال شعب آخر مكانه.

(١) فلسطين والوعد الحق، د. إسحاق فرحات ص١١٢ ـ ١١٥. خواطر، للشيخ علي الطنطاوي.

فحركة التحرير الكبرى التي قادها صلاح الدين الأيوبي سبقتها حركة إحياء كبيرة في جسم الأمة الإسلامية. حيث أكد صلاح الدين على أهمية الطابع العلمي واستدعاءه للمشاركة في بث الوعي في الأمة التي ران عليها الضعف وأصابها الخور. والقضاء على مظاهر الضعف والانحلال بتأكيد المفاهيم الصحيحة للإسلام، ورفض الذل، وبناء مفهوم العزة الإسلامية. ولعل ذكر شخصيات إسلامية يفيد في هذا الجانب، فهذا «محمد بن أحمد بن قدامة الحنبلي» المولود سنة **٥٢٩**هـ، إنه كان عالماً يمارس مهمة الوعظ والإرشاد، ويشجع الناس على الجهاد في سبيل الله. وشارك صلاح الدين في حروبه ضد الصليبيين. إن العلماء في عهده قادوا معركة الفكر والبناء، وأذكوا روح المقاومة التي سهّلت عليه الفتح. وهناك عالم آخر عاش في أجواء تلك الفترة وأعطي صورة لمجاهد من طراز رفيع، جعل من هم الهوان الذي لحق بهم بالمسلمين شغله الشاغل، ذلك هو «ابن تيمية» فمنذ الخمسينيات وحتى الآن والبحث الإسلامي يركز على إبراز الهوية الحقيقية للوطن الفلسطيني، ويبحث في الوسائل والأسباب التي تعيد الحق لأهله.

في مجمل الصورة نرى أن العلماء قد اضطلعوا بدور هام في معركة فلسطين قديماً وحديثاً، وإن أخفقت معظم التجارب الثورية التي قادها العلماء فلأن الظرف التاريخي الذي نشأت فيه والأجواء العامة التي انطلقت فيها عطلت بعض أسبابها. بالإضافة إلى أن الاستعمار أفرز شكلاً جديداً من العلاقات بين الشعوب والنظام السياسي أدى إلى القطيعة أحياناً، وتوجيه الحرب في شكلها الظاهرية نحو الداخل بدلاً من التركيز على العدو المشترك. أي: أن ظروف التفكك والهوان جعلت مهمة العلماء صعبة، خاصة أن المجتمع كله بحاجة إلى تحرير الفكر أولاً قبل تحرير الوطن[١].

مما لا شك فيه أن «الانتفاضة» لم تكن وليدة أحداث عام **١٩٨٧**،

(١) المرجع السابق ص١١٦ ـ ١٢٠ لباحث فلسطيني في شؤون التراث، إبراهيم محمد.

ولكن ثم مقدمات طويلة، وإرهاصات مركبة سابقة. إن تاريخ الكفاح الفلسطيني منذ العشرينيات من هذا القرن كان في مجمله تاريخ انتفاضات عمالية وفلاحية وطلابية ونسائية متتالية. وإن ثمة عدد من الانتفاضات المهمة سبقت حرب لبنان عام **١٩٨٢**، وأخرى تلتها. ونجد أبرزها انتفاضة **١٩٧٩** ضد معاهدة الصلح المنفرد بين إسرائيل ومصر، وزيارة الرئيس الأمريكي «كارتر» فلسطين المحتلة. كما لم نقف أمام تصاعدات النضالات الشعبية في الأعوام التي تلت حرب لبنان، لكن ثمة انتفاضات هامة حدثت خلال عام **١٩٨٧**. ولاحظ المراقبون أن مدى الاستجابة لدعوات الإضراب والتظاهر في الضفة والقطاع يدعو إلى الدهشة، وفي نهاية هذا العام تجسدت الانتفاضة بسلسلة من المواجهات العنيفة مع قوات الاحتلال الإسرائيلي، اتخذت شكل الإضرابات والتظاهرات مروراً بالهجمات التي تستعمل فيها الأسلحة التقليدية من حجارة وسكاكين، وزجاجات حارقة وصولاً إلى الاشتباك المسلّح.

وتفاقم العنف تفاقماً ملحوظاً، وازداد عدد الحوادث إلى «**٩٣٢**» حادثاً تضمن إطلاق نار وقنابل يدوية و(مولوتوف) تمت في الضفة الغربية ما بين عام **١٩٧٧** و**١٩٨٤**. ويلاحظ وجود النمط ذاته فيما يختص بحوادث أقل خطراً، والتي تشير سلطات الاحتلال إليها على أنها «حوادث تخل بالسلام» تتضمن التظاهرات وإلقاء الحجارة. وقد سجلت الأرقام الإسرائيلية حتى عام **١٩٨٦** منذ بداية الانتفاضة وقوع «**٤٤٣١٠**» حادثة مخلّة بالأمن في الضفة الغربية وقطاع غزة. ومع أن الأحداث التي أشعلت الانتفاضة بدأت في غزة، فإن الضفة الغربية ومخيماتها هي التي تحملت العبء الأكبر من الوفيات بعد انتشار الأحداث في أرجاء الأراضي المحتلة كافة. وبلغ مجموع نسبة ضحايا الانتفاضة حتى عام **١٩٨٩** وفقاً لما سجلته الحملة الدولية وقوع «**٨٢١**» وفاة بسبب إطلاق النار أو الغاز المسيل للدموع والضرب والتعذيب وغيرها. فضحايا الانتفاضة ينتمون إلى أرجاء الأراضي المحتلة كافة، مما يدل على انتشار الدعم للانتفاضة. وبالمقارنة مع فداحة عمليات القتل في أبطال الانتفاضة، نلاحظ أنه خلال اجتياح لبنان عام **١٩٨٢** وخلال حرب شاملة

قتل «٦٢٣» جندياً إسرائيلياً، أي: ما نسبته «١٨» من كل «١٠,٠٠٠» إسرائيلي مما كان يمثل خمسَيْ معدلات الأراضي المحتلة[١].

لقد كان للانتفاضة آثار اقتصادية واجتماعية وسياسية على مختلف الأصعدة الفلسطينية والعربية والدولية يمكن إيجازها في النقاط التالية:

١ ـ آثار الانتفاضة على الاقتصاد الإسرائيلي:

كان أبرز آثارها ما يلي:

أ ـ توقف حوالى ثلث عمال الأراضي المحتلة في إسرائيل، الأمر الذي حمَّل القطاعات الاقتصادية الإسرائيلية خسائر عالية.

ب ـ أدى انخفاض واردات الأراضي المحتلة في إسرائيل إلى تدهور الوضع الاقتصادي للمؤسسات التي تتعامل مع الأراضي المحتلة. وإلى انخفاض عائد الضرائب والرسوم الجمركية على واردات الأراضي المحتلة.

ج ـ انخفاض عدد السائحين الأجانب.

د ـ أدى التوقف عن دفع الضرائب إلى تدنّي عائدات إسرائيل من الأراضي المحتلة، وزيادة الإنفاق من أجل تمويل تواجد القوات الإسرائيلية بأعداد كبيرة في الأراضي المحتلة.

هـ ـ مواقف بعض الدول الأجنبية مقابل التسهيلات التي تمنح للصادرات الإسرائيلية كما حصل في السوق الأوروبية المشتركة.

٢ ـ آثار الانتفاضة على المجتمع الفلسطيني:

كان أبرز آثارها ما يلي:

أ ـ زيادة مستوى الإدراك والوعي لدى الناس، وذلك بالحد من التفسخ الاجتماعي الذي ظنّ المحتل أنه حققه بين فئات المجتمع المختلفة،

(١) الصراع المائي بين العرب وإسرائيل، د. رفعت سيد أحمد ص٢٦٨ ـ ٢٨٣.

حيث شاركت كل طبقة بوسائلها المختلفة في إنجاح الانتفاضة، حيث كان الفلاحون يمدون المخيمات المحاصرة بالمواد الغذائية، وكان التجار يمارسون الإضراب التجاري، وازدادت مقاطعة العمال لسوق العمل الإسرائيلي، وكان الطلاب يشاركون في التصدي للاحتلال من خلال مواقعهم المتقدمة في المظاهرات، وكان الأطباء والمحامون والمعلمون يخدمون الانتفاضة كل من موقعه.

ب ـ شمولية الانتفاضة لفئات العمر المختلفة، وشموليتها لما تركته من آثار نفسية واجتماعية وسياسية وثقافية على فئات العمر المختلفة من الجنسين. فجنود الاحتلال بلجوئهم إلى وسائل العنف بطريقة عشوائية ضد الفلسطينيين من أطفال وشباب وشيوخ قد دفع الناس إلى النزول إلى الشوارع للدفاع عن أبنائهم بغض النظر عن أعمارهم وطبقاتهم الاجتماعية. وقامت المرأة بدور كبير في مواجهة جنود الاحتلال كأم وأخت ومناضلة مما جعل بعض جنود الاحتلال يترددون قبل الاعتداء عليها وعلى أطفالها. كما أن الخوف كحاجز نفسي بين المواطنين والجيش الإسرائيلي الذي يمثل الموت لم يعد قائماً، فلقد تواجد المواطنون في حالات وجهاً لوجه مع جنود الاحتلال. وقد جسدت الانتفاضة شعار «الوحدة على أرض المعركة» فأنجزت الوحدة الوطنية حول هدف إنهاء الاحتلال.

ج ـ حققت الانتفاضة وحدة الشعب في وجه المحتل، وأخذت تتحقق وحدة الكفاح المسلّح بينهما. فالحجارة والزجاجات الحارقة والتظاهرات والشعارات لم تعد وقفاً على الأرض المحتلة، بل إن الشعارات غدت ترفع في المثلث والنقب، بل وتعدتها إلى الجولان.

د ـ تجاوزت الانتفاضة مرحلة الثورة من الخارج إلى الداخل، وبدأت مرحلة الثورة من الداخل في الداخل، وأدت انتفاضة الداخل إلى انتصارات سياسية.

هـ ـ انتزعت الانتفاضة عامل الخوف من نفوس المواطنين تحت شعار الاستشهاد وفداء فلسطين. وبالمقابل بدأ عقم ما سمي «القبضة الحديدية»

كأسلوب لإجهاض الانتفاضة، ففي حرب كهذه يظل مخزون الإرادة أمضى من مخزون العتاد.

و ـ قضت الانتفاضة على البقية الباقية من أي إعجاب بالنموذج الإسرائيلي. فالانتفاضة أثبتت عدم كفاءة التجمُّع الصهيوني وعجزه، مما اضطره للكشف عن وجهه القبيح الذي كان يغطيه التسامح مع أبناء العرب.

ز ـ اكتشف الفلسطينيون مقدرتهم على الإبداع، وقد أيقنوا أن مثل هذا الإبداع المحلي قادر على تدويخ العدو وإلحاق الهزيمة به رغم تفوقه العسكري.

ح ـ ظهور يقين الفلسطيني بأن العودة ليست حلماً بعيد المنال، وإنما حلم يمكن تحقيقه.

٣ ـ آثار الانتفاضة على المستوى العربي:

كانت أبرز آثارها فيما يلي:

أ ـ أوقفت الانتفاضة الأصوات التي كانت ترى أن التحرر لا مجال له سوى الرضوخ للآخر والتفاوض وانتظار الضغوط الدولية.

ب ـ انكشفت أمام العرب كثير من الأساطير الصهيونية والجيش الذي لا يقهر مما يعني اختفاء الإعجاب.

ج ـ اكتشاف أن العنصر الفلسطيني لا يمكن الهيمنة عليه أو التحكم في مستقبله.

٤ ـ آثار الانتفاضة بالنسبة للمجتمع الإسرائيلي:

كانت أبرز آثارها على مختلف أوجه الحياة في إسرائيل، وتبدو أهمية هذه التفاعلات داخل الشرائح الاجتماعية فيما يلي:

أ ـ أن نظرية الحكم بالأمر الواقع السائد في الأراضي المحتلة والمرتكزة على مجموعة الإجراءات العسكرية، والقانونية، والإدارية، وعلى

ممارسة كافة الضغوط ضد مليون فلسطيني أثبتت الانتفاضة فشل كل هذه المحاولات.

ب ـ أما فيما يتعلق بالحالة النفسية لجنود الاحتلال فإن الإرهاب الممثل من قبلهم للقضاء على الانتفاضة قد أدّى إلى ردود فعل وانتكاسات داخل المجتمع الإسرائيلي.

ج ـ تعميق أزمة التجمع السكانية بزيادة النزوح وتزايد العزوف عن الإنجاب بسبب الإحساس بعدم الأمن.

د ـ انتهاء حلم «إسرائيل الكبرى»، إذ أثبتت الانتفاضة أن السيطرة على الضفة والقطاع أمر مستحيل. فكيف يتأتى الحلم بأرض ممتدة من النيل إلى الفرات.

إذا كانت «الثورة» في علمَي الاجتماع والسياسة تعني حركة هدم للبناءات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية واستبدالها بما يتمشى مع مصالح الشعب، وإذا كانت وسيلة النفير في الثورة هي العفن الشعبي. إذا كان الأمر كذلك فإن ما يحدث بفلسطين المحتلة ليست مجرد «انتفاضة» يعني مدلولها اللفظي لحظة انفعال يعقبها انطفاء سريع. بل هي ثورة وإن كانت الجماهير العربية غير قادرة على استيعاب كونها «ثورة» لأنها عاجزة عن المشاركة فيها، فيذهب معه أي محاولة لفهم ما يحدث. ولأن ما يحدث بفلسطين المحتلة تجاوز حدود الانتفاضة، وأن ثمرة تصور عربي يواكب هذه الثورة، ويطرح بدائل المساندة المتمثلة في التالي:

١ ـ تبنِّي المثقفين العرب لعقد مؤتمرات تواكب أحداث الثورة بالوطن المحتل، وتواكب السقوط اليومي للشهداء.

٢ ـ فتح باب التطوع بالنفس والمال.

٣ ـ مقاطعة الشركات الإسرائيلية، ورجال الفكر والبحث العلمي المتعاونين مع إسرائيل.

٤ ـ تبنِّي الصحافة العربية لمشروع «سجل الشهداء» على شكل مجلد

يضم أسماء شهداء الانتفاضة أو الثورة ومناطق استشهادهم. والمواقف التي استشهدوا بسببها، وظروف نشأتهم ودلالات هذا الاستشهاد.

٥ ـ تحرك مواز من العلماء العرب والمثقفين بالبحث العلمي داخل المراكز البحثية ذات الطابع السياسي والاجتماعي والاقتصادي المتفجر داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة، ودراسة الأسباب والدوافع المتجددة، بأساليب واقتراحات علمية رصينة.

تلك فقط بعض المقترحات تجلية لما يحدث في الأراضي المحتلة، وكونه «ثورة» بالمعنى العلمي والسياسي للكلمة. وأنها ليست مجرد «انتفاضة»، فإن هذه المقترحات لها فعاليتها، وخاصة أنها تنطلق من اعتقاد بأن ما يحدث في الوطن الفلسطيني المحتل هو ثورة لا زالت في بدايتها، ولا زالت تبحث عمن يساندها بصدق، لا من يحاول بيعها رخيصة. هذه المقترحات مقصورة على المثقفين العرب، أما النخبة السياسية وصنّاع القرار السياسي، فأدوارهم تتخطى نطاق الصمت إلى ضرورة الفعل المباشر[١].

❋ ❋ ❋ ❋

أطماع إسرائيل وتوسعاتها

لقد مرّ على قيام دولة إسرائيل ما يزيدد على «٤٩» عاماً كانت حافلة بالحروب والمآسي والتحولات. وكل ما شهدته المنطقة العربية طوال هذه المرحلة يدور حول قضية فلسطين. والانقلابات العديدة التي هزّت المنطقة العربية رفعت راية فلسطين، والحركة الوحدوية العربية التي وصلت إلى ذروتها في الخمسينيات والستينيات كان هاجسها الأهم فلسطين. فضلاً عن حركة المقاومة الفلسطينية التي انطلقت على أنقاض هزيمة «١٩٦٧»، وتحولت إلى أهم مظاهرة ثورية في العالم العربي. وكل الحروب كان ميدانها الصراع العربي الإسرائيلي، من حرب السويس عام ١٩٥٦ إلى حرب

(١) المرجع السابق ص٣٥٢ ـ ٣٥٦.

١٩٦٧، إلى حرب ١٩٧٣ إلى الحرب التي أشعلت لبنان ١٩٧٥. وما نراه بنتيجة هذه الأعوام هو التالي:

١ ـ لقد مدّت إسرائيل سيطرتها على كامل أراضي فلسطين بعد أن احتلت الضفة الغربية وقطاع غزة، وأعلنت القدس عاصمة لدولتها. كما احتلت أراضي الجولان السورية، وجزءاً من جنوب لبنان.

٢ ـ ارتفع عدد اليهود في فلسطين إلى أكثر من ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة. وفي الوقت نفسه ارتفع عدد الشعب الفلسطيني إلى ما يناهز خمسة ملايين نسمة. وفي الوقت نفسه طوّرت إسرائيل قوتها الحربية مرتكزة في ذلك على المساعدات المالية والعسكرية التي تصلها. والقوة الحربية الإسرائيلية مثلها مثل القوة السياسية والاقتصادية والإعلامية الصهيونية في العالم موضوعة في خدمة مخطط واحد بالغ الطموح هو تحقيق «إسرائيل الكبرى» الممتدة على الأقل من البحر المتوسط، إلى نهر الأردن، ومن نهر الليطاني، إلى صحراء سيناء، ومن سيطرة «إسرائيل الكبرى» على المنطقة العربية بتفكيكها إلى دويلات طائفية صغيرة ومتناقضة. فلا يَخْدَعَنَّ أحد وَهْمٌ، ولا يستسلمن أحد لسراب، ولا سيما لسراب الانقسام الإسرائيلي بين «متشددين» و«معتدلين» وما شابه ذلك من معطيات.

إن طبيعة الصراع العربي الإسرائيلي بأبعاده ومستوياته المختلفة، والتي تزداد تشويهاً وضبابية يوماً إثر يوم تتلخص أبعاده فيما يلي:

١ ـ صراع ديني سياسي بين المسلمين واليهود، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهود من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود**»[1]. وفقاً للحديث النبوي الشريف، فاليهود ينظرون إلى الصراع مع العرب والمسلمين بهذه النظرة. وما زيادة

(١) مختصر صحيح مسلم، للألباني، كتاب الفتن، حديث ٢٠٢٥، م٨/١٨٨.

الاتجاه الديني في قطاعات صناعة القرار الإسرائيلي إلا دليل على هذا البُعد الهام من أبعاد الصراع. ويقع في داخله أهمية إنشاء «إسرائيل الكبرى» من النيل إلى الفرات، إسرائيل مملكة داود وسليمان عليهما السلام. وهي مملكة تعني احتواء الأنهار والآبار والمياه العربية داخلها مع صبغها بصبغة عقائدية دينية مؤثرة.

٢ ـ صراع مصيري بين الجسد العربي الإسلامي والكيان الصهيوني، إنه صراع حول مفهوم «البقاء». فالصراع لم يكن طيلة تاريخه صراعاً على قطعة الأرض، ولكنه صراع حول حق البقاء. وهكذا الصراع المصيري الذي لا ينتهي إلا بفناء أحد الخصمين. وداخل هذا الصراع معاني مختلفة تبدأ بإزالة المعالم الأصلية للخصم، وتتدرج إلى احتوائه حتى تذاب هذه المعالم. وهكذا الصراع بين الأمة العربية بتراثها ومعالمها الثابتة وبيت الكيان الصهيوني، لا يقبل بديلاً غير الفناء أو البقاء. وكل عمليات التوفيق التي تمت لم يُكتب لها النجاح لمراوغة اليهود وأطماعهم التوسعية. فالصراع مع إسرائيل ليس صراعاً على فلسطين فحسب، وإنما صراع بين الأمة العربية الإسلامية وبين إسرائيل الدولة الصهيونية التي تكونت فوق جزء إستراتيجي في الشمال العربي، ولعله قدر الأمة العربية.

٣ ـ الصراع العربي الإسرائيلي صراع اقتصادي، فإسرائيل في حقيقتها وبنائها ليست سوى رأس الحربة للشركات الغربية متعددة الجنسية. والأمة الإسلامية والعربية بثرواتها الطبيعية التي يحتل النفط مقدمتها تمثل التربة الخصبة لانتعاش هذه الشركات. إذ يمثل النفط العربي وغيره من الثروات مطلباً صهيونياً. فالصراع في مجمله حول الأطماع الاقتصادية لإسرائيل في المنطقة، وهي أطماع يترتب عليها استنزاف للقدرة وإهدار للإمكانية العربية. وهنا يتطور الصراع، ويصبح على الأمة العربية لكي تبقى اقتصادياً أن تخوض صراعاً معقداً مع الكيان الصهيوني.

٤ ـ والصراع حول شرعية الوجود الصهيوني بفلسطين يلقي بنا في متاهات عديدة بعضها تاريخي يختلط بالعقيدة الصهيونية، وبعضها يعود إلى

الوضع اليهودي بصفة خاصة من نطاق الوجود الدولي المعاصر، وكذلك الوجود الوضعي للدولة العبرية التي أصبحت تمثل قوة ديناميكية نظامية في منطقة الشرق الأوسط، ومن ثم نظرتها في أبعاد مدلول الأمن القومي، وهو المفهوم الذي يتناقض والأمن القومي العربي.

٥ ـ إن وجود أكثر من مليونَيْ فلسطيني داخل أراضي فلسطين يقلق إسرائيل على المدى الأبعد، ويخيفها من تحول العرب ذات يوم إلى أكثرية إذا استمر التطور الديموغرافي في نموه الطبيعي. ولا يعتقد أن إسرائيل ستلتزم بتنفيذ اتفاق «أوسلو» لتحافظ على ما فعلته في الأراضي المحتلة منذ عام **١٩٦٧** من احتلال لهذه الأراضي: لقد صادرت السلطات الإسرائيلية ما مجموعه نصف أراضي الضفة الغربية مصادرة كاملة وحوّلتها إلى ملكية يهودية، وضمّت القطاع العربي من القدس بموجب القانون الصادر من الكنيست الإسرائيلي عام **١٩٨٠**، وهي بصدد تفريغه من بقية سكانه العرب كي يتم تهويد القدس على صعيدي الأرض والبشر، كما يجري تطويق القدس وجميع المدن الفلسطينية بعشرات المستعمرات اليهودية، بهدف مَد الوجود البشري اليهودي من جهة، وللتضييق على العرب ودفعهم إلى النزوح من جهة أخرى.

٦ ـ إن ما يزيد على المليون ونصف المليون فلسطيني المقيمين في الضفة الغربية وقطاع غزة بالرغم من اتفاق «أوسلو» سيتشبثون بأرضهم ولن ينزحوا، خصوصاً وقد رأوا مآسي اللاجئين الفلسطينيين أينما حلُّوا. ولمواجهة هذا التشبث بالأرض، يعد الإسرائيليون العدة لمخططين يمكن تنفيذهما وفقاً للظروف الملائمة:

المخطط الأول: هو اللجوء إلى الحروب لدفع سكان الضفة الغربية وغزة لمغادرة أرضهم إذا لم تكن برامج الاستيطان ومصادرة الأراضي وسائر وسائل القمع المادي والروحي كافية لذلك. ألم تؤدِّ حرب **١٩٦٧** إلى تهجير «**٣٠٠**» ألف فلسطيني من الأراضي المحتلة؟

المخطط الثاني: هو تحويل المنطقة ـ التي يبقى للفلسطينيين كثافة

سكانية فيها داخل فلسطين ـ إلى محميات معزولة، ومشمولة بنظام التمييز العنصري، وفي انتظار أزمنة ملائمة للعنف الجماعي تتيح تهجير سكانها[١].

إن إسرائيل تلاحق هدفين تقوم عليهما إستراتجيتها الحقيقية:

الهدف الأول: هو ضم الضفة الغربية وقطاع غزة رغم اتفاقية «أوسلو» ومنطقة جنوب لبنان حتى الليطاني. وذلك لإرساء دولة إسرائيل في حدود طبيعية داخل ما يعتقد الإستراتيجيون الصهيونيون أنه المجال الحيوي الأدنى لتكريس الدولة اليهودية تكريساً نهائياً في الواقع الجغرافي.

أما **الهدف الثاني**: فهو تفكيك المنطقة العربية إلى دويلات طائفية، انطلاقاً من محاولة تفكيك لبنان الذي كان لإسرائيل الدور الأكبر في إثارة حربه. لتجد المدخل الأمثل لتفكيك سوريا والعراق ومصر بإثارة التناقضات الطائفية والمذهبية فيها ضمن هذا العمل[٢].

❋ ❋ ❋ ❋

استيلاء اليهود على الماء في الأراضي المحتلة

لقد فرضت سلطات الاحتلال الإسرائيلي منذ السنوات الأولى للاحتلال قيوداً مشددة على استخدام المياه مثل: تحديد سقف الكميات المسموح ضخها، ومنع المزارعين العرب من حفر آبار جديدة، وفرض قيود مشددة على مزارعي المناطق المرورية بحجج أمنية. وفي نفس الوقت سمحت لنفسها بحفر آبار إرتوازية عميقة من أجل تروية المستوطنات والمدن المجاورة بمياه من الأراضي المحتلة. وقد أدى هذا التطور غير المتكافئ في استخراج المياه إلى زيادة حصة إسرائيل من طاقة الضفة الغربية من المياه. واستولت إسرائيل في منتصف الثمانينيات على «٤٨٥» مليون متر مكعب

(١) الصراع المائي بين العرب وإسرائيل، د. رفعت أحمد ص٥٧ ـ ٦١.
(٢) تاريخ المسألة الفلسطينية، فيصل أبو خضرا ص١٨٥ ـ ١٨٨.

سنوياً من مياه الضفة الغربية، أي: ما يزيد على «٧٨٪» من مخزون المياه الموجودة فيها. كما تقوم بنهب ما بين «٢٠ ـ ٦٠» مليون متر مكعب سنوياً من مياه قطاع غزة، أي: ما يقرب من ثلث مخزون المياه الموجودة فيها.

إن مستقبل الصراع العربي الصهيوني مرتهن بمستقبل «البُعد المائي» في هذا الصراع. وذلك لأن إسرائيل تسعى منذ ولادتها كفكرة ثم كمحاولة مادية ملموسة، للبحث عن مصادر المياه للتنفس الاقتصادي والحياتي الشامل لها. وأزمة المياه في إسرائيل ومستقبلها سيكون مرتهناً بالماء ومصادره، داخل وخارج الكيان الصهيوني، ولإيضاح ذلك لا بد من البحث حول المحاور التالية:

١ ـ مقدمات شرق أوسطية للصراع المائي:

إذا جاز القول بأن الحقبتين الماضيتين «١٩٧٠ ـ ١٩٩٠» كانت حقبتي «الصراع حول البترول» في منطقة الشرق الأوسط. فإن الحقبتين القادمتين «١٩٩٠ ـ ٢٠١٠» ستكون حقبتي صراع حول الماء داخل ذات المنطقة، وبخاصة الدول العربية منها[١].

إن نقطة الضعف الأساسية في حزام الأمن العربي تتمثل في العامل الجغرافي المائي للوطن العربي، فهو في الحزام الجاف وشبه الجاف من العالم. ولذا فإن المياه المتجددة في الوطن العربي تقل عن «١٪» من المياه المتجددة في العالم. وتشير التقديرات المبدئية التي قدّمتها المنظمة العربية للتنمية الزراعية عام ١٩٨٠ إلى أن مجمل الموارد المائية في الوطن العربي تبلغ «١٦٤,١٨٨٥» مليون متر مكعب في السنة، ومجمل الموارد المستخدمة يصل إلى «١٥٥,٦٤» مليار متر مكعب في السنة منها «١٣٩» مليار متر مكعب من المياه السطحية، «١٢» مليار متر مكعب من المياه الجوفية، «٤,٥» مليار متر مكعب من مياه الصرف، «٠,١٤» مليار متر

(١) الصراع المائي بين العرب وإسرائيل، د. رفعت سيد أحمد ص١٥٥، ١٦٦، ١٨٩، ١٩٠.

مكعب من تحلية المياه». وتزداد ثغرة الأمن المائي العربي من منظور النمو السكاني وتزايد الحاجة إلى استعمال الماء. فمعدل النمو السكاني في الوطن العربي نحو «٣٪» في السنة، وهو واحد من أعلى معدلات النمو في العالم. فبينما كان السكان «٧٦,٦» مليون نسمة عام ١٩٥٠، فقد بلغ في عام ١٩٨٥ نحو «٢٠٥» مليون نسمة. ومقدّر أن يصل إلى نحو «٣١٠» ملايين في عام ٢٠٠٠ وهذا النمو المتزايد بشكل رهيب سوف يتسبب كما يقدّر الخبراء في إحداث عجز مائي يصل في عام ٢٠٠٠ إلى «١٢٧» مليار متر مكعب[١].

فأزمة المياه في سياقها العام توضح أن الإمكانات المتاحة لـ«مصر» باعتبارها أهم دول منطقة الشرق الأوسط. وبمقارنة الإمكانات المتاحة من نهر النيل «٥٥,٥» مليار متر مكعب بالمستخدم حالياً في مصر «٥٩,٥» مليار متر مكعب. فمياه نهر النيل لا تكفي لاحتياجاتها، وهذا يعني زيادة إيراداتها من النيل. وكذا يعني تأمين العمق الإستراتيجي لمصر، وهذا يأتي بتحقيق أمن وادي النيل، ويساعد على التغلب على المشاكل المثارة في المنطقة، ولمقاومة التغلغل الإسرائيلي في المنطقة. وذلك بهدف الحد من إمكانية قيام إسرائيل باستغلال مياه النيل بطرق ملتوية. وترى إسرائيل في نهر النيل المصدر الذي يحل مشكلتها المائية في المستقبل الأمر الذي يجعلها تولي عناية خاصة بكل من مصر وأثيوبيا. لقد كتبت الصحف الإسرائيلية منذ منتصف السبعينيات تدعو إلى مشروع شراء مياه النيل وتحويلها إلى النقب، فالفكرة كلها فكرة إسرائيلية. قاموا بتقديمها إلى مركز الدراسات الإستراتيجية والدولية بواشنطن، والذي حثّ واشنطون على القيام بعمل وادي مائي يجمع خبراء الدول العربية وإسرائيل والولايات المتحدة، وتقوم أمريكا بتمويله وتوجيهه. وهكذا يمكن حل الصراع العربي الإسرائيلي لا عن طريق الحرب بل عن طريق محاربة الجفاف. وعلى جانب الصراعات المحتملة حول نهر

(١) المياه العربية ثقب الأمن الواسع، أحمد العربي، صحيفة البيان ص٨ تاريخ ١٩٩١/٦/٢٣م.

«الفرات» حسبما ورد في تقرير نشرته «نيوز وورلديورت» أن دخول الدول التي تتقاسم معاً مياه نهر أو نهرين في مشروع استغلال المياه سيثمر صدامات فيما بينها. وفي ظل تفاقم دول المنطقة قامت تركيا بعرض ما يسمى بفكرة مشروع «أنابيب السلام» الذي يستهدف تزويد دول الخليج العربي وكل من العراق وسوريا والأردن بحوالى ملياري متر مكعب، وإن لم تظهر في المشروع إشارة صريحة إلى استفادة إسرائيل منه. إلا أن المحللين السياسيين يرون أن هذا المشروع حسب ما تبغي تركيا سيساهم في زيادة التعاون بين دول المنطقة وتحقيق الأمن والسلام، وهنا تبدو الإشارة واضحة إلى النزاع العربي الإسرائيلي. وإذا كانت تركيا ترغب في توسيع نفوذها في منطقة الشرق الأوسط عبر قضية المياه، فإن إسرائيل ترى في قضية المياه بُعداً يمس أمنها الإستراتيجي. ومن المعروف أن خبراء فنيين على مستوى عالٍ يشاركون في المشاريع المائية، وقد كافأت تركيا إسرائيل بكميات من الماء.

وفي عام ١٩٨٨ ظهرت ورقة أخرى للتعاون الاقتصادي في الشرق الأوسط بجامعة تل أبيب تطرح مشروعاً آخر يشترك فيه الأردن وإسرائيل لتمويل فيضان نهر اليرموك في الأراضي الأردنية إلى بحيرة «طبرية» التي أخذ منسوبها في الانخفاض. وفي عام ١٩٩٠ ذكرت صحيفة «تيموانياج» الفرنسية أن إسرائيل تستولي كل عام على مليار وثلاثمائة مليون متر مكعب من الماء من الحصة الطبيعية لعدد من الدول العربية. وأضافت أن عمليات سحب الإسرائيليين لمياه نهر الأردن والتي تتم عن طريق بحيرة طبرية تصل إلى «٦٦٠» مليون متر مكعب من الماء مما يزيد من نسبة الملوحة في مياه نهر الأردن، ويكون من الصعب استخدامها في الري. وقالت الصحيفة أن إسرائيل تأخذ أيضاً نحو «٢٠٠» مليون متر مكعب من مياه قطاع غزة المحتل. وكان من أهم الأهداف الكبرى لعملية إسرائيل في غزة ولبنان الوصول إلى الليطاني اللبناني واستغلاله لصالح الدول اليهودية. وفي عام ١٩٩٠ قال الوفد اللبناني في مؤتمر وزراء الخارجية العرب بأن إسرائيل تستغل مياه نهر «الحاصباني، والوزاني» استغلالاً كاملاً بمعدل «١٤٠» مليون

متر مكعب سنوياً. وهكذا كان الماء دائماً، داخل وخارج فلسطين في سلّم أولويات الفكر الإستراتيجي الإسرائيلي[١].

❋ ❋ ❋ ❋

قناة البحرين الإسرائيلية

في إطار مشروع توسعي لربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الميت اتخذت الحكومة الإسرائيلية في عام **١٩٨٠** قراراً يقضي بالبدء في تنفيذ شق قناة مائية تصل ما بينهما في وادي الأردن. وهذا القرار الإسرائيلي من أخطر القرارات في أبعاده السياسية ومعانيه الاجتماعية، ومراميه الاقتصادية، وغاياته الحربية، وحدوده الجغرافية. كما أنه يلخص سياسة إسرائيل الاستعمارية في تكريس الأمر الواقع بالنسبة للمناطق العربية المحتلة عام **١٩٦٧**. واعتبار هذه الأراضي جزءاً لا يتجزأ من إسرائيل. وإن قرار مشروع القناة المائية لربط البحرين، يستند في ظاهره على اعتبارات اقتصادية، وهناك قرارات اتخذتها الحكومة الإسرائيلية مثل: «قرار ضم القدس العربية، ومشروع قانون ضم الجولان، وقصف المفاعل النووي العراقي، وقصف بيروت». وأن هذه القرارات تشير إلى أن إسرائيل لم تعد تحسب أي حساب لما هو موجود في المنطقة، سواء على مستوى الدول أو الشعوب. كما أنها لم تعد تحسب أي حساب لعواقب تلك القرارات وانعكاساتها أيضاً سواء على المستوى المحلي أو الدولي. وأن إسرائيل تحركت لتنفيذ مشروع قناة البحار مستفيدة من الوضع النفسي السائد في المنطقة والظروف الإقليمية القائمة فيها، فأعلنت عام **١٩٨١** عن البدء بتنفيذ مشروع القناة.

وهذا المشروع هو ثاني أهم خطوة إستراتيجية تنفذها إسرائيل منذ قيام دولتها عام **١٩٤٨**. عقب احتلالها لصحراء النقب عام **١٩٤٩**، وقطعها لطرق الاتصال البرية بين المشرق والمغرب العربيين. وفي حالة تحكم إسرائيل

(١) الصراع المائي بين العرب وإسرائيل، د. رفعت سيد أحمد ص١٩٠ ـ ١٩٢، ٢٥١ ـ ٢٥٤.

بمنطقة البحر الميت، ورفع منسوبيه ليتلاءم والملاحة فيه. فإن إسرائيل ستخلق ميناءً بحرياً في وسط خارطة هذه المنطقة العربية والإسلامية. كما أن القناة الإسرائيلية ستقسم الضفة الغربية لنهر الأردن إلى قسمين: شمالي وجنوبي، بقاطع مائي يمتد نحو الصحراء شرقاً. وإن السيطرة على البحر الميت لا تكون ممكنة بدون إنشاء المستوطنات في الضفة. كما يجعلنا نؤكد أن الإستراتيجية الإسرائيلية بالنسبة للضفة والقطاع هو بقاء السيطرة الإسرائيلية بشكل أو بآخر(١).

ويعتبر هذا المشروع من أخطر المشاريع الاقتصادية البحرية التي حدثت في فلسطين لتوصيل البحرين الميت والمتوسط، بطول يصل إلى «١٨٠» كم. واعتمد لها الخط الجنوبي الذي أطلق عليه «خط القطيفة مسادة»، والذي يبدأ من تل القطيفة الذي يقع على شاطئ البحر المتوسط، جنوب دير البلح وشمال خان يونس، في قطاع غزة، وينتهي في منطقة مسادة بالقرب من البحر الميت، بعد مروره بالنقب الشمالي جنوب بئر سبع. وقد تمهلت إسرائيل في الإعلان عن بدء التنفيذ، مستغلة في هذا توتر الوضع الإقليمي العربي والدولي. وإن الأخطار التي يحملها هذا المشروع بين طيّاته تتلخص في:

١ ـ اغتصاب المزيد من الأرض والمياه العربية، وتعتبر المساحات الواسعة من الأراضي العربية التي سيتلفها المشروع من أخصب الأراضي العربية.

٢ ـ سوف يؤدي المشروع إلى إحداث أضرار ناجمة عن خلط مياه البحرين، حيث إن من شأن هذه القناة تحويل البحر الميت الأزرق بخليط من الجبس الأبيض، وهو الخليط الذي سيغير من مناخ المنطقة وبيئتها.

٣ ـ سوف يؤدي المشروع إلى تعرض خزانات المياه الجوفية للخطر،

(١) المشروع الصهيوني التوسعي لربط البحر الميت، منظمة فتح ص٢ ـ ٣.

فالخزانات في قطاع غزة ستتعرض للأخطار نتيجة مرور القناة بمنطقة القطيفة. فمن المتوقع أن تتسرب مياه البحر المعالجة إلى هذه الخزانات فتفسدها وتحرم السكان العرب والمزروعات من فوائدها خاصة وأن هناك عمليات تهويد للمياه.

٤ ـ سوف يؤدي المشروع إلى تغير الوضع الجغرافي والتركيب السكاني للمنطقة، وسيجبر قطاع غير قليل من السكان على هجرة أملاكهم. وسيساعد على إقامة منشآت دائمة فوق الأراضي المحتلة ولفائدة دولة الاحتلال.

٥ ـ وأخيراً فإن هذا المشروع على الجانب السياسي يؤكد ما تنوي الإدارة الصهيونية الحاكمة عمله تجاه فلسطين. فإسرائيل تهدف بشق القناة، إلى خلق واقع دائم لا يسهل تغيره أو التنازل عنه بلا مقابل. وهو المنطق الذي يسيطر على عقلية القادة الصهاينة، والثمن الذي تريده إسرائيل لا يمكن تقديمه دونما خلق واقع سياسي واقتصادي يمكن التحدث والتفاوض بشأنه. وهذا يعني أن منطق التفاوض على أرض الواقع لاكتساب الشرعية والأمن، هو ما سوف تنتجه السياسة الإسرائيلية في المستقبل[١].

إن أهداف المشروع الصهيوني وانعكاساته على الواقع العربي يتلخص في:

١ ـ استخدام المشروع كورقة ضاغطة للمساومة على حق أبناء فلسطين بالعودة.

٢ ـ يبتلع المشروع مساحات من أراضي الضفة الغربية كما يصادر أراضي عربية جديدة على جانبي نهر الأردن.

٣ ـ ضرب معنوية الشعب الفلسطيني بإقامة حاجز طبيعي يمنع من تفاعله مع الشعوب العربية في نضاله من أجل التحرير والعودة.

---

(١) الصراع المائي بين العرب وإسرائيل، د. رفعت سيد أحمد ص٢٥٥ ـ ٢٥٧.

٤ ـ إيجاد مجتمع صناعي من المهاجرين من اليهود، وتكثيف الوجود الصهيوني في فلسطين على حساب الشعب الفلسطيني.

٥ ـ عزل كتلة سكانية عربية كثيفة تعيش في قطاع غزة عن بقية الشعب الفلسطيني في وسط وشمال فلسطين العربية.

٦ ـ فصل جنوب فلسطين عن شمالها، ومنع أي اتصال مباشر بين المواطنين العرب للقيام بأي حركة تحريرية أو سياسية.

٧ ـ هذه القناة تعتبر خندقاً مائياً واسعاً يدعم سلسلة التحصينات الإسرائيلية أمام أي غزو عربي محتمل، وأمام تحرك رجال المقاومة العرب.

٨ ـ تستطيع إسرائيل إنشاء محطات للطاقة النووية في منطقة النقب مما يشكل تهديداً عسكرياً نووياً ضد العرب في أي حرب يخوضونها مع إسرائيل في المستقبل.

٩ ـ إن الأعداد الهائلة من المهاجرين الذين سيجتذبهم المشروع ستزيد من شهوة التوسع الإسرائيلي على حساب المناطق العربية المجاورة.

ويجدر أن نشير أن المحافل العربية قد تعودت أن لا تهتم بالقضايا المصيرية إلا بعد أن تتحول إلى مأساة. فعندها تبدأ ردود الفعل من قبل تلك المحافل لدرء الطوفان. وكانت ردود الفعل العربية تتراوح بين مذكرات الاحتجاج ومشاريع القرار رقم «٢». وفي عام ١٩٦٤ عندما وافقت الدول العربية في مؤتمر قمة عربية عقد في الإسكندرية على تحويل روافد نهر الأردن في سوريا ولبنان، ولكن الطيران الإسرائيلي قام بقصف مواقع العمل، وصرف النظر عن المشروع وتجاوزته الأحداث[١].

❋ ❋ ❋ ❋

(١) المشروع الصهيوني التوسعي لربط البحر المتوسط بالميت، منظمة فتح ص١٥ ـ ١٩.

البحر الأحمر والصراع العربي الإسرائيلي

أن الأهمية الإستراتيجية للبحر الأحمر تأتي من حقيقة موقعه الجغرافي الذي يعتبر من أهم الطرق البحرية العالمية، على أساس أنه يوفر لقوى إقليمية ودولية إمكانات الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط، والمحيط الأطلسي، والمحيط الهندي. كما أصبح امتداداً طبيعياً لقناة السويس، وازدادت أهميته بعد اكتشاف النفط في منطقة الخليج العربي. وفي السنوات الأخيرة اجتذبت المنطقة اهتمام العالم بسبب أهميتها السياسية والعسكرية والاقتصادية. وتكمن أهمية البحر الأحمر من الناحية العسكرية، في أنه المدخل المفضي إلى المحيط الهندي عبر مضيق باب المندب الذي يتسم هو والقرن الإفريقي بأهمية حيوية للقوى العظمى. خصوصاً وأنه يشكل ممر المواصلات الأقصر الذي يربط بين البحر المتوسط والمحيط الهندي، موفراً كثيراً من الوقت والنفقات. ويبلغ عدد الأقطار العربية «البحر أحمرية» ثماني دول. أما الدول غير العربية فهي إسرائيل على طرفه الشمالي الشرقي، وأثيوبيا عند الطرف الجنوبي الغربي. وتشكل السواحل العربية من الناحية الجغرافية «٩٠,٢» في المائة. ومن هنا فالبحر الأحمر يقع في مركز الكتلة العربية، سواء من الناحية الجغرافية أو من الناحية القومية. وبذا يتضح أن البحر الأحمر مهم إستراتيجياً، سواء بسبب قربه من حقوق النفط في الخليج العربي، أو من مصادر المواد الأولية في أفريقيا أو بسبب موقعه.

لقد انطوى الصراع العربي الصهيوني على قضية جوهرية، هي السيطرة على أرض فلسطين. وقد زاد التدخل الأجنبي من حدة هذا الصراع وزوّده بقوة الاندفاع. ومن القضايا الكثيرة التي ينطوي عليها الصراع العربي الإسرائيلي يمكن تحديد المقاطعة السياسية والاقتصادية واللاجئين العرب والأراضي العربية المحتلة ونهر الأردن ثم البحر الأحمر، على أنها مصادر رئيسية للسلوك المتصارع بين العرب وإسرائيل. وكانت المقاطعة السياسية والاقتصادية بمثابة أحد البدائل التي اختارها العرب ضد إسرائيل بغية عزلها عالمياً. وكان هدف العرب الضغط على إسرائيل حتى تقبل حلاً عادلاً يعيد

اللاجئين إلى فلسطين، وأن تتخلى إسرائيل عن الأراضي التي احتلتها. أما إسرائيل فكانت تعمل من جانبها على مواجهة المقاطعة العربية بمحاولة عزل العرب عن الغرب وعن مناطق أخرى مثل أفريقيا[١].

والبحر الأحمر حوض طويل وضيق يغطي مساحة تبلغ «١٧٨» ألف ميل مربع، ويختلف عرضه لكن متوسطه يبلغ «١٧٠» ميلاً. ويبلغ طول ساحله «٤٣٤٧» ميلاً. والملامح الجغرافية له تتكون من:

١ ـ خليج العقبة، ويشكل ذراعه الشمالي الشرقي، ويبلغ طوله حوالى «١١٠» أميال، فيما يتراوح عرضه بين «١٧,٨» ميلاً. وتقع مضايق «تيران» عند مدخله، وتقسمها جزر تيران وصنافير إلى ثلاثة ممرات من بينها ممر واحد صالح للملاحة هو الواصل بين جزر تيران وسيناء وعرضه «٣,٧» أميال.

٢ ـ خليج السويس، هو الذراع الشمالية الغربية للبحر الأحمر، وهو منخفض يبلغ طوله «٢٠٠» ميل، ويبلغ عرضه ما بين «١٨ ـ ٢٠» ميلاً، ويبلغ عمقه ما بين «٢٠٠ و٣٠٠» قدم. وتتصل «قناة السويس» التي افتتحت عام ١٨٦٩ بخليج السويس، وهي تمثل عنق زجاجة يتراوح عرضها بين «٥٠٠ و٧٠٠» قدم، ولا يزيد عمقها على «٣٨» قدماً.

٣ ـ باب المندب، هو نقطة الاختناق الرئيسية ومفتاح المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، ويبلغ عرضه حوالى «٢٠» ميلاً. وتقسمه جزيرة «بريم» إلى ممرين، فالقناة الشرقية يقل عرضها ميليها ويبلغ عمقها «٨٥» قدماً. في حين يبلغ عرض القناة الغربية «١٦» ميلاً، ويبلغ عمقها حوالى «٩٩٠» قدماً وهي تمثل القناة الوحيدة الصالحة للملاحة.

٤ ـ الجزر، توجد حوالى «٣١٩» جزيرة في البحر الأحمر معظمها صغيرة، وتقع في الجزء الجنوبي منه، ويقل العدد كلما اتجهنا شمالاً. وأهم الجزر توجد عند مخانق البحر الأحمر، فعند باب المندب توجد جزيرتان

(١) البحر الأحمر والصراع العربي الإسرائيلي، د. عبدالله السلطان ص٣٤ ـ ٣٧، ٨٧.

«بريم، ومولية» الواقعتان داخل المضيق. وتلي في الأهمية جزيرتان هما «تيران، وصنافير» الواقعتان عند مدخل خليج تيران المفضي إلى خليج العقبة، وتقع جزيرة «جوبال» عند مدخل السويس، وأكبر جزيرة قرب خليج السويس هي جزيرة «شدوان».

وتقوم مصالح إسرائيل في البحر الأحمر على أساس عوامل إستراتيجية وعسكرية واقتصادية. لقد بدأت إسرائيل إستراتيجيتها في البحر الأحمر بخرق الهدنة مع العرب لتحتل موقعها الساحلي الراهن على خليج العقبة؛ لكون مواصلاتها البحرية تشكل في الغالب الشريان الرئيسي الذي يزودها بالمواد اللازمة لاحتياجاتها الاقتصادية والعسكرية. ولتبرير سياستها التوسعية يدَّعي الصهاينة أن ثمة وشائج تاريخية ودينية تربطهم بالبحر الأحمر. وعندما خضعت فلسطين للسيطرة الصهيونية عام **١٩٤٨** نشأ لدى إسرائيل اهتمام جديد بـ«النقب» التي تطل على خليج العقبة. أما القيمة الإستراتيجية للنقب فينظر إليها على النحو الآتي: إيلات، الميناء الإسرائيلي على خليج العقبة ويقع في الجزء الجنوبي من النقب، وهو السبب في دفع القيادة الإسرائيلية إلى بذل جهود كبيرة لاستيطان النقب على رغم ظروفها الجغرافية، وذلك للوصول إلى المزيد من التوسع في البحر الأحمر.

إن الشاغل الأكبر لإسرائيل يتمثل في التغير الإقليمي الذي كان يتم في البحر الأحمر، ولا سيما في القرن الإفريقي المطل على جزء مهم منه. ثم أصبح القرن الإفريقي عاملاً في الإستراتيجيات العربية والإسرائيلية في البحر الأحمر. وأدت العوامل السياسية والاقتصادية والعقائدية إلى تصعيد التنافس ليكسب أبعاداً متعددة في منطقة القرن. لقد ظلت سياسة إسرائيل في القرن الإفريقي امتداداً لسياستها في البحر الأحمر لإنشاء عمق إستراتيجي خاص بها في المنطقة لغرض أمنها وقدرتها على التوسع. وعليه فقد باشرت جهوداً مكثفة لتعزيز علاقاتها مع الدول الإفريقية لهدف مصالحها في القرن الإفريقي لتأمين وصولها إلى آسيا وأفريقيا عن طريق البحر الأحمر. وفي سبيل إنشاء علاقات مع الدول الأفريقية، وبخاصة في شرق أفريقيا فقد عرضت إسرائيل تقديم مساعدات فنية في مجالات الزراعة والتنمية الاقتصادية لهما.

ولإسرائيل تاريخ في الهيمنة والتوسع، فمنذ قيامها مَدَّت نطاق توسعها وهيمنتها في الأراضي العربية ولا يستثنى من هذا البحر الأحمر. ويرتبط هذا بالعقيدة الصهيونية التوسعية التي تدعو انطلاقاً من مقولات تاريخية ودينية إلى إقامة إسرائيل الكبرى الممتدة من النيل إلى الفرات. وحتى الآن لم تتغير التصورات الإسرائيلية ولم تتأثر بالتغيرات في العالم من حولهم. إنها لا تزال السياسة الإسرائيلية القديمة المألوفة التي برزت لتقول: «لنحارب العرب ولنضم أراضيهم». فبات يتعين أن يخرج تصور إسرائيلي ويتطور ليسمح لإسرائيل بأن تتجنب صراعاً مسلّحاً محتملاً في البحر الأحمر، وأن تستجيب بصورة إيجابية للمدركات العربية والدولية للسلام(١).

إن الدور الوظيفي لـ«باب المندب» هو الدور الذي يلعبه ذلك الموقع الإستراتيجي الهام لصالح إسرائيل في حالة التحكم فيه أو التأثير عليه. وبالنسبة لإسرائيل يتجسد في تقرير أمنها، وتهديد الأمن القومي العربي. ولقد أدت التطورات حول البحر الأحمر وباب المندب إلى اضمحلال المخاطر التي تهدد المصالح الإسرائيلية حيث إن «اتفاقية كامب ديڤيد، والثورة الإيرانية، وغزو أفغانستان، وحرب لبنان، وحرب الخليج» كل ذلك وضع البحر الأحمر في مكانة ثانوية بالنسبة لمناطق الصراع المشتعلة. وقد مكن هذا إسرائيل من العمل في هدوء لتثبيت أقدامها في شرق أفريقيا، والعودة إلى التسلل إلى أفريقيا مثال ذلك: «تهجير الفلاشا أو إيفاد الخبراء وبيع السلاح».

ويلاحظ أن تكثيف النشاط الإسرائيلي في عمق البحر الأحمر باتجاه الجنوب يستند إلى مجموعة من المزاعم ليتحقق لها عدة مآرب. أهمها أن العبرانيين القدامى كان لهم قديم صلة بالبحر الأحمر، وأنه ليس بحيرة عربية وإنما هو بحر مشترك يضم عدة قوميات لنفي الطابع العربي عنه. ويزعم الإسرائيليون، شأنهم في ذلك شأن دعاويهم التاريخية في فلسطين والمناطق المحيطة بها. يزعمون أن لهم صلة قديمة بالبحر الأحمر وأن مُلك

(١) المرجع السابق ص٢٨ ـ ٣١، ٢٤٢، ٢٦٠.

سليمان عليه السلام قد اتسع حتى شمل البحر الأحمر فتزوج من بلقيس ملكة سبأ، وأن أسرة هيلاسلاسي في الحبشة من سبط يهوذا. وكذلك إصرارهم على التسميات العبرية القديمة مثل تحدثهم عن خليج إيلات «العقبة»، وخليج سليمان «السويس». وصفوة القول: إن إستراتيجية إسرائيل البحر أحمرية في باب المندب تقوم على نفس النسق الصهيوني والعبري القديم وافترائهم، فإن موسى عليه السلام قد عبر البحر الأحمر من الغرب إلى الشرق في الخروج الكبير. وعليه، فإن إسرائيل المعاصرة تزمع أن تعبر البحر الأحمر بالطول، وهذه المرة من الشمال إلى الجنوب نحو خروج أكبر. وهو مستقبلها لتحقيق اندماج أو سيطرة أفضل على المشرق العربي، ومن هنا يتزايد دورها باطراد في صراعات المنطقة(١).

ويكمن دور إسرائيل في الصراع الإقليمي في باب المندب بسبب رغبتها في السيادة والسيطرة الإقليمية أو بفعل الانتماءات العبر قومية، والتي تعبر الحدود القومية الراهنة لدول المنطقة، كالارتباطات السلالية أو القبلية أو الدينية. وتعد من عناصر النزاعات الناشئة على حدود كل من أثيوبيا والصومال وأرتيريا والسودان وكينيا وجيبوتي. فهذه خمسة صراعات إقليمية تعتمل بها منطقة القرن الأفريقي.

إن العلاقة بين باب المندب وبين إستراتيجية إسرائيل باعتبارها تعبيراً عن الخطة العليا للمشروع الصهيوني بخصائصها التوسعية. بالإضافة إلى طبيعة الدور الذي تحاول إسرائيل أن تلعبه في إطار الوضع الدولي المتغير. وبخاصة إلى نقطة الخنق الإستراتيجي ضد إسرائيل في مضيق تيران في الشمال قد انزلقت جنوباً إلى باب المندب، وتتلخص في:

١ ـ عقد الخوف من الأماكن المغلقة عقدة «الكلوستروفوبيا»، وهي ترتبط تاريخياً بواقع (الجيتو) ثم المشروع الاستيطاني الصهيوني. وأصبحت هذه العقدة هي جوهر نظرية الأمن الإسرائيلي، والمحرك الرئيسي في سياسة

(١) باب المندب في الإستراتيجية الإسرائيلية، د. سيد عليوة ص٧ ـ ٩، ٢٠.

العدوان والتوسع. وتنصب هذه العقدة على باب المندب والبحر الأحمر الذي يكاد يكون بحيرة عربية مغلقة في وجه الملاحة الإسرائيلية إذا ما سيطر العرب على مدخله الجنوبي في باب المندب ومخرجه الشمالي في السويس.

٢ ـ تبني نمط سرطاني من الاعتماد على النفس، وهي في ذلك تنسجم مع خطها العام في النشأة والنمو المتناقض. فالبحر الأحمر سوف يُمَكِّن إسرائيل من الاقتراب من منابع النفط وطرق نقله عبر باب المندب في المحيط الهندي، أي: التداخل والتسلل على تعديل إستراتيجيتها البحرية من أسطول لحماية سواحل إسرائيل فقط إلى أسطول بعيد المدى قادر على العمل بعيداً عن قواعده في بلده.

إن صراعات باب المندب وتدخل إسرائيل فيها سيتيح لها فرصة الاشتباك مع إستراتيجيات عدد أكبر من الأقطار العربية غير المتاخمة لفلسطين. ويعوضها فقدان فرص التوسع الأرضي الإقليمي بفرض الامتداد والحركة خلال مياه البحر الأحمر عبر باب المندب. والذي قد يعوضها عن تعثر توجه التسوية السلمية، وفشل سياسات تطبيع العلاقات مع الدول العربية المجاورة لها[١].

❋ ❋ ❋ ❋

الاستخبارات الإسرائيلية

مع انعقاد المؤتمر الأول للحركة الصهيونية في بازل عام ١٨٩٧ وضع أسس ومخططات هذه الحركة للوصول إلى أهدافها. فأنشئت على الأثر «المنظمة الصهيونية العالمية»، كما أنشئت «شركة يهودية للأراضي» تطورت فيما بعد إلى شكل «الوكالة اليهودية». وعبر متطلبات كل مرحلة من تطور

(١) المرجع السابق ص٢٤، ٣٣ ـ ٣٨.

الحركة الصهيونية لتنفيذ مخططاتها. لجأت هذه الحركة إلى تدعيم نفوذها عبر أجهزة اقتصادية وأخرى استخبارية يرافقها نشاط سياسي مستمر لدعم تحالفاتها مع القوى الاستعمارية. فأوجدت عدة تشكيلات سرية للاستقصاء، وقد أصبح هذا الاتجاه سمة الطبيعة التآمرية للفكر الصهيوني المكتسب من التراث الإسرائيلي، والذي تمثل في إحدى مراحله ببروتوكولات حكماء صهيون، وهذه الطبيعة تتلخص في:

المراحل الأولى، ارتكز المخطط الصهيوني في تقديم العون على القوات البريطانية للتمهيد لغزو الحلفاء لفلسطين وإسقاط الإمبراطورية العثمانية. ومع بداية العام **١٩٠٧** اكتشفت السلطات العثمانية في فلسطين منظمة سرية تدعى «منظمة بيلو»، وتبين لها أن هذه المنظمة ما هي إلا شبكة تجسس تضم مجموعة من اليهود المهاجرين إلى فلسطين من أوروبا الشرقية، وتستهدف تزويد بريطانيا بالمعلومات السرية عن الأوضاع العسكرية والعامة للسلطات التركية، بالإضافة إلى النشاط الوطني الفلسطيني.

أما المحاولة الثانية لإنشاء جهاز استخباري، فتتمثل في قيام «منظمة نيلي» وتتألف من الأحرف الأولى لعبارة من العهد القديم تعريبها «فصيح إسرائيل لا يكذب». وهذه المنظمة أنشئت عام **١٩١٤** بجوار منطقة «عتليت» على الشاطئ الفلسطيني. ومع بداية عام **١٩١٥** وتقدم القوات التركية التي وصلت إلى الضفة الشرقية لقناة السويس. بدأ البريطانيون المرابطون على الضفة الغربية من القناة يبذلون جهودهم لإقامة شبكة تجسس خلف خطوط القوات التركية. ومع تولي الجنرال «اللّنبي» قيادة القوات البريطانية استعداداً لغزو القوات التركية في فلسطين كانت «نيلي» تزودهم باستمرار بالمعلومات عن الجيش التركي. وقد استطاع أحد رجال «نيلي» الحصول على خارطة لمواقع الأتراك وقواتهم في غزة وبئر سبع. وكانت هذه الخرائط من الأسباب الرئيسية التي جعلت النصر في جانب الجيوش البريطانية في جنوب فلسطين.

ومع إنشاء الوكالة اليهودية عام **١٩٢٠** لتطعيم الهجرة إلى فلسطين، ألحق بالوكالة قسم سري خاص أسندت إليه مهمة تكوين شبكات للتجسس

تمتد فروعها إلى البلدان العربية وأوروبا والولايات المتحدة، وعرف هذا القسم باسم «المكتب السياسي». واستطاع هذا الجهاز أن يجنّد أعداداً كبيرة من الشبان والفتيات اليهود في كافة أنحاء أوروبا والدول العربية بغية الحصول على معلومات عسكرية عن القوات الألمانية والتركية. كما كلف عدد من أفراده بجمع المعلومات عن أوضاع الفلسطينيين واستعداداتهم، ومحاولة استخدام هذه المعلومات في خلق المنازعات والانشقاقات داخل صفوفهم. وفي عام **١٩٢٩** استطاع هذا الجهاز الحصول على وثيقة سرية كانت قيادة الشرطة البريطانية في القدس قد أعدّتها وتحتوي على قائمة سوداء بأسماء الزعماء الفلسطينيين الذين سوف تعتقلهم لأنهم يهددون الأمن، واستطاع استغلال هذه الوثيقة استغلالاً باهراً.

وفي عام **١٩٣٧** ومع تطور عمل «المكتب السياسي»، تمّ إنشاء جهاز استخبارات متخصص يدعى «الشين يود» ويرمز باسم «الشاي». وحددت مهامه بضرورة إعداد دراسات مستسقاة من المعلومات السرية عن الأوضاع السياسية والاقتصادية للفلسطينيين، والحصول على كافة المعلومات عن نشاز الحركات والمنظمات الثورية بفلسطين. وامتدت شبكات «الشاي» لتشمل البلدان العربية والأجنبية، مستترة وراء نشاطات متعددة: أندية رياضية، ومنظمات عالمية، وجمعيات خيرية. وكانت تجمع المعلومات السياسية في المجال الداخلي والدولي، بالإضافة إلى القسم العسكري. وامتد نشاطات «الشاي» في تلك الفترة لتجسس على اليهود أنفسهم.

وفي عام **١٩٤٢** عقدت القيادة البريطانية اتفاقية مع «الهاجاناة» تضمنت بنودها الاتفاق على تشكيل شبكة داخل فلسطين لكشف العناصر العربية المؤيدة للألمان. والإفادة من اليهود المقيمين في الدول العربية في إنشاء شبكة تجسس يهودية موحدة في الشرق الأوسط تعمل لصالح الحلفاء. وقد عملت إحدى هذه الشبكات تحت غطاء العلم والتدريس، فأنشأت مدارس الاتحاد الإسرائيلي العام «أليانس» التي كانت في ظاهرها مؤسسة تربوية. إلا أنها تقوم بتدريس التجسس، وقد امتدت إلى «**١٢٩**» مدرسة في أحد عشر قطراً. ومع انتهاء الحرب العالمية الثانية كانت نواة الجهاز قد تشكلت،

واستطاعت تحقيق نجاحات متعددة عبر المنظمات التي تفرعت عنها في أوروبا. وبالتحديد منظمة «لعلياه بت»، أي: الهجرة الثانية، التي تولت مهمة إعداد كافة أساليب الضغط لهجرة اليهود الأوروبيين إلى فلسطين، وتهيئة وسائل تهريبهم. بالإضافة إلى مهمة الحصول على السلاح والإشراف على إيصاله إلى فلسطين.

وفي مرحلة الإعداد لحرب «١٩٤٨» نشطت أجهزة الاستخبارات التابعة للمنظمات الصهيونية في فلسطين. وأنشئت منظمة «الأرغون زفاي ليومي»، أي: الفرقة السوداء، والتي نشطت في إقامة شبكة واسعة من اليهود المقيمين في الدول العربية للحصول على المعلومات. كما قامت بتنفيذ عمليات التخريب والإرهاب في القرى الفلسطينية. بينما استمر نشاط جهاز الاستخبارات «الشين يود» بخوض الحرب النفسية ضد العرب، وتدريب المهاجرين الجدد على صناعة المتفجرات والقيام بعمليات الإرهاب، والوقيعة بين الزعماء الفلسطينيين، والتشكيك في القيادات العسكرية، وشراء بعض النفوس الضعيفة[١].

واستمر تعدد دوائر الاستخبارات الإسرائيلية وعدم استقرارها إلى عام **١٩٥٣**، حيث صدر تنظيم يقضي بتشكيله، وعلاقاته بالمؤسسات، وطبيعة المهام المسندة إليه، والدور الذي يلعبه في اتخاذ القرارات المصيرية. وأن يعتبر سلطة فوقية تهيمن على تشكيل مؤسسات الكيان الصهيوني، وتتكون من:

❑ أولاً: جهاز المؤسسة المركزية للاستخبارات والأمن «الموساد»:

وقد تطور ليتولى مهمة الجهاز الرئيسي لدوائر الاستخبارات، وحددت له مهمات رئيسية أهمها: إدارة التجسس في كافة الأقطار للحصول على المعلومات، واستخلاص كافة المعلومات التي ترد في الصحف والدراسات الأكاديمية والإستراتيجية في أنحاء العالم، ووضع تقييم للموقف السياسي

(١) الاستخبارات الإسرائيلية، نزار عمار ص٥ ـ ١٩.

والاقتصادي للدول العربية. وقد ألحق به مدرسة لتدريب العملاء على قواعد العمل السري والأعمال التخريبية. ويضم الجهاز خبراء في شؤون التجسس، ومستشارين في الشؤون السياسية والاقتصادية. وتتفرع من قيادة الجهاز دوائر للشؤون العربية والدولية موزعة حسب التقسيم الجغرافي للدول.

❑ ثانياً: جهاز الاستخبارات العسكرية «الآمان»:

يتكون من جهاز الاستخبارات في البرية والجوية والبحرية، وجهاز مكافحة التجسس، ويعتبر جهاز الاستخبارات العسكرية هو السلاح الرابع في القوات الإسرائيلية. أما المهام المسندة له فهي: التقييم حول استعداد دول المواجهة واحتمالات الهجوم، الحصول على المعلومات السرية عن القوات المسلحة في الدول العربية لمعرفة النوايا المحتملة، الحصول على المعلومات الخاصة بالثورة الفلسطينية ونشاطها السياسي والعسكري، والقيام بالعمليات الخاصة وراء الخطوط. وإعداد الدراسات العسكرية والإستراتيجية حول موازين القوى، والإشراف على صفقات التسليح، وإجراء البحوث العلمية العسكرية.

❑ ثالثاً: دائرة البحوث السياسية:

وهي ترتبط بوزارة الخارجية، وتقوم بنشاط تجسس واسع النطاق داخل الكيان الصهيوني. حيث تسعى لتجنيد الدبلوماسيين الأجانب في إسرائيل، ومراسلي الصحف والبعثات الأجنبية. ويمتد نشاطها إلى كافة أقطار العالم، حيث توجه كافة البعثات الدبلوماسية لسفاراتها في العالم للحصول على معلومات سرية عبر مندوبين لها في الهيئات الدولية، وعبر علاقات بالقوى السياسية في العالم.

❑ رابعاً: مصلحة الأمن العام «شين بيت»:

تتبع هذه المصلحة لوزارة الشرطة، وتسند إليها واجبات الأمن الداخلي أو المباحث السياسية، ومن مهماتها الأساسية: جمع المعلومات عن

النشاطات المعادية للسلطات الإسرائيلية في الداخل، ونشاط المواطنين الفلسطينيين والخلايا السرية للثورة الفلسطينية. كما يدخل في نطاق مهماتها كشف الشبكات المضادة التابعة للدول العربية، ومراقبة المهاجرين اليهود الجدد.

❑ خامساً: مصلحة «يهود الاغتراب»:

وتتبع مصلحة الهجرة، ولها ارتباط وثيق بفروع المنظمة الصهيونية العالمية. ومهمة هذه المصلحة تقديم دراسات عن أوضاع اليهود في مختلف أنحاء العالم، وتجنيد المصلحة لتقديم دراسات عن أوضاع اليهود التي يقيمون فيها وإنشاء شبكات لدفع لجاليات اليهودية نحو الهجرة[1].

❋ ❋ ❋ ❋

الموساد

جهاز المخابرات الإسرائيلية السري، وتناول معظم الذين كتبوا عن هذا الموضوع زوايا متعددة في هذا الجهاز منها:

١ ـ أن اليهود يفهمون ويتقنون «فن الاستخبارات» منذ نعومة أظفارهم، وبذلك فإن كل يهودي «جاسوس» منذ ولادته. وهؤلاء بالغوا في أطروحاتهم وكأنهم أرادوا من حيث يدرون أو لا يدرون، أن يصلوا إلى أن اليهود أيضاً «شعب الله المختار في الاستخبارات».

٢ ـ البعض فرض أن المؤتمر الصهيوني الأول في «بازل» بسويسرا عام ١٨٩٧ درس كل كبيرة وصغيرة، ومن خلال دراساته ومناقشاته أصدر قرارات وتوصيات وتعيينات «كهيكل وشكل وقادة وخطة عمل الاستخبارات» وهؤلاء أيضاً قد ابتعدوا عن الحقيقة.

---

(١) المرجع السابق ص٢١ ـ ٣١.

٣ ـ وآخرون استمدوا من التوراة والتلمود قصصاً للإيحاء بأن الاستخبارات الإسرائيلية والموساد قد نشأت في عهد موسى عليه السلام، وهو يقطع سيناء إلى فلسطين عندما أرسل اثني عشر يهودياً للاستطلاع. وبعدها أرسل اثنين إلى أريحا لجلب المعلومات عن الفلسطينيين ويمضي بعض من كتب انطلاقاً من هذه الزاوية بـ«التخيل» بنصوص توراتية وتلمودية، وهو مشكوك به ويحاول بعض غلاة الإسرائيليين الإيحاء بذلك ليقنعوا أنفسهم أولاً، وليظهروا أمام العالم بأنهم يتواصلون مع تاريخ عريق.

٤ ـ والبعض يحاول أن يرجع في تاريخ الإسرائيليين إلى شبكات وهمية، ركبت موجة الثورة الروسية، واخترقت المحور والحلفاء في الحرب العالمية الأولى والثانية. وأنه كان وراء تلك الشبكات عقلية مركزية استخبارية، وهؤلاء يحاولون إيجاد أي يهود في هذا الزمن وذلك ليدعموا فرضياتهم.

٥ ـ ويمضي البعض في أن اليهودية البولندية كانت ذات خبرة كبيرة في أعمال الجاسوسية. وهي أول من دفع أفرادها إلى الهجرة إلى فلسطين، وقاموا بتنظيم الأسس التي ارتكز عليها فيما بعد جهاز «الموساد» حتى قبل قيام دولة إسرائيل[١].

ومع كل وجهات النظر السابقة نشعر أن رائحة المبالغة والتخويف تفوح منها. كما أننا من جهة أخرى لسنا مع الاستهانة بالعدو وازدراء إمكاناته. فالمهمة أو المهمات الإستراتيجية الكبرى التي يعمل الموساد على تحقيقها والتي يضع لها خططاً في مجال جمع المعلومات أو في مجال التحليلات، وإجراء التقديرات حول المستقبل. ففي المجال السياسي: هل يحتفظ العرب ومدى استمرار احتفاظهم بنية القضاء على الوجود الإسرائيلي؟ ومدى توريثهم هذه النية لأبنائهم؟

أما في المجال الفلسطيني فقد وضع الموساد نصب عينه اغتيال

(١) الوجه الحقيقي للموساد، د. وجيه الحاج وأنور خلف ص١١ ـ ١٢.

القيادات والكوادر الفلسطينية، ونجح في اغتيال عدد منهم مثل: غسان كنفاني عضو الجبهة الشعبية، ووائل زعيتر ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في روما، ود. محمود الهمشيري ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في فرنسا، وحسين أبو الخير ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في قبرص، ود. باسل الكبيسي عضو في الجبهة الشعبية، وحسين البشر عضو منظمة التحرير الفلسطينية، ود. كمال ناصر عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، وكمال عدوان عضو اللجنة المركزية لحركة فتح، ومحمد النجار عضو اللجنة المركزية لحركة فتح، ومحمود أبو ديّة عضو في حركة فتح، ومحمود ولد صالح أحد المسؤولين في منظمة التحرير الفلسطينية، ود. عز الدين القلق ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في فرنسا، ومساعده عدنان حماد، وعلي سلامة عضو المجلس الثوري لحركة فتح، وزهير محسن رئيس منظمة التحرير، وإبراهيم عبدالعزيز أحد المسؤولين في حركة فتح، وسمير طوقان عضو مكتب منظمة التحرير في قبرص، ويوسف مبارك صاحب المكتبة العربية في باريس، ود. نعيم خضر مدير مكتب منظمة التحرير في بلجيكا، وماجد أبو شرار عضو اللجنة المركزية في حركة فتح، ومحمد طه ضابط أمن في حركة فتح، وكمال حسن نائب مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في روما، وفضل الضاني نائب مدير مكتب منظمة التحرير في باريس، ومأمون مريش عضو في حركة فتح، وإسماعيل درويش عضو في حركة فتح، وخالد نزال عضو الجبهة الديمقراطية، ومنذر أبو غزالة قائد القوات البحرية لحركة فتح. وهذه الاغتيالات قام بها الموساد حتى عام ١٩٨٦.

لقد سعى «بن غوريون» منذ أن أنشأ «الموساد» أن يكون من أهم الأسلحة وأشدها فتكاً لتطبيق السياسة الإستراتيجية للكيان الصهيوني، وجعلها مؤسسة دولية ذات مهام إستراتيجية تراقب الأعداء والأصدقاء. ولهذا استعانت واعتمدت على الطوائف اليهودية في مختلف أنحاء العالم. ولذلك فقد أصبحت تعتبر المخطط الأساسي لمعالم السياسة الإسرائيلية، بالإضافة إلى كشف أسرار العالم العربي معتمدة على الجاسوس البشري والذي يعتبر

قاعدة «الموساد» الأصلية. ومن خلال انتشاره في أماكن متعددة، فإنها تساهم في «زيادة العمق الإستراتيجي لإسرائيل».

لقد واجهت «الموساد» سلّة مليئة بالأفاعي فيها من الذيول أكثر مما فيها من الرؤوس، وحتى عندما كان يحالفها الحظ وتمسك بأحد هذه الرؤوس، فإنها سرعان ما تكتشف أنه لا يخص الذيل الذي كانت تراقبه. وللتمويه وللتغطية على فشلها تصنع التبريرات وتخترع القصص، وكما يقول «هاركابي»: لا يمكن أن توجد استخبارات جيدة في مجتمع من الحمقى. إن إسرائيل مجتمع يميل إلى الهستيريا، فانتصاراتها تستقبل بابتهاج وهزائمها باكتئاب. إن الإسرائيليين شعب عملته المتداولة المبالغة، فهم إما يقومون بتقدير قدرات أعدائهم بشكل مفرط، وإما يستخفون بها بشكل مفرط، وإن «الموساد» قد تأثرت بهذا الجو الهستيري واليائس[١].

فمنذ إنشاء دولة إسرائيل وقيام «الموساد» اعتبرته مجلة «تايم» واحدة من أفضل أربع وكالات للاستخبارات في العالم. واضعة إياه في مصاف: الاستخبارات الروسية «ك.ج.ب»، والاستخبارات الأمريكية «سي. آي. إيه»، والاستخبارات البريطانية «دي ١٦»، وهي استخبارات تفوق الاستخبارات الإسرائيلية من ناحية العدد والمال، وقد عرف «الموساد» في فترة حياته القصيرة انتصارات وانكسارات إلا أن معظم مهماته تدور حول أعمال الاستخبارات الأصلية. ويقوم «الموساد» بتجنيد أعضائه من بين الأشخاص الذين تحركهم دوافع وطنية، وهو يتفادى تحويل الأشخاص الذين يعملون فيه إلى أبطال، ذلك أن غاية «الموساد» هو توفير الحماية لدولة إسرائيل[٢].

لقد قام جهاز «الموساد» خلال سنوات وجوده بإقامة عدد من العلاقات الوثيقة بشخصيات كبيرة مسؤولة وموظفين حكوميين في عدد من البلاد ذات الأهمية بالنسبة لإسرائيل. ففي الجاليات اليهودية في معظم بلاد العالم،

(١) المرجع السابق ص٤٥٥ ـ ٤٦٧.
(٢) الموساد جهاز المخابرات الإسرائيلية السري، د. إيزنبرغ، لاندو، دان ص٥ ـ ٨.

هناك صهيونيون وعاطفون على الصهيونية يقدمون مساندة قوية لأعمال المخابرات الإسرائيلية. وتغذى هذه الصلات لتستمر وتستخدم كقنوات لانسياب المعلومات، والمواد المضللة، والدعاية، وأهداف أخرى. وتوجه «الموساد» عملياتها السرية في جميع أنحاء العالم، من خلال المؤسسات الإسرائيلية الرسمية وشبه الرسمية (مؤسسات وهيئات لتغطية العملاء بشكل قوي وعميق)، وعادة ما يكلف العملاء المتواجدون تحت غطاء غير قانوني بالتسلل إلى الأهداف التي يتطلب الاقتراب منها وقتاً طويلاً ودهاءً واسعاً. أو يقومون بأنواع من النشاط الذي لا يمكن أن تلام عليه الحكومة الإسرائيلية رسمياً بأي حال.

لقد جاء عديد من الإسرائيليين كمهاجرين من اليهود من دول عربية، ويبدو عليهم أنهم عرب أكثر من كونهم إسرائيليين: في حديثهم وتصرفاتهم. فإذا ما زوّدوا بجوازات سفر عربية أو غربية، فإن «الموساد» ينجح في إرسالهم كعملاء إلى الدول العربية كعرب أو كمواطنين من دول أوروبية. وتعتمد المخابرات الإسرائيلية على الجاليات والمنظمات اليهودية في الخارج لتجنيد العملاء والجواسيس، والتي تعتبر أن كل اليهود ينتمون لإسرائيل وأنهم يجب أن يعودوا إليها، إن برنامج إسرائيل للإسراع في خطة التنمية التقنية والعلمية والعسكرية، قد دفعه إلى استغلال برامج التبادل العلمي إلى أقصى حدود الاستغلال، وتلعب «الموساد» لأن تقوم من خلال عملائها عمليات التبادل الدولية الكبرى في كل المجالات، ويتحرك عملاؤها تحت الغطاء الدبلوماسي والغطاء الصحفي.

ويختلف تجنيد العملاء وتدريبهم وتوجيههم باختلاف الهدف، وغالباً ما يختار الإسرائيليون عملاءهم من بين اليهود أو الذين هم من أصل يهودي. ومع هذا، كانت هناك مخاطر شديدة في حالات الولاء المزدوج لدولة إسرائيل وللوطن. والإسرائيليون مستعدون للاعتماد على كل أنواع الأساليب لكسب العملاء، ويبذلون الكثير للوصول إلى مَن لهم ميول يهودية عنصرية، وإلى المؤيدين للصهيونية، وهم يستخدمون حتى أساليب الابتزاز، وإن كانوا يستخدمون أساليب أخرى للتجنيد مثل: تقديم النقود، وفرص

القيام بأعمال تجارية، أو إطلاق السراح من السجن. والطريقة المثلى لاجتذاب العرب هي النقود، وإن كانت هناك طرق أخرى قد نجحت مع العرب وأدت إلى سقوطهم مثل: الغيرة، والتنافس، والخوف، والخلافات السياسية. ويخص الإسرائيليون مسألة العلاقات الشخصية مع عملائهم باهتمام كبير، وهم معروفون بكرمهم الزائد في تقديم الامتيازات الشخصية والمساعدة المالية حتى يرضى العميل. وللموساد علاقات مع عدة أجهزة أمن ومخابرات في جميع أنحاء العالم. ولقد بذل الإسرائيليون طوال السنين الماضية جهوداً لكسر الطوق العربي الذي يحيط بإسرائيل، بالاشتراك مع دول مسلمة غير عربية في الشرق الأدنى[1].

❋ ❋ ❋ ❋

زوال دولة بني إسرائيل

يطمح البشر إلى معرفة المستقبل، وقد شاء الله تعالى أن يطلع عباده على بعض الغيب لحكمة يريدها. فكانت النبوءات يأتي بها الأنبياء والرسل فتكون دليلاً على صدق النبوة والرسالة، وتكون دليلاً على أن علم الله كامل. ولما شاء الله أن يختم الرسالات، وشاء أن يرفع صفات النبوة، أبقى الرؤية الصادقة. ليعلم الناس ما عجزوا عن تصوره ألا وهو علم الله تعالى بالأشياء قبل وجودها، فيدرك الإنسان أن عجزه عن تصور الأشياء لا ينفي وجودها، والأمثلة في القرآن والسُّنَّة كثيرة. إن البعض يرى النبوءات تورث التواكل والتقاعس، وهذا الرأي قد يجد مصداقية على صعيد الجدل العقلي البعيد عن محاكمة الواقع. أما على الصعيد العلمي والواقعي، فإن للنبوءات الأثر البالغ في رفع الهمم، واجتثاث اليأس من القلوب، ودفع الناس للعمل. وتاريخ الصحابة أصدق شاهد على ذلك، فهل تقاعس الصحابة عن فتح بلاد فارس وقد أخبرهم رسول الله ﷺ بحصول ذلك؟ ليس بإمكان

(١) المخابرات الإسرائيلية، ترجمة مجدي نصيف ص٥٩ ـ ٧٠.

المسلم أن يترك واجباً، والمسلم يطلب رضى الله بالدرجة الأولى وأما النتائج فيرجوها ولا يجعلها غاية في سعيه.

عشرة آلاف من المشركين يحاصرون المدينة المنورة، حتى بلغت القلوب الحناجر، وحتى ظنّ الصحابة بالله الظنون، في مثل هذا الجو جاءت البشرى: «الله أكبر مفاتيح كسرى، الله أكبر مفاتيح قيصر. فلا يصح أن يترك الناس يصلون مرحلة اليأس المطبق. يجب أن يتحرك الإنسان بين قطبَيْ الخوف والرجاء فلا هو باليأس، ولا هو بالأمن. قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩]. واليوم وقد أحاط اليأس بالناس حتى رفعوا شعاراً يقولون: «ما البديل؟». في مثل هذا يجب أن تفتح للناس أبواب الأمل، مع التنبيه التام حتى لا ننزلق فنصبح من أهل الشعوذة والكهانة. فالإسلام حرب على كل ضروب العرافة والكهانة والشعوذة[1].

لقد تضمنت محاضرة الكاتب العراقي محمد أحمد الراشد عن النظام العالمي الجديد، أنه عندما أعلن عن قيام دولة إسرائيل عام **١٩٤٨**. دخلت عجوز يهودية على أم محمد الراشد وهي تبكي، فلما سألتها عن سبب بكائها وقد فرح اليهود، قالت: إن قيام هذه الدولة سيكون سبباً في ذبح اليهود. فالعجوز قد سمعت من الحاخامات الذين لديهم بقية من الوحي مختلطة ببقية من أوهام البشر وأساطيرهم، ويذكر الأستاذ بسام الجرار في بحث كتبه تحت عنوان: زوال إسرائيل، أنه وفقاً لهذه المقولة ـ أي: مقولة المرأة ـ حاول أن يستنبط من القرآن ما يدل على ذلك فذكر ما يلي:

١ ـ تدوم إسرائيل وفق النبوءة الغامضة «**٧٦**» سنة، أي: «**١٩×٤** = **٧٦**» سنة هي سنين قمرية. لأن اليهود يتعاملون بالشهر القمري، ويضيفون كل ثلاث سنوات للتوافق بين السنة القمرية والشمسية. عام **١٩٤٨**م هي

(١) زوال إسرائيل، بسام نهاد جرار ص١١ ـ ١٤.

١٣٦٧هـ، على ضوء ذلك إذا صحّت النبوءة فإن إسرائيل ستدوم «١٣٦٧ + ٧٦ = ١٤٤٣هـ».

٢ ـ سورة الإسراء تسمى أيضاً سورة بني إسرائيل وهي تتحدث في مطلعها عن نبوءة أنزلها الله على موسى عليه السلام في التوراة. وهي تنص على أن إفسادتين لبني إسرائيل في الأرض المباركة على صورة مجتمعية، أو ما يسمى اليوم صورة دولة، ويكون ذلك عن علو واستكبار يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإسراء: ٢ ـ ٧]. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا ...﴾، ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ ...﴾، أما الأولى: فقد مضت قبل الإسلام، وأما الثانية والأخيرة: فإن المعطيات تقول: إنها الدولة التي قامت في فلسطين عام ١٩٤٨. والملاحظ إن وعد الآخرة لم يرد في القرآن إلا مرتين، الأولى في بداية الكلام عن النبوءة: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلى آخر كلام في النبوءة: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾، فسوف نجد أن عدد الكلمات هو «١٤٤٣» كلمة وهو يطابق الرقم الذي خلصنا إليه في البند رقم (١).

٣ ـ يذهب ابن حزم الظاهري إلى أن العلماء قد أجمعوا على أن الإسراء كان قبل الهجرة بسنة، أي: عام ٦٢١م. وعلى ضوء ذلك إذا صحت النبوءة فكانت نهاية إسرائيل عام ١٤٤٣، فإن عدد السنين القمرية من وقت نزول النبوءة إلى زوال إسرائيل هو ١٤٤٤هـ؛ لأن الإسراء قبل الهجرة بسنة، وهذا الرقم هو ١٩ × ٧٦ لاحظ أن ٧٦ عدد السنين القمرية لعمر إسرائيل، أي: المدة الزمنية من نزول النبوءة إلى زوال إسرائيل هي «١٩» ضعف لعمر إسرائيل.

٤ ـ عندما تدور الأرض حول الشمس دورة واحدة، تكون قد دارت حول نفسها «٣٦٥» مرة، وكلمة (شهر) مفردة وردت «١٢» مرة. وبقي أن نسأل كم وردت كلمة (سنة) في القرآن الكريم مفردة «٧» مرات ووردت كلمة سنين، أي: جمعاً «١٢» مرة. ولكن حتى يعود القمر والأرض معاً إلى الحيثية نفسها، يحتاج ذلك إلى أن تدور الأرض حول الشمس «١٩» مرة، أي: «١٩» سنة. ومن هنا لا يخلو كتاب من كتب التقاويم من الإشارة إلى الرقم «١٩».

٥ ـ عام ٩٣٥ق.م توفي سليمان عليه السلام، وانقسمت الدولة وبدأ الفساد الأول المذكور في فواتح سورة الإسراء. ونهاية الفساد الثاني والأخير عام ٢٠٢٢م أو ١٤٤٣هـ. وعليه يكون عدد السنين من بداية الفساد الأول إلى الإسراء هو «١٥٥٦» سنة شمسية. ويكون عدد السنين من الإسراء حتى نهاية الفساد الثاني هو ١٤٤٤ سنة قمرية، والملحوظ أن «١٥٥٦» هو عدد كلمات سورة الإسراء.

٦ ـ أعلن اليهود إقامة دولتهم في فلسطين بتاريخ ١٩٤٨/٥/١٥، فبعد هذا الإعلان دخلت الجيوش العربية في حرب مع اليهود، وأعلنت الهدنة الأولى بتاريخ ١٩٤٨/٦/١٠ وهو التاريخ الفعلي لبداية قيام دولة إسرائيل. وبعد أربعة أسابيع ثار القتال وأعلنت الهدنة الثانية بتاريخ ١٩٤٨/٧/١٨، وبذا اكتمل قيام دولة إسرائيل. ويلاحظ أن عدد الأيام من بداية قيام إسرائيل حتى اكتمال قيامها هو «٣٨» يوماً أي: ١٩ × ٢. أن البداية لقيام دولة إسرائيل هي الهدنة الأولى بتاريخ ١٩٤٨/٦/١٠، وتاريخ انتهاء حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧. وبذلك يكون عدد السنين من الهدنة الأولى عام ١٩٤٨ إلى هدنة عام ١٩٦٧ هو «١٩» سنة شمسية، وإذا أضفنا «٧٦» سنة قمرية، فسيكون اكتمالها عام ٢٠٢٢م. فالمدة من بداية الإفساد الأولى إلى نهاية الفساد الثاني = «١٥٥٦ + ١٤٠٠,٤ = ٢٩٥٦,٤ ÷ ١٩ = ١٥٥,٦». العدد «١٩» هو «١٠ + ٩» فلو ضربنا الرقم «١٥٥,٦ × ١٠ = ١٥٥٦» الفترة الأولى، ولو ضربنا «١٥٥,٦ × ٩ = ١٤٠٠,٤» وهو الفترة الثانية. وعليه يكون مجموع الفترتين «١٩» جزءاً، «١٠» منها انقضت قبل

الإسراء، و«٩» ستأتي بعد الإسراء، ووحدة البناء هي «١٥٥,٦» أي: الفرق بين الفترتين.

٧ ـ كل كلمة من كلمات سورة الإسراء «١١١» آية، وأن سورة يوسف هي «١١١» آية، ولا يوجد في القرآن سورة تماثلها في العدد. ونحن نعلم أن سورة يوسف تتحدث عن نشأة بني إسرائيل، وأن سورة الإسراء تتحدث عن آخر وجود لبني إسرائيل في الأرض المباركة. وتنتهي كل آية من آيات سورة الإسراء بكلمة مثل: ﴿وَكِيلًا﴾، ﴿شَكُورًا﴾، ﴿نَفِيرًا﴾ إلخ، أي: أن هناك «١١١» كلمة. وعندما تحذف الكلمات المتكررة نجد أن عدد الكلمات «٧٦» كلمة، أي: «١٩ × ٤»، ولا ننسى أن كل كلمة تقابل سنة، وأن الرقم «٧٦» هو محور حديثنا. عدد الآيات التي عدد كلماتها «١٩» كلمة هي «٤» آيات، أي: أن عدد كلماتها «١٩ × ٤ = ٧٦». وبالرجوع إلى الآية «٧٦» من سورة الإسراء قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ٧٦]. ويأتي بعد كلمة: ﴿قَلِيلًا﴾، رقم الآية العدد «٧٦»، فهل يرمز الرقم إلى عدد السنين. فالنبوءات أحياناً تأتي على صورة رمز يحتاج إلى تأويل كما يحصل في الرؤى الصادقة.

الآية «٧٦» تتحدث عن الإخراج من الديار، وكم يلبث الكفار بعد هذا الإخراج، وما نحن بصدده البحث عن عدد السنين التي تلبثها إسرائيل بعد قيامها وإخراج أهل فلسطين. قد يقول البعض: إن الآية تتحدث عن إخراج الرسول ﷺ وهذا صحيح. ولكن الآية التي تليها هي: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [الإسراء: ٧٧]، فهي إذاً سُنَّة في الماضي والحاضر والمستقبل. فالآيات «٦٤، ٧٦، ١٠٣» الموجودة في سورة الإسراء: أما الآية «٦٤»: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم . . .﴾ وهي «١٩» كلمة وتقابل «١٩» سنة. وأما الثانية: فهي الآية «٧٦» وتشير إلى عدد السنين هي مقدار ما ستلبث إسرائيل. أما الكلمة الثالثة: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾، أي: قلنا لبني إسرائيل بعد غرق

فرعون: اسكنوا الأرض المباركة، وبذلك تمت السكنى ليتحقق وعد الأولى. وبعد زوال الإفساد في الأولى يحصل الشتات، وحتى تتحقق الثانية والتي هي الآخرة: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ فالكلمة الثالثة يستفزهم تتعلق بالكلام عن الإفسادتين، أي: بوعد الآخرة موضوع هذا البحث. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ وقد وجدنا أن عدد الكلمات هو «١٤٤٣»، وبذلك تطابق الرقم مع العام ١٤٤٣هـ، ويكون عندها قد قضى عدد من السنين القمرية مقداره «١٤٤٤» أي: «١٩ × ٧٦».

٨ ـ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ . . .﴾ ترتيب كلمة وليدخلوا «٧٦» وهذا ينسجم مع القول أن عمر دولة إسرائيل الثانية «٧٦» سنة؛ لأن كل كلمة في السورة تقابل سنة.

٩ ـ حساب الجمل عرف عند اليهود وعرف عند العرب، ووظفه المسلمون في تاريخ الأحداث. ولا يوجد حتى الآن ما يثبت أنه اعتمد إسلامياً. ونختم بالآية «١٢» من سورة الإسراء التي تأتي تعقيباً على النبوءة: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢]. واللافت للنظر أن كلمة الحساب هي الكلمة رقم «١٩» في الآية، وأن كل كلمة في السورة تقابل سنة، وبحثنا تعامل مع السنين والحساب وفق العدد «١٩»[1].

هذا ملخص مقتضب لبعض ما ذكره الأستاذ بسام جرار في بحثه «زوال إسرائيل في القرآن الكريم»، هل هو نبوءة أم صدفة رقمية، وهو يقوم على الرقم «١٩» ومضاعفاته. وبالاطلاع على مجلة البحوث الإسلامية، وما أعدته اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بحثاً على ما سمّاه الدكتور رشاد خليفة، المعجزة القرآنية وعلى ما جاء فيها من كتابة المصحف بالرسم الإملائي ينافيها. لقد عني الدكتور رشاد خليفة، بإثبات إعجاز القرآن وحفظه

(١) زوال إسرائيل في القرآن الكريم، بسام جرار، مخيم العودة في مرج الزهور.

من طريق غير تلك الطرق التي عهدها المسلمون من قبل. فلفت نظر المسلمين إلى نواحي إعجاز أخرى لم يكن لهم ولا لمن سبقهم بها عهد ولا علم.

وقد اقتضت حكمة الله تعالى وعدله أن يرسل إلى عباده رسلاً مبشرين ومنذرين ليخرج بهم الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى الصراط المستقيم. ومضت سننه التي لا تتبدل في تأييد رسله بالآيات والمعجزات الباهرات، ليستيقن من أرسل إليهم بصدقه في دعوة الرسالة. ولرسولنا محمد ﷺ كثير من المعجزات الحسية والروحية، إلا أن المعجزة الكبرى التي تحدى بها قومه هي القرآن. ولا تزال الحجة به قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها. ولقد تحدّى نبينا محمد ﷺ قومه بأمر يعرفون طريقه ولهم بجنسه عهد، بل نبغوا فيه:

أولاً: تحداهم بفصاحة القرآن وبلاغته وعلو أسلوبه وأحكامه ودقة تعبيره.

ثانياً: تحداهم بتشريعه الكامل الموافق لمقتضى العقل والفطرة، الهادي البشر إلى سواء السبيل في جوانب الحياة كلها عقيدة، وعبادة، واقتصاداً وسياسة وأدباً وأخلاقاً. ومع بقائه كذلك صالحاً لهداية العالم وإصلاحه في جميع جوانب الحياة إلى يوم القيامة.

ثالثاً: تحداهم بما تضمنه القرآن من الأخبار الغيبية التفصيلية المسهبة، وبوقوف الرسول ﷺ من إخوانه المرسلين السابقين موقف المصدق لهم المبين لتحريف أقوامهم لشرائعهم المعلن لخزاياهم وفضائحهم في خروجهم على أنبيائهم بيان الواثق بنفسه، المؤمن بما أوحي إليه من ربه. وهو أمِّي عاش في أمِّيّة، ومن أمته أهل الكتاب الذين فضحهم بسوء صنيعهم مع رسلهم. ومع ذلك لاذوا بالصمت ولم يردوا عليه ما اتهمهم به تبرئة لأنفسهم.

هذه جوانب الإعجاز القرآني التي عرفها الصحابة وسلفنا الصالح، وهي التي عرفها الكفار وعجزوا أن يأتوا بمثل القرآن من جهتها.

الإعجاز الحسابي الذي ذكره الأستاذ خليفة وجعله حقيقة مادية ملموسة، لا يعدو أن يكون أمراً مبناه التقدير والاعتبار في الأعداد. وذلك مما يختلف فيه الناس، وكثير منه متكلف يلغي فيه صاحبه ما يختل معه حسابه ويعتبر فيه ما ينتظم به حسابه. ليتم ما يريد من الخروج بظاهرة إعجاز جديدة، وآية لم يعرفها الصحابة ولا الأولون الذين تحداهم الله تعالى بالقرآن.

لا ينكر منصف أن يكون في القرآن جوانب أخرى من الإعجاز، وإنما ينكر العاقل الرشيد أن يكون منها ما ذكره الأستاذ خليفة واعتبره إعجازاً حسياً ملموساً من عدد بعض الحروف وبعض الكلمات من بعض سور القرآن وحسابها. وجعل محور حسابها عدد حروف البسملة الـ«١٩» في نظره، أو عدد كلماتها الأربع لما فيه من الفرض والتخمين، والاعتماد على أمر تقديري يزيد وينقص باعتبارات: فيختلف باعتبار النطق عنه باعتبار الخط، ويختلف عند اعتبار الخط بعدِّ الحروف المشدد حرفين أو حرفاً.

إن ما ذكره الدكتور رشاد خليفة في محاضرته وسماها «معجزة محمد الخالدة» لا يصلح أن يكون معجزة تثبت بها الرسالة والصدق في دعوى النبوة، لما فيه من الخطأ والتناقض. ولأنه على فرض سلامته من ذلك فهو في متناول القوى البشرية، لإمكان اكتسابه عن طريق الأسباب العادية، فيستطيع البشر أن يأتوا بمثله فرادى وجماعات. أما المعجزات فسمتها التي تتميز بها عن المخترعات عجز البشر على أن يأتوا بمثلها، لكونها من وراء الأسباب العادية، وعلى هذا لا يصح أن يقال: إن كتابة القرآن حسب قواعد الإملاء ينافي معجزات القرآن الرياضية والحسابية. والله الموفق وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم[1].

❋ ❋ ❋ ❋

(١) مجلة البحوث الإسلامية، العدد التاسع عام ١٤٠٤هـ ص١٢ ـ ٣٩، اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، برئاسة سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله.

بنو إسرائيل في سورة الإسراء

تناول آيات حكم الله ببني إسرائيل الواردة في سورة الإسراء كثير من المفسرين والعلماء بالبحث والشرح والتنقيب. فالآية الرابعة من سورة الإسراء وهي قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ حتى الآية التاسعة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ هذه كلها جاءت لتصور فساد بني إسرائيل وعلوهم في الأرض ودمارهم. وقد كان لهذه الآيات في عصرنا هذا قوة جاذبية لدراستها وفهمها لمعرفة نهاية العصابة اليهودية المغتصبة في أرض فلسطين التي لها الآن ذكر وتفاخر بقدرتها وتسلطها. والآيات تشير إلى قوة الدولة وفسادها وانهيارها. وقد كان للعلماء المسلمين آراء فيها.

أول ما يلفت النظر في آيات بني إسرائيل في سورة الإسراء والمائدة والبقرة وآل عمران وغيرها من السور أن الله تعالى غاضب عليهم بسبب أفعالهم وأقوالهم المنكرة، وإلى فشلهم في إشعال الحرب، فكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، وهذا شرط دائم مستمر. فالله عزَّ وجلَّ فرض عليهم ذلة ومسكنة دائمتين لا انفكاك لبني إسرائيل عنها، وأنهم رجعوا عن دينهم بتجارة خاسرة، وإثم دائم.

وثاني ما يلفت النظر ما نراه في واقع الأرض المحتلة وكبرياء بني إسرائيل وتعاظمهم وقوتهم. وبين الآيات التي تصفهم بالذلة والمسكنة والغضب الإلٰهي والخسران الفرق واضح، فالكلمات ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ [آل عمران: ١١٢]، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢]، تعني: الاستمرار ويظل الغرض جارياً ما استمرت هذه الحياة.

لقد قال فقهاء كثيرون إن القرآن يفسر بعضه بعضاً، فالآيات الواردة في سورة الإسراء تكمل وتفسر ما ورد في سورة البقرة وفي سورة آل عمران وفي غيرها من السور. وبجمع هذه الآيات كلها في وعاء واحد ندرك أن الحلقة التي بين أيدينا متكاملة. فرض الله فرضاً دائماً على بني إسرائيل ذلة

ومسكنة لأنهم كذبوا بعض الأنبياء وقتلوا بعضهم الآخر، ولأنهم عصوا أمر ربهم، وسعوا في الأرض فساداً، والذل قائم إلى قيام الساعة، وليس محصوراً في مكان معين أو زمان معين. والله سبحانه وتعالى استثنى من هذا الاستمرار الدائم ومن هذا الغرض جزءاً من الزمن في بقعة معينة (الأرض المباركة)، إن هذا مشابه لما نسميه الاستثناء في اللغة العربية، فعندما نقول: (قد تهون الأرض إلا موضعاً)، أي: الأرض كلها قد تصبح ليست ذات قيمة إلا مكاناً واحداً منها له قيمة عند صاحبه. وآيات سورة الإسراء وقفة مع الزمن لإعطاء بني إسرائيل فرصة ليعودوا إلى الحق، وهي حكم عليهم بأنهم فشلوا في التجربة.

سنجتلي آيات الإسراء في لغتها ومعانيها، لنعرف صلتها بما يحيط بنا من ظروف القضاء الإلٰهي في هذا الأمر وموقفنا منه. فأنوار هذه الآيات الكريمة الدالة على مفاهيم تبدو لمن يسبر أغوار معانيها ودلالاتها صورة لمستقبل قريب يزهو فيه المسلمون المناضلون بالنصر المبين. ولعل إشارة النبيّ ﷺ إلى قيام معركة حاسمة بين اليهود والمسلمين عبر ضفَّتي النهر، لعل في ذلك إشارة إلى أن النصر قد أصبح وشيكاً. فإرهاصات المقاومة ضد الظلم والبغي والطغيان والاغتصاب تبدو واضحة من خلال الحجارة والانتفاضة المباركة.

كثيراً ما يَلُوح سؤال: هل دولة بني إسرائيل الحاضرة تمثل المرة الأولى أو المرة الثانية أو المرة الثالثة. وهل ستبقى إلى مدى طويل أو مدى قصير وهل ستنجح مساعي السلام في إرجاع بعض حقوق أصحاب الأرض المقدسة من أهل فلسطين أو أنها ستبوء بالفشل. كل ذلك غيب ولكن الآيات الكريمة التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . . .﴾ الآية، وتنتهي بقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾. تعطي إجابات قوية وحاسمة على هذه الأسئلة، وتحل المشكلة المعضلة التي حيّرت المسلمين في هذه الحقبة من التاريخ.

تقول الآيات لبني إسرائيل: إن الله تعالى أعلم بني إسرائيل بما سيحدث في مستقبلهم، وقد تضمن كتاب التوراة هذا العلم. لقد أنبأهم

سبحانه وتعالى أنهم سيفسدون في الأرض مرتين وسيعلون علواً كبيراً. والمقصود بفسادهم كأصحاب دين أن يخرجوا عن دينهم الحق إلى الأباطيل، ومكان فسادهم هو «الأرض»، أي: تلك الأرض التي فيها آمال ووعود، وليست أي أرض. إذاً أرض الإسراء هي أرض فلسطين.

والفساد الإسرائيلي في المرتين كبير، ودليل كبره وتحقق وقوعه استعمال النون المشددة واللام في ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ والتأكيد أتى لإثبات تحقق الوقوع ولإثبات وضوح الفساد وبيانه. فاللام والنون المشددة تتضافران لتعطيا معنى لدراسة القرآن، وأن أمر فسادهم سيكون ظاهراً وكذلك علوهم لقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلُنَّ﴾. وقد بيّنت الآية أن العلو سيفوق ما تصوره بنو إسرائيل، فقالت: ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ولم يخطر ببالهم عند نزول الآيات أن هذا سيحقق على الصورة التي تحققت أول مرة. وبعد دمارهم الأول من قبل «بختنصر» لم يقم لهم في الأرض المباركة دولة، فلم يكن لهم علو ولا مملكة ولم يعد ملكهم إلا في هذه الفترة من التاريخ، أي: في القرن العشرين. فيوجد زمان طويل بين المرة الأولى والمرة الثانية، وقد جاء «للمرة الثانية» في كتاب الله صفات محددة أولها أن المرة الأولى لقيام دولتهم تبعد كثيراً عن المرة الثانية. ولذلك جاء في الآية الكريمة: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ﴾، أي: انقضى زمن طويل قبل أن يعيد سبحانه وتعالى القوة لهم، وكلمة «ثم» تفيد امتداد الزمان.

والصفة الثانية قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾، والإمداد يكون من شيء خارج عنك، فالإمداد من بلد آخر لبلدك. وقد تلقى بنو إسرائيل مدداً من بلاد كثيرة لتقوم دولتهم وتقوى، وتلقت كثيراً من الأبناء من الخارج. وقد صنعوا المدد أنواعاً، فرجال من الغرب، ورجال من الشرق، ورجال من بلاد أخرى. ولم تقم دولة في التاريخ على ما جاءها من المدد كما قامت دولة بني إسرائيل في الأرض المباركة. مما يبين وضوح الآية القرآنية في إخبارها عن الغيب. وذلك ظاهر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، ولم يسجل التاريخ أنه قامت لهم دولة على مَر الأجيال كما حدث في أيامنا هذه.

وآخر الصفات أن المسجد الأقصى يقع بين أيديهم، لأن الآية تشير إلى تخليص هذا المسجد من أيديهم، قال تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وهذه الصفات لم تجمع في كيان لهم إلا الكيان الذي نشهده الآن. ويبدو والله أعلم أن الوعيد بالقضاء على دولتهم لن يكون بعيد المدى، فقد جاء حرف الفاء في أول آية الوعيد، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾، أي: أن الزمن الذي يعمر دولتهم لن يطول، لأن الفاء تفيد سرعة وقوع الفعل، وستساء وجوههم ويدخل عليهم المسلمون المسجد بالقوة كما دخل «بختنصر» بالقوة. كل ذلك بفسادهم وخروجهم عن أمر الله تعالى، وهنيئاً لمن يقاتلهم، فينفذ أمر الله فيهم(١).

لقد كان هناك تعقيب من (المجلة) ملخصه أنه لا تعارض بين ضرب الذلة والمسكنة على بني إسرائيل وبين قوتهم وتكوينهم دولة وتهديدهم للعالم الإسلامي لأمور ثلاثة هي:

١ ـ أن الذلة والمسكنة تتمثل في الرعب الذي هو صفة ملازمة لهم، وكذلك في الجبن والخور والخوف حتى من أطفال الحجارة. إن الذلة والمسكنة من أهم المظاهر لأي مجتمع يعيش في الظلام ويحيا على المؤامرات والمكائد والدسائس في شتى مناحي الحياة.

٢ ـ من مظاهر الذلة والمسكنة أن يكون ذلك المجتمع مكروهاً ومنبوذاً، وينطبق ذلك على عدونا الصهيوني.

٣ ـ فهم قد غضب الله عليهم وألزمهم الذلة إلا بعهد من الله وعهد من الناس ولكن العهد لا يدوم لكثرة فسادهم. وهنا في دولة إسرائيل تعاون الناس معهم وهادنوهم، وإن كنا على يقين أنه سيأتي اليوم الذي يقضي فيه على اليهود فيعودون إلى الذلة مصدقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾. وقد

(١) مجلة الجندي المسلم، مقال للنقيب فاروق العرابي، العدد «٥٢» ص٥٦ ـ ٦٠.

جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ: «**إن الحجر والشجر لينادي عليهم ويقول: يا مسلم يا عبد الله، هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود**».

وقد يبدو عند بعض الناس إشكال في المرتين هل ذهبتا أم لا؟

ولحل هذا الإشكال نقول: إن العلماء اختلفوا في المرتين المذكورتين في سورة الإسراء في قوله سبحانه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤﴾، فمنهم مَن قال: انتهت المرتان، ومنهم مَن قال: انتهت الأولى، ولم تنتهِ الثانية. وليس عند مَن قال: انتهت المرتان مستند أو أدلة صحيحة اللَّهمَّ إلا الروايات الإسرائيلية التي تحتمل الصدق وتحتمل الكذب وهي من القسم الذي لا نصدقهم فيه ولا نكذبهم، مع أن بعض العلماء توقف في تفسيرها، وقال: الله أعلم، هل انتهت المرة الثانية أو لم تأتِ بعد.

ولا إشكال على أي قول من هذه الأقوال، فمَن قال: انتهت المرة الأولى، فالمرة الثانية هي هذه التي حصلت في هذا العصر وهو ما ذكره أخونا النقيب فاروق في هذا المقال، ومَن قال: إن المرتين قد انتهتا فلا إشكال أيضاً لأن الله سبحانه وتعالى لم يحصر إفسادهم في المرتين بل قال: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، أي: إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى العقوبة، وقد عادوا إلى الإفساد، فسلّط الله سبحانه وتعالى عليهم النبيّ محمد ﷺ والمؤمنين فأجلى بني النضير وبني قينقاع، وضرب عليهم الجزية وهم صاغرون، وقتل النبيّ ﷺ بني قريظة ثم قام الصحابة رضوان الله عليهم بإجلاء بقيتهم من جزيرة العرب كلها امتثالاً لأمر الرسول ﷺ حيث أوصى بإخراج المشركين من هذه الجزيرة وأن لا يبقى فيها دينان. وكل ذلك حصل بسبب فسادهم وإفسادهم وغدرهم ونقضهم للعهود والمواثيق، وكلما عادوا إلى الإفساد سلّط الله عليهم مَن يسومهم سوء العذاب. فقد عادوا إلى الفساد والإفساد في كل من إسبانيا وروسيا وألمانيا، فسلّط الله عليهم ملوك أوروبا فطاردوهم

وساموهم سوء العذاب قروناً طويلة. ثم عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة (إسرائيل). وسيسلطن الله عليهم مَن يسومهم سوء العذاب تصديقاً لوعد الله القاطع ووفاقاً لسنّة الله التي لا تتبدل ولا تتحول ولا تختلف ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب: ٦٢]، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]، وإن غداً لناظره قريب. **مع ملاحظة أن إسرائيل**: تسمية محدثة بل هم بنو إسرائيل، وأما إسرائيل: فهو نبيّ الله يعقوب عليه السلام، وبنو إسرائيل: هم أبناء يعقوب عليه السلام، والقرآن لم يقل: إسرائيل، وإنما قال: بنو إسرائيل، فليتفطن[1].

وفي مقال للدكتور مصطفى محمود عن العلو الإسرائيلي ونهايته. ذكر أن الغرور والتعالي والكبر من صفات بني إسرائيل من قديم، وذلك داء مستعصي في النفسية اليهودية. والتوراة تلعنهم وتصفهم بالكبر والعناد، والنبيّ موسى عليه السلام يلعنهم لوثنيتهم وكفرهم وعبادتهم العجل وأنه كتب عليهم الشتات وقطعهم في الأرض أمماً، ذلك تاريخ مقروء ومشهود. واليوم تأتي إسرائيل في تجمعها الختامي مؤيدة بأمريكا والغرب ومُسلَّحة بالقنابل الذرية. لتعزف لحن الختام في سيمفونية العلو والاستكبار على مشهد من الملأ العالمي، وعلى مسرح بعض التاريخ. يقول الله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾ [الإسراء: ٤، ٥].

وليس هؤلاء العباد «بختنصر ولاتيتوس» كما زعم بعض المفسرين، فهؤلاء كانوا جبابرة، وهم لم يجوسوا خلال الديار، بل سحقوا الديار ومحقوها ودمروها في زمان السبي البابلي. وإنما تتحدث الآية عما فعل عباد الله المسلمون في غزوهم لخيبر، فهؤلاء هم الذين جاسوا خلال الديار: «خيبر، بني النضير، بني قينقاع»، وكان انتصاراً ولم يكن دماراً،

(١) المرجع السابق، تعقيب من المجلة للشيخ عائض فدغوش الحارثي ص٥٨، ٦٠.

وكان وعد الله مفعولاً. ثم يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [غافر: ٥٦]، ومعنى ذلك أنه قد مرت حقبة طويلة من الزمن ليحدث التكاثر ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾، وليس النفير هنا من «النفر» وإنما من الصوت المدوي الذي يستفز الناس «وهو النفير الإعلامي ووسائل الإعلام المتعددة». وقد أعطى الله اليهود بسخاء كل هذه الوسائل وأعطاهم القدرة على النفاذ إلى أصحاب القرار في كل دولة والوصول إلى منابر الغرب وإثارتها.

وما فعلوه في جولتهم الإفسادية الثانية هو عين ما فعلوه في الإفساد الأول: تشويه الإسلام ووصفه بالإرهاب والدموية، وتأليب الدول الغربية كلها وأمريكا وحشدها ضد الإسلام، كما فعلوا بقبائل الجزيرة قبيل غزوة الخندق. وهذه المرة أثاروها فتنة شعواء في كل دولة وفي كل بؤرة مشتعلة، من لبنان إلى أفغانستان إلى الصومال إلى البوسنة إلى كشمير، سعياً بالفتن واشتعال الحروب في كل مكان على اتساع القارات... تمهيداً لمعركة فاصلة تقوم بها إسرائيل لإخضاع المنطقة العربية.

والآيات تتحدث عن أيامنا وما يجري فيها. يقول الله تعالى لليهود في تحذير: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٧]، وهو سبحانه يعلم أنهم لن يُحسنوا، فقد أضمروا الشر وخططوا له من البداية. فيقول سبحانه عن تلك النهاية: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ﴾ [الإسراء: ٧]، أي: ميقات الإفساد الثانية ﴿لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧]، بما معناه أن المواجهة ستتم وسوف يسترد المسلمون بيت المقدس. ويختصر القرآن الكريم في غموض شديد مؤداه أنه ستكون هناك هزيمة لإسرائيل، لا يقول القرآن: متى ولا كيف.

وفي آيات أخرى يقول الله تعالى عن اليهود: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ﴾ [غافر: ٥٦]، أي: أنهم لن يبلغوا أبداً، والنبرة

القاطعة في الآيات تقطع أي أمل في أن إسرائيل سوف تحقق ما تحلم به. أما سبب القطيعة فليس الإفساد في الأرض إنما الإفساد هذه المرة إفساد الإسلام ذاته دين الله القويم. كما حاولوا في المرة الأولى في «غزوة الخندق» حينما جمعوا القبائل كلها في أرض المعركة للقضاء على الإسلام. وما حدث في الأولى أن الله أرسل أضعف جنده، ريحاً عاصفاً بددت شملهم.

وخلاصة البيان الإلٰهي أن السلام الإسرائيلي أكذوبة ولم يكن مرادها في يوم من الأيام. قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

وفي التوراة وفي الإنجيل وفي رؤى القديسين إشارة إلى هذه المعركة التي يسمونها معركة «هرمجدون» تجري على أرض فلسطين وأطرافها المسلمون والنصارى واليهود. ويقول اليهود: إن المسيح سوف ينزل من السماء في أعقاب هذه المعركة، وأنه لن ينزل إلا إذا جرت الدماء أنهاراً. وطائفة الإنجيليين في أمريكا تدفع باليهود لإشعال الحرب لتتعجل نزول مسيحها. وكان «رونالد ريجان» وهو من هذه الطائفة يحلم بأن يكون هو الرجل الذي يشعل فتيل تلك المعركة. ويقول اليهود: إن القادم هو المسيح الحقيقي، وأنه ملك اليهود، وأن ما جاء من قبل لم يكن هو المسيح، ولهذا لم يؤمنوا به ولم يتبعوه. ولكن لا شك أن الله يدفع بالأحداث إلى ذروة، وأن الأرض حبلى بالكوارث، والله وحده يعلم كيف تنتهي ومتى وأين[1].

لقد صدقت النبوءة ووقع الوعد فسلّط الله على بني إسرائيل مَن قهرهم أول مرة. ثم سلّط عليهم مَن شرّدهم في الأرض ودمّر مملكتهم فيها تدميراً. ولا ينص القرآن على جنسية هؤلاء الذين سلّطهم الله على بني

(١) جريدة الأهرام، مقال د. مصطفى محمود ص٢٦ تاريخ ١٧ مايو ١٩٩٧.

إسرائيل، لأن النص عليها لا يزيد في العبرة شيئاً. ولقد عادوا إلى الإفساد فسلّط عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها. ثم عادوا إلى الإفساد فسلّط عليهم عباداً آخرين: حيث كانت تنزل بهم الاضطهادات والقتل الجماعي في أوروبا في كل قرن أو قرنين. حتى كان العصر الحديث فسلّط عليهم «هتلر». ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة «إسرائيل» التي أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات. وليسلطن الله عليهم مَن يسومهم سوء العذاب، تصديقاً لوعد الله القاطع، ووفاقاً لسنّته التي لا تختلف[1].

❋ ❋ ❋ ❋

عودٌ على بَدء

لقد شرع بعض المعنيين بحقيقة العالم على اكتشاف بعض الحقائق للوصول إلى معرفة السر الكامن الذي يمنع بني الإنسان من العيش بسلام وأمان في ظل الشرائع السماوية السمحة العادلة. وقد استمرت أبحاث بعضهم حتى تمكنوا من الوصول إلى قلب الحقيقة. وقد وجدوا تلك الحقيقة في كتب الله المنزلة التي بيّنت كيف ولد الشر منذ الأزل حين عصى الشيطان ربه وأزاغ آدم وحواء في إخراجهم من الجنة.

ثم شرع الشر ينفث سمومه منذ ذلك الحين بين أبناء المجتمع الإنساني وما زال حتى يومنا هذا. وهكذا أدرك الباحثون أن الحروب التي أودت بأرواح الآلاف من أبناء الإنسانية، والفوضى التي سيطرت على العالم محاولةً تقويض أركان المجتمعات الإنسانية، أدركوا أنها ليست سوى نتائج طبيعية لمؤامرات الشر الأزلية في نطاق محاولاتها الدائمة لتضليل عقول الناس وإزاغة أفئدتهم عن كلمة الحق وجرفها إلى عالم الإلحاد الموبوء بالشرور والأحقاد. ولعل الكثيرين منهم يتناسون أن الكتب المقدسة تذكر لنا

(١) الخطر الصهيوني على العالم الإسلامي، ماجد كيلاني ص٣١٠ ـ ٣١١.

أن الشياطين كانت مخلوقات خلقت آية في الذكاء والدهاء وأنها خرجت على الشرائع السماوية التي تمنح الناس جميعاً حق الحياة الكريمة، وتقيم لهم نظاماً مبنياً على العطف والمحبة والترابط بين طبقات المجتمع الإنساني، في الوقت الذي نرى أن عقيدة الشيطان تقوم على فلسفة الحق للقوة والبقاء للأليق. كما تقيم نظاماً اجتماعياً مبنياً على البغض والحقد وتفكيك أواصر المجتمع وإشاعة الكراهية والبغضاء بين الناس.

وليس التلمود «وهو توراة اليهود لا توراة موسى» سوى قصة العهد القديم الذي أصبح فيه الشيطان سيد العالم وجعل الناس الذين عاصروهم يحيدون عن جادة الحق والصواب حتى امتلأ العالم شراً وظلماً وبغياً وطغياناً. وقد جاء المسيح عيسى عليه السلام في الزمان. ففصح عنهم مسمياً إياهم «أبناء الشيطان»، وحدّد بصراحة معلناً أنهم الذين يسمون أنفسهم «يهوداً»، في حين أنهم حادوا عن الشريعة الصحيحة لموسى عليه السلام. وقال عنهم أيضاً: إنهم «كذابون ومرابون ولا يدينون بأي دين سماوي».

شاءت إرادة الله أن تضرب مؤامرة الشر في عام **١٧٨٤**م ضربة كفيلة بأن تفضح أمرها للناس، في وقوع وثائق المؤامرة. هذه المؤامرة التي دبّرها «آدم وايز» الذي اعتنق الإلحاد، وتأصلت فيه طبيعة الشر والخبث. بمساعدة كبار المرابين اليهود في ألمانيا ووجدوا فيه ضالتهم وكلفوه بمراجعة بروتوكولات حكماء صهيون القديمة وإعادة تنظيمها على أسس حديثة. الغاية منها وضع خطة للسيطرة على العالم عن طريق فرض عقيدة الإلحاد والشر على البشر جميعاً، وقد أعد المخطط الدموي والذي تضمن النقاط التالية:

١ ـ تدمير جميع الحكومات الشرعية وتقويض الأديان السماوية كافة.

٢ ـ تقسيم «الغوييم» إلى معسكرات متنابذة تتصارع فيما بينها بشكل دائم، وتسليحها لينقض كل معسكر على الآخر حتى يفني بعضهم بعضاً.

٣ ـ بث سموم الشقاق داخل البلد الواحد وتمزيقه إلى فئات متناحرة حتى تتقوض جميع مقومات المجتمع الدينية والأخلاقية والمادية.

٤ ـ الوصول بصورة تدريجية إلى النتيجة المرجوة، وتحطيم الحكومات الشرعية والأنظمة الاجتماعية، وتهديم الدين والأخلاق والفكر تمهيداً لنشر الفوضى والكفر والإرهاب والإلحاد.

ولم يقتصر دور «آدم وايز» على رسم مخطط المؤامرة العالمية هذه بل أنجز مهمة أساسية أخرى هي تنظيم «المحفل الماسوني» الذي يطلق عليه حاخامات الكنيس اليهودي اسم «النورانيين» نسبة إلى النار لا إلى النور؛ لأنهم هم أبناء الشيطان والشيطان خلق من نار. وقد لجأ إلى الكذب ليستر حقيقة تحركاته وطبيعته المنظمة، فادعى أن هدف المنظمة هو العمل على تكوين حكومة عالمية واحدة مؤلفة من الأشخاص ذوي الطاقات الفكرية الكبرى في ميادين العلم والاقتصاد والسياسة والصناعة وأساتذة الجامعات. وهكذا تمكن من تنفيذ الخطوة التالية وهي تأسيس المحفل الماسوني الرئيسي، وجعله يستقطب إليه الجمعيات الماسونية في العالم ويسيرها حسب مشيئته[١].

الإنسان يولد على الفطرة، والمجتمع هو الذي يشكل الإنسان، فيعطيه لغته وعاداته وسلوكه. واليهود ليسوا بدعاً في ذلك، فهم منذ دوّنوا توراتهم وتلمودهم، وأخذوا يستقون منها مثلها، ويستهدون بها في سلوكهم، انفصلوا عن الأخيار في كل مجتمع حلُّوا فيه، فتكونت لهم بذلك مجتمعات خاصة مغلقة لم يألفها الناس، وبهذا لوحق اليهود واضطهدوا. ومع كل ما يحمله اليهود من حقد وحسد وميل عارم للانتقام إلا أنهم يتصفون ببعض الصفات لازمتهم طيلة تاريخهم، وكانت السبب الرئيسي في نجاحهم. وهذه الصفات تتلخص في الآتي:

١ ـ الدأب:

فاليهود لا يكلُّون ولا يملُّون من السعي وراء تحقيق أهدافهم بكافة الوسائل والإمكانات المتاحة. فقد رأيناهم منذ السبي البابلي حتى السبي

(١) اليهود وراء كل جريمة، وليم كار، تعليق خير الدين طلفاح ص٩ ـ ١٣.

الروماني، يعملون دائبين على إعادة بناء الهيكل وإقامة مملكة يهوذا. ورأيناهم منذ مؤتمر العريش حتى قيام دولة إسرائيل، ورأيناهم منذ ذلك التاريخ حتى اليوم يعملون لذلك الأمر.

٢ ـ الحرص:

فكل خطوة عندهم محسوبة، وكل شيء بتخطيط ومقدار، فاليهودي لا يترك شراعه للرياح العابثة، واليهود ولا ريب هم علماء التخطيط. لقد رأينا كيف خططت «هيروديا» فدفعت بابنتها «سالومي» لأحضان «هيرودوس» لتفوز برأس «يوحنا المعمدان». ورأينا كيف خطط «يوسيفوس» فدفع بـ«بوبايا» زوجة «نيرون» لتغريه بحرق روما. ورأينا اليهود كيف خططوا لمحاربة المسيح عليه السلام وحوارييه ودينه، وكيف خططوا لمحاربة النبيّ ﷺ وصحابته ودينه. ورأيناهم في الثورة الفرنسية، والثورة الإسبانية، وفي الحربين العالميتين الأولى والثانية، يخططون ويتآمرون. ورأيناهم اليوم بين ظهرانينا في فلسطين، يخططون وينفذون.

٣ ـ السرية والكتمان:

على الأسلوب الماسوني، ولا مانع من تغيير الدين أو الاسم إذا لزم. والسم في الدسم، والخنجر يخبأ تحت العباءة، ويضرب في الظلام، والمسدس يجب أن يكون مكتوماً. فاليهودي أكثر الناس حرصاً على إخفاء عواطفه وانفعالاته ونواياه، يد تسلّم، والأخرى على الزناد.

٤ ـ الترابط والتكاتف:

فكل جماعة بعثرها التاريخ نثاراً، تلاشت واندثرت في غيرها من الأمم، إلا اليهود فقد أحالوا التفرق إلى قوة وترابط، واستطاعوا أن يأتوا من بعيد ليحققوا ما تعجز عنه الجيوش. كيف بمقررات مؤتمر العريش بالمحافظة على دينهم، ولغتهم، وعلى استمرار علاقاتهم مع بعضهم، والعمل الدؤوب للعودة إلى القدس. لقد بذل اليهود في سبيل ذلك المال،

وهم أبخل مَن عليها، وجادوا بالدم وهم أحرص الناس على الحياة، فلم يبخلوا فكان النجاح حليفهم.

فعلينا ألاّ نستهين بخصمنا، فنقلل من شأنه وخطره، فالقضية ليست قضية عدد، وتاريخ، وإمكانات. إن لم يكن كيفاً لا كمًّا، والتاريخ دافعاً لا مانعاً، وإن لم توضع جميع الإمكانات وضعاً صحيحاً في معركتنا معه. إن قضيتنا مع عدونا لا تُحَل بخُطَب منبرية، والتفاخر بالأمجاد، وإنما بعصا تلقف عصاه، ودأب يتحدى دأبه، وحذر يبطل حذره، وكتمان يكتم أنفاسه، ووحدة تفل الحديد. لقد استطاع اليهود أن يتغلبوا على قلة عددهم باستخدام المال، وتقنية العصر وأساليبهم في العمل السري المخطط. ونحن لا ننكر أنهم يستخدمون في محاربتنا وسائل غير شريفة، كالدعاية الكاذبة، وبث الفرقة بين صفوفنا.

كما أن اليهود يتصفون بصفات سلبية لاحقتهم عبر عصور تاريخهم، وسببت لهم ما تعرضوا له من مآسي وويلات. فجشعهم لا يُحد، وتعاليهم لا يُحتمل، وحقدهم أسود، وهم يجنحون إلى السيطرة والتفرُّد، فهم أنانيون متعاجبون، لا يعترفون لغيرهم بفضل. فعندهم لوائح جاهزة لفضح كل مَن يحاول أن يخرج على مخططاتهم. وعندهم جميع وسائل التصفية والردع لكل مَن يحاول أن يقاومهم. وهم يعقدون دائماً شركات بين جرائمهم والفعاليات الحقيقية في كل مجتمع يحلُّون فيه، بالمال، والجنس، والجاه[1].

قال الله عزّ من قائل في كتابه العزيز: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠]. إن المشابهة بين الغزوة الصليبية والغزوة الصهيونية كبيرة بينهما ليس فقط لأنهما تشكلان غزواً أجنبياً للمنطقة أو أنهما جاءتا تحت شعارات مختلفة أو نظراً لوجود

(١) اليهود في الوطن العربي، داود سنقراط ص٩٣ ـ ٩٩.

أوجه الشبه العديدة بين الغزوتين، ولكن على اعتبار أن كلتيهما تشكل حلقة من حلقات سلسلة الصراع الثابت بينهما وبين الإسلام. ويلخص هذا التشابه بين الغزوتين الصليبية والصهيونية في التالي:

١ ـ هناك تشابه بين الغزوتين الصليبية والصهيونية باعتبارهما يمثلان وجوداً أجنبياً غريباً في المنطقة وباعتبار أن كلتيهما رأس جسر للحضارات الغربية في وجه الحضارة الآسيوية.

٢ ـ أوجه الشبه المثيرة في الاتجاه العام للحركتين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية. والشبه بين مؤسسة الغزوة الصليبية البابا «أريان الثاني» الذي يعتبر مؤسس الغزوة الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر، والذي استطاع بجهوده أن ينقلها من نطاق الإرهاصات الفكرية إلى نطاق العمل والحركة. والذي قام بتنظيم غزو فلسطين تحت ستار استعادة الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين. والشبه بين «هرتزل» مؤسس الحركة الصهيونية الحديثة، والذي عمل إلى الانتقال بالفكرة الصهيونية من نطاق الفكر إلى نطاق العمل والتنظيم.

٣ ـ هناك تشابه بين كلتا الغزوتين في وجود نداءات وشعارات، نداء البابا «أريان الثاني» في المؤتمر الصليبي في «كلير مونت» عام **١٠٥٩** حيث قال: إن الغزوة ترجع إلى مشيئة الله، فردّ الحاضرون: الله يريد ذلك. ويكن تشبيه هذا النداء بالنداء الذي اشتقت منه جمعية «ببلو الصهيونية» يا آل يعقوب تعالوا هيا نذهب. كذلك فإن كلتا الغزوتين اتخذت لها شعاراً خاصاً بها: الغزوة الصليبية «الصليب»، أما الغزوة الصهيونية فقد اتخذت «نجمة داود» شعاراً لها.

٤ ـ إن خريطة الدويلات والإمارات الصليبية التي أقيمت في أواخر القرن الحادي عشر في قلب المشرق العربي في فلسطين، والتي كانت عبارة عن جسم غريب ودولة عازلة ومعزولة، يمكن أن نرى أوجه الشبه بينها وبين خارطة إسرائيل عام **١٩٤٧** من حيث الموقع ومن حيث تقسيم العالم العربي وعزل أوصاله، وبفصل مشرقه عن مغربه.

٥ ـ مما يزيد الشبه بين الغزوتين أن كلتيهما أقامت رأس جسر على الشاطئ وقامت بتحصينه ضد الأراضي المحيطة ثم بدأت كلتا الحركتين تتوسعان على حساب الأراضي المجاورة. وكذا الإمارات الصليبية والحصون التي أقاموها في المناطق التي قاموا بالاستيلاء عليها. ويمكن أن يلاحظ التشابه بينهما وبين المستعمرات الصهيونية التي كانت محصّنة بكافة وسائل الدفاع.

٦ ـ فهناك قاسم مشترك بين الحركتين في الصفة العنصرية، فالعنصرية الصليبية كانت واضحة التفرقة بين المسيحيين الغربيين «الكاثوليك» والمسيحيين الشرقيين «الأرثوذكس». هذه التفرقة نجدها أيضاً بين اليهود أنفسهم في إسرائيل حيث نجد التفرقة بين اليهود من أصل غربي «الإشكنازيم» واليهود من أصل شرقي «الإسفراديم». ومن ناحية أن العنصرية الصليبية كانت واضحة في تعاملها من السكان الأصليين «أصحاب الأرض»، فقد قاموا بممارسات القتل الجماعي وعمليات الإفناء للعرب المسلمين في المناطق التي استولوا عليها. ومن الجانب الصهيوني فإن العنصرية إزاء السكان تبدو واضحة سواء بالشعور إزاءهم بالتفرقة، أو من خلال القمع والمذابح التي قاموا بها ضد العرب في فلسطين.

٧ ـ هناك أوجه شبه بين الحركتين حيث واجهت كلتاهما مشكلة وجود اللاجئين الذين طردوا خارج الحدود. وكذا المبدأ الذي قاتلت من أجله كل من الحركة الصليبية من أجل ما أسموه «خلاص مسيحيي العالم أجمع». والحركة الصهيونية من أجل «إقامة وطن قومي ودولة يهودية عبرية صهيونية».

إننا نستطيع القول: إنه إذا كانت الغزوتان قد وجدتا في المنطقة العربية، فإن هذا الوجود واستمراره من عدمه قد وجد نتيجة عوامل موضوعية قد توافرت، وخاصة التفكك في الجبهة العربية الإسلامية مما دفع «رينيه غورسيه» إلى القول «إن هذه الكتلة الإسلامية الضخمة القادرة على

محو أضعاف هؤلاء المغامرين القادمين إلى آسيا بعشرين مرة. قد سمحت لنفسها بتجزئها أن تتحطم أمام الانفجار الغربي»[١].

إن هناك فارقاً كبيراً بين الموقف العربي والمواقف الإسرائيلية إزاء السابقة الصليبية. ففي حين اكتفى القادة والمفكرون العرب بالقول بأن هناك تشابهاً بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية. وعلى العكس تماماً من الموقف العربي، فإن إسرائيل قد قامت بدراسة عميقة تحليلية للغزوة الصليبية، وكيفية تحاشي إسرائيل الوقوع في الأخطاء التي أدت إلى زوال الغزوة الصليبية. ولما كانت الدولة الصليبية قد اضمحلت نتيجة عوامل موضوعية أهمها تحقيق الوحدة العربية الإسلامية. وكذلك بروز قيادة عربية تمثلت في «صلاح الدين الأيوبي» ثم الملل الذي أصاب العالم المسيحي من الاستمرار في إمداد الدولة الصليبية بالمال والرجال حتى تظل جيباً غريباً أوروبياً دائم التجديد في قلب المجتمع المسلم. فإن إسرائيل تحاول من خلال كل ذلك اتباع إستراتيجية لكي لا تتعرض للمصير الذي صادف الحركة الصليبية. فالاستراتيجية التي اتبعتها تتكون من عدة عناصر تتلخص في الآتي:

١ ـ دراسة عوامل الرفض العربي:

في منتصف مايو عام **١٩٤٨** أعلن عن قيام دولة إسرائيل في فلسطين، واستطاعت الحصول على الشرعية الدولية، وذلك من خلال خلق مسالك للتعامل الدولي. إلا أن هذا الوضع قوبل بالرفض من التواجد في المنطقة من جانب، ومقاطعة تلك الدولة الدخيلة اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً في كافة المجالات. وكانت الأمة العربية تنطلق في ذلك من خلال إستراتيجية الحصار والخنق. وبالدراسة والبحث من قبل العلماء اليهود المتخصصين في مختلف الشؤون العربية والإسلامية. اهتم الباحثون الصهاينة بدراسة عناصر الرفض العربي للدولة الصليبية التي استمرت في المنطقة ما يقرب من مئتي

(١) مستقبل إسرائيل بين الاستئصال والتذويب، كمال محمد الأسطل ص١١ ـ ٣٤.

عام. وقد يعود الرفض العربي الإسلامي للحركة الصليبية إلى أن العلاقة بين الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم غير الإسلامية لا تقوم إلا على أساس الحرب والقتال. وهذا الرأي أخذ به بعض الفقهاء من الجهاد المستمر، وهو فرض على كل مسلم، ومن ذلك فإن العلاقة بين دار الحرب ودار الإسلام، هي علاقة صراع مسلّح. ولما كان الصليبيون يمثلون دار للحرب والشرك فكان من الطبيعي وفقاً لهذا الرأي أن تسود علاقة الحرب بين الطرفين رغم ما قد يبرم من معاهدات للهدنة بين الجانبين. وهناك رأي مخالف يرى أن علاقة المسلمين بغيرهم هي علاقة سلام. ومهمة إسرائيل كانت ولا تزال هي كيفية التغلب على هذا الموقف وكيف تضع حداً فاصلاً بينه وبين مساره.

٢ ـ مقابلة الرفض العربي بالردع العسكري:

الحروب على السواء لا تستهدف القضاء على الخصم بالضرورة، وإنما القضاء على إرادته وإرادة القتال لديه. ومن هذا المنطلق فإن إسرائيل تحاول مقابلة الرفض العربي من خلال الردع العسكري والمعنوي، الذي يعتبر سياسة رسمية للدولة الإسرائيلية، وكذا الأخذ بسياسة الإغارات الانتقامية. علماً بأن هناك مفهومين في الفكر العسكري للردع؛ أولهما: الردع كأسلوب لمنع الخصم من شن الحرب، وهذا ينطبق على التوازن النووي. أما المفهوم الثاني: فهو الوصول في حالة التوازن في الأسلحة التقليدية إلى حد منع الخصم من بدء الهجوم إذ أن المقصود هو منع الهجوم وليس القيام به، والردع في المفهوم الإسرائيلي يتخذ طابع الاستفزاز والعدوان لتوفير الأمن والسلامة لهم بتهديد سلامة الدول العربية. إن إستراتيجية الردع التي تنتهجها إسرائيل وما يترتب عليها من تكاليف مادية وخسائر بشرية كان الهدف منها هو كسر الإرادة العربية الرافضة وتحطيمها. وذلك بهدف إفشال إستراتيجية الرفض العربية وفقاً لإستراتيجية مرسومة لا تعتمد على الأساليب الكلامية كما هو سائد على خطوط الرفض العربية.

٣ ـ التوسع الإستراتيجي:

وقد ظهر ذلك بجلاء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث عمدت الدول الأوروبية إلى انتهاج سياسة إقامة المستعمرات وتضخيم ممتلكاتها بواسطة الغزو أو الاستيلاء والضم. وإسرائيل بما أنها كيان استيطاني فإنها ذات طبيعة توسعية عدوانية كون الأهداف السياسية للصهيونية بعد إنشاء الوطن اليهودي في فلسطين هو «إقامة إسرائيل الكبرى»[١].

إن الذين يعتقدون بأن إسرائيل كارثة حلّت بشعب فلسطين وحده، وأن ما تبيّته إسرائيل من عدوان وتوسع لا يتعدى فلسطين. يجهلون الحركة الصهيونية وأهدافها ومخططاتها التوسعية.

والحقيقة هي أن خطر إسرائيل يهدد كيان الأمة العربية التاريخي والحضاري، وإنها خطر يهدد جميع الدول المجاورة لها بالغزو والعدوان والاحتلال.

إن غاية الفكرة الصهيونية حين كانت في مرحلة ما بعد مؤتمرهم الأول في «بازل» عام ١٨٩٧، عندما اتخذت شكلها التنظيمي وأصبحت تعمل لها بشكل دائب هي: «إعادة أمة اليهود كاملة إلى فلسطين» باعتبارها وطنهم القومي القديم. إن الصهيونية تؤمن بمبدأ «الغاية تبرر الواسطة» فهي لا تتعفف من الاستفادة من أي أسلوب بأي شكل مهما يكن غير أخلاقي في سبيل تحقيق أهدافها المرسومة. وحدود فلسطين كما تريدها الصهيونية هي من «النيل» إلى «الفرات»، وقال هيرتزل: «المساحة من نهر مصر إلى الفرات. لا بد من فترة انتقالية لتثبيت مؤسساتنا. وما أن تصل نسبة السكان اليهود إلى الثلثين. حتى تفرض الإرادة اليهودية نفسها سياسياً». وقد كانت الحركة الصهيونية تتمسك بمطالب أساسية بخصوص «فلسطين اليهودية» التي تضم فلسطين برمتها. ولن ترضى بأي تقسيم لفلسطين، وفلسطين الموحدة تشمل شرق الأردن والجليل وساحل البحر الأبيض المتوسط[٢].

---

(١) المرجع السابق ص٢١٨ ـ ٢٢٨.

(٢) أهداف إسرائيل التوسعية في البلاد العربية، اللواء الركن محمود شيت خطاب ص٧ ـ ١٠.

٤ ـ منع تحقيق الوحدة العربية:

تتلاقى أهداف إسرائيل مع أهداف القوى الدولية في العمل دون قيام دولة عربية واحدة. أو على الأقل قيام اتفاق دفاعي فعال بين الدول العربية المحيطة بإسرائيل؛ لأن قيام وحدة عربية وخاصة بالنسبة لدول الطوق تشكل تهديداً للأمن القومي الإسرائيلي.

٥ ـ الحرب النفسية الموجهة:

عبارة عن خطة لدعاية تنتهجها إسرائيل للتأثير في آراء المسؤولين والمواطنين في الدول العربية. فهي إذاً تعالج الأفكار السياسية والعقائد وتخص الأفراد المعادين على النجاة بأرواحهم. وقد اتخذت إسرائيل طريقة البث باللغة العربية بصورة مستمرة للتخفيف من العداء العربي لإسرائيل. وذلك للوصول إلى الشعوب العربية ليس في يوم واحد وإنما خلال سنوات عديدة، وأن يستمر ذلك إلى اليوم الذي تصل فيه إسرائيل إلى التفاوض المباشر مع العرب، ولقد تمّ هذا فعلاً[١].

فاتفاق «أوسلو» أبعد خطراً من هدر الحقوق الفلسطينية والعربية في فلسطين، وأبعد خطراً من بقاء الاحتلال والسيادة الإسرائيلية على كل فلسطين. إنه جسر لعبور إسرائيل إلى المنطقة، ولا حاجة إلى ذكر ما يحمله ذلك من شر مستطير على الأمة كافة: «عقيدة، ووجوداً، وهوية، وحضارة، وأمناً، ومصالح ومستقبلاً»، وهذا ما أكدته مسارات الأحداث بعد توقيع الاتفاق. أي أن ثمة عاملين متكاملين أخرجا الاتفاق الراهن:

الأول: إصرار إسرائيلي ودولي على صياغة اتفاق حول الحكم الذاتي وفقاً للشروط الإسرائيلية.

والثاني: قبول تدريجي بتلك الشروط، وقد عجن بالوهن والعجز.

ويمكن تلخيص اتفاق «أوسلو» بما يلي: بقاء الاحتلال الإسرائيلي

(١) مستقبل إسرائيل بين الاستئصال والتذويب، كمال الأسطل ص٢٣١ ـ ٢٣٨.

والسيادة الإسرائيلية على فلسطين كلها، أما الانسحاب من القطاع وأريحا وإقامة نوع من الحكم الذاتي الانتقالي فهو انسحاب الجيش من المناطق الآهلة بالسكان حيث الانتفاضة والمقاومة، وتسليم الأمن فيها للشرطة الفلسطينية. وفي هذا إعفاء الاحتلال من الاصطدام بالفلسطينيين مع بقائه مسيطراً على الوضع عموماً. وممسكاً بكل النقاط الإستراتيجية على كل الحدود، وبكل النقاط المشرفة على الطرقات الواصلة بين المدن والقرى. وقد أعطى الجيش الإسرائيلي حق العودة إلى احتلال كل منطقة سكانية تحت الحكم الذاتي إذا فشل الأخير في المحافظة على أمن الاحتلال الإسرائيلي فيها. أما تسليم إدارة الحكم الذاتي شؤون التعليم والصحة والبلديات والسياحة فهو إعفاء للاحتلال من الإنفاق على تلك المجالات التي هي الجانب السلبي بالنسبة لكل احتلال.

وخلاصة القول: إن اتفاق أوسلو أعفى الاحتلال الإسرائيلي من كل ما هو متعب ومكلف بالنسبة لكل احتلال، أي: الصدام بالأهالي، وإنزال الجيش للسيطرة المباشرة على السكان، فضلاً عن التبعات المالية لذلك. أو بكلمة أخرى أصبح هنالك احتلال نظيف مدفوع الأجر، وهذا أمر لا مثيل له في كل ما عرفته الشعوب من حالات الاحتلال، أي: تبقى السيطرة العسكرية والإشراف العام للاحتلال الإسرائيلي على الوضع كله. بينما يتولى المقهورون شؤون المحافظة على الأمن والإنفاق على الخدمات واستجلاب الأموال التي سينال منها الاحتلال نصيب الأسد. والأهم من ذلك كله أنه تم الاتفاق على قضية القدس ومصيرها وعلى حق العودة لملايين اللاجئين الذين نزحوا من فلسطين إثر النكبة عام **١٩٦٧** بالإضافة إلى موضوعَيْ السيادة والمستوطنات التي أجّل البحث فيها جميعاً لمرحلة قادمة. أي: ترك مصيرها لما يمكن أن يتفق عليه الطرفان دون أن تكون هناك مرجعية ملزمة لزوال الاحتلال. إن الذين أيّدوا الاتفاق سواء كانوا من الفلسطينيين أم من العرب لا يملكون سوى تسويفه بالأمل في أن يكون خطوة على طريق استرداد كل الحقوق، أو مرحلة لتطبيق قرارَيْ مجلس الأمن رقم «**٢٤٢** و**٣٣٨**»، وهو أمل ضعيف.

وما يجب أن يستدعي الانتباه في اتفاق أوسلو، وما أقرّ به من تعاون ثنائي فلسطيني إسرائيلي في مختلف المجالات أقرب ما يكون إلى إقامة الحكم الذاتي الفلسطيني في ظل الدولة الإسرائيلية. وهو أمر يحمل أبعاداً خطيرة على الأمة العربية والإسلامية كلها. فبدلاً من أن تكون المرحلة الأولى خطوة باتجاه إزاحة النفوذ الإسرائيلي عن أجزاء من فلسطين تصبح باتجاه امتداد النفوذ الإسرائيلي، وهو أمر يحمل أبعاداً خطيرة على الأمة العربية والإسلامية، الأمر الذي يشكل خطراً محدقاً بالأمن العربي ومعبراً تحت مظلة فلسطينية للتطبيع العربي الإسرائيلي، ولما هو أكثر من ذلك ومن ثم يتضمن مدخلاً لفقدان الهوية العربية الإسلامية للمنطقة. وليضرب مقومات الأمة الواحدة والمصالح المشتركة بين شعوبها ليحل مكان ذلك نظام شرق أوسطي يلعب فيه الكيان الإسرائيلي الدور الرئيسي في تحديد هويته[١].

٦ ـ تأمين انتظام الدعم المالي الخارجي:

إن أخطر المشاكل التي تواجهها إسرائيل هي الفقر في الموارد والثروات، ومن ثم فإن هناك تضارباً أساسياً بين حجم الموارد المحلية وحماية الأهداف المحلية والقومية. ولا سبيل للخروج من حلقة التضارب المفرغة بدون الاستناد إلى المعونات الأجنبية التي تتيح لها إيجاد التعادل بين الموارد المتاحة والاستعمال المبتغى. وتحاول دولة إسرائيل تكيف سياستها الاقتصادية عن طريق الحصول على معونات اقتصادية وعسكرية. إن العون الخارجي أشبه بقطاع ثابت من قطاعات الاقتصاد الإسرائيلي.

٧ ـ المحافظة على تدفق الهجرة إلى إسرائيل:

إسرائيل هي استعمار سكني أو توطني، ومن ثم إحدى الخصائص اللصيقة بالاستعمار السكني هي أنه مجتمع مهاجر. وبنو إسرائيل يدركون

(١) فلسطين والوعد الحق، منير شفيق، مركز التخطيط الفلسطيني ص١٠٥ ـ ١٠٧.

أهمية انتظام الهجرة إليها انطلاقاً من إدراكها بأن من عوامل زوال الحركة الصليبية هو نقص الهجرة، وقلة القوة البشرية. وعليه، فإن أهداف الأحزاب الإسرائيلية تتمركز حول تسهيل الهجرة التي تؤمن حق كل يهودي في دخول فلسطين كحق مطلق، وأن اعتراض سبيل الهجرة يعتبر جريمة.

٨ ـ الحصول على الشرعية السياسية:

تدرك إسرائيل أن استمرار بقائها في المناطق العربية مرهون بالتقبل العربي لوجودها. ولذلك فهي قد بذلت الجهود المكثفة لغزو الرفض العربي، والحصول على الشرعية السياسية. ولقد تعددت هذه الجهود ابتداءً من قبول الطرف العربي للقرار رقم «٢٤٢» وانتهاءً بتوقيع اتفاق الصلح مع مصر والفلسطينيين والأردن. ولقد استطاعت الحصول على الشرعية السياسية الرسمية، وإن لم يتأكد بعد حصولها على الشرعية العربية الشعبية.

٩ ـ تصفية الوجود الفلسطيني واحتوائه:

تدرك دولة إسرائيل أن العداء الأساسي إنما يتمثل بين الفلسطينيين والإسرائيليين، ولذلك فهي تحاول العمل على تصفية الظاهرية الفلسطينية. فالفلسطينيون ليسوا فقط رأس الحربة العربية المنتصبة أمام الوجود الإسرائيلي بل هم السكان الأحياء الذين تحتل إسرائيل أرضهم وبيوتهم منذ وقت لم يمضِ عليه زمن طويل. والثابت أن القضية الفلسطينية هي قضية دائمة الاشتعال، وتشكل أيضاً مفتاحاً لليقظة العربية. وهناك اتفاق بين المسؤولين الإسرائيليين حول التوصل إلى حل لقضية الشعب الفلسطيني يوفر وجوداً مستقلاً للفلسطينيين دون أن يبلغ مستوى السيادة. وأن يكفل لهم أقصى ما يطمحون إليه بأن يكون لهم وجود مستقل يكفل حفظ الشخصية الفلسطينية، وقد حقق لهم ذلك اتفاق «أوسلو».

١٠ ـ شد أطراف الوطن العربي:

تعمل إسرائيل على شد أطراف الوطن العربي، وذلك من خلال التعاون مع الكتل البشرية المحيطة بالوطن العربي. ووجهت إسرائيل اهتمامها

لهذه الدول حتى تكسر بواسطتها نطاق العزلة الذي يحيط بها، مما يجعل هذه الدول توازن العنصر العربي المحيط بإسرائيل، وخاصة موازنة دول المواجهة العربية. وتسعى إسرائيل من خلال إقامة علاقات وطيدة مع الدول المحيطة بأطراف الوطن العربي إلى تحقيق عدة أهداف منها: «الالتفاف حول الجسد العربي للضرب في الأطراف والتمزيق، وفتح جبهات على الحدود تعتبر بمثابة مشاكل دائمة من خلال إثارة مشاكل كل الأقليات في شمال العراق وجنوب السودان، التساند بين تركيا وإسرائيل لتحقيق أهداف مزدوجة، إكمال المراكز الإسرائيلية في الجزر العربية في البحر الأحمر وباب المندب في شكل يشمل الجناح العربي في دائرة الخطر والامتداد للضرب في جنوب السودان باستخدام الحبشة، التفتيت المنتظم للوطن العربي من الأطراف ومن القلب حتى يتم التآكل الكلي بمرور الزمن». وقد تحقق الكثير مما خططت له دولة إسرائيل.

١١ ـ كثرة الحديث عن فوائد السلام:

لا تكف الدولة الإسرائيلية عن الحديث عن فوائد السلام بالنسبة للدول العربية، وتزين المكاسب التي ستتحقق على مر الزمن لهم من وراء ذلك السلام. فجوهر السلام الإسرائيلي يعني تحويل المنطقة العربية إلى منطقة تجارية حرة. وهم يعبرون عن هذه الأفكار والمشاريع عن طريق تسميات مثل: «الاتحاد الاقتصادي للشرق الأوسط»، ومن هنا نلاحظ كثرة الحديث الإسرائيلي عن السلام يقترن بالحديث عن الحياة السلمية المقترنة بالعلاقات الطبيعية، ومن ثم تطبيق العلاقات العربية الصهيونية وقد حقق الكثير مما خططت له دولة إسرائيل بعد اتفاق «أوسلو».

١٢ ـ الاحتفاظ بالتفوق الإسرائيلي:

ضمن محاولات دولة إسرائيل للحيلولة دون تكرار السابقة الصليبية معها، فإنها تستند إلى تحقيق التفوق السلاحي والتفوق التقني في المنطقة لصالحها. وحتى بعد توقيع معاهدات السلام، فإن إسرائيل تتبع نفس

الإستراتيجية التفوقية على جميع ما جاورها من دول عربية[١].

ورغم النجاح الإسرائيلي الذي نشاهده اليوم إلا أنه شكلي، وإن مرده هو ضعف الخصوم «الطرف العربي»، فإن هذا النجاح الإسرائيلي سوف يذهب في أدراج التاريخ، وأن الوقت ليس في صالح إسرائيل، ويعمل ضد الطرف الصهيوني. حيث أن زرعها في قلب المنطقة العربية كان وما زال أكبر عامل لإثارة العراقيل وخلخلة التوازن العام لوجود المنطقة ككل. ومن خلال التطور المستقبلي للدوائر الآتية:

أولاً: الدائرة الدولية:

فإن مستقبل التعامل الدولي في منطقة الشرق الأوسط يرتبط بتطورات مستقبلية. فانهيار الاتحاد السوفييتي وبعثرة أحجار قومياته المتعددة، وانفصال الجمهوريات الإسلامية في جنوبه قد يحمل احتملات مستقبلية يمكن أن تحدث كما حدث للاتحاد السوفييتي، وذلك بتفتيت الولايات المتحدة الأمريكية إلى دولتين: دولة للعناصر السوداء الزنجية في الجنوب، ودولة أخرى للعناصر البيضاء في الشمال. واحتمال ظهور قوى دولية جديدة، وأن هناك تعاطفاً دولياً بعدالة القضية العربية سواء بلغة الترابط العقيدي أو المصلحي، وهذا سوف يتدعم خلال التطور المستقبلي للدوائر الدولية. كما أن تدهور الصهيونية كقوة عالمية وكظاهرة قومية في كثير من الدول الكبرى، وهذا ما أكدته تقارير معهد الدراسات الإستراتيجية في لندن. ورغم أن إسرائيل قد فهمت طبيعة الأسرة الدولية، واستطاعت بنجاح أن تتكيف معها باستمرار وتستمد منها أحد عناصر قوتها، ثم قدرتها على تطويع المتغيرات الدولية لصالحها، إلا أن التطور المستقبلي يؤكد ـ رغم كل مظاهر القوة الإسرائيلية ـ أن كلاً من الإطار الدولي والزمن ضد الوجود الإسرائيلي.

ثانياً: الدائرة القومية:

وتعني التطور المستقبلي للإطار القومي داخل المجتمع الإسرائيلي،

(١) مستقبل إسرائيل بين الاستئصال والتذويب، كمال الأسطل ص٢٥٥.

والتي تعمل ضد هذا الكيان وتتمثل في التفسخ الاجتماعي والسياسي في المجتمع الإسرائيلي، وأن كثيراً من العناصر الصهيونية داخل وخارج إسرائيل يعارضون حركة التطور السلامي الحالية، وذلك خوفاً من تفتيت المجتمع من خلال تخفيف حدة عسكرته، واختلال الكم «الديموجرافي» لصالح العنصر العربي، وهو ما سيؤدي إلى التذويب التدريجي للأقلة اليهودية في البحر البشري الفلسطيني في تكامله مع البحر البشري العربي. والمتغير المستقبلي الأخطر على الكيان الإسرائيلي هو زيادة القوة الجاذبة اليهودية بنزوحهم من داخل إسرائيل إلى خارجها.

ومن متغيرات الإطار الإقليمي إخفاء القوى الجاذبة الفرعية تركيا والحبشة التي تقوم بتفتيت المنطقة العربية بالتساند مع إسرائيل التي تمزق المنطقة من القلب. إلا أن التطورات المستقبلية سوف تشهد تحولها إلى قوى مساندة ومدعمة للأمة العربية. فالاتجاه المستقبلي للمنطقة العربية نحو التجانس الإقليمي، فالتضامن العربي يختفي حينما يفشل في مواجهة العدو ثم يفرض وجوده مرة ثانية[١].

هؤلاء أبناء يهوذا إنما هم أفاعي تنفث سمومها وهم كبير شأنهم، عظيم خطرهم، إذا ما أغفل الناس أمرهم، قليل شأنهم صغير خطرهم إذا ما تنبّه الناس لهم. إنهم يستغلون شهوة الناس للمال والجاه والجنس، فيدخلون عليهم بها، ويُنَوِّمُون مَن لا يغريه ذلك بالعقيدة والمبدأ والنظرية، وينوِّمون مَن لا يغريه هذا بالدعاية، فلكل حجالة عندهم لبوس لها. وبما أن طريق الهدم والشر أسهل وأقصر من طريق البناء والخير، لذلك فإنهم يصلون عادة إلى أهدافهم عن أسهل الطرق وأقصرها، عن طريق الهدم والشر، وهذا هو تاريخهم.

وقد يزعم البعض من الإخوة العرب بأنهم يستطيعون ترويضهم والتعايش السلمي معهم. إلا أن هؤلاء نحيلهم إلى أربعين قرناً من التاريخ

(١) المرجع السابق ص٢٦٢ ـ ٢٧٩.

يسألونها: هل عرف اليهود السلم، أو التعايش السلمي يوماً... ليسألوا آشور وبابل وكنعان... ليسألوا اليونان والفرس والرومان... ليسألوا المسيح عيسى عليه السلام ورسول الله محمد ﷺ... ليسألوا كل ملوك وقياصرة أوروبا في التاريخ الوسيط والتاريخ الحديث.. ليسألوا أنفسهم صادقين هل عرف اليهود يوماً السلام، والتعايش السلمي. إن معركتنا مع اليهود، ومعركتنا مع الصهاينة، معركة وجود، فالمنطقة لا تحتمل شعبين متخاصمين، ولا تتسع لحضارتين متناقضتين[١].

قال الله عزّ من قائل في كتابه العزيز:

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال: ٦١، ٦٢].

إن الإسلام شريعة السلام ودين الرحمة، والسلام فكرة أصيلة عميقة ترجع إلى نظام الإسلام وتلتقي عندها تشريعاته وتوجيهاته. ولقد اختار الله لدينه مسمى الإسلام فكان علماً له وجعل السلام ملاك أمره وجوهر حقيقته[٢].

ولقد ذكر السلام ومشتقاته في القرآن الكريم في مائة وثمان وثلاثين آية[٣]. والقرآن كله سلام، لأنه نور وهداية للبشرية ممن آمن به واتبع هداه. ولقد اختلف الباحثون في مفهوم السلام بين دعوى النسخ وعدمه، وبين مؤيد للاستجابة الفورية مستشهداً بالآية الكريمة، وبين معارض يرى أن الدعوة إلى السلم منسوخة.

وإيضاحاً لنوعية السلام الذي أمر الله به يقول صاحب تفسير المنار: «السلم» المسالمة والانقياد والتسليم، فيطلق على الصلح والسلام ودين

(١) اليهود في الوطن العربي، داود سنقراط ص١٢١ ـ ٢٢٧.
(٢) السلام العالمي والإسلام، سيد قطب ص١١.
(٣) المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم، محمد عبدالباقي ص٣٥٥ ـ ٣٥٧.

الإسلام. وقد فسّره بعضهم بالصلح، وبعضهم بالإسلام، وجعل بعضهم «كافة» حالاً من السلم، أي: ادخلوا في جميع شرائع الإسلام. والأساس هو الاستسلام لأمر الله والإخلاص له. ومن أصولها الوفاق والمسالمة بين الناس وترك الحرب. وأن الآية تفيد أخذ الإسلام بجملته وذلك بالنظر في جميع ما جاء به الشارع والعمل به[١].

وذكر صاحب الكشاف أن المراد الاستسلام والانقياد لله تعالى، أي: استسلموا لله وأطيعوه، وقيل: هو الإسلام، والمراد بالخطاب أهل الكتاب لأنهم آمنوا بأنبيائهم، أو المراد: المنافقون، لأنهم آمنوا بألسنتهم دون قلوبهم. ولكن هذا لا يمنع من دخول المسالمة والمصالحة في ذلك، حيث كان الإسلام يدعو إلى ذلك ويرشد إليه.

فمن طاعة الله أن يسالم المسلمون مَن سالمهم ويصالحوا مَن صالحهم عملاً بقوله تعالى في الآية الكريمة[٢]. ثم قال: والصحيح أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم، وليس بحتم أن يقاتلوا أبداً، أو يجابوا إلى الهدنة أبدً.

أما ابن كثير فيقول: السلم كالسلام والصلح، وهو ضد الحرب، والإسلام دين السلم والسلام. فالمعنى أن الكفار إذا مالوا عن جانب الحرب، خلاف ما هو معهود منهم إلى جانب الصلح فمِلْ أيها الرسول إليه لأنك أوْلى بالسلم منهم. وقيل: إن الآية خاصة بأهل الكتاب لأنها نزلت في بني قريظة، ولكن ابن كثير علق بأن هذا القول محل نظر، حيث قال:

إن هذه السورة كلها نزلت في وقعة بدر. ولكن صلحه ﷺ مع المشركين عام الحديبية يكون مخصصاً للعموم. وقيل: هي عامة ولكنها نسخت بآية السيف في براءة، ومع هذا فإن ابن كثير جعل هذا محل نظر حيث قال: إن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك. فأما إذا كان

(١) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ص٢٥٦ ـ ٢٥٨.
(٢) الكشاف للزمخشري ج١ ص١٢٧.

العدو كثير فإن مهادنتهم تجوز كما دلت عليه هذه الآية. وكما فعل عليه السلام يوم الحديبية، فلا نسخ ولا تخصيص على هذا[١].

أما القرطبي فإنه يميل إلى أن آية ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ﴾ غير منسوخة. وقد صالح أصحاب رسول الله ﷺ في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومَن بعده من الأئمة كثيراً من بلاد العجم على ما أخذوه منهم وتركوهم وهم قادرون على استئصالهم. ثم ذكر كلام ابن العربي الذي ذكر فيه أن المسلمين إذا كانت لهم مصلحة في الصلح أجابوا له، وإن كانوا في عزة ومنعة وعَدَدٍ وعُدَدٍ فلا صلح[٢].

والإسلام من أجل تحقيق السلام دعا إلى الاستجابة حتى ولو جاءت الدعوة والمسلمون في موقع القوة. فإذا طلب أعداؤك السلام فإن الاستجابة لازمة وواجبة بأمر الله الذي لا يمكن لمؤمن أن يعصيه أو يخالفه[٣]. إن هذا النص لا يتمشى مع قول المفسرين من أن الآية محكمة وليست منسوخة، أخذاً بقول الإمام الشاطبي من أن الجمع بين الأدلة أوْلى من القول بالنسخ[٤]. كما أن هذا النص لم يشمل إلا شرطاً واحداً هو الجنوح إلى السلم من قبلهم، والشرطان المفقودان هما: اشتراط عدم الهوان للمسلمين، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ [محمد: ٣٥]. والشرط الثاني: مراعاة مصلحة المسلمين من قبل الإمام، وهناك شروط للمصلحة ذكرها الأصوليون في كتبهم ومنها: أن تكون مصلحة حقيقية غير وهمية، وأن تكون مصلحة عامة غير خاصة، وألاّ تصادم نصاً من كتاب أو سُنَّة[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج٢ ص٣٢٢. انظر تفسير المنار رشيد رضا ج١٠ ص٦٩ ـ ٧٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ج٨ ص٣٩ ـ ٤٠.
(٣) العبقرية العسكرية لغزوات الرسول، محمد فرج ص١١٤.
(٤) الموافقات للشاطبي ج٤ ص٢٩٤.
(٥) أدلة التشريع المختلف في الاحتجاج بها، د. عبدالعزيز الربيعة ص٢٢٧.

فحاصل ما ذكره هؤلاء المفسرون الأعلام أن هذه الآية غير منسوخة بل هي محكمة، وعليه فقد أُمروا بالاستجابة إلى السلم فيها إذا دعوا إليه، ولكنهم جعلوا ذلك مقيداً بالمصلحة العامة للمسلمين. فإذا كانت المصلحة متمحضة في الجنوح للسلم والمهادنة والصلح ودعوا إلى ذلك تعين عليهم، فإذا علموا أن عدوهم أقوى منهم ولا طاقة لهم به ولا مصلحة لهم في مواجهته ودعوا إلى ذلك، فالواجب عليهم الاستجابة له أسوة برسول الله ﷺ وأصحابه من بعده كما تقدم توضيحه[1].

ومع كل ما نرى ونلمس من قوة عدونا الصهيوني الحاقد ودهائه، فإن المستقبل لنا طال الزمان به أم قصر. ونحن لا ندّعي ذلك أيضاً، ولا نفتئت به افتئاتاً لنبعث الأمل ونبث الحمية في أمتنا من طول ما عانت من ظلم وإرهاب ولكن من منطق التاريخ وسير الأحداث يظهر لنا:

أولاً: أن هذه الأرض الطاهرة كانت وما تزال وستبقى ممراً لا مستقراً، فكل مَن جاء غازياً أو طامعاً، كان أحد ثلاث: إما مقبور في ثراها، أو ملفوظ مطارد من حماها، أو أنه قد تداخل في لحمتها وسداها.

ثانياً: ما تجمّع اليهود في العالم إلا ليضربوا، هذا ما يفصح به تاريخهم القديم الحديث. لقد بدأ سبيهم البابلي الأول من فلسطين، وبدأ سبيهم الروماني الثاني من فلسطين، وسوف يبدأ سبيهم الثالث لا محالة من فلسطين.

ثالثاً: أن هذه الأمة باقية ما بقي القرآن فيها دليلاً يهدي ركبها في ديجور لياليها. إن لقصة بني إسرائيل التي فصّلها القرآن أوسع تفصيل حكمة متشعبة الجوانب. ومن جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أول من واجه الدعوة الإسلامية بالعداء والكيد والحرب في المدينة المنورة، وفي الجزيرة العربية كلها. كما تولوا بث الشبهات والشكوك والتحريفات حول

(١) رسالة ماجستير للشيخ اللواء فيصل بن جعفر بالي، المطلب الثاني: علاقة الإسلام بالسلام ص١٤ ـ ٢٢.

العقيدة وحول القيادة، فلم يكن بد من كشفهم للجماعة المسلمة لتعرف مَن أعداؤها، وما طبيعتهم، وما تاريخهم؛ لقد علم الله سبحانه أنهم سيكونون أعداء هذه الأمة في تاريخها كله، كما كانوا أعداء هدي الله في ماضيهم كله، فعرض لهذه الأمة أمرهم كله مكشوفاً.

ومن جوانب هذه الحكمة أن بني إسرائيل هم أصحاب آخر دين قبل دين الله الأخير، وقد امتد تاريخهم قبل الإسلام فترة من التاريخ طويلة. ووقعت الانحرافات في عقيدتهم، ووقع منهم النقض المتكرر لميثاق الله معهم، ووقع في حياتهم آثار هذا النقض وهذا الانحراف. فاقتضى هذا أن تلم الأمة المسلمة وهي وارثة الرسالات كلها وحاضنة العقيدة الربانية بجملتها بتاريخ القوم وتقلبات هذا التاريخ. ولتضم هذه التجربة في حقل العقيدة والحياة إلى حصيلة تجاربها، وتنتفع على مدار القرون.

والمعركة بين الإسلام واليهود لا تزال وستظل كذلك لأن اليهود لا يرضون إلا بتدمير هذا الدين. كانوا بعد أن غلبهم الإسلام يحاربون هذا الدين بالمؤامرات والدسائس. أما اليوم فقد ازدادت المعركة ضراوة أو تركيزاً بعد أن جاؤوا من كل فج وأعلنوا أنهم أقاموا دولة إسرائيل لكن على المسلمين وهم يتأهبون للمعركة أن يفهموا قرآنهم.

لقد كانت رحلة الرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير، تربط بين عقائد التوجيه الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهم السلام إلى محمد خاتم النبيين ﷺ، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً. وكأنما أريد بهذه الرحلة إعلان وراثة الرسول الأخيرة ﷺ لمقدسات الرسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات. فهي تشمل آماداً وآفاقاً أوسع من الزمان والمكان. وسوف ينازع بنو إسرائيل المسلمين في وراثة المسجد الأقصى، وسوف تدور المعركة، وتتكرر قصة الإفساد ويتكرر الإذلال والطرد. وكلما عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد في الأرض فالجزاء حاضر والسنَّة ماضية، «وإن عدتم عدنا».

ولا يهولن المسلم ما يراه من قوة وتهديد فإنهم: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا

﴿إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤]، وقد شهدت الاشتباكات الأخيرة في الأرض المقدسة بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصداق هذا الخبر. فما كانوا يقاتلونكم إلا في المستعمرات المحصنة في أرض فلسطين، فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولُّوا الأدبار كالجرذان حتى لكأن هذه الآية نزلت فيهم ابتداءً وسبحان العليم الخبير. والمظاهر قد تخدع فترى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم ونرى عصبتهم بعضهم لبعض. ولكن الخبر الصادق من السماء يأتينا بأنهم ليسوا كذلك في حقيقتهم، وإنما هو مظهر خارجي خدّاع. وما صبر المؤمنون وثبتوا إلا وشهدوا التماسك بين أهل الباطل يتفسخ وينهار[1].

وهذا التقرير الإلٰهي جدير بأن يجعلنا نتفهم حقيقة الخطر الصهيوني، وحظنا من الانتصار عليه. وما هي العدة التي تضمن لنا النصر في المعركة وتضمن بالدرجة الأولى تأييد الله ومعونته لنا، ولن يكون ذلك إلا برجوعنا إلى الله عزَّ وجلَّ وتمسكنا بما جاء في كتابه العزيز وسنّة نبيه ﷺ الذي قال: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق لا يضرهم مَن خالفهم حتى يأتي أمر الله**».

إن تجمع اليهود الحاضر يعجز عن تحقيقه جهد بشري مهما بلغ هذا الجهد. إنهم ينتشرون في كل مكان وينحدرون من كل أمة، ويتكلمون لغات متعددة، وليس لهم من سمو النفس وتسامحها ما ينمي بينهم الألفة والمحبة. وتداعوا من أرجاء العالم ليتجمعوا في فقر بعد غنى، وفي قلق بعد اطمئنان فهل يتغلب على هذه الصعوبات إنسان، لولا أن مشيئة الله أرادت لهم التجمع لتحقق ما جاء في كتاب الله العزيز: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء: ٧، ٨]، ونحن على ثقة بأن الله سبحانه وتعالى سيأتي بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله

(١) معركتنا مع اليهود، سيد قطب ص٣٤ ـ ٣٨.

لا يخشون لومة لائم يسلطهم الله على اليهود ليذلوهم كما بشّر رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيَقْتُلُهُم المسلمون**» الحديث. وإننا نرجو الله عزَّ وجلَّ أن يجعلنا منهم إنه سميع مجيب. وصلّى الله وسلّم على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه ومَن دعا بدعوته إلى يوم الدين. وعنا معهم بمنِّك وكرمك وإحسانك يا أرحم الراحمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

● **المؤلف:**

ـ اللواء ركن (متقاعد) السيد يوسف بن عبدالله جمل الليل.

ـ ولد في المدينة المنورة عام **١٣٥٦**هـ.

ـ تخرج من الكلية الحربية المصرية عام **١٣٧٦**هـ.

ـ عمل في القيادة العربية الموحدة بالقاهرة ضمن الوفد العسكري السعودي من عام **١٣٨٤ ـ ١٣٨٩**هـ. والتحق بمعهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة قسم الدراسات الفلسطينية عام **١٣٨٥**هـ.

ـ حصل على عدة دورات عسكرية داخلية وخارجية، وحصل على ماجستير في العلوم العسكرية من كلية القيادة والأركان بالقوات المسلحة السعودية عام **١٣٩١**هـ.

ـ قام بعدة زيارات لبعض جيوش دول شقيقة وصديقة.

ـ تدرج في عدة مناصب قيادة بوزارة الدفاع والطيران والمفتشية العامة.

ـ وصل إلى رتبة «لواء ركن» وبعد بلوغه سن التقاعد بموجب نظام الخدمة العسكرية مدد في خدمته سبع فترات كل منها سنتان، وذلك باستثنائه من النظام بأمر سامي، وكرم بإحالته إلى التقاعد في **١٤٢٠/٧/١**هـ.

كتب للمؤلف

١ ـ **أسلحة الدمار الشامل «الحرب الكيماوية»**، ط١، عام **١٤٠٩**هـ.
٢ ـ **أسلحة الدمار الشامل «الحرب الذرية النووية»**، ط١، عام **١٤١٠**هـ.
٣ ـ **الاستراتيجية ودور عباقرة الفكر العسكري في تطورها**، ط١، عام **١٤١٣**هـ.
٤ ـ **الشجرة الزكية في الأنساب وسير آل بيت النبوة**، ط١، عام **١٤١٤**هـ، ط٢، عام **١٤٢٣**هـ.
٥ ـ **عود على بدء في جبلة اليهود «مجلدين»**، ط١، عام **١٤١٨**هـ، وهذه الطبعة ط٢، عام **١٤٣٠**هـ.
٦ ـ **«الانتماء» الولاء والبراء والإنتماء من منظور إسلامي**، ط١، عام **١٤٢٤**هـ.
٧ ـ **أسلحة الدمار الشامل**: الحرب الذرية النووية، الحرب البيولوجية، الحرب الكيماوية، ط٢، عام **١٤٢٤**هـ.
٨ ـ **مجموعة العِقد الماسي في أنساب آل البيت النبوي**، وتشمل على الآتي:
أ ـ «عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب» للشريف أحمد جمال الدين بن عنبه، اعتناء وتشجير، ط١، عام **١٤٢٤**هـ.
ب ـ أبناء الإمام في مصر والشام «الحسن، والحسين»، الشريف ابن طباطبا يحيى بن محمد الحسني العلوي، اعتناء وتشجير، ط١، عام **١٤٢٥**هـ.
جـ ـ تحفة الأزهار وزلال الأنهار في نسب أبناء الأئمة الأطهار، للشريف ضامن بن شدقم، اختصره على الأنساب وشجره، ط١، عام **١٤٢٦**هـ.
د ـ دراسات في علم الأنساب وتوثيق وضبط أنساب كل من ينتمون إلى الدوحة النبوية، ط١، عام **١٤٢٨**هـ.
٩ ـ **الشجرة الزكية في أنساب بني هاشم**، ط١، عام **١٤٣٠**هـ. إلى جانب إسهاماته في العديد من المجلات العسكرية.

أهم المراجع والمصادر

١ ـ **إحياء علوم الدين**: للإمام أبو حامد الغزالي.

٢ ـ **الأخبار الطوال**: لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٤هـ.

٣ ـ **أزيلوا إسرائيل هذا هو الحل**: للكاتبة الأمريكية إيلين بيتي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

٤ ـ **الإسرائيليون مَن هم**: د. قدري حفني، مكتبة مدبولي، القاهرة.

٥ ـ **الإسلام وبنو إسرائيل**: الجنرال جواد رفعت آتلخان، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٦هـ.

٦ ـ **الاستخبارات الإسرائيلية**: نزار عماد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٦م.

٧ ـ **أصول الصهيونية في الدين اليهودي**: الدكتور إسماعيل الفاروقي.

٨ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**: لابن حجر العسقلاني.

٩ ـ **أطوم المدينة المنورة**: عبيد مدني.

١٠ ـ **إظهار الحق**: رحمة الله الهندي.

١١ ـ **أهداف إسرائيل التوسعية في البلاد العربية**: اللواء الركن محمود شيت خطاب، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٠هـ.

١٢ ـ **البحر الأحمر والصراع العربي الإسرائيلي**: الدكتور عبدالله السلطان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٨م.

١٣ ـ **البداية والنهاية**: للإمام أبي الفداء الحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٨هـ.

١٤ ـ **بروتوكولات حكماء صهيون**: عجاج نهويض.

١٥ ـ **بنو إسرائيل بين القرآن الكريم وخبر العهد القديم**: د .صابر طعيمة، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى سنة **١٤٠٤**هـ.
١٦ ـ **باب المندب في الإستراتيجية الإسرائيلية**: د .السيد عليوة، مركز الدراسات العربية، لندن، جامعة اليرموك، إربد.
١٧ ـ **تاريخ ابن خلدون**: عبدالرحمٰن بن خلدون.
١٨ ـ **تاريخ بني إسرائيل من إسنادهم**: محمد دروزة.
١٩ ـ **تاريخ الطبري**: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري.
٢٠ ـ **تاريخ العرب قبل الإسلام**: جواد علي.
٢١ ـ **التاريخ العربي وبدايته**: أمين مدني، دار المعارف بمصر سنة **١٩٦٥**م.
٢٢ ـ **التاريخ العربي ومصادره**: أمين مدني، دار المعارف بمصر سنة **١٩٧١**م.
٢٣ ـ **تاريخ المسألة الفلسطينية الأزمة والحل**: فيصل أبو خضرا، مطابع الأهرام مصر.
٢٤ ـ **تاريخ اليهود**: أحمد عثمان، مكتبة الشروق، القاهرة.
٢٥ ـ **التاريخ اليهودي العام**: صابر طعيمة، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى سنة **١٩٧٥**م.
٢٦ ـ **التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول** ﷺ: منصور علي ناصر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الرابعة سنة **١٩٨٥**م.
٢٧ ـ **التذكار في أفضل الأذكار القرآن الكريم**: لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى سنة **١٤٠٦**هـ.
٢٨ ـ **تفسير القرآن العظيم**: للحافظ ابن كثير، دار الدعوة، إستانبول.
٢٩ ـ **تفسير المؤمنين**: عبدالودود يوسف، المؤسسة العلمية للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق.
٣٠ ـ **تفسير المنار**: محمد رشيد رضا.
٣١ ـ **تفسير الآيات الكونية**: د .عبدالله شحاته، دار الاعتصام، مصر.
٣٢ ـ **تهذيب التفسير وتجريد التأويل**: عبدالقادر بن شيبة الحمد، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى سنة **١٤١٤**هـ.
٣٣ ـ **التوراة**: د. محمد شلبي شتيوي.
٣٤ ـ **التيسير لتفسير ابن كثير**: د .عبدالله بن محمد بن إسحاق آل الشيخ، الطبعة الأولى سنة **١٤١١**هـ.
٣٥ ـ **الثقافة العربية**: عباس محمود العقاد.

٣٦ ـ **المجتمع الإسرائيلي منذ تشريده حتى اليوم**: د .فؤاد حسين علي، معهد البحوث والدراسات العربية، مطبعة الرسالة، القاهرة سنة **١١٩٧**م.
٣٧ ـ **جامع الأصول في أحاديث الرسول**: للإمام أبي السعادات ابن الأثير الجزري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية سنة **١٤٠٣**هـ.
٣٨ ـ **الجامع الصحيح «سنن الترمذي»**: لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، دار الدعوة ـ دار سحنون، تونس، الطبعة الثانية سنة **١٤١٣**هـ.
٣٩ ـ **الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير**: جلال الدين عبدالرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الرابعة **١٩٩٤**م.
٤٠ ـ **جوامع السيرة النبوية**: ابن حزم الأندلسي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية سنة **١٤٠٦**هـ.
٤١ ـ **الجامع لأحكام القرآن**: للقرطبي.
٤٢ ـ **جذور الفكر اليهودي**: داود سنقراط.
٤٣ ـ **حجة الله البالغة**: للإمام أحمد الدهلوي، دار الكتب الحديثة بالقاهرة.
٤٤ ـ **حقيقة اليهود**: سعد خلف العفنان، مطابع المحيسن الحديثة للأوفست بحائل عام **١٩٨٩**م.
٤٥ ـ **حكم ومواعظ عيسى ابن مريم** عليه السلام: طارق الطنطاوي.
٤٦ ـ **الخصائص الكبرى**: لأبي الفضل جلال الدين عبدالرحمٰن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة **١٣٢٠**هـ.
٤٧ ـ **خطر الصهيونية العالمية**: عبدالله التل.
٤٨ ـ **الخطر الصهيوني على العالم الإسلامي**: ماجد كيلاني، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى سنة **١٣٨٩**هـ.
٤٩ ـ **خواطر**: علي الطنطاوي.
٥٠ ـ **الدرر في اختصار المغازي والسير**: لابن عبدالبر، مؤسسة علوم القرآن، دمشق سنة **١٤٠٤**هـ.
٥١ ـ **دلائل النبوة**: لابن نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني، مكتبة التراث الإسلامي، حلب، الطبعة الأولى سنة **١٣٩٠**هـ.
٥٢ ـ **الدولة العربية الكبرى**: محمود كامل المحامي، دار المعارف، مصر.
٥٣ ـ **الرسول القائد**: اللواء الركن محمود شيت خطاب، دار القلم، الطبعة الثانية سنة **١٩٦٤**م.
٥٤ ـ **الروم وصلاتهم بالعرب**: أسد رستم.

٥٥ ـ **زاد الميعاد**: لأبي عبدالله بن القيم الجوزية، المطبعة المصرية، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٢.
٥٦ ـ **زوال إسرائيل نبوءة أو صدف رقمية**: بسام نهاد جرار، مكتبة البقاع الحديثة، لبنان.
٥٧ ـ **زوال إسرائيل في القرآن الكريم**: بسام نهاد جرار.
٥٨ ـ **السلام العالمي والإسلام**: سيد قطب.
٥٩ ـ **سمط النجوم العوالي**: لعبدالملك بن حسين العصيمي المكي، المطبعة السلفية، القاهرة سنة ١٣٨٠هـ.
٦٠ ـ **سنن النسائي**: لأبي عبدالرحمٰن أحمد بن شعيب، دار الدعوة ـ دار سحنون، تونس، الطبعة الثانية سنة ١٤١٣هـ.
٦١ ـ **السيرة النبوية**: لعبدالملك بن هشام، إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة سنة ١٣٩١هـ.
٦٢ ـ **الشعب الملعون في القرآن**: د .محمد بن الشريف، دار مكتبة الهلال، بيروت.
٦٣ ـ **شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه**: لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة سنة ١٣٨٦هـ.
٦٤ ـ **شهادة ماسونية**: حسين عمر حمادة، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ.
٦٥ ـ **صبح الأعشى**: لابن العباس أحمد القلقشندي، مطابع كوستا توماس بمصر.
٦٦ ـ **صحيح البخاري**: لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل، دار مطابع الشعب، القاهرة.
٦٧ ـ **صحيح مسلم**: للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج، دار سحنون، تونس، الطبعة الثانية سنة ١٤١٣هـ.
٦٨ ـ **الصراع المائي بين العرب وإسرائيل**: د .رفعت سيد أحمد، دار الهدى للنشر والتوزيع، مصر، الطبعة الأولى سنة ١٤١٣هـ.
٦٩ ـ **صفوة التفاسير**: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ.
٧٠ ـ **الصهيونية والهندوكية**: لأبي الحارث محمد حامد، من منشورات شؤون المسلمين في العالم، باكستان، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٢هـ.
٧١ ـ **طبقات الأمم**: جرجي زيدان، دار التراث، بيروت ١٣٨٩.
٧٢ ـ **الطبقات الكبرى «السيرة الشرعية النبوية»**: محمد بن سعد، دار صادر، بيروت، لبنان.

٧٣ ـ **العبقرية العسكرية لغزوات الرسول ﷺ**: محمد فرج.
٧٤ ـ **العرب واليهود في التاريخ**: أحمد سوسة.
٧٥ ـ **علاقة الإسلام بالسلام**: لواء د. فيصل جعفر بالي، رسالة ماجستير، غير منشورة.
٧٦ ـ **العلاقات السياسية والحضارية بين العرب واليهود**: د .علي حسني الخربوطلي.
٧٧ ـ **العقد الثمين**: أحمد كمال.
٧٨ ـ **العقد الفريد**: لشهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه الأندلسي، المطبعة الأزهرية بمصر، الطبعة الثانية سنة **١٣٤٦**هـ.
٧٩ ـ **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسِّيَر**: محمد بن عبدالله بن يحيى بن سيد الناس، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت **١٤٠٦**هـ.
٨٠ ـ **الغزوات الكبرى ومعارك الفتح**: عبدالكريم غزال، الدار الشرقية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية سنة **١٤٠٩**هـ.
٨١ ـ **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**: للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى سنة **١٤٠٧**هـ.
٨٢ ـ **فتح القدير**: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية سنة **١٣٨٣**هـ.
٨٣ ـ **الفكر الديني الإسرائيلي**: د .حسن ظاظا.
٨٤ ـ **الفلسطينيون في إسرائيل**: إيليا زريق، مطابع الأهرام التجارية، القاهرة.
٨٥ ـ **الفهرست**: لابن النديم.
٨٦ ـ **في ظلال القرآن**: سيد قطب، رابطة العالم الإسلامي، الطبعة الخامسة **١٣٨٦**هـ.
٨٧ ـ **قصص الأنبياء**: الإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى سنة **١٣٨٨**هـ.
٨٨ ـ **قصص الأنبياء**: عبدالقادر شيبة الحمد، مكتبة الرياض الحديثة، الطبعة الأولى سنة **١٤٠٩**هـ.
٨٩ ـ **قصص الأنبياء**: عبدالوهاب النجار، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الثالثة **١٤٠٨**هـ.
٩٠ ـ **قصص القرآن**: محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البيجاوي، السيد شحاته، دار الجيل، بيروت.
٩١ ـ **قضية فلسطين، المرحلة الحرجة**: د .صلاح العقاد، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، المطبعة الفنية الحديثة.

٩٢ ـ **القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية**: داود عبدالغفور سنقراط، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، الطبعة الثانية سنة **١٤٠٨**هـ.
٩٣ ـ **الكشاف عن حقائق التنزيل**: محمود بن عمر الزمخشري.
٩٤ ـ **كنوز الحقائق**: لابن مردويه.
٩٥ ـ **لسان العرب**: محمد بن حبقة بن منظور، دار لسان العرب، بيروت.
٩٦ ـ **ماذا قال الكتاب المقدس عن محمد** ﷺ: أحمد ديدات.
٩٧ ـ **الماسونية في العراء**: محمد علي الزعبي.
٩٨ ـ **المجتمع الإسرائيلي منذ تشريده حتى اليوم**: د .فؤاد حسنين علي، معهد البحوث والدراسات العربية، مطبعة الرسالة سنة **١٩٦٧**م.
٩٩ ـ **محمد رسول الله المثل الكامل**: محمد أحمد جاد المولى بك، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، الطبعة السادسة سنة **١٣٨٨**هـ.
١٠٠ ـ **محمد رسول الله** ﷺ: محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، سنة **١٣٩٥**هـ.
١٠١ ـ **محمد رسول الله** ﷺ: محمد الصادق إبراهيم عرجون، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى سنة **١٤٠٥**هـ.
١٠٢ ـ **المخابرات الإسرائيلية**: ترجمة وإعداد مجدي نصيف، بيروت، الطبعة الثانية سنة **١٩٨٥**م.
١٠٣ ـ **مختصر سيرة الرسول** ﷺ: للإمام محمد بن عبدالوهاب التميمي، مكتبة دار السلام، الرياض.
١٠٤ ـ **مختصر صحيح مسلم**: للحافظ المنذري، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني.
١٠٥ ـ **مروج الذهب**: لأبي الحسن بن علي المسعودي، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، الطبعة الرابعة **١٩٦٨**م.
١٠٦ ـ **مستقبل إسرائيل بين الاستئصال والتذويب**: كمال محمد الأسطل، دار الموقف العربي للصحافة والنشر والتوزيع، القاهرة.
١٠٧ ـ **المسيح في الإسلام**: أحمد ديدات.
١٠٨ ـ **المشروع الروي**: محمد بن أبي بكر الشلي، الطبعة الثانية سنة **١٤٠٢**هـ.
١٠٩ ـ **المشروع الصهيوني لربط البحر المتوسط بالبحر الميت**: حركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح» **١٩٨١**م.
١١٠ ـ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١١١ ـ **معركة الوجود بين القرآن والتلمود**: د .عبدالستار فتح الله سعيد، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، الطبعة السادسة **١٤١٥**هـ.
١١٢ ـ **معركتنا مع اليهود**: سيد قطب، دار الشروق، بيروت، الطبعة الخامسة سنة **١٤٠٢**هـ.
١١٣ ـ **المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل**: محمد حسنين هيكل، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى سنة **١٩٩٦**م.
١١٤ ـ **المفهوم السياسي والاجتماعي لليهود عبر التاريخ**: د .حسين شريف.
١١٥ ـ **مقارنة الأديان**: د. أحمد شلبي.
١١٦ ـ **الملل والنحل**: لأبي الفتح محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، دار الاتحاد العربي للطباعة، القاهرة سنة **١٣٨٧**هـ.
١١٧ ـ **من التلمود**: الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
١١٨ ـ **من روائع القرآن**: د. محمد سعيد رمضان البوطي.
١١٩ ـ **من العهد القديم إلى قيام دولة إسرائيل**: د .حسين شريف، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة **١٩٩٥**م.
١٢٠ ـ **الموساد، جهاز المخابرات الإسرائيلية السري**: دينس إيزنبرغ، إيلي لاندو، أوري دان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى سنة **١٩٨٧**م.
١٢١ ـ **موسوعة بهجت المعرفة**: الشركة العامة للنشر والتوزيع، دار المختار، الطبعة الثانية جنيف سويسرا.
١٢٢ ـ **موسوعة تاريخ العالم**: جون هامرتن.
١٢٣ ـ **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**: الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض، الطبعة الثانية سنة **١٤٠٩**هـ.
١٢٤ ـ **الموطأ**: للإمام مالك بن أنس، دار الدعوة ـ دار سحنون، تونس.
١٢٥ ـ **المياه العربية ثقب الأمن الواسع**: أحمد العربي.
١٢٦ ـ **النبوة والأنبياء**: محمد علي الصابوني، دار النصر، سوريا، الطبعة الثانية سنة **١٣٩٥**هـ.
١٢٧ ـ **نظام الإسلام العقيدة والعبادة**: محمد المبارك.
١٢٨ ـ **نظرات في القرآن**: محمد الغزالي.
١٢٩ ـ **نهاية الأرب في فنون الأدب**: شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطابع كوستا توماس.

١٣٠ ـ **هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب**: أبو بكر جابر الجزائري، دار الشروق، جدة، الطبعة الثانية سنة **١٤٠٩**هـ.
١٣١ ـ **هل بشّر المسيح بمحمد ﷺ**: نبيل فضل، رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الأولى سنة **١٤٠٢**هـ.
١٣٢ ـ **وثيقة القدس**: منظمة المؤتمر الإسلامي، لجنة القدس، مطابع بيت المقدس، عمان، الأردن.
١٣٣ ـ **الوجه الحقيقي للموساد**: د .وجيه الحاج سالم، وأنور خلف، دار الجليل، عمان، الأردن.
١٣٤ ـ **وحي القلم**: مصطفى صادق الرافعي، دار الاتحاد العربي للطباعة، مصر.
١٣٥ ـ **الوفا بأحوال المصطفى ﷺ**: لأبي الفرج عبدالرحمٰن بن الجوزي، دار الكتب الحديثة، مصر، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى سنة **١٣٨٦**هـ.
١٣٦ ـ **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**: نور الدين المصري السمنهودي، **١٣٧٤**هـ.
١٣٧ ـ **اليهود في الوطن العربي**: داود عبدالغفور سنقراط، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الثانية سنة **١٤٠٨**هـ.
١٣٨ ـ **اليهود في المعسكر الغربي**: داود عبدالغفور سنقراط، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الثانية سنة **١٤٠٨**هـ.
١٣٩ ـ **اليهود وراء كل جريمة**: وليم كار، شرح وتعليق خير الدين طلفاح، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية سنة **١٤٠٢**هـ.

❑ الدوريات والمجلات:

١٤٠ ـ **مجلة الجندي المسلم**، مقال للنقيب فاروق الحارثي، وتعقيب من المجلة للشيخ عائض فدغوش الحارثي.
١٤١ ـ **مجلة البحوث الإسلامية**، اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.
١٤٢ ـ **فلسطين والوعد الحق**: رئيس التحرير د .إسحاق أحمد فرحات، شركة الزاد المحدودة، إسبانيا، الطبعة الأولى سنة **١٤١٥**هـ.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

محتويات المجلد الثاني

الموضوع الصفحة

الفصل السابع

حالة العرب قبل مولد سيدنا محمد ﷺ ٧
النصرانية واليهودية في بلاد العرب ١٣
النسب الشريف لرسول الله ﷺ ١٧
محمد رسول الله ﷺ ٢٠
مولده ﷺ ٢٢
رضاعه عليه الصلاة والسلام ٢٥
طفولته عليه الصلاة والسلام ٢٦
شبابه عليه الصلاة والسلام ٣٠
تزوج رسول الله خديجة رضي الله عنها ٣٥
تعبُّده ﷺ قبل البعثة ٣٧
رسالة محمد ﷺ ٣٩
الجهر بالدعوة ٥٠
عام الحزن ٦٤
وفاة أبي طالب ٦٤
وفاة خديجة رضي الله عنها ٦٧
الإراشي الذي باع إبلاً لأبي جهل ٦٨
الإسراء والمعراج ٧٠

الموضوع	الصفحة
عرض الرسول ﷺ نفسه على قبائل العرب	٧٣
هجرة الصحابة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة	٧٦
مؤامرة قريش على قتل رسول الله ﷺ	٧٧
القرآن وما نزل منه بمكة	٧٧
هجرة النبيّ ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة	٧٨
المعاهدة التي عقدها رسول الله بين المسلمين واليهود والمشركين من أهل المدينة	٨٧
الجهاد في سبيل الله	٩٣
غزوة بدر الكبرى	٩٦
مقتل أبي عفك اليهودي	١٠٤
مقتل عصماء بنت مروان	١٠٥
غزوة يهود بني قينقاع	١٠٥
مقتل كعب بن الأشرف	١١٠
غزوة أحد	١١٥
غزوة حمراء الأسد	١١٩
بعث الرجيع	١١٩
سرية بئر معونة	١١٩
غزوة يهود بني النضير	١٢١
غزوة ذات الرقاع	١٢٨
غزوة بدر الثالثة	١٢٨
غزوة دومة الجندل	١٢٩
غزوة المريسيع	١٢٩
غزوة الخندق	١٢٩
غزوة يهود بني قريظة	١٣١
سرية القرطا	١٣٦
غزوة بني لحيان	١٣٦
إغارة عيينة بن حصن	١٣٧

الموضوع	الصفحة
سرية ذي قرد	١٣٧
سرية الغمر	١٣٧
سرية محمد بن مسلمة	١٣٧
سرية زيد بن الحارثة	١٣٧
سرية زيد بن الحارثة بوادي القرى	١٣٨
سرية دومة الجندل	١٣٨
سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد	١٣٨
سرية إلى القرفة	١٣٨
مقتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق اليهودي	١٣٩
مقتل أسير بن رزام اليهودي	١٤٠
سرية كرز بن جابر	١٤١
أمر الحديبية	١٤١
غزوة خيبر	١٤٤
صلح أهل فدك	١٤٩
غزوة وادي القرى	١٤٩
عمرة القضاء	١٤٩
غزوة فتح مكة	١٥٣
غزوة حنين	١٥٧
سرية أبي عامر إلى أوطاس	١٥٨
سرية الطفيل إلى ذي الكفلين	١٥٨
غزوة الطائف	١٥٩
سرية عيينة إلى تميم	١٥٩
سرية الوليد بن عقبة إلى المصطلق	١٥٩
سرية قطبة إلى خثعم	١٦٠
سرية الضاحك إلى بني كلاب	١٦٠
سرية علقمة إلى الحبشة	١٦٠
سرية علي بن أبي طالب إلى الفلس	١٦٠

الموضوع	الصفحة

غزوة تبوك ١٦١
بعث خالد بن الوليد إلى دومة الجندل، وسريته أيضاً إلى بني الحارث ١٦١، ١٦٢
بعث علي بن أبي طالب إلى اليمن ١٦٢
بعث أسامة بن زيد ١٦٢
المنهج النبوي للجهاد في الإسلام ١٦٢
رسل رسول الله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ١٦٥
وفادة الوفود على رسول الله ﷺ ١٦٦
حجة الوداع ١٦٧
زوجات النبيّ ﷺ أمهات المؤمنين ١٦٩
بنوه وبناته ﷺ ١٧٦
وفاة رسول الله ﷺ ١٨١
ادحاض مفتريات على المعصوم سيد المرسلين ١٨٢
القرآن الكريم وبنو إسرائيل ١٨٩
دلائل نبوته ﷺ ١٩٢
ما اختص الله تعالى به رسوله ﷺ من المعجزات ١٩٦
شمائل رسول الله ﷺ ١٩٩
ذكر ما أنزل الله تعالى في القرآن الكريم من فضائله ومنزلته ﷺ ٢٠٦
الثناء على خاتم الأنبياء والرسل سيدنا محمد ﷺ في الآيات القرآنية ٢٠٩

الفصل الثامن

جبلّة اليهود وأطماعهم ٢٢٣
النشأة اليهودية ٢٢٣
عهد القضاة ٢٣١
عهد الملوك ٢٣٣
عهد الانقسام وزوال ملك بني إسرائيل ٢٣٥
انتزاع النبوة والرسالة من بني إسرائيل ٢٥١
إساءات بني إسرائيل ومؤامراتهم ضد الإسلام ٢٥٣

الموضوع	الصفحة
موقف القرآن من اليهود	٢٥٧
مواقف ودسائس اليهود بعد وفاة رسول الله ﷺ	٢٦٥
الفتوحات الإسلامية وتحرر اليهود من العبودية	٢٧٠
معاناة اليهود من الحروب الصليبية	٢٧٨
حركة الانتشار والهجرة اليهودية	٢٨١
لغات اليهود	٢٨٧
أعياد اليهود	٢٨٩
بروتوكولات حكماء صهيون	٣٠٧
الماسونية	٣١٧
حكم الشرع في الانتماء للماسونية	٣٢٤
المحافل الماسونية	٣٢٦
فلسطين	٣٣٦
الحقائق الخاصة بشعب فلسطين	٣٣٧
مكانة اليهود من فلسطين	٣٤٠
التاريخ السياسي لفلسطين	٣٤١
تقسيم فلسطين	٣٥٨
استعداد العرب للمواجهة العسكرية	٣٦٦
الحرب النظامية الأولى بين العرب وإسرائيل	٣٧٤
اتفاقية الهدنة	٣٨١
قضية اللاجئين الفلسطينيين	٣٨٣
دولة إسرائيل	٣٨٦
الاقتصاد الإسرائيلي	٣٩٢
الاقتصاد الفلسطيني	٤٠١
الانتفاضة ودور المسلمين	٤٠٤
أطماع إسرائيل وتوسعاتها	٤١٤
استيلاء اليهود على الماء في الأراضي المحتلة	٤١٨
قناة البحرين الإسرائيلية	٤٢٢

الموضوع	الصفحة
البحر الأحمر والصراع العربي الإسرائيلي	٤٢٦
الاستخبارات الإسرائيلية	٤٣١
الموساد	٤٣٦
زوال دولة بني إسرائيل	٤٤١
بنو إسرائيل في سورة الإسراء	٤٤٩
عَوْد على بدء	٤٥٧
محتويات المجلد الثاني	٤٩١

غزة هاشم بن عبد مناف

الدليل الساطع على جبلة اليهود، وإن تباعدت بينهم وبين آبائهم الأزمان والديار إلا أنهم مِثْلَهم في شناعة أفعالهم ويزيد، قال الله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. فتغاضى المجتمع الدولي الذي له كلمة نافذة عن عربدة اليهود وتماديهم في تدمير غزة وقتل الأطفال والنساء والشيوخ لأكثر من ثلاثة أسابيع دون واعظ لضمير، قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾. والسورة في عمومها واقع النفس البشرية، فهم المسيطرين على المجتمع بالمال والجاه والقوة بسطوة المتجبرين، ولمّا بُين لهم عاقبة ظلمهم لجئوا إلى المراوغة في القول، فقالوا له: إننا لم نفقه كثير من قولك، لأنه ليس لكلامك منفذ إلى عقولنا، فلتكف عن إثارة من هم في عزة ومنعة، وأنت المستضعف، الذي لا يمنعنا من أذاك؟.

لأن مشيئة الله وحِكمته اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الإنسانية وهي: (الكيل بمكيالين).

قال الله عز من قائل في كتابه العزيز: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾... الآية.